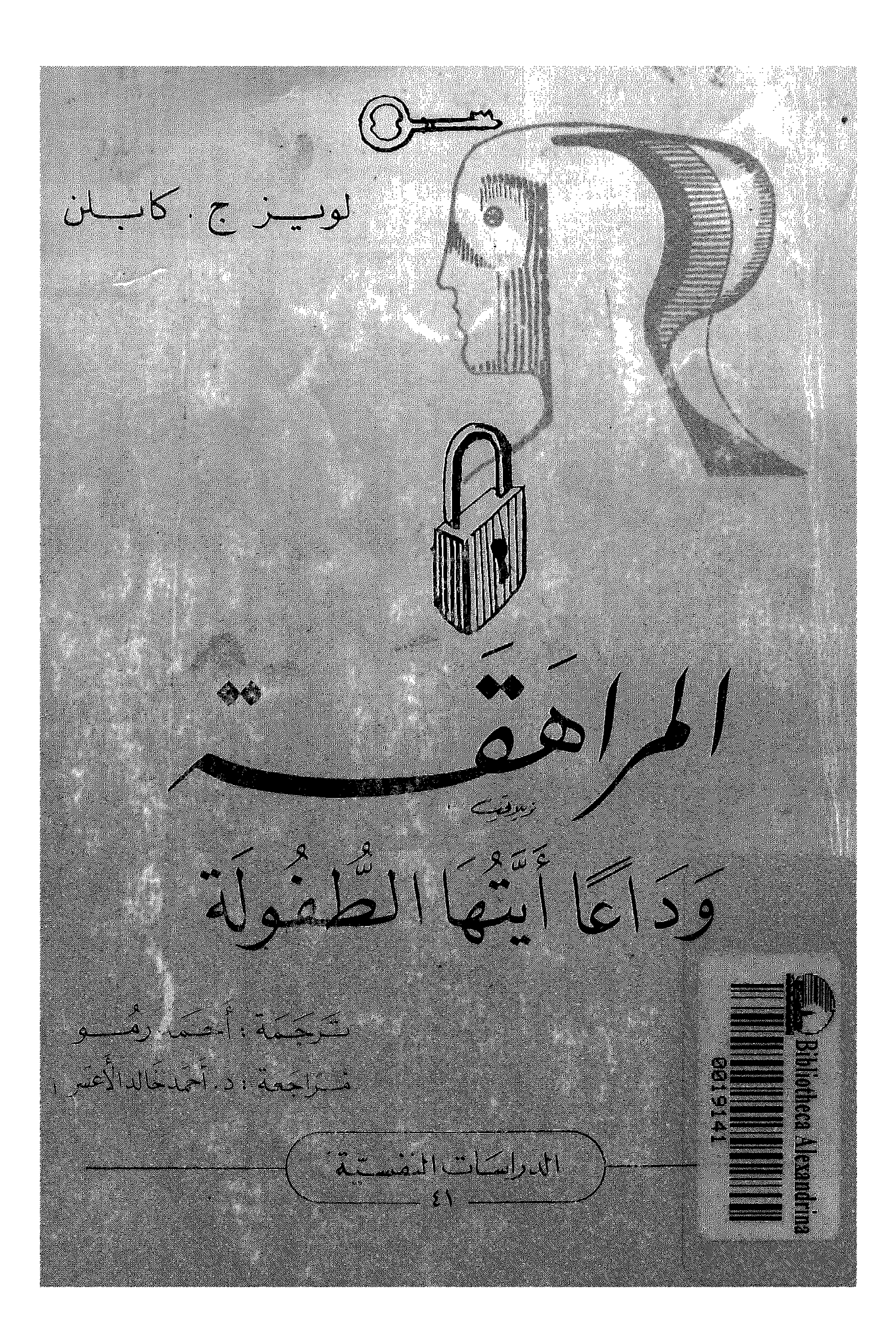
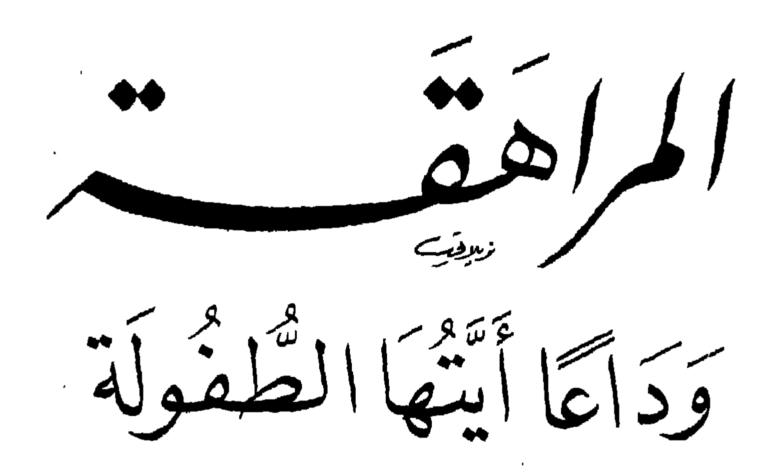


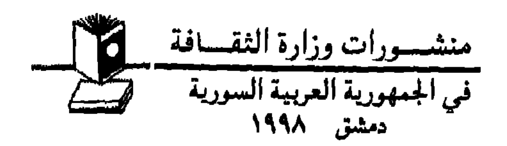
لويز ج. كابلن
المراهقة
وداعاً أيتها الطفولة
ترجمة: أحمد رمو
مراجعة: د. أحمد خالد الأعسر
الدراسات النفسية
٤١
Bibliotheca Alexandrina
0019141

الاشراف الفني زهير الحمو

لويز ج. كابلن



ترجمة: أحمد رمو
مراجعة: د. أحمد خالد الأعسر



العنوان الأصلي للكتاب :

by: Louise J.Kaplan

Adolescence

The Farewell to Childhood

المراهقة : وداعاً أيتها الطفولة = Adolescence / لويز ج. كابلن؛
ترجمة أحمد رمو؛ مراجعة أحمد خالد الأعسر . - دمشق : وزارة الثقافة،
١٩٩٨ . - ٣١٢ ص؛ ٢٤سم . - (الدراسات النفسية؛ ٤١).

١- ٥ر١٥٥ ك ا ب م ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- كابلن ٥- رمو ٦- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ٩٢١/ ٥/ ١٩٩٨

الدراسات النفسية
« ٤١ »

المقدمة

تنسج المراهقة، بوصفها انتقالاً من دائرة إلى أخرى في دوائر الوجود، مسرحية أكثر تعقيداً من المسرحية التي تؤدي إليها الولادة، أو الزواج، أو الموت. فالمرحلة الحاسمة في الحياة الإنسانية هي المرحلة التي تثمر فيها العواطف الجنسية والأخلاقية وتصل إلى حالة النضج. وعندئذٍ ينتقل الفرد من دائرة الحياة في الأسرة إلى دائرة الوجود الثقافي في المجتمع. ويسرد هذا الكتاب كيف يصبح الطفل راعياً للجيل القادم بعد أن كان ضعيفاً وخاضعاً من الناحية الأخلاقية.

وتعتبر المراهقة، وفقاً لبعض المفاهيم، مجرد طور أخرق، أو فترة زمنية تتميز بالتمرد الهدام، أو الانتقال السلبي والمزعج بين الطفولة والرشد. وقد شاع مؤخراً اعتبارها اكتشافاً اجتماعياً كيفياً، قلما يستحق البحث. وفي رأيي أن المطامح الثقافية والأخلاقية للجنس البشري يتجدد تولدها من خلال الكفاح الشخصي للمراهقين في سبيل التوفيق بين النشاط الجنسي التناسلي والسلطة الأخلاقية للنظام الاجتماعي. وكلما انبرى جيل من المراهقين للأخذ بزمام هذا النظام في محاولة لإحداث التوازن فيه، حملت تلك المحاولة معها آمالاً جديدة وإمكانيات جديدة.

والحق أن المراهقين ينشدون الأصالة الأخلاقية بنهم، رغم أنهم قد تعتريهم الدهشة، كآبائهم ومعلميهم، لو سمعوا مايقال من أن تصرفاتهم محكومة بشدة حساسيتهم وسرعة تأثرهم، وانفعالهم وتهورهم، وعنفهم الجنسي وانهماكهم الكبير في شؤونهم الذاتية. إنهم قبل كل شيء، يرغبون في ممارسة سلطة حقيقية على العالم الواقعي الذي يعيشون فيه مع محافظتهم، في الوقت نفسه، على إخلاصهم لقيمهم ومثالياتهم. ويرث الراشدون، في جملة مايرثونه من سنوات مراهقتهم، الدافع نحو الكمال الأخلاقي.

يوضح هذا الكتاب، في مناقشاته الرئيسية، الطريقة التي يتبعها كل فرد في بناء سيرته ومكان مراهقته في هذا البناء. وتشكل المراهقة-في الترتيب الزمني لسيرة الحياة- رباطاً يربط بين مرحلتي الطفولة والرشد. وسيرة الحياة أوسع بكثير من كونها سلسلة تتألف من مشاهد وأحداث وطباع ينتظم فيها الماضي والحاضر والمستقبل كخط تاريخي طولاني. فالمراهقة هي زمن تسود فيه فعالية الهدم والبناء والتجديد، كما يعاد فيها نسج الماضي والحاضر والمستقبل ونظمهم معاً في خيوط الخيال والرغبة، وهونظم لايتبع

بالضرورة قوانين الترتيب الخطي للأحداث. فطور الحياة عند المراهق ليس مجرد حيّز زمني يقع بين ماضي الطفولة ومستقبل الرشد. وكما شرح بروس لنكولن، المتخصص بعلم الإنسان، أهداف التضحية في بعض طقوس المراهقة، فإن تلك الفترة ليست ذلك الخط الواضح بين ما "كان" وما "سيكون"، بل هي وحدة كاملة مفعمة بالأحداث والتوقعات.

وتبرز في هذا الكتاب مسألة أخرى تحت مظاهر مختلفة ويدور حولها الجدل وهي على صلة بموضوعنا، وتفيد بأن المراهقة ساحة نضال عاطفي، يتصارع على أرضها الماضي والحاضر للسيطرة عل عقل الراشد الذي يكون على وشك النشوء. يمثل المراهق في هذه المعركة تهديداً هاماً لجيل الراشدين الحاضر، تهديداً يواجهه هؤلاء بجميع وسائل المناورات الدفاعية، من الحرب المكشوفة والكبت إلى الطرق الأكثر مكراً، كالرفض والتتفيه، وحتى عن طريق تقليد التفوق المميز عند الشباب واستحسانه. يجب أن نتوقع هذه المقاومة في مواجهة التعرف على عمق الإمكانيات الثقافية والأخلاقية في المراهقة، ربما لأن ثقتنا، نحن الكبار، ضعيفة تقريباً بالأبعاد النفسية لهذا الطور من الحياة. إنها لحقيقة غريبة أن نعرف اليوم عن الحياة العقلية والعاطفية عند الأطفال أكثر مما نعرفه عند المراهقين، أطفالنا هؤلاء، الذين هم أكبر سناً، والذين لو أتيحت لهم الفرصة لتحدثوا بفصاحة عن معضلاتهم الجنسية والأخلاقية. ولذلك قلما يدهشنا أنهم لايثقون بنا، فهم يتنكرون بحذر ماكر بما رسمناه لهم من صور كاريكاتورية. ومن سوء الحظ، بالنسبة لنا ولهم، أنهم كثيراً مايحتفظون بالشخصيات التي صممناها لهم، فقط لمجرد قياس حجومها.

عندما أعلن فرويد عن مكتشفاته حول النشاط الجنسي في الطفولة وعقدة أوديب الطفولية على مجتمع علمي رافض ومقاوم، كان يهدف بشكل محدد إلى إثبات أن الحياة الجنسية عند الكائنات البشرية لاتبدأ عند البلوغ أو النضج الجنسي. وحاول أن يوضح العلاقات بين الوقائع النمائية في مرحلة الرضاعة وبين الحياة العقلية في سن الرشد، لكنه لم يقصد أن يقلل من شأن التأثير الذي تمارسه التبدلات الفريدة، الجنسية والأخلاقية، التي تحدث أثناء البلوغ على حياة الراشدين. أدرك فرويد أن طريق الانتقال النمائي من مرحلة الرضاعة إلى الأداء الوظيفي، الجنسي والأخلاقي عند الراشدين، ليس طريقاً مباشراً؛ وأنه يحدث بين هذه المرحلة والرشد كثير من التحولات، كثير من الحركات الرجوعية والتقدمية؛ وأن البلوغ يمثل نقطة تحول حاسمة في العلاقات المعقدة بين الحياة العقلية الطفولية والراشدة. مع ذلك، تشدد ثورية فرويد على تأثيرات الماضي الطفولي التي تمارس

تأثيراً طويل الأمد لحجب التبدلات الهامة التي تحدث أثناء سنوات المراهقة، وهي تبدلات قد يكون لها في الواقع تأثيرا حاسماً ومباشراً عل تطور العقل الإنساني أكبر مما تمارسه وقائع مرحلة الرضاعة.

لاريب في أن هناك محللين نفسانيين، واصلوا تشديدهم على الأهمية الحيوية لسنوات المراهقة. فقد مضى أريك أريكسون و بيتر بلوس مثلاً إلى حد بعيد في وصف المعضلات الخاصة في المراهقة وحلولها. مع ذلك، يبدو أنه مازالت هناك مقاومة هامة، مقاومة متجددة، للتعامل مع المراهقة بوصفها طوراً مميزاً من أطوار الحياة الإنسانية، طوراً يمثل، على الأقل، المعادل لدور مرحلة الرضاعة في تكوين العقل عند الراشد.

وتتصل خبراتي الشخصية بهذه المقاومة بشكل وثيق بموضوعنا هذا. وبعد وقت قصير من نشر كتابي ***التفرد والانفصال***، واجهت بين زملائي تردداً مميزاً نحو اعتبار المراهقة، في حد ذاتها، طوراً من أطوار النمو. وكنت تعودت، فيما يبدو، على التفكير بالمراهقة طوال الليل تقريباً، باعتبارها تلخيصاً للانفصال-التفرد separation-individuation في الطفولة. كانت معرفتي جيدة بالبحث "بعض مشكلات الطفولة" الذي اقتبسه إرنست جون على نطاق واسع عام 1922، وأعلن فيه أن المراهقة تلخيص للسيناريوهات الجنسية الطفولية التي تؤدي إلى عقدة أوديب، ولكنني لم أدرك إلى أي مدى استطاع الملخِّص أن يرسخ بقوة مفهوماً كان مايزال ضمن نطاق التحليل النفسي. وأكدت مراراً في كتاباتي ومناقشاتي، في الاجتماعات المهنية، على أنه بالرغم من تعدد أوجه الشبه الظاهرة بين المراهقة وبين الانفصال-التفرد، فالمراهقة ليست تكراراً لذلك الطور من مرحلة الرضاعة أوأنها ليست تكراراً لأي طور مبكر من أطوار النمو. لم يكن موقفي مريحاً فيما يتعلق بتلك المسائل، لأن كتابي ***التفرد والانفصال***، كان يُستشهَد به كدليل لتلخيص نظرية المراهقة، ولذلك كان ينتظر مني أن أقوم بتعزيز وجهة النظر تلك وتوسيعها. فرحت أتساءل عن السبب الذي جعل المراهقة ربيبة للتحليل النفسي، ولماذا كان كثير من السرائريين، من مختلف الآراء النظرية، يلحون كثيراً على اعتبار المراهقين (وحتى الراشدين أحياناً) مجرد أطفال أكبر سناً، وأكثر نشاطاً جنسياً، ويحتاجون من جديد إلى "انفصالهم" عن آبائهم.

عندما بدأت أبحث في سوء الفهم الذي يكتنف سنوات المراهقة، وقعت لحسن الحظ في شباك العديد من المسائل الأخرى. ومن الطبيعي جداً أن تبدأ المواضيع التاريخية

بفرض نفسها على محاولتي في صياغة روايتي الخاصة عن حياة المراهقة، أي عن التاريخ الحديث نسبياً لبعض آرائنا الشائعة حولها، والتاريخ الشخصي لاثنين يعتبران "مخترعا المراهقة"، وقصة مفهوم الملخّص في التحليل النفساني، والأنماط التي تحكم التاريخ الثوري للنوع الإنساني، والتاريخ البيولوجي من بداية البلوغ إلى نهايته. ومع أن هذا الكتاب يطرق هذه المواضيع بإيجاز فقط، فقد ساعدت استقصاءاتي لها على تعزيز إدراكي لنوع خاص من المنطق التاريخي، الذي ينظم الحياة العقلية في المراهقة. ومرة بعد أخرى، كان البحث الذي أقوم به، يخلف لدي الانطباع بأن المراهقة، بعيداً عن كونها خلاصة سلبية للماضي، هي

فترة من الحياة مكرسة لتنقيح الطفولة الأولى والمتأخرة بشكل شديد وفعال جداً. وأدركت أنه عندما نغفل الطرق العديدة، التي تُنقَل وتُنقَّح فيها السناريوهات الطفولية أثناء رحلة المراهقة، نصبح ملزمين بحمل فكرة مضللة مفادها أن ماضي الطفولة يستمر في حياة الراشد في شكله الأصلي. لم تعد المراهقة تكراراً للماضي أكثر من كونها مجرد محطة في الطريق بين الطفولة والرشد. إنها حيز متخم بالأحداث الهامة والإمكانية.

كلما كنت أمعن غوصاً في هذه الاستقصاءات، كلما كنت أجد نفسي تواقة للعودة إلى الماضي، إلى سنوات الطفولة الأولى البريئة، والأقل تجريداً، واللاتاريخية نسبياً. تشوقت خصوصاً إلى البساطة العاطفية في محاورات الأم-الطفل، التي أوحت لي بوضع كتاب ***التفرد-الانفصال***. فتوصلت بهذه الطريقة الأساسية والشخصية جداً إلى إدراك السبب الذي أغراني بالاعتقاد بأن المراهقة هي تكرار لتلك المحاورات الإنسانية المبكرة.

لحسن الحظ، إن ماتفتقده حياة المراهقة، التي هي أكثر تجريداً في الواقعية والبساطة، يجد تعويضاً وافراً له في الخصب الفكري والتعقيد الأخلاقي. واختلاف الآراء والمواقف وحده حول كون موضوع المراهقة قد نجح في إيقاظ المؤرخين الاجتماعيين، والفلاسفة، والبيولوجيين، والعلماء النفسيين، هو نفسه موضع تساؤل. تتراوح الآراء حول دور المراهقة في الحياة الإنسانية من اعتبارها ابتكاراً اجتماعياً جاهزاً إلى اعتبارها كـ "ولادة ثانية"؛ تصل فيها أسمى المكاسب الأخلاقية إلى مرحلة الإثمار. شارك في وجهة النظر الأخيرة هذه جان جاك روسو، و ج. ستانلي هول، اللذان لقبا من قِبَلِ معظم المؤرخين الاجتماعيين بـ "مكتشفي"، إن لم يكن بـ "مخترعي" المراهقة. لقد استوقفني أن يتوصل هذان الرجلان، المختلفان كثيراً في مواقفهما الخاصة الجنسية والأخلاقية، مستقلين إلى عدد

من الآراء المتماثلة إلى حد كبير حول العلاقة بين البلوغ الجنسي والاستثارة، إلى الدرجة التي أراها جديرة بالدراسة بشيء من التفصيل. علاوة على ذلك، تبين لي أن بعض الجوانب في فلسفة روسو الأخلاقية، تتوافق مع فكرة مركزية فيما تعلمته حول الدور الحاسم لنرجسية المراهق في ترقية الحس الأخلاقي. فروسو يتحدث في الولادة الثانية للمراهقة، عن كيفية تحول "حب الذات" إلى " حب النوع".

وهكذا قررت أن أكرس الجزء الأول من هذا الكتاب للمسائل التاريخية الرئيسية التي تحيط بأهمية طور المراهق في تطور الأخلاقية الإنسانية. يمكن تلخيص حياة روسو وهول بالتشديد على العلاقات بين مراهقتهما الخاصة ورجولتهما الباكرة وبين كتاباتهما فيما بعد عن المراهقة. واستشهدنا بهما، ليس فقط من أجل أفكارهما حول المعنى الحقيقي للمراهقة، بل كشخصين كانا قاصرين، وكانت حياة كل منهما بالذات نموذجاً دراميا لبعض المعضلات والحلول في المراهقة. وسوف تظهر آراؤهما أيضاً حول مسألتي النشاط الجنسي والمبادىء الأخلاقية في الفصول التالية.

ويهتم القسم الثاني من الكتاب بالمعضلات الفريدة للمراهقة وحلولها التجديدية، كما عرفناها من كتابات التحليل النفسي الواسعة حول المراهقة، والطفولة المتأخرة، والطفولة المبكرة. ومع أن مغالطة التلخبصيين recapitulationist ماتزال حية في أذهان بعض السرائريين والمنظرين، مع استثناءات قليلة (مثل أرنست جونز)، فإن أبحاث التحليل النفسي التقليدية والمنشورات الحديثة، وخصوصاً التي تتوجه إلى سنوات المراهقة، تكشف عن وجهة نظر أكثر براعة وتعقيداً حول الوقائع النمائية، التي تقود إلى الأداء الوظيفي، الجنسي والأخلاقي، عند الراشدين. وكما في كتابي ***التفرد والانفصال***، حاولت استبدال التعابير التقنية باللغة العادية. رغم أن بعض العبارات، مثل "لبيدو" و "نرجسية" و "الأنا الأعلى" و "مثال الأنا" و "النكوص"، المتداولة في الاستخدام الشائع، لايمكن الاستغناء عنها في ترجمة أمينة لتعقيدات الحياة العقلية في المراهقة. واستبدلت العبارة المرهقة "علاقات موضوعية" بعبارة "حوارات الحب"، إنها ليست دقيقة تماماً، لكن جرسها العاطفي أقوى. ويجب أن نفهم بأنها لاتتضمن الحب فقط، بل تتضمن أيضاً الحقد، والحسد، والغيرة، والخجل، والحزن.

وضعت في اعتباري أولاً، ترتيب دراسات التحليل النفسي بطريقة تقدم المراهق كمنقح فعال للماضي الطفولي. ووفقاً لذلك، سوف لن تلتزم الرواية بالتسلسل الخطي

للأحداث في المراهقة، بل ستتبع منطقاً إنشائياً تقريباً، يكشف بناء المراهق لسيرة حياته. وبما أن سيناريوهات الطفولة الباكرة والمتأخرة، تمثل دوراً مهماً في حل معضلات المراهقة، فإنها تتداخل مع الرواية السائدة في الكتاب حولها.

يوجهنا منطق مقاربة سيرة الحياة على امتداد المسار الذي تقترحه طريقة التحليل النفسي، والتي تتداخل فيها مختلف المواضيع، فيؤثر الواحد في الآخر: الخيال والواقع؛ الماضي والحاضر والمستقبل؛ الحياة الباطنية والواقعية الخارجية. هنا يتعقد مفهوم المراهقة بوصفها نوعاً من ساحة قتال يتصارع فوقها الماضي والمستقبل من أجل الحقوق الخاصة بكل منهما. وفي توديع الطفولة، يتوجب على كل مراهق أن يتخذ قرارات لاواعية إلى حد كبير بل واعية أيضاً، فيما يتعلق بمدى ماسوف يُسمَح فيه للماضي وأي من مظاهره بالامتداد إلى المستقبل. فقبل أن يشعرنا المستقبل بنفسه، يحدث كثير من الحركات الرجوعية. تمثل المراهقة جيشاناً عاطفياً داخلياً، صراعاً بين الرغبة الإنسانية الدائمة في التعلق بالماضي، وبين رغبة مماثلة في قوتها للولوج إلى المستقبل. وهي لاتهدف إلى طمس الماضي، بل لتخليد ماهو قيّم، وتوديع مفردات الماضي التي تعترض سبيل الإدراك الكامل للإمكانيات الجنسية والأخلاقية عند الراشد. وكلمة الوداع تورث حزناً وتوقاً هامين. في هذه النقطة، يشبه المراهق ثاكلة، لكنها ثاكلة تدرك في البداية مافقدته ولكن بشكل غامض فقط. وما يفقده المراهق، وما يلاقي صعوبة كبيرة في التخلي عنه، هي تلك الروابط العاطفية بالوالدين، وتلك الحوارات التي كانت فيما مضى محور وجوده الطفولي.

ويدور الفصلان الأخيران من هذا الجزء فيما يخص المعضلات والحلول حول التحولات النرجسية في المراهقة. ينتج عن واحد من هذه التحولات تحول النشاط الجنسي من الغلمة الذاتية Autoeroticism إلى الحب التناسلي لشخص آخر. فعلاقات الحب الأولية في المراهقة هي علاقات نرجسية أساساً أو أنها خدمة للذات، وبالتالي يسهم الفن الشبقي في المراهقة، وإن يكن بشكل غير مباشر، في التحول الأخلاقي النهائي من حب الذات إلى حب النوع. وفي تحول آخر، يستعيد المراهق لحظات أقدم في ماضيه الطفولي، عندما كانت القدرة الكلية من الناحية الجسدية، تجربة بدئية لحب الذات. تظهر هذه القدرة الكلية النرجسية الصريحة عند المراهق كأحلام بالمجد والإحساس بالحياة دائماً في عالم لانهاية للإمكانية فيه. يجب تحويل هذه الأحلام إلى حياة الإمكانية الواقعية، وكما يأمل المرء، إلى قدرة بالغة من أجل السمو الأخلاقي، والطموح الثقافي، والمثاليات الأخلاقية؛

أي إلى حب النوع. وتواجهنا هنا المفارقة الخلقية التي أنهكها الدهر في تطابق المصلحة الذاتية مع مصالح جميع الذوات الأخرى. ولكن كما نعلم أن الأصالة الأخلاقية لاتنتج من المصلحة الذاتية بالسهولة نفسها التي يعقب فيها الليل النهار عند بولونيوس*.

واحدة من عقائد فرويد، تقول بأن "ماينسب إلى أدنى جزء من الحياة العقلية عند كل منا، يتبدل من خلال تكوّن المثالية إلى ماهو أسمى في العقل البشري وفقاً لمعايير قيمنا". تخضع هذه الجملة المثيرة للعديد من التأويلات. واحد منها يلتزم به المحللون النفسانيون، هو أن مثال الأنا، أي ذلك الجانب من الضمير الإنساني الذي يصل إلى النضج أثناء المراهقة، ينشأ في النرجسية الأولى عند الطفل. ومع أن المحلل كثيراً مايفسر مقترح فرويد بهذه الطريقة، إلا أنه قلما جرى تفسير العملية التي يحدث فيها هذا التحول الهائل. وحول هذه المسالة قدمت تفسيري للنرجسية الأولية، وهو تفسير عززته دراسات الأطفال المتداولة، التي تستخدم الملاحظة والتجريب، وفي كتابات أخرى حول الحياة العقلية عند الأطفال. وقد وازنت النرجسية الأولية بالقدرة الكلية في الطفولة.

يمكن رسم الطريق من القدرة الكلية الطفولية إلى أحلام المراهق بالمجد بصورة جيدة تقريباً، إذا كانت معرفة المرء حسنة بعمليات النمو وحياة الخيال عند اليافعين. مع ذلك، ربما يكون تحول أحلام المجد التي يحملها المراهق إلى مطامح خلقية وثقافية عندما يصبح راشداً نتيجة إنسانية أكثر أهمية في رحلته، مع ذلك، يحتاج هذا التحول إلى مزيد من البحث والفهم أيضاً. نعرف أن التحول يحدث، ولكن كيف يحدث، هذا هو اللغز. وبهذا المعنى، تشبه المراهقة أثراً فنياً، نحن وحدنا المكلفون بوضع حل نهائي له؛ ويجب أن نحاول من خلال الجهود التأويلية أن نستدل على العملية التي أدت إلى هذا الحل.

إن أحد جوانب التحول من نرجسية المراهق إلى المثاليات الاجتماعية والأخلاقيـة، لابد أن يكون مرتبطاً بالعواطف الجنسية المثلية عنده نحو الوالد من الجنس نفسه. وجانب آخر، وإن كان فهمنا له أقل، يتعلق بحب المرء لذاته إلى حد يظن معه بعضنا أن هذا الحب لن يتحول أبداً إلى شخص آخر. أتحدث عن تلك " الذات الحقيقية" التي نسعى للمحافظة عليها، بغض النظر عن مدى مانُخضع حياة الرغبة في النهاية إلى سلطة النظام الاجتماعي الذي نعيش فيه.

---

* أحد رجال الحاشية في مسرحية هاملت–المترجم.

لو لم تكن هناك مراهقة، لما كان هناك وقت يسمح بالنمو إلى نضج جنسي وأخلاقي، ولو سارت الكائنات الإنسانية ببساطة، كالنوع الحيواني الآخر، مباشرة من الطفولة إلى الرشد، لكنا أصبحنا مواطنين طيعين للنظام الاجتماعي، كالأطفال دائماً في مواقفنا الجنسية والأخلاقية. وهذا مايحدث في الواقع، عند أولئك الأشخاص، أو في تلك اللحظات الاجتماعية، عندما لايمكن لطور الحياة عند المراهق أن يمارس، لسبب أو لآخر، تأثيره الكامل على إعادة صياغة سيرة الحياة.

وفي الجزء الثالث أو الختامي من هذا الكتاب، ندرس بعضاً من أسباب انحرافات عملية المراهقة من منظور السيرة الفردية ومن منظور النظام الاجتماعي. ولتوضيح نوعية بعض الاختلافات الفردية على طريق الأنوثة أو الرجولية، قررت أن أستخدم اثنين من الاضطرابات العاطفية (القهم العصابي والانتحال-المترجم)، التي يمكن أن تنشط أثناء سنوات المراهقة، عندما تكون محاورات الحب في الطفولة شديدة الإلحاح، وترفض التخلي عن سيطرتها في الحاضر. ومع أن هذين الاضطرابين العاطفيين نادران جداً في شكلهما البدئي، إلا أن هناك أشكالاً منهما شائعة لدينا جميعاً.

إن الحلول التي يمثلها هذان الاضطرابان غير العاديين، اللذان يترافق كل منهما بترويض المرء لنفسه لغائية التمييز الجنسي أثناء البلوغ، هي من الناحية البدئية النموذجيةُ "الأنثوية" و "الذكورية". فالقهم العصابي، اضطراب طعامي، قلما يوجد عند الذكور. و"المُنتَحِل"، حالة يُظَنُّ أنها لاتحدث أبداً في شكلها الكامل عند النساء. ولكن كما هي الحال مع اضطرابات الطعام، فالميول الاحتيالية من مختلف الأنواع عند كلا الجنسين أكثر انتشاراً مما هو معروف عادة.

إن بعض المعضلات، التي تتمثل في أن يصبح المرء راعياً أو مشرعاً، هي معضلات شخصية، ويجب فهمها على أساس السيرة الذاتية للحياة. أما الاضطرابات الأخرى، فتتعلق بالنظام الاجتماعي، حتى أنها تنتظر استقبال التحولات الأخرى، الجنسية والأخلاقية. وهكذا، اختتمت ***وداعاً أيتها الطفولة***، بفصل عن المعضلات الاجتماعية والأخلاقية في الحضارة الحديثة. وعلى الرغم من ضخامة هذه المعضلات، فإن الآباء، والمربين، والقادة الدينيين والسياسيين يحتفظون بها سراً كتراث من سنوات مراهقتهم الخاصة لرعاية الآمال والمطامح التي يمكن أن تولد من جديد عند الجيل التالي من الرعاة والمشرعين.

وأنا أقترب من اختتام هذه الرواية حول التحولات الجنسية والأخلاقية في المراهقة، أعرض مايلي: " تتأثر شخصية الراشد بشدة بالصراعات التي عانت منها خلال فترة المراهقة. والمرأة المتغيرة لاتلخص مرحلة الرضاعة بصورة سلبية، بل تنقحها بفعالية. وتخلّف خططها وخساراتها، وهزائمها، وانتصاراتها، وحلولها الجديدة، طابعها على صيغتها الراشدة". وفي هذا الكتاب عملت بالطريقة نفسها تقريباً على تثبيت المعضلات الفكرية التي واجهتها في حياتي الخاصة، وطريقتي الشخصية في حلها. قد يكون اعتماد عالم نفسي ما أكبر على النمو الإدراكي، وأقل على تعقيدات حياة الأحلام. ومن الممكن تماماً أن يستمر الآخرون في تشديدهم على السلطان الذي لايقهر للطفولة على الأداء العقلي عند الراشد؛ مع ذلك، قد يلح آخرون بإصرار على الانقطاع المطلق بين مرحلة الرضاعة والمراهقة، ولذلك يكون اهتمامهم ضئيلاً، هذا إن وُجِد، بتأثيرات الماضي الطفولي على الحياة العاطفية والعقلية في المراهقة.

لايمكن بأية حال، كما أظن، تجاهل مدى إخلاص أي كاتبة عندما تحاول نقل روح التقليد الفكري الذي كرست نفسها له إذا اختارت ألاتكون راوية طيّعة للماضي، وإلا تحولت روايتها التي نسجتها إلى مجرد نسخة منقحة. وأية مغامرة لاتحظى بالقبول ستحتاج إلى التأويل من جديد. ولن يكون هذا بأية حال هو الحل الجديد الشامل، لأنه يجدد دائماً طرح المعضلات الإنسانية القديمة.

الجـــزء الأول

دراســـات اســـترجاعيـــة

صـــور مـــن المراهقـــة

1

المراهقة

التتفيه والتمجيد

توصلنا إلى إطلاق تسمية مراهقة على تلك الفترة الغامضة من الحياة التي تمتد من نهاية الطفولة إلى بداية مرحلة ظهور خصائص الأنوثة والرجولة. وكلمة "بلوغ"، وهي الحالة البيولوجية لاكتساب النضج في الأعضاء التناسلية والقدرة الوظيفية على التوالد واضحة فعلاً، ولكن كلمة "مراهقة" على نقيضها، لأنها تنطوي على كافة التباسات النمو العاطفي والاجتماعي. والخلاف قليل حول وجود مرحلة البلوغ. لأن الخبراء، حتى الذين يشكّون بوجود المراهقة، متفقون على أن البنت العادية تصل مرحلة البلوغ بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة من عمرها ويبلغها الصبي العادي بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة، بزيادة أو نقص سنة أو سنتين. وعلى عكس ذلك، يدور جدل واسع حول مفهوم المراهقة. وهي، إذا كانت موجودة فعلاً، قد تمتد في أي فترة بدءاً من أسبوع حتى عقد أو نحوه، وهي نموذجية في المجتمعات الغربية المعاصرة.

والاتفاق الوحيد الإيجابي الذي يتفق بشأنه الاختصاصيون، حول موضوع المراهقة، هو أنها عملية نفسانية تترافق بطريقة أو بأخرى بالبلوغ، وهي أيضاً عملية تختلف من شخص إلى شخص، ومن أسرة إلى أسرة، ومن مجتمع إلى مجتمع، وتختلف أيضاً من الناحية الزمنية باختلاف الفترة، أو العصر، أو العقد، أو القرن. وهم، أي الاختصاصيون، يغفلون كلمة "نفسي" عندما يريدون الاتفاق. وأي واحد يحاول البحث يوماً لإيجاد نظرية ما موحدة تتعلق بالمراهقة، يعرف أن أسلم استراتيجية هي اللجوء إلى ثنايا هذه النسبية الاجتماعية المقبولة. إن السلوكيات التي يظهرها المراهقون مختلفة إلى حد التناقض والإرباك. ولكن عندما يقرر المرء أن لايستسلم للشك السائد حول إمكانية وجود مفهوم ذي

معنى للمراهقة، حينئذٍ سرعان ماتتخلص معطيات التناقض الظاهري من سمة الخصومة والعداء. ويصبح الاختلاف ببساطة صفة متوقعة تميز قضايا المراهقة، ودعوة للاستكشاف.

تؤمّن حقائق البلوغ مرساة مأمونة. فالبنات يصبحن نساء والصبيان يصبحون رجالاً. تبدأ البنات بالحيض وسرعان ماينتجن بعد ذلك بيوضاً خصبة. ويبدأ الصبيان بالدفق وفي غضون سنوات قليلة يحمل المني نطافاً ناضجة. ويمكن التأكد من أن الصبيان والبنات بالذات يولون أهمية سيكولوجية لهذه الأحداث المثيرة، وأن الكبار من حولهم يستجيبون لهذه الحالة من التبدل الجسدي.

ومن الواضح أن الكائنات الإنسانية تستجيب لاقتراب أو مجيء البلوغ بطريقة إنسانية مميزة. ومهما كانت مقاومة تلك الكائنات لظروف التبديل شديدة، فإن استجابة واحدة تفرض نفسها مرة تلو الأخرى. وفي كل دور من أدوار التاريخ الإنساني يحظى ماتنطوي عليه هذه الفترة الانتقالية من تهديد للمجتمع بشيء من الاعتراف. فيسعى كل من الطفل المتغير وعالم الكبار إلى ربط القدرة التناسلية الناشئة بالمعايير الاجتماعية السائدة وبالنظام الأخلاقي، أياً كانت تلك المعايير وأياً كان ذلك النظام. فالنشاط الجنسي والأخلاقية ينضجان مترادفين دائماً، وكل شيء آخر ينمو حولهما.

ورغم الاختلاف الكبير بين طرقنا الحديثة وطقوس البلوغ لدى مجتمعات الصيد، فإن هذه الطقوس تكشف عن المواضيع، والمعضلات، والحلول نفسها.

ففي مجتمعات الصيد، تتضمن طقوس الدخول إلى حالة البلوغ جدع الجسم، ومنها أيضاً، وحسب التقاليد التي يمارسها المجتمع: انتزاع أحد الأسنان، أو بتر الخنصر من فوق آخر مفصل بقليل، أو قطع شحمة الأذن أو ثقبها أو ثقب الحاجز الأنفي، أو الوشم، وتشريط الوجه والصدر والظهر والساقين والذراعين، أو قطع البظر، أو ثقب غشاء البكارة، أو بضع خفيف للقضيب، أو قطع القلفة. وهكذا يعامل الجسد الإنساني وكأنه قطعة من الخشب يمكن تهذيب سطوحها، أو خرقها، أو الكتابة عليها، أو قطع أجزائها البارزة أو صياغتها إلى أي شكل يعيّنه المجتمع كمعيار للشكل النسوي أو الرجولي.

ينقش التشريط في الجسم سجلاً دائماً لمعضلات الوجود. فهو يثبت وجود اختلافات مثل ذكر/أنثى، خط/دائرة، سلالة/ مجموعة عمرية، أسلاف/أحفاد، والأكثر أهمية، ماضي/حاضر. والندوب هي التي تحل هذه التناقضات. وفي آخر تناقض، تناقض الماضي والمستقبل، يمثل الندب انبثاق اللحظة الحاضرة المؤهلة لشطب الماضي لأنها تكوّن

المستقبل. لايعتبر الحاضر ذلك الخط الدقيق بين "كان" و"سيكون" بل حيّزاً تملؤه التوقعات والحوادث التاريخية.

التشريط، والبتر، والقطع، والثقب جميعها تحولات دائمة في الجسد. فهي علامات الدخول في عضوية جماعة الأنداد، وإشارات الانضمام إلى عالم الكبار. وتدل بصورة مباشرة أكثر على أنه يتعذر إلغاء تلك الاختلافات بين المرأة والرجل. والدخول الطقوسي إلى عالم الرجولة والأنوثة يتضمن أيضاً من الناحية النوذجية بضع تحولات جسدية موقتة، كتقليم الأظافر، أو شدّ شعر فروة الرأس أو قصّ بضع خصلات منه، أو دهن الجسم بالطين، أو دم الطمث، أو المني، أو اللعاب، أو ارتداء ملابس خاصة، أو أقنعة، أو حلى. وتهدف هذه التحولات الجسدية، سواء كانت موقتة أو دائمة، إلى تجريد النشاطات الجنسية الفتية من تهديدها للمجتمع وتحويلها إلى مصدر للتجديد الاجتماعي.

يرتبط طقس البلوغ عند البنت بقوة ببلوغها الفعلي من الناحية الفيزيزلوجية، وهي حالة لايمكن، في واحد من جوانبها على الأقل، أن تفلت من الملاحظة. ويسود الاعتقاد في كثير من المجتمعات بأن البنت تصبح امرأة عندما تحيض. أما الصبيان فلاتحدث لديهم التبدلات بمثل هذه الصُورة الحاسمة التي توحي بدخول الصبي إلى عالم الرجولة. ولكن إجراء هذه الطقوس ليس نادراً عند الصبيان قبل أو بعد عدة سنوات من بدء التبدلات الجسدية التي تفضي إلى الرجولة. ففي بعض الحالات يصدف أن تُمارَس طقوس البلوغ كل أربع أو خمس سنوات، فيخضع لعملية التأهيل صبيان من مختلف الأعمار ومراحل النمو الجنسي مع بعضهم.

وبغض النظر عن العمر المحدد للوصول إلى عالم الرشد، فإن المغزى بشكل عام يبقى واحداً. فالفرد ينفصل عن العالم اللاجنسي للطفولة ويُؤهَّل للجنسية الراشدة وللمسؤولية الأخلاقية الراشدة. ويُمنَح الترخيص لكي يكون كبيراً يقوم بمهمة جنسية ضمن شروط إدخاله إلى النظام الأخلاقي. وفي طقوس الانتقال جميعها، وخصوصاً تلك المرتبطة بالبلوغ، يتداخل العالمان: الجنسي والأخلاقي.

كثيراً ماتُستمَد الطقوس الخاصة بالصبيان من فكرة ما للانفصال عن عالم النساء والأطفال. فبين لحظة وأخرى، خلال فترة من الزمن، يفترض في الصبي أن يتخلى عن تعلقه العاطفي بأمه، التي تبكي من أجله، لكي يرتبط بجميع الرجال. فيتخلى عن رياضاته وألعابه الصبيانية مع تخليه عن روابطه العائلية بأمه. وبعد إجراء مراسم الفصم لروابط

الطفولة، يجري تعليم الصبي من قبل راعٍ محدد أو مجموعة من المعلمين الذين يقومون بتعليمه أسس الواجبات والمسؤوليات الأخلاقية في مجتمعه.

يعتبر الصبي ميتاً خلال فترة المستجد عند بعض القبائل. فهو يفصل من بيئته المألوفة ويعزل وحده أو مع مجموعة من أنداده من الجنس نفسه. فيخضع لإضعاف جسدي أوعقلي، يهدف إلى محو كافة ذكريات الطفولة. ويتعرض للجلد ومحن أخرى جسدية. فالانسمام بخمر البلح، أو التبغ، أو الصبار الأمريكي المخدر يحرض الخدر والنسيان. وبذلك تطمس شخصيته الأولى. وتأتي عند نهاية فترة التجربة طقوس الانتقال، التي تشتمل على جدع الجسم ودهنه. وخلال الفترة الانتقالية، التي تدعى أحياناً بـ "الفترة المقدسة"، يتحدث الطفل–الراشد لغة خاصة ويتناول طعاماً خاصاً. وبعد مرور أسابيع، أو أشهر، أو سنوات يعتبر جاهزاً لتعلم القانون القبلي، والشعائر الطوطمية، وإلقاء الشعر وسرد الأساطير.

يلجأ كثير من المجتمعات إلى تشبيه النساء بالأطفال. فهن يعتبرن أقرب إلى الطبيعة، والطبيعة أكثر تحكماً بهن، وهن على علاقة صميمية بها أكثر من الرجال. فالبنت لاتحتاج عندما تقترب من مرحلة البلوغ، إلى قطع علاقاتها بصورة نهائية مع مرحلة الطفولة كما يقطعها الصبي. ولكن العلاقة الصميمية للمرأة مع القوى الغامضة للطبيعة تقضي بالتحكم بفيزيولوجية البلوغ عندها بأسرع مايمكن. وتميل طقوس الانتقال عند الأنثى إلى أن تتمخض عن ربط البنت بمكان بيتي، كثيراً مايكون هو البيت الذي قضت طفولتها فيه. وهكذا، بينما يُقَدَّم الفتيان إلى المحيط العام، تُقَدَّم الفتيات إلى المحيط الأسري.

قد يُقحَم القرّاص أو العشب عند بدء الحيض في المهبل لـ "إحداث" النزف، ودفع البنت إلى المرحلة النسوية. وتقوم امرأة مسنة بتعليمها أنماط السلوك التي يحددها المجتمع للمرأة الحائض. فالتعاليم القبلية الأنثوية التقليدية تتخذ شكل قوانين وقائية من التدنيس، لأن الطبخ والمحرمات الجنسية ترتبط بالحيض.

بداية الحيض من أكثر المناسبات شيوعاً لتلقين البنت، ولكن الحيض ليس المناسبة الوحيدة. فقد تعتبر البنت ناضجة لتلقي التلقين عندما يبدأ ثدياها بالتكوّن، وهو نمو يسبق الحيض ببضع سنوات. فيفرك الثديان بالدهن. وتُرسَم بالمغرة الحمراء دائرة حول كل حلمة. وفي بعض المجتمعات، تُوجَّه البنت التي بدأ ثدياها بالنمو إلى تكبير شفريها بالشد والتربيت أو بوضع مواد نباتية مثيرة، كالأعشاب، أو أوراق النباتات داخل المهبل. ويمكن

أن تقوم أمرأة مسنة بتكبير شفري الفرج عن طريق مطهما وثقب نسيج المهبل ثقباً خفيفاً في عدة مواضع. فالمرأة التي تحمل شفرين مهبليين ثخينين تعتبر جميلة.

إن صوغ البنت إلى امرأة يعني التحكم بحالتها الجسدية ولكنه يعني أيضاً تغيير الصفات الداخلية عندها. فهي امرأة جميلة وطيبة إذا كانت لطيفة، مرحة، ودودة، غير أنانية، وإذا كانت قادرة على التحمل.

ومع أن نمو البنت لايقتضي فصماً عنيفاً لروابطها مع الطفولة، إلا أنه يفرض عليها ضرورة السيطرة على ذاتها الجسدية للحصول على الفضيلة الأنثوية. فيُشرَّط جسدها ويصاغ. وتُحتجَز في مكان مخصص ضمن أسرتها أو قريتها، في هوغان* أو حجرة عزل، محاطة بتلٍّ من التراب، وتدفن حتى خصرها في حفرة من الرمل. وفصلها من الطفولة لايقتضي انتقالها في حيّز واقعي. تجتاز البنت ظروف التحول إلى النضج، مثلها مثل يرقة تحبس في شرنقتها وتخضع لتحول هادىء غير منظور إلى أن تظهر من الغلاف كفراشة، ولكنها تفعل ذلك عن طريق المغامرات الخيالية. وقد تتخذ هذه الأفعال صيغة تتقمص فيها شخصية بطلة أسطورية أو تشرع في رحلة عالمية. وكثيراً ماينجم التحول عن هذين النموذجين الأسطوريين. ولكن تلك الرحلة الخيالية البعيدة المدى تحدث هنا، في الشرنقة، أي في العش الأسري أو في كوخ مجاور.

ومن خلال تقمصها شخصية البطلة الأسطورية، تتخلى المستجدة عن اللحظة التاريخية التي تعيش فيها. وتدخل مرحلة أولية لازمنية. أفعالها خالدة، فهي تتجدد دائماً، وتتكرر دائماً. وكالبطلات اللائي تتقمص شخصياتهن، تكون مبدعة وطاهرة إلى مالا نهاية. وما تحصل عليه من مكاسب لاتختص به وحدها. وماتخص نفسها به هي الصفات الشخصية للبطلة الأسطورية: الخصب والشجاعة. وتخص مجتمعها بالنعم الحضارية: القمح، والزراعة، والدواء. فتدربها الشخصي يفيد المجتمع ككل إضافة إلى العالم قاطبة. ومع أنها ستعود عند انتهاء الطقوس إلى الزمن التاريخي، لكنها ستبقى محتفظة بقدراتها الخلاقة. وبعد ذلك، ينضح وجودها بالفضيلة المقدسة.

---

* Hogan، مسكن مخروطي أو مثمّن عند هنود نافاهو، بابه يتجه تقليدياً إلى الشرق، ويبنى من جذوع الشجر والقضبان، التي تغطى بالطين، ويبنى أحياناً من اللبن أو الحجارة–المترجم.

عندما تشرع البنت في رحلتها الكونية، تتحرر رمزياً من قيود أسرتها أو قريتها. فهي تنعتق من قيود عالم الطفولة الآمن. ورحلتها محنة، فهي إما هبوط إلى العالم السفلي أو إلى ماتحت مياه البحر أو إلى الأعلى عبر الكون المظلم، وهي، في كل الأحوال، مواجهة مع القوى الشريرة. تعود البنت من رحلتها وقد تحولت تماماً. فهي لم تعد طفلة غير ناضجة ينحصر حقل نشاطها في الشؤون المنزلية. بل أصبحت امرأة ناضجة يتوقع منها أن تتخطى حدود الوجود الدنيوي الذي خصصت له من الآن فصاعداً لتصبح كائناً عالمياً تحتوي في داخلها العالم كله. ورغم عودتها من جديد إلى أسرتها ومرابع طفولتها، فإنها تحتفظ وإلى الأبد بالفضائل والقوى الكونية لأولئك الذين تولوا أمر الرحلة المقدسة. ومن جديد، سيرى الرجال والنساء الذين رافقوها في رحلتها أو استمعوا إلى روايتها أو شاركوها في أداء الأغاني والرقصات عبر عينيها كل ماسبق لهم أن جربوه ثم نسوه.

يعتبر الصبيان والبنات البالغون مبتدئين سواء باشروا انتقالهم إلى سن الرشد في الوقت والمدى الصحيحين أو حبسوا في شرنقة عائلية. والمبتدىء صحيفة بيضاء تُدوَّن عليها حكمة المجتمع. وهو مجهول الجنس، مجهول الاسم كقطعة من الخشب أو كسرة من الطين أو ذرة من الغبار، إنه مجرد مادة، والمجتمع هو الذي يصوغ شكلها. يتصرف المبتدئون في بعض الحالات كالمواليد الجدد، فينسون كيف يمشون وكيف يأكلون. ويتظاهرون بأنهم يجب تعليمهم كل إيماءات الحياة العادية من جديد. وعندما يتعلمون من جديد عادات الناس، يصبحون كباراً. ومباشرة قبل أن تصبح البنت أو الصبي كبيراً، يشارك في مَسْرَحَة المواجهة بين الأجيال. فالسيناريو المذكر معركة أو منافسة تؤكد الانقطاع بين الطفولة والرشد. أما السيناريو المؤنث فيتمخض عن مجابهة مع القوى الكونية. يتخذ المتتلمذ هوية جديدة وكثيراً مايتخذ اسماً جديداً. وبذلك يكون الطفل الميت قد بعث إلى سن الرشد.

تتضمن طقوس الانتقال جميعها سلسلة مزدوجة من الانفصالات وانتقالاً بينها. فطقوس البلوغ تبدأ مع الانفصال عن الطفولة، وهو انفصال يعني في الوقت نفسه انضمام إلى البيئة المقدسة. والعالم المقدس هو منطقة انتقالية، وحدٌّ، ومدخل ومخرج، وشرنقة، وكومة من تراب، وممر، ورحلة بين الطفولة والرشد. في الدائرة المقدسة، يُعلَّق الفرد، ربما فوق سطح الأرض، أو تحت البحر، أو في العالم السفلي، ويعزل مؤقتاً عن مرسى الحياة اليومية. هنا يُستبعَد الماضي استعداداً للمستقبل. ويتعلم الطفل أن الوصول إلى النشاط

الجنسي الراشد يقتضي مراجعة الحياة الأخلاقية للطفولة–الحياة الأخلاقية التي كانت تقوم فقط على أساس الروابط الأسرية وصداقات الأنداد. ثم إن المرور عبر المنطقة المقدسة يمنح الفرد صفات لم تكن موجودة عنده وهو طفل.

ومع أن الطفلة الصغيرة قد لاتتذكر ماحدث، لكنها سوف تحتفظ إلى الأبد برعدة تجربة الجوع، والخوف، والحزن، والوحشة التي تترافق مع الانفصال عن عالم الطفولة. وتتعلم أن أسرتها لم تعد وحدها هي الملاذ، والحماية، والسلام. ومراسم الدائرة المقدسة ليست سوى وسيلة ثقافية لحرف الطاقات العاطفية بعيداً عن ماضي الطفولة في محاولة لاستثمارها في ارتباطات عاطفية وملجأ آمن ضمن المجموعة الاجتماعية الأكبر.

وفيما بعد، لابد أن يكون هناك انفصال ثانٍ، في هذه المرة، انفصال عن الدائرة المقدسة "اللاواقعية"، تتبعه عندئذٍ طقوسية لتجديد الاندماج الذي تُجَرَّد فيه العواطف المرتبطة بفيزيولوجية النشاط الجنسي والتوالد من صفاتها المعادية للمجتمع.

يزعم البعض أن المجتمع يكبح العمليات الطبيعية، وأن الطقوس تمنع العالم الطبيعي من اغتصاب النظام الاجتماعي. فيُفرَض مظهر النظام على الحوادث المخلة بهذا النظام، أي على الطبيعة الجامحة والرغبات المضادة للمجتمع. وتؤكد مراسم عودة الدخول سلطة التقاليد المرعية. ويشدد طقسها على الخضوع للطرق المقررة للأداء الجنسي، والولادة، وتعليم الأولاد. فهناك تفويض للفرد بالأدوار المحددة عائلياً، واجتماعياً، ودينياً. ويمنح الترخيص له لكي يكون شريكاً فعالاً في طقوس الولادة، والزواج، والبلوغ، والدفن. وهكذا، يتجدد النظام عند اختتام مراسم البلوغ؛ فقد أصبح الطفل راعياً ومشرّعاً. ومغزى ذلك، أنه على الرغم من وجود مسرحية حول قوة التهديد العاطفي، فإنه لن يحدث شيء جديد.

ولكن الطقوس تدل أيضاً على أن هناك شيئاً ما أكبر مما هو شخصي أو اجتماعي. وعن طريق المشاركة في الانتقال من دائرة إلى أخرى في دوائر الوجود، سيكون، حتى الإنسان البائس، شاهداً على معضلات القوى ذات القدرة المطلقة، التي يجب أن تضع في حسابها أيضاً قدراتها على الخلق والتدمير على الرغم من سيطرتها على الكون. يواجه الكائن الإنساني المعضلات الأزلية للفضيلة، والخطيئة، والمسؤولية الأخلاقية. وكانت الذات قد وُسِّعت لكي تتلاءم مع ماهو مقدس. وبذلك أصبح الفرد شريكاً في النظام الذي يحكم الكون.

"في كل زمان ومكان"، إن في القسطنطينية، أوشمال غرب زامبيا، أو إنكلترا الفكتورية، أو اسبارطة، أو شبه الجزيرة العربية، أو عند تابعي الموكارد في الأمازون، أو في البلدان الناطقة بالأسبانية، أو فرنسا القرون الوسطى، أو بابل، أو قرطاجة، أو بتاغونيا، أو كيوشو، أو نواكشوط، أو درسدن، ترافق المدى الزمني بين الطفولة والرشد، سواء كان قصيراً أو طويلاً، باكتساب الفرد للفضيلة كما يفهمها مجتمعه. قد يكون الصبي (أو البنت) طيباً وملتزماً أخلاقياً، ولكن الكائن الإنساني لايصبح قادراً على ممارسة الفضيلة إلا عند وصوله إلى عالم الرجال (أو النساء)، أقصد الصفات العقلية والجسمية التي تدرك مثاليات المجتمع.

ساد الاعتقاد في الفكر الكلاسيكي بأن الفضائل كالاقتصاد، والشجاعة، والعدل، والعفة، هي أشكال من السلوك يمكن فرضها على الطبيعة الإنسانية من خلال التدريب والتهذيب. وافترض اللاهوت المسيحي أن فضائل كالإيمان، والأمل، والمحبة هي استعدادات فطرية موجودة عند كل بني البشر، وهي كامنة عند الرضيع والطفل وتتحقق فقط عند النساء والرجال. وفي القرن الرابع عشر، تم توحيد الفضائل الكلاسيكية والمسيحية القديمة في فضائل سبع رئيسية (ثمار الروح-المترجم)، وكأنما لمواجهة الخطايا السبع المهلكة: يمكن للتعقل أن يذلل الطمع، والشجاعة تقهر الشهوة، والحلم يلجم الغضب، والاعتدال يهزم الشره، والإيمان يحبط الكسل، والرجاء يضعف الكبرياء، والمحبة تخفف الحسد.

توضح الكلمة اللاتينية **virtus**، التي تعني "الرجولة" أو "الشجاعة"، الارتباط بين السمو الأخلاقي والقدرة الجنسية الذكرية. وتُذكّر أيضاً بأن الفضيلة، كعملية المراهقة، كثيراً ماتكون امتيازاً يوهب فقط لأشخاص غير اعتياديين. وكانت في ترجماتها الأصلية تستخدم لوصف المخلوقات الخارقة للطبيعة أو المقدسة. ومن خلال اندماجه بشخصية ما مقدسة، يمكن للإنسان أن يكتسب طاقة الفضيلة. فالفضيلة ***ثابت*** و ***المتغير*** هو تفسيراتها. تعتبر العفة غالباً فضيلة عند الشابات ولكنها عند الشباب قصور في الجرأة. وتوصف المرأة بأنها "غير شريفة" إذا كانت تفتقر إلى الحشمة.

مع أن كلمتي فضيلة وأخلاق غير مترادفتين، فإن مفهوم الفضيلة ينطوي ضمناً على أن شخصاً ما عندما يحمل في داخله هذه الصفات المثالية، يصبح بمقدوره أن يفكر في التصرفات الإنسانية ويقيّم عقابيل تلك التصرفات فيما يخص أشخاصاً آخرين، سواء كانوا

من أعضاء الأسرة، أو الجيران، أو الزملاء، أو من أعضاء المجتمع بشكل عام، وعندئذٍ يتصرف بمقتضى ذلك التقييم. ورغم ذلك، لايمكننا أن نفترض بأن الحس الأخلاقي يعقب الفضيلة بصورة آلية كما يعقب الليل النهار. كانت مثاليات الفضيلة، كما نعرف، قد شُجِّعَت في طبقة أو قطاع واحد من قطاعات المجتمع كوسيلة لاستبعاد الطبقات أو القطاعات الأخرى أو السيطرة عليها.

ومن الواضح أن النظام الاجتماعي لايمنح أفضليات لأولئك الذين شبوا ليصبحوا في عداد الرجال والنساء أو يخضعهم لاختبارات أخلاقية. يُشجَّع بعض الأطفال على الانتقال بشكل هادىء ولاتطفلي إلى سن الرشد. أو ينتظر منهم، إذا كانو على شيء من الخشونة وينغمسون إلى حد ما في شهوات الشباب، أن يفعلوا هذا بأسرع مايمكن ويركنوا بعد ذلك إلى الحياة التقليدية للراشدين، مع الفضيلة أو المشاعر الأخلاقية أو بدونها.

قد تحدث، وكثيراً ماتحدث، تبدلات النمو إلى البلوغ الباكر بدون ظهور أي طقس انتقالي يمكن تمييزه. وطقوس البلوغ لم تكن موجودة في مجتمعات الصيد كلها. ففي بعضها كان يقتصر الإدخال إلى عالم الراشدين على الصبيان فقط، وفي بعضها الآخر على الفتيات فقط. والمجتمعات الغربية، مثلها مثل بعض مجتمعات الصيد وكافة الحضارات القديمة، كان منح مدة "النمو إلى الرشد" فيها مقصوراً أصلاً على الشباب من الطبقات العليا وعلى بضع فتيات وفتيان مثقفين، أو متدينين، أو يتمتعون بموهبة فنية، أو، عدا ذلك، إذا كانوا موهوبين. وحتى تحرير الطبقة العاملة وظهور الحركات الشبابية في مطلع القرن العشرين، كان المفهوم السائد لكلمة "شاب" يوحي بشابٍّ يتمتع بمزية عقلية أو مالية، شاب يمكن الاعتماد عليه في الإفادة مما تتميز به الفضيلة من حسنات ومزعجات. أما الطبقات الدنيا، كأكثرية النساء، فكان الفرد فيها يعامل كطفل يتقدم بصورة انعكاسية من غير أن يفيد من تحوله إلى راشد خاضع ومطيع. وأياً كانت المتانة الخلقية التي اكتسبوها في طفولتهم، فإنها سوف تكفي لحياة هادئة وغير معقدة هم على وشك المباشرة بممارستها في سن الرشد. يمكن للفضيلة عند الزوج أن تحمي زوجته، وعند السيد أقنانه، وعند الفارس أتباعه وفتياته.

ومن الناحية التقنية، تتوفر اليوم منافع المراهقة وتجاربها لكل شخص بين الثالثة عشرة والثالثة والعشرين من العمر. فقد تميز التجديد في العصر الحاضر بأن أصبحت فوائد المراهقة حقوقاً تمنح لجميع الشباب. جرى هذا بعد أن كانت المراهقة قد احتلت في

أشراك الأيديولوجية الرومانسية: الثورة، والطبيعية naturalness، والعفوية، والمثالية، والتحرر، والحرية، والحرية الجنسية. وليس من المدهش أن ينظر الآباء، والمثقفون، وعلماء اللاهوت، والفلاسفة بشيء من الشك إلى الإمكانية السهلة من حيث الظاهر للحصول على الحرية والحرية الجنسية. وكان هؤلاء يستجيبون لهذا الشك بالنظر إلى المراهقين بشيء من التنازل والتساهل. ويمكننا أن نعتبرهم مؤقتاً ضحايا بريئة عاجزة وساذجة. لكنهم سوف يُعتبَرون عاجلاً أو آجلاً مفترسين، ومشؤومين، ولاأخلاقيين، وعدوانيين غزاة للعالم الراشد.

أما اليوم، فالمراهقة متاحة للكثرة ولا تقتصر على النبلاء والسادة، ويقوم كثير من الراشدين بقرع ناقوس الخطر إشعاراً بأن حشداً همجياً من الفتيات والفتيان الحقيرين يعملون على تفكيك البنى الاجتماعية. وتصعب رؤية أية فضيلة في كل ذلك. وما يراه الراشدون بدلاً منها هو الدليل المهم على الكبرياء، والطمع، والغضب، والشره، والحسد، والكسل، وقدراً كبيراً من الشهوة. ومنذ زمن ليس ببعيد، كان العداء بين الراشدين والمراهقين ينفجر أحياناً إلى حرب حقيقية، بالبنادق، والمدى، والحجارة، والغاز المسيل للدموع. ولكن من الشائع أن تكون الخصومات بين الأجيال مقنّعة وأكثر مخاتلة.

يتفرد النوع الإنساني بميزة استثنائية هي سرعة بديهته عندما يحاول الكفاح للتغلب على الخوف. وطريقته الوحيدة في ذلك هي الإنكار المباشر. فنحن نتوجه بعقولنا بعيداً ونزعم بأنه لم يحدث شيء. وهناك ترجمة للإنكار أكثر خداعاً هي تتفيه مانخاف منه. وبالتالي نخترع "المراهقين"، فتيات فارغات الرؤووس لايهتممن إلا بمظاهرهن، مدمنات عطور، جيش من الكسالى المنومين الذين تتركز أفكارهم في قاعات الدراسة على مسألة واحدة، هي الوصول إلى البيت للعناية بالصوابين. وهناك تتفيه آخر مفضل بالنسبة للشباب هي صورة الجاهل ذي القلب الطيب، الزيتي الشعر، و"القلنسوة" المغلفة بالجلد. فهو قد لايعرف الكثير عن القواعد أو التاريخ، لكنه لو وضع في قاعة الرقص، لتحول إلى كائن مقدس، لأنه يفهم الإيقاع. وأكثر من ذلك، أنه يذهب إلى الصلاة.

والصورة الأكثر شيوعاً هي صورة المراهق مسترخياً في كرسيه، وقدماه على الطاولة، وهو يثرثر على الهاتف ساعات بطولها، تحيط به فوضى أليفة من كتب مدرسية غير مفتوحة، وملابس رياضية، ومجفف للشعر، ولعبة صغيرة محشوة على شكل دب، ومضرب للتنس، وبيتزا ونقانق نصف مأكولة، وزجاجة كولا، وإعلانات عن جيجر

وبلوندي ونجوم آخرين من الدرجة الأولى ملصقة فوق كل حيّز من سطح الجدار، بما فيها الأبواب والخزائن. إنهم أطفال يدفعونك إلى الشعور بالضيق والإحباط، ولكنهم سوف يكبرون بسرعة ويتجاوزون كل هذا.

وهناك طريقة أخرى لتخفيف القلق هي أن يصبح المرء بقدر الإمكان شبيهاً بمادة الخوف. تخطر هذه الطريقة، أي تقمص المعتدي، بصورة طبيعية للأطفال الصغار، الذين يخافون من القوة الاستثنائية ويحسدونها فينسبونها إلى الآباء، وأطباء الأسنان، والشرطة. وبالتالي فهم يزأرون كالسباع الضارية؛ ويلبسون كالمسوخ، ويعطون برزانة الحُقَنَ للّعب، والدمى، والجنود، والحيوانات المحنطة، والشاحنات.

عندما يشعر الراشدون بالرعب من همجية المراهقين، فقد يصبحون هم أنفسهم معاندين. علاوة على ذلك، يتعرض هؤلاء المراهقون أحياناً للحسد لما يتهيأ لهم من وفرة في وسائل اللهو. فبعد المهادنة بين الأجيال خلال الحرب العالمية الثانية، حيث كانت الخدمة العسكرية تستنفذ وقت الشباب بين السابعة عشرة والسادسة والعشرين من العمر، الأمر الذي جعلهم لايشكلون في حينه تحدياً للكبار، اتخذت الخصومة بين الأجيال منحى يبعث على الدهشة. إذ راح أولئك الكبار يقتدون بالشباب. فاستيقظت الشهوات الجنسية عند الآباء الكهول. وارتدوا القميص التائي (T)، وسراويل الجينز، ولباس المظليين، والحلى التي تسبب الهلوسة. ورقصوا على موسيقى الديسكو. وأخذوا يتنافسون مع المراهقين على الشابات من أجل الشراكة الجنسية.

لم يعمد الكبار إلى تقليد وودستوك* Woodstock لكي يتغلب الشباب عليهم. فقد شاعت في الاجتماعات المهنية رؤية جماعات من علماء النفس، والفلاسفة، والوزراء، وأساتذة الجامعات، والأطباء، والباحثين الاجتماعيين، والمحامين، ينتعلون الأخفاف أو حفاة، ويتزينون بالريش، أو بالتنانير والقمصان الوثنية، أوسراويل الجنز، أو السبحات الهندية، أو عصائب الرأس، أو ينقرون أوتار الجيتار، وينشدون التراتيل الهندوسية،

---

* نسبة إلى مدينة أمريكية في ولاية نيويورك، اجتمع فيها مايقارب 400000 شخصاً و40 فرقة موسيقة فيما بين 15-18 آب عام 1969، تحت شعار "ثلاثة أيام لمناصرة الموسيقى والسلام" ونجمت عن هذا الحدث الحركة الهيبية بشعارها الشهير Make love not War-المترجم.

ويحشرجون كالموتى، ويتمددون في الردهات، أو فوق المروج، أو على امتداد جوانب المسابح في مختلف فنادق هيلتون وشيراتون. ولكن سرعان ماانتهى عصر الأكويريوس*. ففي إدراكهم المتأخر بدأ كثير من هؤلاء الكبار الموقرين، ذوي الشعور الرمادية الذين استهلكوا، يستنكرون الصورالمضحكة لحياة الشباب التي كانوا أجازوا لأنفسهم الانغماس بها.

من البداية، وعلى مدى هذا الاضطراب الكبير وفوضى الأجيال، استمرت المطابع الأكاديمية في دورانها. ففي ملابسهم الشخصية وفي ردهات الفنادق، ربما عمد بعض الأكاديميين إلى الاقتداء بجيل المراهقين الذين يخافون منهم ويحسدونهم، ولكن الجميع نجحوا في الحرم الجامعي في أداء العمل التعليمي، وإلقاء المحاضرات، والكتابة، والبحث. وكانت تطرح على البيولوجيين، والمؤرخين الاجتماعيين، والعلماء النفسانيين مسائل مثل النظوم اليومايوية، والنوم، وعادات القرن الرابع عشر، والأنوثة أثناء حركة الإصلاح، وأحفاد جين إير، وبيولوجية التطور، والتأشب الجيني genetic recombination، والصداعات، والقرحات، واختبارات الذكاء، والسلطة، والحب، والطفولة، والصبا، والمراهقة. ورغم الجهد الكبير الذي بذله العلماء لحماية نتائج أبحاثهم من التاثر بالأفكار المسبقة، فلابد أن تتأثر المناهج التي يعتمدونها في إجراء أبحاثهم والطرق التي يعرضون بها تلك النتائج بأفكارهم الشخصية والسياسية.

وحول موضوع سيكولوجيا المراهقة كانت النتيجة خليطاً غريباً من سياسات الأكويريوس* البائدة والحركة الرجعية المحافظة. وتحت السطح مباشرة، نجد الإنكار، والتتفيه، والتقمص. واليوم فقط تطرح فرضية تقول بأن المراهقة قد لاتكون موجودة. أو إذا كانت موجودة، فإنها ليست إطلاقاً كما كنا نفترضها. ولكن عندما تم إدراك مفهوم المراهقة، أكد كثير من الناس بأنهم لايريدون شيئاً أكثر من محوها. واليوم، ونحن نتقدم نحو نهاية

---

* نسبة إلى برج الدلو Age of Aquarius. وهو تعبير مستقى من المسرحية الغنائية Hair (الشعر) لأن الشباب كانوا يطيلون شعورهم استمراراً للحركة السابقة: تحرر جنسي، تعاطي الحشيش والأفيون، السلام والحب... والإيمان بأن لحركة الأفلاك تأثير على مصائر البشر (علم التنجيم)–المترجم.

* Aqairian politics، انظر الحاشية السابقة: سياسة قد توصف بالانفتاح والتقدمية وتتعارض في ذلك مع السياسة المحافظة التقليدية–المترجم.

القرن العشرين، أصبحت المراهقة أكثر من مزعجة. لقد أصبحت، فيما يبدو، نوعاً من التهديد.

في شهر تموز عام 1981، أوردت جريدة نيويورك تايمز في الجزء العلمي العنوان التالي "يبدو أن المراهقة أكثر سعادة مما يتخيله الكبار". وبعد أربعة أيام تابعت التايمز في افتتاحيتها "وداعاً، هولدن كاولفيلد". وجاء في تلك الافتتاحية "قمّط الكبار في ساغة* المراهقَ المكروب وصدقوا كل كلمة. ولكن الطفل الذي يحمل مربى المص إلى فيلم السوبرمان يعرف أكثر". وجاء في التقرير أن 85% من مجموع المراهقين الأسوياء هم سعداء. فالمراهقون ليسوا أبداً أولئك الثوريين المكروبين عاطفياً والذين يثيرون القلاقل كما اعتدنا أن نتصورهم. وهم ليسوا طماعين أو كسالى. بل هم مستقيمون ونشيطون. ولاترعبهم التبدلات التي تحدث في أجسادهم. وعلى الأصح، إنهم يحبون في الواقع تلك التبدلات. والآباء يحبون الأطفال. والأطفال بدورهم لايحملون مشاعر سيئة تجاه الآباء.

كان تقرير التايمز تفسيراً مبسطاً لنتائج بحث دانييل أوفر وفريقه. وكان أوفر نشر مع إريك أوستروف وكينيث هاوارد كتاب ***المراهقة: صورة ذاتية** نفسية***. يحلل أوفر وفريقه في هذا الكتاب، الذي كان توسيعاً لبحثهم الذي كان نشر سابقاً، استخبار الصورة الذاتية الذي طرحوه على أكثر من خمسة عشر ألفاً من المراهقين. وأدرك الباحثون أن استخباراً يغري المراهقين بالبوح بأسرارهم عن طريق الاستجابة لعبارات مثل "الدعابات القذرة تعتبر من قبيل اللهو أحياناً" و "أظن أنه بإمكاني أن أميز الحقيقي من الوهمي" قد يكون استخفافاً. وقال الدكتور هاوارد في محادثة هاتفية مع مراسل التايمز موضحاً "كنا ندرس الطرق التي بها يدرك الأطفال ذواتهم؛ وكان ذلك محط اهتمامنا. ومن الطبيعي أن لايلجأ إلى استخبار كهذا شخص يبحث عن الصراعات اللاواعية".

ومع ذلك، كان أوفر وفريقه واثقين من أنفسهم وهم ينقلون آخر صورة عن المراهقة. واستناداً إلى ماأوردوه، فإن الغليان و الفوران في المراهقة الذي اعتدنا عليه هو مجرد أسطورة قام بحبكها كبار ساخطون دسوا مخاوفهم، وأحلامهم، ونزواتهم، ورغباتهم على المراهقين. ويزعم الكتّاب بأن معظم المراهقين واثقون من أنفسهم، وسعداء، وراضون

---

* قصة آيسلندية قديمة زاخرة بالأعمال البطولية أوكل قصة مماثلة لها-المترجم.

** أي بريشة صاحبها-المترجم.

عن أنفسهم. وقد عقب أحد المتفحصين لأعمالهم بالقول بأنهم " يبدون بوضوح كفسائل من ذوات الباحثين الخاصة الرصينة ". ويتابع أوفر قوله بأن أكثر المراهقين يواجهون مرحلة الرشد بالطريقة الدارجة المقبولة. وما التقلبات المزاجية والثورة إلا من صفات المراهقين المصابين بالقلق، لامن صفات الأسوياء منهم. لأن المراهقين الأسوياء يباشرون انتقالهم إلى عالم الراشدين باتزان. ويتعاونون بلطف مع الآباء، والأشقاء، والأنداد. وهم راضون عن تدابير النظام الاجتماعي ولا يريدون تبديل أي شيء.

لم ينفرد هؤلاء الثلاثة: أوفر، وأوستروف، وهاوارد لوحدهم بهذه المسألة، مسألة إعادة النظر في صورة المراهق. ففي الواقع، كانت نيويورك تايمز قد نشرت أخباراً قبل عدة سنوات أفادت بأن بحث أوفر المبكر أصبح المقدمة المنطقية الأساسية عند الباحثين الآخرين في مرحلة المراهقة. إن هذا الضرب من الغزارة السريعة في نتيجة البحث ليس غريباً. فالملاحظة الاعتباطية التي لاتستنبط من دراسة موثوقة أو رصينة على نحو لافت للنظر، يمكن اعتبارها جازمة وبمثابة الكلمة الأخيرة، وخصوصاً عندما تشكل هذه الملاحظة نقضاً مثيراً لموقف متخذ سابقاً.

واليوم تُنسَج مجموعة من الأساطير الخاصة بالفكرة القائلة بأن المراهقة قصة خيالية صاغتها مجموعة عفى عليها الزمن من علماء النفس والمحللين النفسيين. ويتعمق بعض الباحثين أكثر من غيرهم في الأساطير. ولكن هناك من يبقى، مثل أوفر، قريباً من السطح. ويكتفي هؤلاء ببرهان بسيط (هو عادة على شكل عينة استطلاع لآراء ومواقف المراهقين) على أن المضللين من علماء النفس، والآباء، والروائيين، والمعلمين، والفلاسفة يبالغون في مدى وعمق الكرب العاطفي الذي يرافق الانتقال إلى الرشد.

ويغوص آخرون إلى عمق أكبر. ويستخدمون في البحث طرقاً أكثر تعقيداً للتوصل إلى استنتاجاتهم، كالمعاينات السريرية أو مراقبة السلوك الواقعي. ويؤكد هؤلاء الباحثون أن المراهقين في أمريكا وأوروبا من أبناء الطبقتين المتوسطة والعليا يتميزون بالسخرية، والأنانية، وعدم الالتزام السياسي، والانقياد الأعمى وليسوا أبداً مثاليين سياسيين كما تصورهم الروايات الرومانسية وأمثالها من البحوث القديمة الساذجة، الفلسفية والنفسية.

وتقدم الجدل درجة أو درجتين على أيدي أولئك الذين أعلنوا بأن العبارة التقنية "مراهقة" ليست أكثر من مفهوم اختلقه المجتمع. وقد ابتدع هذا المفهوم لتدعيم طرق التفكير وعادات تربية الأطفال التي تلائم المجتمعات الصناعية في المدن. وسرعان مانجد المساندة

لهذا التعميم الشامل "اختراع نظرية المراهقة" في بحث أدبي. ويجري تجنيد القواميس بشكل دائم تقريباً. وقد علمنا بأن اللغة الألمانية لم تتضمن، حتى عام 1940، كلمة تتعلق بالمراهقة وأن كلمة "بلوغ puberty" كانت كافية لتغطية الحقائق البيولوجية والتظاهرات العاطفية. وبما أنه لايمكن اقتفاء أثر الكلمة الإنكليزية "مراهقة adolescence" إلى أبعد من القرن الخامس عشر، لذلك لا بد أن يكون الاختراع قد ظهر بعدئذٍ.

وقد جرت متابعة الأدلة الاشتقاقية وفقاً لسياق النزعة الاستنتاجية لإظهار العلاقات الصميمية بين العبارة المخترعة "مراهقة" والحاجات الاقتصادية لمجتمعاتنا الصناعية وما بعد الصناعية. ولابد من التعبير باستمرار عن التقدير لمارغريت ميد لقاء وصفها للهدوء الذي يميز قدوم سن الرشد في ساموا. والمرجع الشائع هو دراسة ف. موسغروف ***الشباب والنظام الاجتماعي***، التي تضم فصلاً تحت عنوان ***اختراع المراهقة***". يعزو موسغروف ابتداع المراهقة إلى المثالية الساذجة، السياسية والثقافية، عند جان جاك روسو. فيحذو حذوه عدد كبير من المفكرين بدون مناقشة.

بعض المشايعين لابتداع النظرية هم من المثاليين الاجتماعيين الذين يريدون شد الانتباه إلى التناقضات المتأصلة في أنظمتنا القانونية المتعلقة بالأطفال والمراهقين. ويدعي هؤلاء بأن قوانين التعليم الإلزامي للأطفال من السادسة حتى الثامنة عشرة من العمر، وقوانين تشغيلهم، ومفاهيم جنوح الأحداث، والتي صمم كل منها ظاهرياً لحماية المراهقين من مقتضيات التبعية للكبار، أنتجت، بدلاً من ذلك، عالماً من الرذيلة والإجرام لأطفال وشباب محرومين من حقوقهم، والذين يعتبرون أنفسهم اليوم كسجناء للنظام الاجتماعي الذي يبشر بعائد النجاح والقوة مقابل تأخير الوضع الجنسي والشرعي عند الراشد، لكنه في الواقع لايقدم لمعظم الأطفال إلا القليل من هذه الفوائد.

ولو قبلنا تلك المماحكات وفقاً لواقعها الموضوعي، فإننا سنجد شيئاً ما يقال فيها، طالما أنها تربط التمديد المصطنع لفترة الطفولة بشيء من عدم المسّاواة في نظامنا الاجتماعي. فعن طريق الكشف عن هذه العلاقات، يجعلنا الباحثون نتحسس للتناقض المزعج بين هدفنا المعلن حول حماية الأطفال وبين كبتنا المخادع لهم. وهم محقون تماماً في إظهار أن قلقنا حول سلامة الناشئة يمكن أن يكون أسلوباً متستراً لإحباط تقدمهم نحو الاستقلال. والمراهقون أنفسهم سرعان مايكشفون العداوة خلف العناية المفرطة، ولذلك نجدهم أحياناً يقاومون بعنف شديد عندما "نسعى فقط لمجرد حمايتهم". ولكن، عن طريق

تعليقاتهم الحسنة النية على التفاوت الاجتماعي بالنسبة لتتفيه المراهقة، فإن هؤلاء المنتقدين للنظام الاجتماعي هم ناطقون غَفَلَة لمصلحة بعض المواقع الأشد محافظة، إن لم يكن لمصلحة المواقع الرجعية، حول العلاقات بين الطبيعة الإنسانية والمجتمع.

قدم فيليب آرييه في كتابه *أجيال الطفولة* أمثلة لتوضيح التشابه غير السليم بين الرغبة في المساواة الاجتماعية وآراء الرجعية في الطبيعة الإنسانية. وأصبح هذا الكتاب هو المرجع الذي يستشهد به في أغلب الأحيان لـ تأييد ابتداع نظرية المراهقة. وبالشغف نفسه، تشبث كل من المصلحين الاجتماعيين والموجهين الأخلاقيين الرجعيين ببحث آرييه كتوثيق مقنع على أنه قلما كانت لدى الكبار قبل القرن السابع عشر أية فكرة عن الطفولة الأولى والمتأخرة، حتى ولا أي مفهوم حول إطالة أمد الطفولة إلى مابعد السنة السابعة من العمر.

ومع ذلك، لم يدّع آرييه، كهؤلاء الذين يستشهدون به دائماً، بأن الطفولة والمراهقة لم تكونا موجودتين قبل القرن الخامس عشر. بل كان يدرك تماماً شغف القرون الوسطى بتقسيم عمر الإنسان إلى مراحل: طفولة، ومراهقة، وشباب، وشيخوخة. علاوة على ذلك، ومع أنه رفض مفهوم "أدوار الحياة عند الإنسان" بوصفها ترتبط إلى حد ما بما يفهمه الناس فعلاً على أنه نمو إنساني، فإنه اقتفى أثر هذا المفهوم رجوعاً إلى زمن الفلاسفة الأيونيين في القرن السادس قبل الميلاد، ونقل إلينا، وإن في بضع جمل موجزة، بأنه اطلع كذلك على التصنيفات ذات المغزى للعمر في العصور الحجرية ولخماص الأقدام* عند الهللينيين، التي "افترضت مسبقاً وجود اختلاف وانتقال بين عالم الأطفال وعالم الراشدين، وهو انتقال يتم عن طريق التلقين أو التعليم".

ولكي يعزز آرييه فرضيته الزاهية والاستفزازية قال بأن تدليل الأطفال والحب الشديد لهم في عصر حركة التنوير كانا يوحيان بحبسهم وإقصائهم عن الحياة الواقعية إلى القيود الخانقة في غرفة الصف وشرنقة الأسرة. وانتقص من شأن النوعية الكارثية للحياة في القرون الواقعة بين سقوط الإمبراطورية الرومانية عام 476 م وبداية عصر النهضة

---

* خماص الأقدام pacdia (جمع أخمص القدم pedion).

الأوروبية في القرن الخامس عشر. وعلى ضوء مانعرفه عن العصور الوسطى، فقد جاء وصفه المرح غريباً لتلك القرون التي سبقت مايعرف باختراع الطفولة والمراهقة.

كان مطلع العصور الوسطى في أوروبا الغربية أكثر الفترات التي عرفها الإنسان العادي اكفهراراً، إن لم تكن أكثرها ظلمة، ذلك الإنسان الذي لم يكن محظوظاً جداً في المجتمعات المتحضرة. فبعد القرن التاسع، ومع ظهور الإقطاع، والامبراطورية الرومانية المقدسة، وتقدم المسيحية، والحروب الصلبية، وحرب المئة عام، تحسنت بعض الشيء النوعية العامة للحياة. وبالمقابل، أدت الحملات الصليبية على أراضي القدس، ومصر، والقسطنطينية إلى نهب بالجملة للأراضي المقدسة والإمبراطورية البيزنطية. وفي الكفة المقابلة لانتشار الطاعون، والوباء، والجهل، والفقر غير العادي، والعبودية، والمجاعة، والقتال الدائم كان هناك قانون الفروسية، واندماج الفضائل المسيحية والعسكرية؛ والتقوى، والشرف، والإخلاص، والبسالة، وعفة الفارس الشاب والعذراء أو السيدة المتزوجة التي يتودد إليها. بقيت المظاهر الخارجية للفروسية راسخة في كل مكان خلال أواخر القرون الوسطى، لكن التأدب في الحب راح يتدهور بسرعة إلى تزيين سبل الفحشاء والاتصالات الجنسية غير الشرعية، بينما سُخِّرَت البسالة لخدمة البرابرة في حروبهم. وباستثناء ما يتعلق بعدم القدرة على كبت بعض الطموحات الثقافية، أي تلك النماذج للوجود الإنساني التي شمخت فوق الأعمال الوحشية، الشخصية والاجتماعية، لتهيء إمكانية أكبر لتحمّل ظروف الحياة، كفن العمارة القوطية، والجامعة، والشعر الغنائي، والكوميديا الإلهية، فإن القرون الوسطى مثلت الانقطاع العنيف للتقدم الإنساني الذي كاد، لولا تلك النماذج النيّرة، أن يطمس تقريباً مظاهر التقدم الفلسفية، والفنية، والعلمية، والأخلاقية للحضارات القديمة التي سبقتها.

مع ذلك، لو سمعنا آرييه يتحدث عن هذا، لوجدنا الحياة خلال القرون الوسطى مهرجاناً رائعاً. "كان الناس يعيشون في حالة من التناقض؛ فقد تعايشت كرامة المحتد أو ضخامة الثروة جنباً إلى جنب مع الفاقة، والرذيلة مع الفضيلة، والعمل الشائن مع التقوى. ولم يكن في هذا المزيج من الألوان مايدعو إلى الدهشة على الرغم مما ينطوي عليه من حدة التناقض. ولم يجد الرجل أو المرأة من الطبقة الارستقراطية غضاضة في القيام، وهو يرتدي ملابسه الأنيقة، بزيارة البائسين الفقراء في السجون، أو المستشفيات، أو الشوارع

وهم عراة تقريباً داخل أسمالهم. ولكن تعايش النقيضين على هذا النحو لم يكن مربكاً للغني أكثر مما كان مذلاً للفقير".

ولكن آرييه في مزيجه المتعدد الألوان الذي يتكون من الرذيلة والفضيلة، والشين والتقوى يهمل تماماً الأبعاد الأخلاقية للحياة في المجتمع الوسيطي. فهو يمتدح عفوية الحركة الاجتماعية وحريتها كما لو كان بالإمكان إسقاط الالتزامات الأخلاقية عن هذا الشخص نحو شخص آخر، أي كما لو أن الفقراء سيكونون في حال أفضل عندما لايحاولون إرباك الأغنياء بوجودهم البائس. ويقوم آرييه بالمفاضلة بين الأمكنة المفتوحة وحرية التنقل في العالم الوسيط وبين الفصل المغلق الذي يشبه القلاع للأماكن الخاصة والعامة الذي يميز مدننا الحديثة. ففي الأمكنة المفتوحة في وجه الجميع التي كانت موجودة في أواخر القرون الوسطى، كان يمكن للطفل العادي بعد سن السابعة أن يشارك في كافة النشاطات التي تخوله إياها حياة الراشد. وعندما كان الصبي اليافع ينفصل عن أمه، "كان عليه أن يؤسس، كالحيوان أو العصفور، ملكاً، مكاناً خاصاً به، ويحصل على اعتراف المجتمع به". كان التعويل على المواهب الطبيعية أكثر من التعويل على المعرفة. "كانت لعبة يفوز فيها الصبي الجريء، الموهوب بالفصاحة المترافقة بميل درامي". أما الباقي فلا بد لنا من ردّه، كما نفترض، إلى حالة الوجود الهامشي والمرهق.

ويتابع آرييه استنتاجاته ليقول بأن بنية المجتمع الوسيطي كانت فضفاضة بحيث تركت حيّزاً واسعاً للنشاط وحرية الحركة. وكانت العواطف غير مقيدة أيضاً. فكان يمكن لها أن تتوزع، "تنتشر لتغطي أهدافاً طبيعية وفوقطبيعية بما فيها الإله، والقديسون، والآباء، والأطفال، والأصدقاء، والخيل، والكلاب، والبساتين، والحدائق". وكما سبق له أن اقترح في كتابه ***أجيال الطفولة***، كان الطفل حتى عصر حركة التنوير حرا **كالأمير**، "متحرراً من عبء تلك العلاقات الاجتماعية التي تعوق الحركة، من تلك الدموع، تلك المناسبات الوداعية، تلك الملامات، تلك المسرات، كل مايستلطفه المرء أو يمزقه وهو يصور وضعاً، تلك الروابط التي لاحصر لها والتي تربطه مع الآخرين وتثقل عليه". ومنذ القرن السابع عشر وما بعد، ابتلي الطفل السعيد المتحرر من القيود، نتيجة للعناية المفرطة به من قبل الأسرة والكنيسة بـ "العصا، وزنزانة السجن، وباختصار، بالعقوبات التي كانت تقتصر على المجرمين من الطبقات الاجتماعية الدنيا".

ولكن آرييه يعلم بدون شك بأنه حتى في عصر حركة التنوير، كان الملوك والأمراء الأشرار هم الذين يتلقون أفضل عناية ممكنة، ومع ذلك كانوا يعالجون من "أمراضهم" عن طريق التقييد بالسلاسل، والضرب، والتجويع، والتهديد. ومالم يكن الطفل العادي، الذي كان ينتقل كعصفور حيث يشاء، واحداً من الفصحاء، فإنه لم يكن ليجد أمامه فرصة لتحسين مصيره عن طريق التعليم. فقد كانت فرصة بقائه على قيد الحياة حتى يبلغ العشرين من عمره ضئيلة جداً. لأن الحياة كانت قصيرة ووحشية، وآرييه يسلّم بذلك. ولكنها كانت تزخر بحيوية عذبة.

من المؤكد أن بعضاً من آراء آرييه المثيرة للجدل، فيما يتعلق بتأثيرات التدقيق المفرط في العناية بالطفل، قد نشأت مع ولادة تاريخ الطفولة منذ القرن السابع عشر. فكلما كان يزداد تدليل الطفل وتمثيله كموضوع ذي أهمية فائقة، كانت تشتد محاصرته بالمواقف الحادة المتناقضة لأبويه، ومعلميه، ومرشديه الدينيين. وفي القرن التاسع عشر، هيمن ظل الكالفينية على الحياة الأسرية، فكل طفل يعتبر بريئاً عندما يكون مطيعاً، والإثم مجسداً عندما يقع مؤقتاً في الخطيئة. وكما نعرف، ترعرع الطفل الكالفيني-الفيكتوري إلى راشد تثقله المثاليات المفرطة لطاعة الوالدين، ويعذبه التقسيم الثنائي إلى خير مطلق وشر مطلق، وتلازمه رقابة الضمير باستمرار.

وفي القرن العشرين، عندما ارتقت مفاهيم الفردية وتحقيق الذات كقيم، تراخت رقابة الضمير ليحل محلها جزئياً الرأي العام، والإجماع العام، والأخلاقية البراغماتية. وفي هذا العصر يحمل الطفل والمراهق، اللذان يوليهما المجتمع المتركز حول الطفل أهمية كبيرة جداً، الأعباء المشتركة لكل من الضمير الشكوكي والإحساس بعظمة التفويض الذاتي، وهي تركيب وهمي يقود إلى اليأس، والسخرية، والتحرر من الوهم.

فالشرنقة العائلية التي اعتُبِرَت وقاءً للفرد ضد المعاملة المهينة لعصرِ الصناعة الآلية أصبحت قفصاً حديدياً يحمي نزلاءه فقط عن طريق إغلاق الباب دون الحقائق الاجتماعية خارج الشرنقة. وكلما كانت الأسرة تشدد من عزلة أعضائها عن الجماعة، كلما كان يشتد غزو المجتمع للشرنقة خلسة، ولكن باطراد. وكما لاحظ كريستوفر لاش بأن الأسرة في المحصلة لاتؤدي مهمتها كملاذ. وشيئاً فشيئاً بلغت من القسوة مبلغ العالم الخارجي من حولها. "اتخذت العلاقات داخل الأسرة الخصوصية ذاتها كالعلاقات في أي مكان آخر: الفردية والسعي وراء المصلحة الذاتية اللتين سادتا حتى في أكثر المؤسسات تآلفاً".

وآرييه لايجافي الصواب تماماً عندما يتحدث إلينا حول إهانات العصرنة. فقد كشفت كتاباته كيف يمكن اعتبار نشوء الطفولة في وعي الغرب كعَرَضٍ لصدمة العصرنة. فهاهو يندب الموت الداخلي والغربة الروحية في الحياة المدينية الحديثة، والتوسع الصناعي، والسياسة الاجتماعية المتعمدة، وتقسيم العمل، وكافة المؤسسات الاجتماعية التي ابتدعت حديثاً في محاولة للتعويض عن الصيغ التقليدية المدمرة: الوحدة العائلية الحديثة المكرسة للاستهلاك، والفراغ، وتنشئة الأطفال؛ والتعليم النظامي؛ والمصحة العقلية. ويواجه آرييه الروية والأفكار التجريدية اللامبالية للحداثة بالتعاطف السحري والمقدس، والمجتمعية، والعفوية والفطرة. وأخيراً، لم يكن آرييه مصيباً في تأويله للتأثيرات النفسية والأخلاقية للحياة اليومية في مجتمع العصر الوسيط. ففي الرفقة المستهترة عند الأطفال والكبار التي قادت كافة أعضاء المجتمع إلى اللهو بالألعاب نفسها والمطاردة نفسها للرذائل والفضائل وللحرية الجنسية، يسلّم آرييه بأن حالة البلوغ قد تبدو لنا اليوم سخيفة إلى حد ما. يوحي هذا الاعتراف العابر عند آرييه بأرجحية أن تُنتِج ضبابية الطور الانتقالي بين الطفولة والرشد بالغين يظلون طفليين كالأطفال الذين يتقدمون سريعاً إلى سن الرشد. واستناداً إلى مايقره شيوخ القبائل والمحللون النفسانيون، فإن الحياة الجنسية والحياة الأخلاقية تتطابقان عند الأطفال.

التمجيد الطنان للحرية عند آرييه والتلميحات اللاطبقية عند سياسيي الجناح اليميني من أنصار الإصلاح الزراعي، جعلت من الأيام القديمة الطيبة في المزرعة لحناً رعوياً للقن الإتكالي. إن أولئك الناقدين الاجتماعيين الذين ينكرون شمولية طور المراهقة في الحياة هم عادة مثل آرييه، تضللهم التقسيمات ضمن العصرنة نفسها، تلك التقسيمات التي تضفي غالباً صفة زائفة على الفئات السياسية، اليسارية واليمينية. والمفهوم الغربي للطفولة يصور الطفولة، وبشكل بارز أحياناً، على أنها انعكاس للمجتمع الوسيطي المفقود الذي كان يتميز بالعفوية، والروحانية، والفطرية، وفي أحيان أخرى كبشير بالتقدم الاجتماعي ووسائل اختباره للعقلانية، والمساواة، والفردية.

بعض النقاد الذين يتشابهون مع سياسيي اليسار هم من المثاليين الاشتراكيين الذين يؤيدون بحماس الاعتقاد بأن الأشكال الاشتراكية تحديداً هي التي يمكنها أن تكوّن شخصية الطفل وتصوغ الراشد إلى مواطن صالح. فالطبيعة الإنسانية، بالنسبة لهم، لاحدود لمرونتها. وكل مايحتاجه المرء لتوسيع الإمكانية النفسية هو تعديل البنى الاجتماعية.

وأحس هؤلاء المصلحون بالضيق من المسائل البيولوجية. فقد نظروا بشيء من الارتياب إلى عبارات مثل "الطبيعة الإنسانية"، و "القوانين الطبيعية"، و "الحتمية البيولوجية". وأكدوا بأن المجتمع، في محاورته مع الطبيعة، هو الذي يفرض نموذجه عليها. وفي لحظات أخرى تاريخية كان هؤلاء المثاليون اليساريون يقومون فجأة بتغيير وجهات نظرهم. وعندئذٍ كانت تمجد فضائل البراءة الطبيعية المزعومة لحرية الانتقال. وهنا يصبح المجتمع هو الخصم.

وفي الطرف المقابل وقف المسيطرون من اليمين، الذين كانوا يريدون المحافظة على الوضع الراهن بأي ثمن. ففي رأيهم أنه لايجب أن يحدث شيء جديد. وكل احتمال للتغيير يجب أن يوجَّه بحيث يصب في مجاري التقليد. ولا يجب أبداً أن يتاح للضغوط في حياة الأفراد أن تعطل عجلات الآلية الاجتماعية. فالبيولوجيا قيد، عائق يتدخل في التثقيف الاجتماعي. وتسود أحياناً شعارات أخرى، وخصوصاً عندما يحاول أي من القطاعات الاجتماعية التخلص من نير التقليد. وعندئذٍ نسمع أن "الطبيعة طيبةُ إجمالاً" و "الغرائز غير قابلة للتغيير وهي عطاء من الله".

إن احتمال وجود توتر مهم متأصل بين الطبيعي والاجتماعي، توتر يمكنه أن يحمي الفرد من طغيان ماهو طبيعي وماهو اجتماعي، هو في نظر اليسار انحراف رجعي وفي نظر اليمين رأي لم يستقر بعد لقلب السلطة. والواقع أن الجانبين يتفقان في هذه الأيام، حتى ليصعب التمييز بينهما، على فكرة أن المراهقة ليست أكثر من رواية خيالية، مجرد بدعة خلقتها العصرنة، تجعلنا نستنتج بأن الانتقال من الطفولة إلى الرشد بات ينطوي على تهديد خطير.

أن يصل الطفل إلى مرحلة البلوغ الجنسي حقيقة بيولوجية. ولكن مايبقى غامضاً، ليشكل بغموضه تهديداً كامناً، هي العلاقات بين النضج الجنسي والنضج الأخلاقي. وفي كافة المناقشات التي تدور حول وجود المراهقة، هناك شيء من الإجماع حول أن البلوغ يمثل صراعاً مع البنى الاجتماعية. ولكي يتعامل الجيل الراشد مع تحديات الأشخاص الذين هم على وشك أن يصبحوا الجيل التالي، فإنه يخترع دائماً بعض الصيغ الاجتماعية التي تقنن وتنظم النشاط الجنسي البلوغي. وما هو جدير بالملاحظة أكثر من التجنيس المماثل homogenization المفترض للطفولة-البلوغ-الرشد خلال القرون الوسطى أنه حتى في تلك الظروف اليائسة كانت قوانين الفروسية تسنّ صيغة من المراهقة، أو النمو إلى سن

الرشد، يترقى الصبي بموجبها من غلام للفارس وهو في السابعة إلى تابع له في الرابعة عشرة إلى الفروسية الفعالة في الواحدة والعشرين من العمر. ولوحظت ترقيات مماثلة في تكريس المترهبنين الجدد في الكنيسة وفي الترقي من متدرب إلى مياوم إلى معلم حرفة في النظام النقابي.

يسعى كل مجتمع إنساني إلى حماية ذاته عن طريق ابتداع المراهقة التي يحتاجها. وبطريقة أخرى يمكننا القول بأن كل مجتمع يبتدع المراهقة التي تصلح له وبعدئذٍ يعتبرها بدعة مرعبة، أو مقدسة، أو بطولية. ويميل الراشدون إلى نسج الأساطير حول معنى المراهقة. وأياً كانت ميولهم السياسية أو الشخصية، سواء كانوا يجلون الطبيعة أو يحترمون المجتمع، وسواء اندمجوا مع الشباب أو حطوا من قدرهم، فإنهم يجدون أنفسهم ملزمين في نزع فتيل الحيوية المرعبة عند هؤلاء الشاذين، والقديسين، والأبطال.

2

"مخترعا" المراهقة
جان جاك روسو و ج. ستانلي هول

عندما ينسب الكتّاب اختراع المراهقة إلى جان جاك روسو فإنهم يقصدون عادة أنها، بوصفها طوراً من أطوار الحياة، لم تكن موجودة قبل أواخر القرن الثامن عشر أو أن المراهقة *الحديثة* كانت تأويلاً خيالياً من تأويلات روسو التي تسربت تدريجياً إلى الوعي الغربي ثم استمرت بعد ذلك لتصبح الأسطورة المشؤومة التي يفرضها الكبار على الناشئين. والواقع أن روسو لم يخترع المراهقة. ولكنه كشف للعالم الحديث المأزق الإنساني المميز الذي ينشأ عندما يباشر طفل مسؤولياته الجنسية والأخلاقية كبالغ. كان المأزق موجوداً ينتظر من يكشف عنه، وكان إدراكاً ثقافياً مسلماً به عند مجتمع الصيد والحضارات القديمة التي سبقت عصر حركة التنوير.

إن كثيراً من سوء الفهم لاكتشاف روسو جاء من العرف السائد الذي كان يخلط بين روسو الإنسان وبين الروح الحقيقية لفلسفته الأخلاقية. وعلى أبواب القرن العشرين، قُدِّر لعالم النفس الأمريكي ج. ستانلي هول أن يعاود اكتشاف المراهقة ويكتشف فيها التوترات نفسها، الجنسية-الأخلاقية، التي كان روسو قد أتى على وصفها قبله بقرن ونصف القرن تقريباً. وهول، كرجل محافظ تربىّ على المبادىء الخلقية البيوريتانية، فشل أيضاً في التمييز بين العبارات الفلسفية الغامضة عند روسو وبين شخصيته الغريبة. فهو لم يدرك بأن مكتشفاته الخاصة بالمراهقة تنطوي على تشابه غريب مع مكتشفات روسو الوثني الثوري.

اعتبر روسو، تلك الشخصية البارزة التي استقطبت كامل الحركة الفكرية طوال حياتها (1712-1778) وما بعدها، "العقل المدبر للثورة الفرنسية"، أو "مهندس الديموقراطية"، أو "الابن الحقيقي لأفلاطون"، أو "أبو الفلسفة الأخلاقية الكانطية"، أو "روح

الرومانتيكية" أو "شاعر الطبيعة"، أو "ممجّد الأصالة البدائية"، أو "المدافع عن الرغبة ضد سيطرة العقل والمقدس". أو كما كتبت السيدة دو شتايل عنه "إنه لم يبتكر شيئاً بل أشعل النار في كل شيء".

ومجاراة للصفات الروسويّة، تضمنت صورة المراهقة، التي سيطرت على الوعي الغربي منذ القرن الثامن عشر، الثورة، والمثالية الاجتماعية والأخلاقية، والرومانتيكية، والطبيعية، والأصالة، والبدائية، والرغبة: وباختصار، تضمنت تلك الصورة "حماس الشباب".

وبالقدر الذي اعتبرت فيه كتابات روسو وسيلة لنقل روح المراهقة، فإن شخصيته انتهت إلى تلخيص ماينسب إلى سنوات المراهقة من مثالية ساذجة وعاصفة وكرب. والميل إلى الربط بين روسو وتطرف المراهق جعل من المقبول اعتباره قوة عاطفية أكثر منه مفكراً جاداً وأنه يتخذ هوية تقع بين طريقته المتهورة، التشردية، البوهيمية، غير التقليدية في الحياة وبين القيمة الحقيقية لكتاباته. وعلى غرار البورجوازية الأوروبية النبيلة والغنية (نموذج كان روسو يزدريه) التي جذبتها في البداية تعابيره الأخّاذة، ونكاته الساخرة، ونغماته الأخلاقية المشبوبة، وطباعه، وعواطفه، فإن معظم القرّاء قلما أزعجوا أنفسهم في التفكير حول معنى نصوصه وحدها. وقد قيل بأن التناقضات الداخلية في كتاباته كانت انعكاساً مباشراً لشخصيته المتناقضة. وفي الوقت نفسه، يقوم منتقدو روسو بالتنبيه إلى التباين الواضح بين مبادئه المعلنة عن الكرامة الإنسانية وبين طريقته البائسة في الحياة.

وفي القرن الثامن عشر، قد يكون عمانوئيل كانط هو المفكر الوحيد الذي استساغ تماماً المادة الفلسفية في كتابات جان جاك روسو. وحتى ثلاثينات هذا القرن، عندما بدأ إرنست كاسيرَر بتقييم البراعات الدينامية في فكر روسو، كان من المقبول أن يتعامل النقاد مع روسو بالطريقة نفسها التي يتعامل فيها كثير من الكبار مع مراهق متمرد معقد، أي تعامل ينطوي على خوف، وشك، ثم يتحول فيما بعد، واعتماداً على استعداداته الشخصية، إلى معاملته بسخرية أو بإضفاء المثالية على الاحترام، وهي مجموعة من ردود الأفعال يمكن أن تؤدي فقط إلى التتفيه.

وبعد مبادرة كاسيرر، عمل المفسرون الحديثون على إنقاذ كتابة روسو من السيرة العاصفة التي ألهمتها مادتها وأفكارها. لاشك في أن أعماله تمثل جهداً بطولياً لتحليل ومعالجة الذات، إلى الحد الذي نقحت معه الصراعات الجنسية والأخلاقية التي لم يتمكن

من حلها في حياته الخاصة عن طريق تقديس الفضيلة التي يعبر عنها عمله. ويقال اليوم بأن روسو هو من أول ضحايا الحداثة، لأنه نفي من ذاته ومن مجتمعه. لقد تنبأت شخصيته الممزقة بحدوث الانقسامات داخل الوعي الحديث. وهو الوحيد من بين فلاسفة حركة التنوير الذي أدرك أن المؤهلات التي تميز بني البشر عن البهائم هي الخيال والكفاح في سبيل تقويم الذات أو الكمال. وأوضح بأن هذه المؤهلات هي من ثوابت الوجود الإنساني التي يتعذر تغييرها وهي مصدر للدوافع الأكثر بهيمية ولأسمى الفضائل عندنا، تلك التي تخرب وتبدع، وتفسد وتهذب. عندما يمكن للبلوغ الجنسي، في طور الحياة عند المراهق، أن يزود الطموح الأخلاقي بالوقود، فإنه ينعش الأمل في إمكانية التوفيق بين التناقضات الملازمة للخيال الإنساني وبين رغبته في الكمال. توحي العبارات المتناقضة والكلمات المبهمة في عمل روسو بعمق المأزق الأخلاقي عند النوع الإنساني، عند كل منا في كفاحه للوصول إلى الكمال، وهو مطمح لابد من الاعتراف بأنه يتعذر بلوغه.

ولد روسو في جينيف في 28 حزيران عام 1712. كان أبواه بروتستانتيان ومن طبقة محترمة. ويرجع في نسبه من جهة أبيه إلى جد جده، الذي هاجر من باريس واستقر في جنيف في مطلع حركة الإصلاح الديني (1529). ويقال بأن أباه إسحق، وكان ساعاتياً، احتفظ ببعض الصفات الفرنسية. فقد كان غزلاً ورومانسياً، ويحب ملذاته. ولا نعرف عن أمه سوزان سوى أنها ابنة رجل دين وأنها كانت حساسة، ورومانسية ذكية توفيت بعد تسعة أيام من ولادتها لـ جان-جاك. وكان لروسو أخ أكبر منه بتسع سنوات، كان يتعلم مهنة أبيه، لكنه ماأن توفيت أمه وأهمل من قبل أبيه الثاكل حتى هرب ولم يسمع أحد بعد ذلك عنه شيئاً.

على الرغم من حزنه غير العادي، تعلق اسحق كثيراً بجان-جاك، الذي كان يذكّره بزوجته. فأحبه وأعجب به بإفراط. وأحاطته عمته، وكانت رقيقة حساسة، برعايتها الدقيقة. واستمرت رعاية عمته ومربيته جاكلين له حتى غادر بيت أبيه وهو في الثامنة من عمره، وقد أسهمت كلتاهما إلى حد كبير في إفساده. فقد أسرفتا في تدليله ومنعتاه من اللعب مع أطفال الجيران أو مرافقتهم.

وبعد طعام العشاء، كان إسحق يقرأ على مسامع جان- جاك من مكتبة أمه روايات رومانسية عاطفية وتاريخية. وفيما بعد، عندما تعلم القراءة ونضبت مكتبة الأم، تحول الغذاء إلى بلوتارك، وأوفيد، وناني، وفونتنيل. وكان جان جاك يفضل بلوتارك.

كان غابرييل، أخو سوزان روسو، قد تزوج واحدة من أخـوات إسـحق. وهكـذا تهيأ لجان-جاك مايدعى برابطة "أبنـاء الخـال المضـاعفين". وبمـا أن والـده أجبر علـى مغـادرة جنيف بسبب جدل قانوني، فقد أرسل إلى خاله غابرييل وهو في الثامنـة. فأسـرع هـذا إلى إرساله مع ابن له بمثل عمره، يدعى برنار، للعيش مع قسٍّ، هو السيد لامبرسييه، في قريـة بوساي الريفية.

يستذكر روسو السـنتين اللتيـن عاشـهما فـي بوسـاي كفـترة مثاليـة. وكـانت الرابطـة العاطفية بينه وبين برنار قوية جداً. درس كلاهما مذعنيْن اللغـة اللاتينيـة وخلاصـة العقيـدة الدينية و "كل ذلك الهراء التافه أيضاً الذي يندرج تحت اسم التعليم". أمـا الآنسـة لامبرسـييه أخت القس فقد تعاملت مع الطفلين بحـب الأم، وكثيراً مـا مارسـت عليهمـا سـلطة أموميـة، بالتهديد أولاً ثم بإنزال مختلف أنواع العقاب. فكانت أحياناً تضرب جان-جاك بعنف، لكنهـا سرعان ماتخلت عن هذا الشكل مـن العقـاب. ومـن المرجـح أن روسـو كـان يسـتثير تلك الضربات ، لأنه كـان يسـتمتع بهـا تمامـاً. فمنهـا اكتشـف "فـي خـزي العقـاب وألمـه مزيـج الشهوانية التي جعلتني أتوق تقريباً إلى تكرارها باليد ذاتها".

وأخيراً، وبعد أن تعرض الولدان لعقاب جائر بسبب مخالفة بيتية طفيفة، بدآ يشعران بالكراهية نحو آل لامبرسييه. وفقد الفردوس الأرضي في بوسـاي بريقـه. وراحـا يتكتمـان، ويتمردان، ويكذبان. وعندما جاء الخال غابرييل لنقلهما من تحت رعاية آل لامبرسـييه، لـم يعبر أي من الجانبين عن أسفه.

وبعد سنتين، بدأ كل من برنار وجان-جاك بالتدرب علـى مهنـة مختلفـة. وقـد أحسـا بأسى ساحق بسبب افتراقهما عن بعضهما. تدرب جـان-جـاك عنـد نقّـاش "نجـح فـي وقت قصير جداً في إخمـاد كـل حمـاس فـي طفولتـي، وفـي تخشـين عـاطفتي وطبيعتـي المفعمـة بالنشاط؛ وحجّمني روحاً وواقعـاً إلـى وضعـي الحقيقـي كصبـي متـدرب ". وعندمـا اقـترب روسو من السادسة عشرة، قـرر أن يرتحـل سيراً علـى القدميـن. وليـس فـي التطـابق بيـن المراهقة الواقعية والخيال عند جان-جاك مايدعو إلى الدهشة، طالما أنـه رجـل قـدر لـه أن تكون حياته بالكامل صورة مصغرة للمراهقة.

كانت الضربات الأمومية التـي تلقاهـا جـان-جـاك مـن الآنسـة لامبرسـييه هـي التـي ولّدت عنده أولى الإثارات الجنسية. وهذا الانحراف الطفولي هو الذي حدد ميوله ورغباتـه الجنسية بقية حياته. لم تكن لديه أية معرفة حول الجماع الجنسي. وكان يشعر بـالخوف عنـد

مشاهدته تسافد الحيوانات. كما كان يعرف تلك الرعشة الغامضة التي كان يولّدها ضربه. وهكذا تكونت أفكاره الجنسية عن طريق ماشاهده وما أحس به. مع ذلك، عمل خوفه من إنجاز مايدور في خياله على إبقائه طاهراً جسدياً حتى بعد بلوغه. " التوقد في دمي يملأ تفكري باستمرار بصور النساء والفتيات. ولكن عدم المعرفة بالطبيعة الحقيقية للجنس، تجعلني أتخيل أنهن يتصرفن وفقاً لنزواتي الغريبة".

كان جان-جاك قلقاً، شارد الذهن، حالماً. يبكي ويتحسر. ويتوق إلى متعة لايدرك كنهها. وفي هذا الارتباك المتقد، راح يتردد على الأزقة المعتمة والمواقع الريفية المنعزلة لإظهار قضيبه للفتيات غير المشبوهات. وأخيراً، وبعد "انفجار لاإرادي"، أكتشف "أن الوسيلة الخطرة للطبيعة الخادعة، التي تقود شباباً من طبيعتي إلى مختلف صنوف التجاوزات، بحيث تتعرض في النهاية صحتهم، وقوتهم، وأحياناً حياتهم للمخاطر..... تتيح لهم التصرف، إذا جاز التعبير، بكامل الجنس الأنثوي وفقاً لرغباتهم، وخلق أي جمال يغريهم ويحقق متعتهم بدون حاجة للحصول على موافقتهن المسبقة".

تحقيق الهدف يخلف شعوراً بالإثم والخجل. كان جان-جاك يتوق في تخيلاته الجنسية إلى متعة جنسية طاهرة يمكن أن تجمع بين الإشباع والبراءة. وكان يعاني أحياناً من مشاعر عدم الكفاءة. ثم تستبد به فجأة أوهام الاقتدار الكلي وأحلام المجد. وكانت تعذبه التناقضات بين رغباته للصلات الجنسية الصميمية وتشوفاته للوحدة والخيال. كل هذا يكشفه روسو لنا في ***اعترافاته***، التي كتبها في إنكلترا في أواخر خمسيناته بعد نفيه من فرنسا وبعدها من جنيف "مسقط رأسه".

بعد فراره من عند النقّاش ومن وطنه، وكان في السادسة عشرة من عمره، طاف جان-جاك وهو لايملك فلساً واحداً في الأرياف السويسرية، والباريسية، والإيطالية. جاس في شوارع تورين، وعمل خادماً في فيلا أحد الكونتات، وتسكع على مقربة من أنينسي، فسرق، وتسول، وأظهر قضيبه، وقاوم الإغراءات الجنسية لمختلف الرجال والنساء ممن صادفهم في تجواله عبر أوروبا. وذات مرة، وفي فورة من الحماس الديني، تحول إلى الكاثوليكية.

وبين العشرين والتاسعة والعشرين من عمره، عاش على نحو متقطع في الشارميت، وهو بيت في الريف الفرنسي للسيدة دو وارن، وهي امرأة تكبره بـ 12 عاماً، كان أحد

الكونتات أغواها عن زوجها ثم أحبها بعد ذلك عدد من الرجال. ومنذ أول لقاء بينهما أصبح مفهوماً بأن جان-جاك بات "حبيبها الصغير" وهي "أمه". درس روسو في دار السيدة دو وارن التأليف الموسيقي، والهندسة، واللغة اللاتينية، والفلك، والفلسفة في كتابات أفلاطون، و لوك، وأرسطو، وديكارت. وصممت "ماما" أيضاً على إنقاذ صغيرها من إغراء مخادعة الطبيعة. فقررت أن تقوده إلى الرجولة الحقيقية. باشرت مهمتها بروح التثقيف الهادىء. وهكذا وجد روسو نفسه لأول مرة، وهو في مطلع العشرينات من عمره، بين ذراعي امرأة. فهل كان سعيداً؟ "لا؛ تذوقت المتعة ولكن حزناً لايقهر، لم أعرف كنهه، كان يسمم سحرها. كنت أشعر وكأنني أقترف سفاح القربى، فقد بللت صدرها بدموعي مرتين أو ثلاثاً وأنا أطوقها بين ذراعي منتشياً". وأخيراً، وفي التاسعة والعشرين من العمر، وبعد نشأة مديدة وزاخرة بالأحداث إلى سن الرشد، اتجه روسو صوب باريس، على أمل أن يحصل على الشهرة والثروة في عالم الموسيقا.

كان كل مالديه من موارد عندما وصل إلى باريس نسخة من أوبراه الكوميدية *نرسيسوس*، وهو مخططه الشخصي للتدوين الموسيقي، و15 ليرة فرنسية ذهبية. وتم تقديمه إلى موسيقيين، وأكاديميين، ونبلاء، لكنهم رفضوا جميعهم نظامه الجديد للتدوين الموسيقي. ولم يمض وقت طويل قبل أن تستبد الحاجة به من جديد. وعندما استنفذ تقريباً آخر فلس لديه، تلقى بعضاً من عبارات النصح من كاهن يسوعي كان من مؤيديه: "بما أن الموسيقيين والمنظِّرين سوف لن يغنّوا في النغم الأحادي معك، لذلك عليك أن تعمل على تبديل وَتَرِك وتجريب النساء". ولم يكن روسو بأسلوبه الريفي وخجله الاستثنائي لينسجم مع الأسلوب الباريسي. لكنه نجح في أن يستحوذ على خيال إحدى النبيلات، التي نجحت بدورها في إيجاد منصب له كسكرتير للسفير الذي عين مؤخراً في البندقية. تعرض روسو خلال الـ 18 شهراً التي قضاها فيَ البندقية إلى الفساد التام الذي تعرفه الحياة الديبلوماسية، وهي تجربة سوف تؤثر بعمق على بحوثه السياسية التالية.

وفي عام 1743، عاد روسو إلى باريس رجلاً مهذباً رزيناً. وسرعان ماستأنف أساليبه البوهيمية، فشغف بخادمة بليدة هي تيريز لو فاسو، التي أصبحت خليلته واستمرت رفيقة مخلصة له إلى آخر حياته. وخلال حياتها معه، ولدت له خمسة أطفال. وعلى ضوء آرائه المثالية حول الطريقة الطبيعية لتنشئة الأطفال، وواجب الآباء في تربية أطفالهم،

وضرورة الإرضاع الطبيعي، بالغ منتقدوه في مسألة أن أطفاله الخمسة أرسلوا ليتربوا في بيوت اللقطاء، وبعد ذلك، لم ير الأبوان أياً منهم.

ويؤكد بعض النقاد أن التخلي عن الأطفال عمل يدل على النفاق الأخلاقي عند روسو. بينما اعتبره آخرون دليلاً على كذبه. فيدّعون بأن "أسطورة الأطفال الخمسة" هي مجرد تبجح كاذب من قبل رجل مغرور أراد بها إخفاء حقيقة كونه عنيناً. وعقّب روسو على مجمل هذه القضية قائلاً: "سأكتفي بأن أبين بأنني سلمت أولادي إلى الدولة بسبب افتقاري إلى وسائل تربيتهم بنفسي، لتتولى هي تربيتهم وذلك عن طريق توجيههم لكي يصبحوا عمالاً وفلاحين بدلاً من أن يصبحوا مغامرين ومتصيدي ثروات، وظننت بأنني إنما تصرفت كمواطن وكأب، معتبراً نفسي عضواً في جمهورية أفلاطون".

بالكاد كانت تيريز تعرف القراءة. وعلى الرغم من الجهود الأولية التي بذلها روسو لتحسين ذاكرتها، فإنها لم تستطع أبداً معرفة الوقت أو تعداد أشهر السنة أو عدّ الدراهم. ومع كل قصورها، "غباتها، إذا أحببت"، كان روسو يعيش بسرور معها "كما لو كان يعيش مع أذكى إنسان في العالم". وسرعان ماعترف به كنجم صاعد في عالمي الموسيقا والأدب. وخصوصاً بعد تمثيل إحدى أوبراته في فرساي. واشتهر في عالم السياسة أيضاً مباشرة بعد نشره لأول مقالة رئيسية تتعلق بالشؤون السياسية.

انغمس روسو، وقد أصبح الآن في منتصف الثلاثينات، في حياة الصالون الفرنسي، طافحاً ببراءة القلب، وصفاء الأفكار، وهي فعلاً صورة الشباب الغض، المعرّض للخطر والسريع التأثر في عالم الكبار الساخرين. كان قلقاً، أخرق، يتلعثم عند النطق، مهملاً للباسه (حاول أن يقتدي بأصول اللباس الباريسي لكنه تخلى عنه بسرعة)، ويتصرف على نحو مختلف كلياً عن تقاليد الصالون. وكانوا يتحملونه، لابل ويعجبون به، لولا أنه كان يعتبر فضولياً.

طبعاً، لم يكن روسو مراهقاً عندما بدأ بكتابة رسائله الشهيرة حول الإصلاح الاجتماعي والتربوي. كان راشداً من النوع الحساس إلى حد المرض، ذكياً جداً، شجاعاً روحياً، ولكنه كان ضعيف الوعي فيما يخص انسجام معتقداته ولا يتمتع إطلاقاً بأية روح فكاهية. لم يستطع أن يتحمل الأسلوب المتكلف في الحديث، والتديّن لأعيان ***فلاسفة*** حركة التنوير، الذين كانوا أنداداً له من الناحية الفكرية.

لم يكن ***فلاسفة*** حركة التنوير الفرنسية، ومن بينهم مونتسكيو، وديدرو، وفولتير، فلاسفة أبراج عاجية. بل كانوا رجال فعل، ومؤلفي كراريس، ودعاة. وكانت أفكارهم الثورية تهدف إلى ممارسة تأثير مباشر على العقائد الاجتماعية والدينية في عصرهم. و ***هؤلاء***، باستثناء ديدرو، لم يهتموا كثيراً بـ روسو. ومع أنه اتفق معهم حول رؤية عالمية تتضمن إعادة تقييم الأنظمة الدينية، والأخلاقية، والسياسية، والافتراض بأن الحقيقة تكمن في قوانين الطبيعة واستخدام العقل، لكن شخصية روسو ومقاربته للطبيعة الإنسانية كانت تسيء لمعتقداتهم الأساسية.

كان روسو بطبعه انعزالياً، يفضل الوحدة والبيئة الريفية على مجتمع الرجال وحياة المدينة. وعندما تحققت شعبيته الواسعة، شكّل نفاذ صبره من العادات الزائفة روح العقود التالية. ففي إنكلترا، وألمانيا، وإيطاليا، وفرنسا أصبح الإلهام والعاطفة، وهو ميل إلى طبيعة لم تُفسَد وحدائق خارجة عن الشكل، زياً سائداً. سار روسو في هذا الاتجاه في طليعة ***فلاسفة*** حركة التنوير، الذين عبروا بشكل عام عن الجوانب "العقلانية" في حركة التنوير. وروسو الذي دفع الحركة إلى العصر الرومانسي كان منبوذاً بين هؤلاء الفلاسفة. وحتى ديدرو تخاصم معه في النهاية. كان ديدرو ملحداً، فاستنكر تشبث روسو بالربوبية*، أي إيمانه بأفعال الإله. ولكن البدائية الظاهرية عند روسو هي التي أزعجت ديدرو في نهاية الأمر.

في عام 1749، عندما كان روسو مايزال الصديق الحميم لديدرو وزميله، وكان مايزال يأمل في كسب احترام أنداده، فاز بجائزة أكاديمية ديجون من أجل ***محاضرته حول العلوم والفنون***. كان شهيراً على الرغم من رسالته، التي كانت هجوماً على الفنون والعلوم: "... فسدت أرواحنا بمقدار ماتقدمت علومنا وفنوننا نحو الكمال". عبّر روسو عن ***المحاضرة الأولى*** هذه، وهي التسمية التي عرفت بها، بإلهام مفاجيء، شبيه بتحول ديني، وأسهم وصفه لإلهامه في شهرته كمراهق أبدي:

> أحسست بنفسي فجأة وكأن ألف ضوء متلألىء يبهرني؛ وازدحمت في ذهني بقوة حشود من الأفكار الحية وأسلمني التشوش إلى اهتياج لايوصف. قضيت نصف ساعة في تلك الحالة من الإثارة حتى أنني عندما نهضت رأيت مقدمة صدرتي مبللة

* الاعتقاد بالله وحده وإنكار الوحي والأنظمة الدينية-المترجم.

بالدموع، مع أنني لم أشعر إطلاقاً بذرفها. آه، لو أنني أستطيع في أي وقت أن أكتب ربع ماأدركته وأحسست به تحت تلك الشجرة، إذن لكشفت بوضوح عن كل التناقضات التي تنطوي عليها حالة مجتمعنا؛ ولأثبتت ببساطة بأن الإنسان صالح بطبعه، والمؤسسات الاجتماعية فقط هي التي تفسده.

وبعد عدة سنوات، تقدم روسو بطلبٍ للحصول على الجائزة الثانية للأكاديمية. لكنه لم ينجح في هذه المرة. فـ ***محاضرته الثانية (حول أصل وأسس التفاوت الاجتماعي)***، وهي بحث أسيء فهمه إلى حد كبير، والذي صدف أن اعتبر كأنشودة نصر للإنسان البدائي الطيب، كانت في الواقع هجوماً على إساءة استعمال الأملاك الخاصة وتاريخ النوع الإنساني. هنا يرسم روسو صورة البدائي كشخص بريء يمكنه إشباع حاجاته من خلال الغريزة والأسرة البسيطة والحياة القبلية. ومع نمو الملكية، نشأت الحرب، والجريمة، والبؤس. وأصبحت الشرور التي لاتعرفها البدائية اليوم قدراً عاماً للنوع الإنساني.

وعلى الرغم من كل حنينه إلى الماضي، فإن روسو لم تغب عن إدراكه حقيقة أن الإنسان لايمكنه العودة أبداً إلى حالته الطبيعية. لقد استخف بالنظام الاجتماعي الراهن، لكنه كان يلح دائماً على أن الطبيعة لاترجع إلى الوراء. كانت كتاباته تفجعاً على الشرخ بين الميول السامية للطبيعة والنظام الاجتماعي. وصوّر الروح الإنسانية المتمدنة كمملكة انقسمت على نفسها، على نحو خائن لطبيعتها الخاصة وغير ذي غناء للمجتمع. فالإنسان الذي لم يعد مخلصاً لنفسه (حبه لنفسه، ***حبه لذاته***) لايمكنه أن يكون مواطناً حقيقياً على وجه الأرض.

وفي اعترافه باستلام مقالة روسو حول التفاوت الاجتماعي، شكره فولتير من أجل "كتابه الجديد ضد الجنس الإنساني"، وأضاف بأن المقالة جعلته "أتمنى لو أمشي على أربع، لولا أنني فقدت هذه العادة منذ أكثر من ستين سنة، وأدرك أن ذلك مستحيل لسوء الحظ".

حظي ***إميل، أو حول التربية***، وهو الكتاب الذي عجّل بنفي روسو، ترحيباً عاماً على اعتباره "البحث الأكثر تأثيراً في علم التربية كتب حتى الآن". وإلى هذا التقدير، أسرع بعض المربين والفلاسفة بإضافة كلمات مثل " والأكثر سوءاً" أو "غير العملي إلى حد بعيد". وفي ***إميل*** "اخترع" روسو طور المراهقة في الحياة.

ولكي يتجاوز رقابة السلطات الباريسية للمطبوعات، قام بنشر ***إميل*** و ***العقد الاجتماعي*** في أمستردام. ولكن تم بعد ذلك، في عام 1762، تهريب عدد من النسخ إلى

داخل الأراضي الفرنسية، وسرعان ماأقبلت الطبقات العليا الباريسية على قراءة الكتابين بنهم. ولم يكد *إميل* يصل إلى أكشاك بيع الكتب في باريس حتى أثار عاصفة. وكان الكتابان *العقد الاجتماعي* و *إميل*، وكلاهما كتبا خلال السنوات الأربع الماضية، من نسيج فلسفي واحد. وأحدث *العقد الاجتماعي* بعض هزات خفيفة، في حين زعزع *إميل* أسس الهيكل الأوروبي. وجاء الغضب ضد الكتاب بمثابة صدمة لروسو.

كان مرسوم باريس، 8 مايس 1762، موجهاً ضد مؤلف *إميل* وكامل المجلد، وخصوصاً ضد مجاهرته بعقيدة منحرفة عن العقيدة الدينية. وشُجب *إميل* من قبل رئيس أساقفة باريس. وأدين الكتاب أيضاً من قبل السوربون وبرلمان باريس. وتمت مصادرة كافة النسخ الموجودة وحرقها. وأوصي بالموت أو بالسجن للمؤلف. ولكن أتيحت لروسو فرصة "الهرب" إلى جنيف.

تمثلت خطورة *إميل* على وجه الدقة في جاذبيته، وهو أمرٌ لم يتمكن روسو من إدراكه. فالبساطة والنزعة العاطفية الرقيقة ، والرؤية الريفية للطبيعة الإنسانية، وأسلوبه الرمزي، وحكمه ومفارقاته البارعة المشوقة كانت مناسبة تماماً للاستحواذ على خيال الطبقات الأوروبية الحاكمة والبورجوازية الثرية. وكان هجوماً على الاتجاه السائد في فكر *فلاسفة* حركة التنوير، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أنصاراً للعقل والطريقة العلمية. كانت المقدمة المنطقية الأساسية في عصر التنوير هي العقل، واعتبر فولتير ممثلاً لهذا الجانب في ذلك القرن. وقد قيل " في إيطاليا حركة النهضة وفي ألمانيا حركة الإصلاح وفي فرنسا فولتير". واشتهر فولتير أيضاً في كونه متكبراً انتقامياً، حاقداً، ضيق الأفق، لايتورع عن استخدام أساليب غير شريفة إذا رأى فيها تحقيقاً لأغراضه. وكان يغار من كل من ينافسه على جذب اهتمام الناس. أما روسو فكان ملتزماً بإغاظته بكل طريقة. وقد ساد الظن بأن فولتير أقنع *الفلاسفة* الآخرين بالتعاون مع مراقب المطبوعات في شجب *إميل* ووصم روسو بالهرطقة. ومثّل *مشاعر المواطنين* لـ *فولتير*، وهو هجوم على روسو، المرحلة الوضيعة في سيرة حياته. فقد وصف روسو على أنه رجل مخبّل، عنيف، تحريضي، معاد للمسيحية، يستحق عقوبة الموت. وتعاون العقل مع الإلهام على تطهير الأرض الفرنسية من اللاعقلانية والعاطفة.

وفولتير بالذات سجن مرتين في الباستيل وعاش فيما بعد في المنفى مفضلاً ذلك على أن ينكر معتقداته. وقضى ديدرو بعض الوقت في السجن. وقد عانى كل كاتب تقريباً

من كتاب حركة التنوير من حظر كتبه أو إحراقها على مشهد منه. وكان ناشرو الكتب وبائعوها أيضاً معرضين لعقوبة السجن. والأمر الشاذ في حالة روسو هو أنه نجح في الإساءة إلى كل حزب، وليس فقط إلى الحزب الديني الأورثوذكسي، الذي كان يضم النبلاء، بل أيضاً إلى *الفلاسفة*، الذين حرضوا على الظلم كما يقال.

قلبت جنيف، الوطن الأم لروسو، ظهر المجن له لتغدو زوجة أبٍ قاسية. فهنا فُسِّر *العقد الاجتماعي* على أنه هجوم على النظام السياسي فيها. وفي غضون أسبوع من وصول روسو إليها صدر مرسوم يقضي بطرده ومصادرة *العقد الاجتماعي* و *إميل*، الأمر الذي أكد شهرته كبطل وشهيد. وبعد بضعة أشهر من التطواف مع تيريز في الأراضي السويسرية، قبل روسو دعوة ديفيد هيوم للعيش معه في إنكلترا. وكان عليه أن يمر في باريس وهو في طريقه للانضمام إلى هيوم. كان روسو يخشى من تعرضه للمضايقة، لكنه وجد نفسه، بدلاً من ذلك، محط احترام وإكبار. وعلق هيوم قائلاً "حقاً، لقد بزّ (روسو) فولتير والجميع".

إميل رواية رمزية، نظمت في خمسة كتب ونسجت في عدة مستويات تتعلق بالفكرة الرئيسة. وعولجت المواضيع فيها بما يتفق مع الكتب الخمسة الأولى من الـ *الجمهورية*. تعبر نظريات روسو عن ولائها لكلاسيكية الأغريق وترد على الظلم الاجتماعي والأخلاقي في مبادىء أفلاطون. وإميل، الشخص، يشبه المدينة الفاضلة التي ورد وصفها في *الجمهورية*، طفولته ومراهقته مثل أعلى للكمال الممكن لكنه كمال بعيد المنال بالنسبة للكائن الإنساني.

وعن طريق دراسة الإنسان كمخلوق يتطور، نادى روسو بمركزية التاريخ لفهم النوع، المجتمع، الفرد. كان ينبغي للمذهب التاريخي أن يكون حاسماً بالنسبة للفلسفة السياسية عند مفكرين مختلفين مثل هيغل وماركس، وتوكيفيل، وكونت، وسبنسر، وميل، وداروين وفرويد طبعاً. و *المحاضرة الثانية* هي تاريخ النوع الإنساني وتطور المجتمع. *إميل* قصة إنسان فرد، ومراحل نموه الخمس منذ الولادة حتى المراهقة المتأخرة، مع وصفة للطرق التربوية المناسبة لكل مرحلة. *في إميل*، تفادى روسو عن عمد الشكل التقليدي للبحث الغيبي أو الأخلاقي. ومن الواضح تماماً أن *إميل* مُوَجَّه للآباء والأمهات وبشكل ضمني لجميع المهتمين بتحسين تربية الأطفال.

الكتاب I، حول الطفولة (من الولادةِ حتى الثانية من العمر)، خاص بالأمهات. أحدثت نصائح روسو العاطفية للنساء بضرورة تغذية أطفالهن بدلاً من استخدام المراضع حماساً فورياً للإرضاع الطبيعي بين النساء من الطبقة العليا. "لتتنازل الأمهات فقط لتغذية أطفالهن، وعندئذٍ سوف تصلح الأخلاق ذاتياً، وتستيقظ العواطف الطبيعية في كل قلب، فتعمر الدولة بالسكان من جديد". كان روسو أيضاً من أنصار إلغاء أحزمة التقميط ونصح بأن يجري تعليم المشي والكلام في أوانهما بدون قسر.

ومع ميله المميز إلى التناقض، أشهر روسو هذه الإصلاحات العملية بالأسلوب الأفلاطوني. فهاهو مثلاً بعد أن حضّ الأمهات علىإرضاع أطفالهن إرضاعاً طبيعياً، يعهد بتربية إميل، لالأم وأب، بل لمعلم شاب ذي "ميول صبيانية" يعرب عن رغبته (حتى بدون أجر) في الاضطلاع بتربية تلميذه لمدة خمسة وعشرين عاماً. وفيما يتعلق بالتلميذ، يوحي روسو بأنه من أسرة صالحة، قوي البنية، موهبتة عادية، غني، ولد في مناخ معتدل– مع الاتجاه إلى تفضيل فرنسا– و *يتيم*. ويختار المعلم مربية لمساعدته، وهي امرأة تتمتع بخلق حسن، لطيفة، صبورة، ونظيفة، أعربت عن رغبتها في البقاء مع إميل طالما هو بحاجة إلى مربية. وهنا، يطبق روسو المثل الأعلى على الحياة العملية، فيعلن بأن الأب والأم سيتصرفان كمعلم ومربية طبيعيين. وكهؤلاء الأشخاص المثاليين، يجب أن يركز الآباء كل جهودهم على تطوير طبيعة الطفل. فحضن الأسرة هو المكان الوحيد لتربيته المبكرة. وتبقى، بعد ذلك، تنشئة الأطفال وتربيتهم من واجب الآباء.

بدأ إميل وهو في الثانية عشرة من عمره يتلقى الرسائل من أبيه وأمه. وكان من جانبه يقوم بالرد عليها. ولكن هذه التناقضات الروسويّة لمْ تزعج أحداً من قرّائه المعجبين، في حين بنى من يحطون من قدره سيَراً على كشف مثل هذه الأخطاء. وروسو، الذي كان يدرك تماماً هذه التناقضات والمفارقات في كتاباته، حذر قرّاء *إميل*: "ليغفر لي القراء العاديون مفارقاتي. فعندما يفكر المرء بها، يجدها ضرورية، ومهما يقال، فإنني أفضل أن أكون رجلاً متناقضاً على أن أكون متغرضاً".

وفي الكتاب II، حول الطفل، (العمر من 2–12)، يتعلم إميل فقط مايقع في مدى حواسه الخمس. فقد انحصرت تربيته الأخلاقية بما هو عملي في الحياة، كأن لايؤذي الآخرين ويقدر مغزى إلملكية الخاصة. وفي الكتاب 3، حول الصبا (العمر من الثانية عشرة حتى البلوغ)، يجري تعليم إميل كيفية التعلم. يتابع روسو تنديده بكافة كتب التعليم.

ولكن هناك استثناء واحد، هو ***روبنسون كروزو***، لأنه يعتبره مادة أساسية للقراءة بالنسبة لليافعين. يولّد المعلم عند إميل حب القراءة لذاتها. فلاتقدم له ثقافة في العلوم، لكنه يتعلم كيف يقدر أهمية وخصوصية مختلف الفنون. ويتعلم أيضاً التجارة، والنجارة، بحيث يصبح قادراً على العمل لإعالة أسرة عندما يحين الوقت. " إنها نظيفة، ومفيدة؛ ويمكن ممارستها في البيت. تبقي الجسم في حالة صحية جيدة بصورة كافية؛ وتقتضي من العامل مهارة ومثابرة؛ وعلى الرغم من أن المنفعة هي التي تحدد شكل العمل، فإنه لايمكن استبعاد الأناقة والذوق".

كان هدف روسو أن يضمّن الكتاب IV، المكرس لفترة المراهقة التي توافق (العمر من 15–20) نظرياته الحاسمة، الأخلاقية والتربوية.

ويهتم الكتاب V، ويمثل المرحلة النهائية من تربية إميل (العمر من 20–24)، بتودده لـ صوفي، والرحلات والدراسات السياسية التي تعدّه على أفضل وجه للحياة كرجل، وزواجه من صوفي. تصف بداية هذا الكتاب، المعنونة بعبارة "صوفي، أو المرأة"، التربية المثالية للنساء. وتختلف مبادىء تربية صوفي بصورة جذرية عن المبادىء المقترحة لتربية إميل. لقد انتقد روسو، بشكل خاص، الحل الذي يقترحه أفلاطون في ***الجمهورية*** حول ضرورة أن يتلقى الرجال والنساء تربية متماثلة. "أما وقد أزال العائلات الخاصة من نظامه ولم يعد يعرف كيف يتصرف مع النساء، لذلك وجد نفسه مضطراً لأن يجعلهن رجالاً". ومحاولة أفلاطون إلغاء الأسرة ونزع غريزة الحب من المملكة السياسية عارضها روسو بمناقشة انفعالية: "... كما لو لم تكن هناك حاجة لوجود قاعدة طبيعية تقوم عليها الروابط التقليدية؛ كما لو لم يكن حب أكثر الناس قرباً للمرء هو أساس الحب الذي يدين به المرء للدولة؛ كما لو لم تكن الأسرة أبداً هي الوطن الصغير، التي يرتبط القلب عن طريقها بالوطن الأكبر؛ كما لو لم يكن الأبن الطيب، الزوج الطيب، الأب الطيب هو الذي يعدّ المواطن الصالح!"

معنى "صوفيا" في اللغة الإغريقية هو "الحكمة". وتكمن حكمة صوفي وفضيلتها في كونها غير حرة، ولم تمارس قراراً مستقلاً، وفي قبولها للقيود، وفي امتثالها للرأي العام. زد على ذلك، أن النوع الإنساني طالما بقي مفتقراً إلى قيود غريزية على النشاط الجنسي، فإن المرأة هي التي يجب أن يُعهَد إليها بكبح هياجات الرجل. ولكي يبرر هذه التفاوتات بين الجنسين، يعلن روسو بأن الاختلافات الأساسية بين الذكر والأنثى هي "قانون الطبيعة".

وهنا يلجأ إلى استثمار موهبته من أجل هذا التناقض المحيّر، فيؤكد بأنه يبقي غن قصد على التفاوتات الطبيعية لكي يحرر الرجال والنساء من الاختلافات الزائفة التي تنشأ غالباً من المؤسسات الاجتماعية.

في التطبيق العملي، صُمِّمت تربية صوفي لتعزيز أخلاقية الأسرة ولربط العواطف الطبيعية عند الطفل بالنظام الاجتماعي. فعن طريق إرضاعهن وتعليمهن لأطفالهن، تستهل النساء التربية الأخلاقية عند النوع. وفي هذا الرباط المبكر بين الوليد والأم، ينضم لأول مرة "حب الذات"، الذي هو طبيعي عند كافة بني البشر، إلى رغبة شديدة في العيش المشترك مع الآخرين.

المرحلة الرابعة من تربية إميل هي المرحلة الحاسمة. والكتاب IV مقسّم إلى ثلاثة أقسام: المرحلة ماقبل النضج الجنسي، وإعلان الإيمان بمذهب قس سافوا، والمرحلة التالية مباشرة للبلوغ. يتعمد روسو هنا تأجيل الإنجاز الجنسي عند إميل إلى أن يكتسب الوعي والفضيلة الأخلاقيين. وفي رأي روسو أن الفتي قبل المراهقة لايحمل عواطف أخلاقية، بل يحمل عواطف بدائية لاغير ترتبط بحب ذاته، وبقائها ومتعتها.

كان أميل حتى بلغ طور المراهقة "يحمل فقط معرفة طبيعية وفيزيائية صرفة. ولم يكن يعرف حتى اسم التاريخ أو ماهي الميتافيزيقا والأخلاق. كان يعرف العلاقات الأساسية للإنسان بالأشياء، لكنه لم يكن يعرف شيئاً عن العلاقات الأخلاقية للإنسان بالإنسان." فاكتساب الحياة الاجتماعية، والفضائل التي ترافقها، والقدرة على التفكير بالطبيعة أمور لايمكن تحقيقها قبل الدخول في طور المراهقة. وعند البلوغ، يكون الفتى مؤهلاً للعاطفة الجنسية وبالتالي لتقدير العواطف الأخلاقية التي ستجعله على علاقة بنوعه. والمراهقة هي فترة توسيع للعواطف الطبيعية: الشفقة، الصداقة، المروءة، وفترة تطوير لفهم الطبيعة الإنسانية وضروب الشخصية الإنسانية، وفترة اكتساب لنفاذ البصيرة إلى نقاط القوة والضعف عند جميع بني البشر ودراسة تاريخ الجنس البشري. وفي هذه المرحلة اعتبر إميل جاهزاً لتلقي التربية الأخلاقية.

وعن طريق انتقال إميل من تحت تأثير الكتب والتثقيف الديني إلى المراهقة، يمكن للمرء أن يدرك بأن فلسفة روسو التربوية كانت تعمل على تقويض العقل وسلطة الكنيسة. ولكن مسألة المجاهرة بالمعتقد هي التي كانت أكثر إزعاجاً لـ *الفلاسفة* وللكنيسة. فالهرطقات في آراء القس كانت، بالنسبة لبعضهم، تتألف من الإقرار بوجود إله والحط من

منزلة عقائد الماديين. أما بالنسبة للكنيسة، فكانت أشد خطراً. فإله روسو يبدو قريباً إلى حد خطير من الطبيعة، كما شجعت مقالات القس حول الإيمان بحرية الفكر، إلى حد قولها بإمكانية أن يختار بعض الصالحين من الناس عدم الإيمان بالله. وتتضمن أيضاً، وكأن ماسبق لم يكن كافياً، أن حب الرب، وهو "علّة وجود المرء"، ملوث على نحو آثم، كما يبدو، بالنرجسية والعاطفة الجنسية.

يعتقد روسو أن العقل والضمير لاينسجمان حتى تنضج العواطف الجنسية. فالطيبة الحفزية عند الطفل لاتكفي لتعزيز حسه الأخلاقي، ولا يحتمل لفضائله أن تتفتح قبل البلوغ.

تعمل قوانين الطبيعة، كما يقول روسو، على تأخير النضج الجنسي من أجل ترقية الأحاسيس الأخلاقية. وحتى في هذه الحال، أي بعد البلوغ، لاينبغي ربط الغرائز الجنسية مباشرة بالموضوع الجنسي. "الصداقة وليس الحب هي أول عاطفة يكون مؤهلاً لها شاب أُحسِنَت تربيته. وأول مايجب أن يستقبله خياله الناشىء هو تعليمه بأن له أصدقاء، وأن عاطفة حفظ النوع مقدّمة عنده على العاطفة الجنسية". وكانت خطة روسو هي استخدام الغريزة الجنسية كعامل لتيسير تربية العواطف الفطرية، وخصوصاً العطف على أنداد المرء من بني البشر.

وبينما كان يمكن للمعلم سابقاً أن يترك الطبيعة تتخذ سبيلها، مستخدماً فقط أسلوب الرفق في الإقناع لكبح العواطف الصبيانية عند إميل، فإنه أصبح مطلوباً منه اليوم، مع اقتراب مرحلة النضج الجنسي، أن يتولى قيادة الدفة بحزم. وأن يحشد كل مالديه من قوة وحكمة لكي يقود إميل عبر المياه الغادرة. يشبّه روسو اقتراب أزمة البلوغ بقارب تحت رحمة أمواج جبارة تحمل في طياتها إمكانية الغرق. ويحذّر المعلم من عدم التخلي عن الدفة أبداً في هذا الوقت. وعندما تنتهي أكثر الأشكال المنهجية للتربية، تبدأ عند إميل التربية الإيجابية في الأخلاق والعقل. وقبل أن يدرك مرحلة الرجولة، يجب أن يتعلم قيادة الدفة بنفسه، أي أن يصبح مربياً ومشرّعاً. " إميل! لقد كنت حتى الآن حراً من الناحية الظاهرية فقط. كانت حريتك مزعزعة ليس إلا، حرية عبدٍ لايطلب منه القيام بأي شيء. أما اليوم، فيجب أن تكون حراً حقاً. وأن تتعلم كيف تصبح سيد نفسك. سيطر على قلبك، فتصبح فاضلاً!" فالإنسان الفاضل يعيش في المجتمع حراً أكثر مما لوعاش في دولة الطبيعة، لأنه أصبح مؤهلاً الآن للنهوض بالأعباء الحقيقية أو الأخلاقية للاستقلال. فهو يعيش وفقاً لتشريع ذاتي.

ترتكز العلاقات بين العاطفة الجنسية والفضيلة علـى تمييز روسو بين حب المرء لنفسه (حب الأنا) وحب الذات (احترام الذات). "حب الأنا عاطفة طبيعية تدفع كل حيوان إلى السهر على بقائه، وهي عند الإنسان يوجهها العقل ويعدّلها العطف فتتكشف عن الإنسانية والفضيلة". واحترام الذات، على العكس، "عاطفة مصطنعة يخلقها المجتمع، فتدفع كل فرد إلى إعطاء ذاته قيمة أكبر من القيمة التي يعطيها لأي ذات أخرى، وهي التي توحي للجميع بإيذاء بعضهم بعضاً". وحب الذات غير موجود في دولة الطبيعة.

حالما يبلغ الفتى مرحلة النضج الجنسي والقدرة على ممارسة الجماع، فإن الرذائل المتأصلة في احترام الذات يجب أن تحسب مع الحسد، والغيرة، والضغينة. أما حب الأنا فيمكن أن يوجد في دولة الطبيعة البريئة بدون تناقض. ولكن هذه البراءة ليست فضيلة. فالمرأة أو الرجل الفاضل حقاً هو الذي يمكنه أن يسوي التناقض بين حب المرء الفطري لذاته وحب الذات الذي يولّده المجتمع. ويظن روسو بأنه يمكن تخفيف الظلم الذي يولّده حب الذات، وذلك عن طريق التبادلية في الوصال الجنسي، ذلك الحب الخاص بين الرجل والمرأة، الذي يتحمل الفروقات بينهما بدون حسد، أو غيرة، أو ضغينة.

وهكذا تكون المراهقة عند إميل "ولادة ثانية". فالإنسان أثناء المراهقة "يولد فعلاً إلى الحياة"، و "لايستغرب أي شيء إنساني". وتدفعه العواطف الجنسية في هذا الطور إلى أبعد من حب نفسه، إلى حب الجنس البشري. وظهور الدافع الجنسي هو الأساس الحقيقي لعلاقات الإنسان مع أفراد نوعه و "كل عواطف روحه".

طرحت فكرة أن "المراهقة ولادة ثانية" على الجمهور الأمريكي لأول مرة في مطلع هذا القرن في ***المراهقة، سيكولوجيتها وعلاقاتها بالفيزيولوجيا، والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، والجنس، والجريمة، والدين و الثقافة***. و ج. ستانلي هول، واضع ذلك الكتاب الشامل والمؤلف من مجلدين، كان أول رئيس لجامعة كلارك. وهو الذي دعا فرويد والعديد من العلماء الأوروبيين للتحدث إلى المستمعين، والأشخاص المهنيين والعلمانيين في أمريكا، حول المسائل العلمية والفكرية التي كانت مطروحة في القارة الأوروبية. وهكذا حمل فرويد، في عام 1909، رسالة التحليل النفسي عبر المحيط إلى العالم الجديد. واشتهر هول لأنه يتطلع إلى المستقبل.

يصف هول المراهقة على أنها "آخر موجة كبيرة" للنمو الإنساني "تلقي الطفل عاجزاً على شواطىء عالم الرجال أو عالم النساء وكأنه مولود من جديد". والمراهقة بالنسبة لهول، كما هي بالنسبة لروسو، لابد أن تكون هي هدف الانتقال إلى مرحلة إنسانية أعلى: "فيما يتعلق بأولئك الأشخاص النبوئيين الذين يهتمون بمستقبل جنسنا ويرغبون في تقدمه، يجب عليهم أن يبحثوا لإيجاد الهدف والوسيلة. فإذا ماأضيفت مرحلة أعلى كهذه إلى جنسنا، فإنها لن تكون عن طريق زيادات على أية مرحلة متأخرة من حياة الرشد، بل ستأتي عن طريق زيادة نضج مرحلة المراهقة التي هي البرعم الواعد بنجاح جنسنا".

ومن الواضح أن هول في مؤلفه يعتبر أن المراهقة تستحق البحث أكثر مما يستحقه موضوع علمي. ويظن بأن نتائج بحث كهذا يمكن تطبيقها شمولياً على كافة دوائر الوجود الاجتماعي. وكما أعلن روسو، من أن الولادة الثانية للمراهق تبلغ ذروتها في ولادة الفضيلة، فإن هول يقول: "المراهقة ولادة جديدة.... لأن خلالاً إنسانية أعلى وأكثر تعقيداً تولد الآن". وكما استنتج روسو أيضاً، يخلص هول إلى أن طور المراهقة هو الذي يمكنه ترقية الفرد إلى مستوى أعلى في العلاقات الأخلاقية، أي حث كامل النوع الإنساني والحيوانات الأدنى على *سلّم الأنواع*. ناضل هول وروسو كلاهما في سبيل التوفيق بين النشاط الجنسي وأسلوب الحياة الذي اعتبراه أرفع وأنبل تعبير عن الفضيلة الإنسانية. وأضفى هول علىهذه الدراسات الخاصة بالعلاقات بين المراهقة والقدر الإنساني نفحة من الأخلاق البيوريتانية. ومع أنه نفسه اعتبر رومانسياً بشكل جذري فيما يخص مسألتي الطفولة والمراهقة، فقد راح يستنكر وجهات النظر التي كانت شائعة آنذاك حول مسألة المراهقة، والتي كونتها التأويلات العادية القاصرة للمبادىء الروسوية. كان ينبغي لهول أن يصاب بالدهشة، وربما بالصدمة، لما هناك من اتفاق في وجهات النظر بينه وبين روسو. فقلما يشير هول إلى روسو إلا ليدلل على فرط مراهقته. ويأسف لإغفاله الإصلاحات التربوية. ويلومه على "الأحاسيس المبكرة لشهوانيته الجنسية، إنما **بدون الوقوع في الخطيئة**". "طغت على الجزء الأكبر من حياته مراهقة متطاولة ذات مسحة عصابية". ويشتبه بوجود "مسحة من نفاق متعمد" عند روسو في تصويره للشباب. فقد ساهم إميل جاداً في تلك العبارات المتكلفة الزائفة في محاولة لاسترضاء أذواق الكبار في القرن الثامن عشر. ويعبر هول عن استنكاره لتمجيد روسو للبدائية الطيبة. وباختصار، إن هول لم يتناول روسو بصورة جادة، شأنه في ذلك شأن كثير من القراء الآخرين من أصحاب وجهة

النظر الواقعية. وقد خلط بين الرجل وعمله. فلم يكلف نفسه مشقة التحري عن الصراعات الدينامية في لب فلسفة روسو الأخلاقية، تلك الصراعات التي لم تكن في الواقع بعيدة تماماً عن صراعاته هو نفسه.

حتى وإن قيض لفيلسوفي التربية الأخلاقية هذين أن يتوصلا إلى عدد من الاستنتاجات المتماثلة فيما يتعلق بدور المراهقة في الحياة الإنسانية، فإن ذلك لايشكل طبعاً دليلاً على صحة نظرياتهما. لأن مايمكن للقارىء المعاصر أن يسلِّم به ليست مسألة ماإذا كانا على صواب أو خطأ حول هذا الجانب أو ذاك من جوانب المراهقة بل على الأصح أن الرجلين توصلا من خلال كفاح شخصي إلى التوفيق بين العاطفة الجنسية والوعي الأخلاقي، أي إلى إدراك أهمية طور المراهقة لتعديل اتجاه الحياة الإنسانية، إضافة إلى قدرتها الكامنة في الوصول بالنوع الإنساني إلى مستوى أرقى من التطور الأخلاقي. لقد أدركا بالحدس التوترات الدينامية المتأصلة في طقوس البلوغ. وتنبآ ببعض الاستقصاءات المستخدمة اليوم في التحليل النفسي حول العلاقة بين النرجسية والأخلاق. وفكرة ماهو الأسبق في حياة الإنسان- الحب البدئي، أو النرجسية البدئية، أو بداية الإحساس بالذات- الذي قد يكون تحول أثناء المراهقة إلى ماهو أسمى-مثال الأنا، أي الشعور المجرد من الصفة الجنسية التي تتيح لنا المحافظة على النوع كما حافظنا ذات مرة على نرجسيتنا- تلك هي الفرضية الحالية ولكنها لم تُوَسَّع في عدد من الكتابات المعاصرة للتحليل النفسي.

وعلى مدى الطيف الواسع للإمكانيات الإنسانية- أي الاستعدادات الوراثية، والطفولة والتنشئة، وطرق تصريف الحياة والموت- كان هذان الرجلان اللذان اشتركا بشرف "اختراع" المراهقة من الناحية الظاهرية على طرفي نقيض. ولكنهما اتفقا في الرأي عندما حاولا التعبير عن المأزق المحتوم في حياة كل إنسان، عند نقطة انعطافه الحاسمة- المراهقة.

وكما فعل روسو، قرر هول عند نهاية حياته كتابة اعترافاته. وكتابه ***حياة واعترافات عالم نفس،*** الذي وضعه في أواخر السبعينات من حياته، ونشر في عام 1923، أي قبل سنة من وفاته، يبدأ بالحديث عن نشأته. فقد ولد في الأول من شباط عام 1844 في مزرعة جده لأمه في ماشفيلد، في ماساشوستس. فمن جهة أمه، كانت أم جدته أبيغايل أولدن سليلة مباشرة لجون أولدن، وهو أحد الموقعين على ميثاق زهرة مايس. وفي

ذلك يقول هول "وهكذا، أنا واحد من نسل الجيل الثامن لجون أولدن وبريسيلا". ولكنه لم يتوقف عند هذا الحد. فاسم أمه، بيل، يعود إلى جون بيل، الذي توفي في إنكلترا عام 1399. ويتابع تأملاته، على أسس لغوية، فيتوصل إلى نتيجة تفيد بأن الإسم يعود إلى "البعل" القديم، الذي يعني "لورد"، أو ربما إلى وليم الفاتح أو إلى الدرودات*. ومن جهة أبيه، يعود الإسم، هول، عبر تسعة أجيال إلى جون هول، الذي جاء، وهو في الحادية والعشرين من عمره، من كوفنتري إلى شارلستون، في ماساشوستس، عام 1630. ولو تتبعنا نسب هول من ناحية أبيه عبر تسعة أجيال إلى الوراء، لانتهينا عند جيمس غورهام، الذي ولد في انكلترا عام 1550. ويخلص هول إلى القول "الحساب عبر تسعة أجيال إلى الوراء (أبوان، أربعة أجداد، ثمانية آباء أجداد، إلخ) يجب أن يعطيني نظرياً في الجيل الثامن 512 من الأسلاف، كل منهم أسهم بالتساوي، مع أولئك الذين يمكن تتبعهم أعلاه، في بنياني النفسي المنشأ. أما البقية فلا أعرف شيئاً عنهم". وهؤلاء الأسلاف غير المعروفين قد يكونون، وفقاً لتأملات هول، مجرمين أو متشردين أو، على العكس، شخصيات من دم ملكي.

كانت أمه، آبيغايل، الطفلة الرابعة والبنت الصغرى في أسرة مؤلفة من سبعة أطفال والفتاة الوحيدة التي تبحث عن ثقافة أعلى. وكانت أثيرة لدى أبيها، الشماس التقي. كما كانت أقرب إليه عاطفياً وفكرياً من أمها، وهي امرأة دنيوية بعيدة تماماً عن الحياة الدينية. كان غرونويل باسكون هول، الرجل الذي تزوج آبيغايل، مختلفاً كلياً عن أبيها الذي كان يحظى باحترامها. فقد كان غرونويل يعبر عن تقاه يوم الأحد. وكان مزارعاً فقيراً يعيش باقتصاد. وكجميع أسلافه الذكور من آل ستانلي لجهة أبيه، الذين كانوا مزارعين، أو بحارة، أو نجارين، اشتغل غرونويل بيديه وكان "مكتفياً بالطرق البسيطة، وفاضلاً، سواء كان ذلك صادراً عن تقى أو بدونه". كان أبو ستانلي حاد الطبع، غير حنون، ضيق الأفق، لايطيق صبراً على الزخرفة غير العادية في السلوك أو التقى. ولكنه يؤمن بـ "الأدمغة"، التي كان يلح على تسخيرها للعمل-اختراع الآلات، ابتكار طرق جديدة للزراعة. كما كان يرى وجوب تطوير هذه الأدمغة عن طريق المطالعة والثقافة المتقدمة.

---

* Druids: الكهان القدماء عند الإنكليز الوثنيين-المترجم.

كان كلا الأبوين يتوقان لأن يتلقى أطفالهما الثلاثة الفوائد التربوية التي أخفقا هما في الحصول عليها. وإضافة إلى فكرة الهرب من العمل في الزراعة، تركز همّ غرونويل وآبيغايل على أطفالهما. فأصبح أخو ستانلي قسيساً، وأخته معلمة تتمتع بثقافة عالية.

وفي الرابعة عشرة من عمره، تسلق ستانلي قمة ماونت أوين المجاور. فأوحى له ذلك الموقع السامق (1500 قدماً فوق مستوى الريف من حوله) بالثورة والغضب وألقى بنفسه منكباً فوق العشب. وهناك، اتخذ قراره في أنه سوف لايصبح مزارعاً. بل ينبغي له أن يحقق أمراً على الصعيد العالمي. فأقسم بأنه لن يعود إلى زيارة تلك القمة بعد هذه المرة إلا بعد أن يحقق لنفسه الشهرة. "كان قراراً، قسماً، رجاء، معالجة مثالية، خطة للحياة، كان مزيجاً من كل ذلك...".

كان ستانلي في طفولته ينظر إلى أبيه بخشية وخلال مراهقته بشيء من الامتعاض. فالتمس الحنان في رقة أمه ودفئها. وكانت موضع ثقته في كل شيء تقريباً، فعوّل عليها في تهدئة مزاج أبيه النَّزِق. وكانت الأم تتمتع بمزاج مرح هادىء وبقدر مروّع من التنافر وعدم الانسجام. وعَمِلتْ كـ "عجلة موازنة" في مواجهة عنف الأب وقسوته. وكان الأبوان ستانلي يخاطبان بعضهما دائماً بأقصى قدر من الاحترام، مثل "زوجتي" و "زوجي".

وعندما يستعرض ستانلي هول ماضي حياته يؤكد مفتخراً، "إجمالاً، لاأريد أن أبادل فترة صباي بفترة الصبا عند أي ولد أعرفه". وعندما يتحدث عن أبويه يعترف، "على الرغم من صعوبة الظروف التي كانا يعانيان منها، فقد كنت أظن بأنني محظوظ لكونهما فقيرين، ومتواضعين، ومعسرين في مواجهة حقائق الحياة القاسية ". ويعتقد ستانلي بأن شعوره العدائي نحو أبيه خلال فترة بلوغه كان هو الأساس لاستقلال قراره فيما بعد. وبالمقابل، كانت كفاحاته من أجل حرية التفكير ونفاذ صبره من الكبت "تضبطها مشاعر قوية ومتضاربة من الاحترام وحتى الخوف منه". فإذا كان علينا أن نصدر حكماً من خلال *اعترافات هول*، فإن أبواه كانا يكنان عاطفة عميقة أحدهما للآخر، وتكريساً ودوداً لجميع أطفالهما.

ولكن الجو البيوريتاني الذي كانت تعيش فيه أسرة هول كان يثبّط كافة مظاهر الحب والفرح إضافة إلى تثبيط المشاعر الجنسية طبعاً. فـ "المكان القذر" هي التسمية الوحيدة التي كانت تطلق على أعضاء التناسل داخل هذه الأسرة. مع ذلك، أصيب ستانلي عندما ذهب إلى المدرسة الابتدائية في القرية بالصدمة من العبارات الفاحشة التي كان يتلفظ بها

الأطفال "الريفيون"، الذين كانوا يتحدثون جهاراً ليس فقط عن هذه الأجزاء من الجسم بل يقومون بإظهارها، ومقارنتها فيما بينهم، وتجريبها في الجنوسية، واللعق، والاستمناء، والعلاقات مع الحيوانات. وكان يُرغَم أحياناً على الاطلاع سراً على البطاقات الفرنسية، وهي شرائح مصورة شفافة بريئة حتى يتم تعريضها للضوء. كما كان يتعرض يومياً في المزرعة لمشاهدة النشاطات الجنسية عند الحيوانات، لأن نشاطاتها التوالدية كانت واحدة من "مسؤولياته". فكان يشاهد كيف تصبغ أعضاء الفحول المستأجرة باللون الأحمر، وكيف كان مطلوباً منه أن يضيف هذا الصبغ حتى تتلون أعضاء كل نعجة بالأحمر من قبل تلك الفحول. وكان لديه في المزرعة واجب آخر هو تقديم المساعدة إلى خاله الذي يقيم في جوارهم، وهو خبير في خصاء الحيوانات من خنازير، وحملان، وعجول، وأمهار.

وخلال فترة المراهقة، كانت تستحوذ على هول الأفكار الجنسية، شأنه في ذلك شأن روسو. لقد اقترن فرط تعرضه لمسائل جنسية بالأخلاقية البيوريتانية التي سيطرت على بيت صباه، الأمر الذي دفعه كشاب إلى الانهماك في نشاط جنسي خاطىء. ولذلك أصبح الاستمناء، والتهيج، وإثارة أعضاء الجسم، وهي هنا الأعضاء التناسلية، المواضيع الرئيسية لبحوثه العلمية. ولكنه، وكانت عملية الاستمناء تروعه كثيراً في مطلع مراهقته، "تزود بجهاز واستخدم العصائب لمنع التهيج". وكانت مواعظ الكاهن في أيام الآحاد تغرس في ذهنه أن إمعانه في الانغماس في هذه الخطيئة التي لايمكن اغتفارها قد يتسبب في إصابته بأحد الأمراض الكريهة، وكان ستانلي أكثر ميلاً إلى تخيل أن يكون الجذام هو ذلك المرض، الذي قد يأكل أنفه؛ وربما يصيبه بالبلاهة أيضاً.

وفيما عدا قبلات اللهو في المراهقة والتي لم يجد فيها مايغري، وهو أمر فريد من نوعه، لم يصدف أبداً أن قام هول بتقبيل فتاة حتى حصل على درجة أستاذيته الأنطاكية Antioch، حين بلغ الثامنة والعشرين من عمره. وفي ذلك يقول "لاريب في أنني كنت دائماً فتى الفتيان* و رجل الرجال*، لأنني، خلال حياتي الاجتماعية في ويلستون وفيما بعد في وليامز وفي المدرسة المهنية في نيويورك، لم أقم أبداً بزيارة فتاة أو حصلت على أكثر من تعرف عابر على إحداهن".

---

* الفتى الذي يجمع مواصفات الفترة الكاملة من منظار المجتمع –المترجم.

* انظر الحاشية السابقة–المترجم.

وحافظ هول على طهارته الجنسية وتحفظه المثالي مـن النسـاء إلـى أن قـام بزيارته الثانية إلى برلين، وكان في منتصف الثلاثينات، حيث أحـب فتـاتين علـى التوالـي. " أيقظتا قدرات كانت حتى الآن، على غير العادة، هاجعة ومكبوته وهكذا بـدت الحيـاة أكثر خصباً وأهمية. وعلى الرغم من استيقاظ العاطفة، فقد حصلت أيضاً على القدرة لتعديلها وضبطها ولم أندم أبداً بل أحسست من كل ذلك فقط باتساع النشاط". ولقداكتسب مـع اسـتيقاظ غريـزة الحب، كما يظن، إدراكاً أعمق لكل من الخطيئة والفضيلة. وأصبح نصيراً متحمساً للنظرية القائلة بأن العاطفة الجنسية عنصر أساسي لاكتساب الفضيلة.

بعد مواجهاته الشبقية بوقت قصـير، تـزوج هـول مـن كورنيليـا فيشـر، وهـي امـرأة عاقلة، وحساسة، تشبه أمه إلى حد بعيـد. ورزقـا بطفليـن، همـا روبـرت غرونويـل وجوليا فيشر. وبعد عشر سنوات، وعندما أصبح هول رئيساً لجامعة كلارك، قتلت كورنيليا وجوليا في حادث منزلي أثناء نومهما. عندمـا فتـح مصبـاح الغـاز سـهواً دون أن يضـاء. ويكشـف هول في *اعترافاته* عما في نفسه حيال كافة المسائل، كالاستمناء، وغريزة الحب، وتقديسه للعلوم، وعلاقاته مع أبويه، وإهاناتـه السياسـية فـي كـلارك. لكنـه يبقـى صامتـاً فيمـا يتعلق بالميتة المأساوية لزوجته وابنته.

بقي هول بيوريتانياً. لكن وثنيّته التـي كـانت هاجعـة لـم تعـد إلـى النـوم أبـداً بعـد أن اسـتيقظت فـي بيئـة حيـاة المقهـى فـي برليـن. فهـو يعـبر عـن الأمزجـة العاديـة، المتذبذبـة والمتفوقة، والمشاعر المتسامية مهما بلغت من الصــلاح، بكلمـة النشـوة أو التهيـج (كلتاهما محببتان إليه).

كان لابد من اعتبار هول، حتى بموجب المعايير البيوريتانية التي كانت ســائدة آنئذٍ، متخلفاً في أكتمال إدراكه لغريزة الحب. ولكن عواطفه نحـو الفلسـفة والثقافـة اتضحـت منذ الثامنة عشرة من عمره. ففي كلية وليامز، درس هول لدى مارك هوبكنز، الذي أطلعه على علـم الجمـال، والمنطـق، وعلـم النفس، والفلسفة عنـد لـوك، وبـيركلي، وديكـارت، وجـون سـتيوارت ميـل، وكـانت. ومـع أن مخطـط الحيـاة عنـد هوبكـنز ونظرياتـه حـول المصـير الإنساني يتضمن حلقة تطورية بالمقارنة معهم، فإنــه لـم يجـد أبـداً ضـرورة لإطلاعـه على سبنسر وداروين. وفي النهاية، قُدِّر لهول أن يختلف مع هوبكنز حول كل نقطـة تقريبـاً من آرائه المتعلقة بالطبيعة الإنسانية. ومع ذلك، كان هول دائما يدخر الاتجاهـات الفكريـة التي اكتسبها من هوبكنز، وخصوصاً أن "الدراسة السامية للجنس البشري" هي دراسة الإنسان.

وعندما غادر وليامز، بذل هول جهداً جاداً لتحقيق أمل أمه في العمل على إيجاد مهنة له في سلك الكهنوت. فدخل المعهد اللاهوتي الاتحادي. ولحسن الحظ أن اكتشف هنري وورد بيتشر، الذي كان تعرف على هول أثناء إقامته في نيويورك، عدم تحمس هول إلى علم اللاهوت المنهجي وأيضاً موهبته اللافتة للنظر في الفلسفة. وبمباركة من بيتشر وألف دولار قدمها محسن من أصدقائه الأثرياء، أبحر ستانلي، مشجعاً أسرته التي أصيبت بالذهول، إلى ألمانيا لدراسة الفلسفة. وهناك عرّض نفسه لما دعاه بـ "الاختيارات المتطرفة"، أي اللاهوت، والفيزيولوجيا، والتشريح الجراحي، وأرسطو، وعلم الآثار المصرية. وبعد بضعة أشهر، نجح هول في تهدئة تهيجه على نحو يليق بعالم. واستقر يركز اهتمامه على أرسطو، وهيغل، وعلى النظرية اللوثرية في اللاهوت.

توصل هول وهو مايزال في ألمانيا، متأثراً بالفلسفة الوضعية، إلى القناعة بوجوب تجاوز المرحلة الغيبية-اللاهوتية في التفكير الإنساني. "مع ذلك، إن المخطط الوحيد الصادق للأشياء الذي تقبلته بحماس واستسلام هو مايتعلق بنظرية النشوء التي لاتنطبق بمثقال ذرة على الروح أقل مما تنطبق على الجسد عند الإنسان. وهذا هو صميم الحقيقة. وبدا لي أن داروين، وهيكل Haeckel، وخصوصاً هربرت سبنسر، يمثلون المرحلة الأكثر تقدماً في الفكر الإنساني".

أصبح هول، في الأربعينات والخمسينات من عمره، واحداً من أكثر علماء النفس الأمريكيين تأثيراً، وقد يأتي وحده في المرتبة الثانية بعد وليم جيمس. بدأ سيرته كأستاذ من الدرجة العليا عند جونز هوبكنز، حيث أنشأ أول مختبر أمريكي كرسه لعلم النفس التجريبي وأسس الجمعية النفسية الأمريكية و ***المجلة الأمريكية لعلم النفس***. وأصبح بعد ثماني سنوات أول رئيس لجامعة كلارك. وأثناء وجوده في هذه الجامعة، وجه الدعوة لفرويد ولعدد من علماء النفس والفلاسفة الأوروبيين لإلقاء المحاضرات على المستمعين الأمريكيين.

استأنف دراساته العلمية المتعلقة بالتفكير عند الأطفال والتي كان بدأها قبل عشر سنوات عند جونز هوبكنز. وصدرت له أول دراسة من جامعة كلارك، في عام 1894، حول موضوع الغضب عند الأطفال. ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام 1915، قام هول وطلابه بنشر 194 مقالاً في بحوث تتعلق بالأطفال والمراهقين، وتدور حول مواضيع مختلفة مثل الدمى، والخوف، وأساليب السلوك، والموسيقا الدينية، والأحاجي، والعيوب

الأخلاقية، والمداعبة، والتغيب عن المدرسة، والعبادة، والحرارة والبرودة، والدعابة، والغيرية، والنور والظلمة، والقمر، والعطف، والعادة الشهرية، والخرافة، والروح، والعناد، والحسد، والغيرة، والطموح، والخجل، والعدالة، والفرح، والندم، والضمير.

نجح هول في كامل سيرته البحثية بأسلوب "الخيارات المتطرفة" في منحته الدراسية التي بدأها، وهو نوع من التفكير الذي لقبه بعضهم من أجله بـ "المستهتر ذي الثقافة الغربية" ولقبه آخرون بـ "الطفل الفاسد المفزع في علم النفس". ورد هول على هؤلاء النقاد: "أفضل أن أكون أبلهاً من طبقة بارسيفال يتعثر على امتداد المسالك التي يخشى أن يطرقها الرجال الحكماء على أن أكون نصيراً لايمكنه أن يدرك، ولو جزئياً، الكينونة الحقيقية الصالحة التي ساهم في صنعها كافة من أضافوا ملاحق حقيقية إلى أي جزء من الروح الإنسانية التي تضم كثيراً جداً من الحجرات وكثيراً جداً من المداخل".

ارتبطت بكتابات هول وبشخصه ***وصمة جنسية*** نظراً لاهتمامه بالتحليل النفسي وإلحاحه على أن يكون هناك المزيد من الصراحة فيما يتعلق بالنشاط الجنسي أثناء المراهقة. فقد أُخِذ عليه، وهو الرجل الصارم اللامبالي والمتحفظ في علاقاته الشخصية، أن لجأ إلى كافة صنوف الأفعال الجنسية الجريئة التي يمكن تخيّلها. وهول، ذلك الرجل المتدين بعمق وصاحب كتاب ***يسوع المسيح على ضوء علم النفس*** الذي صدر في عام 1917 وكشف عن تعاطفه مع آلام المسيح وكل الجنس البشري، أدين حتى في جنازته لأنه انتقص من قدر الكنيسة المسيحية. إذ كان صارحه صديق حميم له، بعد نشر كتاب المسيح بمدة قصيرة، بأنه كان أفضل له أن يموت من أن يقوم بنشر بحث تجديفي من ذلك النوع.

واشتهر هول ايضاً بأنه "دارويني التفكير"، وهي صفة أحس بأنه لايستحقها مع أنه تقبلها باعتزاز. ووجد في انجذابه الصوفي إلى أسرار وجماليات نظرية النشوء، خلاصه من صرامة الأخلاق البيوريتانية. "ماأن سمعت بها لأول مرة في شبابي حتى ظننت بأن كلمة 'نشوء' قد نوّمتني مغنطيسياً، فقد كانت تمثل بالنسبة لسمعي نغماً موسيقياً وبدا لي أنها تناسب فمي أكثر من أية كلمة أخرى". وبقي هول مخلصاً لديانته التي أوجدها. فأصبحت الجامعة كنيسته. والبحث العلمي هو النداء الباطني الأكثر سمواً بالنسبة للإنسان، والمتعة البالغة بالنسبة لـ "الأرواح النبيلة المؤهلة لها".

* بطل أسطوري من العصر الوسيط (انظر أسطورة القلب المقدس للكاتب Chretien de Trayes)، والكلمة ذاتها عنوان لمأساة موسيقية ألفها الألماني فاغنر (1822)–المترجم.

كانت ترجمة هول للمراهقة تعبيراً عن البيولوجيا التطورية مزركشاً بالبيوريتانية. وتأثرت ترجمته لداروين بقوة بنظريات التلخيصيين recapitulationist theories حول نظرية النشوء والتي كانت رائجة آنئذٍ في أوروبا وأمريكا. وهول، بوصفه تلخيصياً، كان على قناعة بأن كل مرحلة من مراحل النمو الإنساني، أي مرحلة الرضاع، والطفولة، والمراهقة، هي تكرار لمرحلة من مراحل نماء الجنس البشري. فالرضيع والطفل يرجعان إلى ماض أبعد؛ والمراهق يمثّل آخر مكتسبات النوع. يوحي النماء، أثناء المراهقة، بـ "فترة ما قديمة من العاصفة والكرب عندما تحطمت وسائل الأمان وتم بلوغ مستوى أعلى".

وبما أن المراهقة حدثت في نهاية تطور الفرد، لذلك يجب أن تتضمن أحدث النجاحات في علم تطور الأنواع. كان هول لاماركياً* أيضاً يعتقد بأن الصفات المكتسبة اثناء المراهقة يمكن أن تنتقل إلى الجيل التالي بواسطة النسيج الجسدي. وفي رأي هول، أن المراهقين لعبوا دوراً كبيراً في الكشف عن ماضي النوع والإنباء بمستقبله. فقد تشوفوا في عواطفهم إلى فكرة ضائعة "كالنبات يحلم بالشمس". لكنهم في مثالياتهم وأحاسيسهم الجمالية تنبأوا بـ "شبيه الإنسان الأعلى الذي سيتطور إليه هذا الإنسان". وعلى أساس هذه المبادىء التطورية، أقام هول خططه التربوية. فطالب بضرورة إطالة طور المراهقة بحيث يمكن للسلالة أن تفيد من تسريب الأشكال الراقية من الفكر، والدين، والأخلاق.

يعني هذا، من الناحية العملية، العمل على تأجيل "كل أداء صالح للزواج". ومثل السير غالاهاد، يجب أن يطمح الشباب إلى عفة صارمة في "الخيال، والقلب، والجسد". تنطوي هذه القيود على الفضيلة الشخصية الحقيقية وسيطرة النوع. ويجب الوصول إلى قمة التفرد individuation قبل التكوّن. لقد أدرك هول شدة الدافع الجنسي في المراهقة. ولذلك شدد على صميمية العلاقة بين الحب الشبقي والديني. فإثارات أحدهما (الشبقي) يمكن أن تكون بـ "العدوى" إيحاء للآخر. وفترة الشباب هي الفترة المثالية للاهتداء الديني.

استنكر هول، كوثني، إضفاء الرومانسية على البدائية الطيبة، التي لم تكن أبداً تلك البريئة التي وصفها روسو. وتصارع كوثني مع لاأخلاقية "الأنواع الأعلى" تجاه "الأنواع

* نظريات تقول بأن الفرد يمر في مراحل نمو تشبه مراحل النمو التي مر بها الجنس البشري-المترجم.

* نسبة إلى البيولوجي الفرنسي لامارك، جان باتيست (1744-1829) صاحب المذهب المعروف باسمه (اللاماركية) في التطور العضوي-المترجم.

الأدنى". وتضمن منهاج الدراسة الجامعية الذي وضعه مهمة العمل والسيكولوجية عند الأنواع الأدنى، الذين كانوا في كثير من الجوانب أطفالاً أو وهو الـ "أكثر احتمالاً، مراهقين من حجم الكبار.... أخطاؤهم، وفضائلهم هي أخطاء وفضائل الأطفال والشباب". فإذا كان المراهقون هم بذور المستقبل، فقد تكون أيضاً إحدى السلالات البدائية هي التي أنجبت "شبه الإنسان الأعلى".

يدرس هول في الجزء الأخير من كتابه *المراهقة* بيداغوجية "سلالات المراهقين"، التي كانت تشغل آنئذٍ خمسي سطح الأرض وتشكل مايقرب من ثلث الجنس الإنساني، وكانت تخضع لقلة من الأمم المتمدنة. يقارن هول العلاقات بين الإنسان المتمدن والبدائي حتى انقراض الأوك الكبير، والبيسون، والحمار البري، والماموث، ووحيد القرن الصوفي، والإلكة الإيرلندية-الانقراض الذي أصبح الإنسان بواسطته سيداً لعالم الحيوان وبذلك طمس سلسلة نسبه في الماضي. وعن طريق اعتبار الأجناس الأدنى أعشاباً ضارة يجب "اقتلاعها من حديقة الإنسانية،" حطم الإنسان الشيء الأكثر أهمية في العالم، "ذراري وسلالات من بني الإنسان من نماذج وأنواع جديدة، تطفح بالفعالية من أجل جنسنا".

كان هول مقتنعاً بأن أنصع الصفحات عن الجنس الإنساني لم تكن قد كتبت بعد. فظن بأن سلالات المراهقين قد تكون "وريثة لكل مانملك، وتسيطر على موارد العالم التي تتزايد باستمرار من أجل الخير أو الشر إلى حد ما كما نؤثّر نحن الآن على أطوارهم المبكرة الطيّعة لأنهم هم أطفال العالم ومراهقوه". بهذا يختتم هول بحثه الرائع حول المراهقة.

أخطأ هول، شأنه في ذلك شأن معظم العلماء في مطلع القرن العشرين، عندما وازن العقل البدائي بعقل الطفل، وهي معادلة كانت مألوفة لدى العقلية الغربية قبل فترة طويلة من طرح الفكرة التي قالت بأن تطور الفرد يكرر تطور الجنس الذي يضفي عليه مرجعيته العلمية. ومع أنه يجب عدم تصديق هول فيما يخص مناصرته للموقف تجاه العقل البدائي، فقد أظهر باستمرار اهتماماً أخلاقياً من أجل النوع الإنساني (وباهتمام مماثل، بكامل النوع الحيواني). وعندما اتجه بشكل خاص إلى الإسهامات الاستثنائية للمراهقة في تقدم النوع الإنساني، اكتشف عملياً المعضلات العامة التي كان روسو قد وصفها بوضوح والتي تضمنتها فيما بعد مايعرف بالطقوس "البدائية" للبلوغ. إن إعادة التوفيق بين النشاط الجنسي

التناسلي مع السلطة الأخلاقية للنظام الاجتماعي أثناء المراهقة هي فرصة لإيقاظ إمكانيات أخلاقية أسمى عند النوع الإنساني.

لقد تابع معظم علماء النفس النشونيين في الغرب مساندتهم النظرية التي تقول بأن تطور الفرد يلخص تطور الجنس. فظنوا مثلاً بأن الرضيع الإنساني يكرر خلال السنوات الثلاث الأولى من الحياة تطور الفرد في الجنس عن طريق نموه من حيوان صغير من الرئيسات إلى بدائي صغير. ماتزال هذه المفاهيم العتيقة حول التطور الإنساني والنمو الفردي منتشرة في بعض الدوائر الأكاديمية، بما فيها دوائر التحليل النفسي، حيث كان لها تأثير فاجع في حجب الإسهامات المميزة للمراهقة في تقدم الحياة الأخلاقية.

3

ربيبة التحليل النفسي

أسطورة التلخيصيين

يميل كثير من الراشدين في هذه الأيام إلى اعتبار المراهقين برابرة أخلاقيين أو "فتياناً وفتيات بدون عقول" سرعان مايتجاوزون سماجتهم وأساليبهم المزعجة. وآخرون على قناعة بأن الشباب مضارع للتقى ولذلك فهو ينافس القدرة المطلقة التي يخافونها ويغبطونها. ويخبرنا مؤرخون اجتماعيون حديثون بأن كامل هذه المسألة التي تعرف بالمراهقة ابتكرها ببساطة مثاليان رومانسيان هما: جان-جاك روسو و ج. ستانلي هول.

ويبدو واضحاً أن المحللين النفسيين يَرهَبون المراهقين كما يَرهَبُهم أي فرد آخر. فالرفض، والتتفيه، والتقمص الوجداني ليست هي مخططات الآباء العاديين والمؤرخين الاجتماعيين الانتقائيين وحدهم. ومهما كانت الآراء الشائعة حول المراهقة تدعو إلى الأسف، فإن ماهو أدعى للرثاء على الصعيد العملي هو أن معظم المعالجين، لو ترك لهم الخيار، فلن يفضلوا التعامل مع المراهقين إطلاقاً. ويجري أحياناً حجب التبريرات بقناع المسائل التقنية: "من الأفضل تركهم إلى أن يكتشفوا المسائل بأنفسهم. إنهم سيجربون فقط ثم ينسحبون". أو قد نسمع تشبيهات تدخل مباشرة في صلب الموضوع: " المسألة كمن يعدو خلف قطار سريع"، أو "المراهقة تشبه سيرورة بركانية نشيطة، ترافقها تفجرات متواصلة، تمنع أديم الأرض من التصلب". ويرتاح هؤلاء المعالجون أنفسهم إلى معالجة الأطفال الصغار والراشدين. إذن لابد من أن يكون هناك شيء ما يخيفهم ويصرفهم عن التعامل مع المراهقين.

أصبحت المراهقة ربيبة التحليل النفسي، هذه حقيقة لاريب فيها. فعندما أعلن فرويد مكتشفاته عن النشاط الجنسي في الطفولة وعقدة أوديب الطفولية على جماعة علمية

معارضة ومرتابة، إنما أراد أن يبين جزئياً بأن الحياة الجنسية لاتبدأ عند الكائنات الإنسانية في البلوغ أو النضج الجنسي. ولم يهدف أبداً إلى التقليل من أهمية تأثير التبدلات الفريدة، الجنسية والأخلاقية، التي تحدث عند البلوغ على الحياة العقلية عندهم كراشدين. رغم ذلك، كان للتركيز من قبل فرويد الثوري على تأثيرات الماضي الطفولي مفعول طويل الأمد في حجب التبدلات الهامة التي تحدث خلال سنوات المراهقة، وهي تبدلات قد تكون، في الواقع، ذات تأثير أكثر حسماً ومباشرة على تطور العقل الإنساني من أحداث الطفولة.

أصبح فرويد، بسبب مشايعته لبعض التفسيرات الخاطئة والواسعة الانتشار عن النظرية الداروينية، شريكاً عن غير قصد في إهمال التحليل النفسي للمراهقة. وعلى أرجح الاحتمالات، لم يكن إرنست جون يعلم، عندما خلع على فرويد لقب "داروين العقل"، بأن العلماء الأمريكيين كانوا قد خلعوا هذا الشرف على ج. ستانلي هول قبل ذلك بثلاثين سنة. كان جونز، بهذه الإيماءة نحو فرويد، يشد الانتباه إلى الأصول التطورية التي كانت مفعمة بالحياة في التحليل النفسي منذ ابتدائه. في الواقع، لم يكن موضوعا التطور اللذان تركا بصمتهما على التحليل النفسي، أي فرضية إمكانية توريث الصفات المكتسبة وفرضية أن تطور الفرد في قانون النشوء الحيوي يكرر نشوء العرق، داروينيين حصراً. فالموضوع الأول كان للامارك طبعاً. والعبارتان "تطور الفرد" و "نشوء العرق" ابتكرهما إرنست هيكل، عالم الحيوان الألماني في القرن التاسع عشر، الذي خلّد الفرضية اللاماركية بين طلابه. ومعظم العلماء الأوروبيين والأمريكيين، بمن فيهم فرويد وهول، كانوا قد درسوا مع هيكل أو مع أحد مريديه. وعملياً، كان هيكل أكثر تأثيراً من داروين في نشر مذهب التطور ولذلك كان له تأثير أكثر حسماً على الشكل الذي انتشر فيه.

أخذ جونز بالرأي القائل بأن فرويد، وليس داروين، هو الذي استطاع في نهاية الأمر أن يضع لمذهب التطور حلاً مع الدين والمبادىء الأخلاقية. كان أولئك اللاهوتيون الذين يميلون إلى تأييد النظرية قد توصلوا إلى ماعتبروه تسوية استراتيجية. فَجَسَد الإنسان، وليست روحه، قد يكون تطور خلال ملايين السنين. وللتمييز بين الإنسان وبين المخلوقات الأخرى، رأت الألوهية أن تضيف روحاً إلى جسد الإنسان. واحتج فرويد بأنه ليس من الضروري استحضار ماهو خارق للطبيعة للتوفيق بين المبادىء الأخلاقية ونظرية التطور.

وبدلاً من استحضار ماهو خارق للطبيعة، لجأ فرويد إلى استحضار لامارك. وسلّم بأن خبرات الأنا ego قد لاتكون انتقلت إلى الجيل التالي. و الْهُوَ id، المستودع لكل

مايمكن وراثته ومركز اللاشعور، لايمكن بلوغه عن طريق العالم الخارجي إلا من خلال احتكاكه بالأنا. وبالرغم من هذه القيود، أكد فرويد بأنه يمكن وراثة الخبرة عندما تتوفر بعض الشروط: "عندما تتكرر كثيراً وبقوة كافية لدى كثير من الأفراد في أجيال متتالية، فإنها تُحَوّل ذاتها إلى خبرات الْهُوَ، التي تُحفَظ الانطباعات عنها عن طريق الوراثة. وعندما تقوم الأنا بتشكيل الأنا العليا بعيداً عن الْهُوَ، فإنها تعمل على إحياء تلك الخبرات القديمة. وهكذا، تحافظ أنبل الديانات والأهداف الأخلاقية للجنس البشري على روابطها مع الماضي القديم.

إن مايتصل بروايتنا حول التحولات الخلقية التي أحدثتها المراهقة ليس إلحاح فرويد على وراثة الصفات المكتسبة بل هو على الأصح تصوره الفذ لنمو الضمير الفردي. فملاحظاته توحي بأن الضمير (مثال الأنا، الأنا العليا) يتشكل بمعزل عن الجوهر الفطري للذات وآنئذٍ تتولاه الذات الخبيرة (الأنا) لكي تحوله إلى سلطة أخلاقية. "إن ماينتمي إلى أدنى جزء من الحياة العقلية عند كل منا يتبدل، من خلال تكون المثل الأعلى، إلى ماهو أسمى في العقل الإنساني عن طريق المقياس الخارجي للقيم".

هنا، تنسجم فرضيتنا مع روح التفكير عند فرويد. وكما أشرت سابقاً، وأفصّل هنا، إن ماهو أقدم، "حب الذات"، يتطور خلال المراهقة إلى ماهو أسمى، "حب النوع".

كان مذهب هيْكل حول التلخيص أهم تأثيراً من عقيدة لامارك. فقد عمل هذا المذهب كقاعدة تنظيمية في علم الجنين، والفيزيولوجيا، وعلم التشكل morphology، وعلم المستحاثات منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى نهاية الثلاثينات من هذا القرن. وأثرت النظرية القائلة بأن تكوّن الفرد يلخص تطور الجنس ليس على التحليل النفسي فقط، بل أيضاً على الأدب، والفن، والتاريخ، والتربية، وعلم الإنسان، وعلم الفيزياء النووية، وعلم الجريمة.

أكثر فروع التلخيصية فشلاً هي معادلة الطفل بالحيوان الرئيس، والحيوان الرئيس بالمتوحش، والمتوحش بالبدائي القديم، والبدائي بالطفل. وتميل هذه المعادلات إلى التداخل بشكل مربك يدعو إلى الذهول. فالأطفال من الأعراق العليا يجتازون مراحل الأعراق المتوحشة. والراشدون من الأعراق الأدنى هم كالأطفال البيض. والأعراق الحديثة الأدنى تشبه مراحل الإنسان الأبيض. والرّضّع من كل الأعراق يشبهون الحيوانات الرئيسة الراشدة، وهكذا. وكثيراً ماتُوَسّع المعادلة لتشمل بعضاً من نماذج الجريمة والنساء:

... الطفل بتعضّيه أقرب بصورة طبيعية إلى الحيوان، إلى الوحش، إلـى المجـرم منـه إلى الراشد.

... نكوص المجرم عندما يفتقر إلى كل أثر من الخجل والشـفقة، قـد يعـود إلـى مـاهو أبعد من الوحشية حتى إلى البهائم ذاتها.

... ربما يتذكر جميع الرجال فترة ما من أيام الشباب عندما كـانوا يقدسـون الأبطـال حيث يشعرون بالحاجة إلى سلاح أقوى ويرغبون بالاعتماد على صديق مقتدر يمكنـه التعاطف معهم ومساعدتهم. تلك هي المرحلة النسوية في الشخصية.

كان كثير من أتباع فرويد، وما زالوا، مبهورين بقانون التلخيص للنشوء الحيوي. ففـي عـام 1917، وفي تعليقه علـى تبنـي البيولوجيـا التطوريـة بالجملـة مـن قبـل المحلليـن النفسـيين، عرض أحد علماء الحيوان رأيه بإسهاب كما يلي: " لاتُدرَك شجاعة المحلليـن النفسـيين فـي شيء أفضل مما تُدرَك في مسألة استخدامهم لقانون النشوء الحيوي. فهم لاشـك يسـتخدمون ذلـك الشـعار البيولوجـي الكبيـر مـن القـرن التاسـع عشـر بشـجاعة تجعـل بيولوجـي القـرن العشرين الجبان يلهث".

ومايزال تأثير التلخيصية نافذاً في النظرية النشـوئية الفرويديـة والممارسـة العياديـة، وإن كان هذا التأثير مراوغاً في أغلب الأحيان. إن واحداً من المبادىء الهادية للتحليل مثلاً، هو أن المريض من خلال العلاقة التحويلية مع المحلّل سيكرر، ويتذكر، ويعمـل، وبالتـالي يصحح رضوح الطفولة. فالتحويل يعيد تنشيط عنـاصر الطفولـة والصبـا، وهـذه التـأويلات لتفاعلات الماضي التي توضع في الوقت الحاضر قد تؤثر بعمق على المكاسـب العلاجيـة. ومـن سـوء الحـظ أن تؤخـذ فكـرة التكـرار بحرفيتهـا فـي أغلـب الأحيـان. يفـترض بعـض المعالجين أن المريض الراشـد يعـود مـن جديـد ليعيـش ماضيـه الطفولـي الواقعـي. وتُـؤَوّل تنشيطات التحويل الحاضرة على أنها صور مطابقة تماماً للماضي الطفولي، كما لو لم تكـن هناك تحولات تاريخية تتدخل بين عمري الرابعة والرابعة والعشرين.

هنـاك قناعـة لاتـتزعزع تقريبـاً بـأن الطريقـة التـي يتهيـأ فيهـا للمـاضي الطفولـي أن ينعكس في الحاضر أهم من كل شيء في معالجة المرضى الراشدين. فحتى الآن، قلما أتت

التقارير، هذا إن فعلت، على ذكر مراهقة مريض. بل تخلف الانطباع بأن الراشد- الذي يخضع للمعالجة، قد عبر مباشرة من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد. وفي الحالة العيادية،عندما كانت تستحضر سنوات المراهقة، فإنها كانت تعتبر تكراراً لمرحلة الطفولة.

حظيت ميثولوجيا التلخيصيين بموافقة إرنست جونز، وهو واحد من أكثر متعهدي مذهب التحليل النفسي تأثيراً. ومع أن ترجمته كانت رائعة وجديرة بعالم، فإن سيرة حياة فرويد التي جاءت في ثلاثة أجزاء تميل إلى تعظيم بعض الجوانب في تفكيره، في حين كان يجب إخضاع تلك الجوانب للنقد. فقد كان جونز أحياناً يؤوّل مغزى كتابات فرويد على نحو مقنع ؛ وفي أحيان أخرى كان يفشل في استجابته التأويلية ويصبح حرفياً أكثر مما ينبغي.

ففي مقالته "بعض مشكلات المراهقة"، يذكر جونز بشكل واضح عدداً من الصفات التي تميز الراشدين عن الأطفال: يتجه الراشدون بدوافعهم الجنسية بعيداً عن الآباء ونحو الغرباء؛ وقدرتهم على أن يُحِبوا أقوى من رغبتهم في أن يُحَبّوا، "وخصوصاً عند الجنس المذكر"؛ والعقل عندهم يعمل ككل موحد بدرجة أكبر، الأمر الذي يتيح درجة أعلى من التنسيق بين مختلف مكوّناته؛ وهناك تشديد على الصفات الشخصية كالمغامرة، والمسؤولية، والمبادرة، والاعتماد على النفس، ونكرر القول بأن "هذه الصفات أكثر وضوحاً، وعلى نحو مميز، عند الجنس المذكر". فكيف فسر جونز هذه التبدلات العميقة في الطرق الطفولية في الحب، والتفكير، والسلوك؟ لقد كان التلخيص هو القاعدة:

> ولكن قبل أن تحدث هذه التبدلات المهمة، يجب أن تكون المرحلة الانتقالية للمراهقة قد انقضت وتتأثر هذه بدرجة مهمة جداً. *ففي البلوغ يحدث نكوص باتجاه مرحلة الرضاعة، باتجاه المرحلة الأولى لكل شيء ويعيش الشخص من جديد، رغم أن التطور الذي يجتازه في مستوى آخر، يحدث خلال السنوات الخمس الأولى من الحياة.* وبما أن هذا الترابط بين المراهقة ومرحلة الرضاعة هو المبدأ العام المميز أكثر، وهو ماأريد أن أشد الانتباه إليه في هذه المقالة، فإنني أحب أن أسهب فيه بعض الشيء؛ فهو ترابط بالغ الأهمية لأنه يقدم الوسيلة لفهم الكثير من مشكلات المراهقة. وبتعبير آخر، يعني هذا أن الفرد يلخص ويوسع في العقد الثاني من الحياة التطور الذي خضع له خلال السنوات الخمس الأولى من حياته، تماماً كما يلخص خلال السنوات الخمس إياها تجربة

آلاف السنين عند أسلافه ويلخص تلك الملايين من السنين خلال فترة ماقبل الولادة.

وفي تفصيله لفرضيته، يقول جونز بأن التلخيص لايعني أنه تكرار مطابق للتطور الأول. ومع ذلك، نجده ينتهي إلى الاحتفاظ بصيغة التلخيصيين في وصف المراهقة: "المراهقة تلخص مرحلة الرضاعة، أما السبيل الصحيح الذي سيجتاز بواسطته شخص ما مراحل النمو الضرورية في المراهقة فتعيّنه إلى حد كبير صيغة النمو في مرحلة الطفولة الأولى". ويشير جونز إلى المراحل التي تؤدي إلى ارتباط الطفل الصغير بالوالد من الجنس النقيض، من شَبَقٍ ذاتياً إلى شَبَقٍ شرجياً إلى نرجسي إلى مشته للمماثل إلى مشته للمغاير. ولا ريب في أن حوادث نكوصية من هذا النوع تتخلل المراهقة. ولكن مسالك النكوص والتقدم، كما سنرى، ليست في مستوى واحد من الوضوح والدقة كما يحاول جونز أن يغرس في قناعة القارىء عن طريق هذا التفسير.

زد على ذلك أن جونز يتحدث عن التكرار وكأنه يحدث بشكل انعكاسي، أي كأنه واقعية الحياة، إذا جاز التعبير. فهو لم يستطلع المعضلات أو الدوافع النوعية التي تقود المراهق إلى الارتداد موقتاً إلى الماضي النفسي. ويتركنا مع استنتاج ليس مقنعاً تماماً هو أن الطريق التي يسلكها المرء من الطفولة إلى الرشد هي مجرد تكرار لمراحل الرضاعة، ومراحل الرضاعة نسخة مطابقة للنمو الجنيني، وهذا نسخة مطابقة لتاريخ العرق. صحيح أن جونز يحذر "وإن يكن في مستوى آخر"، ولكن تحذيره جاء مجرد تنازل لحقائق واضحة: أمر ما جديد يتواصل في المراهقة.

وبسبب من إفراط المحللين النفسيين في السفسطة في مسائل نظرية، ونمائية، وعيادية، يجدر بنا أن نلاحظ فعلاً أنهم يشددون على ايمانهم بأن المراهقة تلخيص لحوادث مرحلة الرضاعة. وفي الخمسينات، أصبحت المراهقة بشكل واضح ربيبة التحليل النفسي وأن الأفكار الهيْكلية المضللة قد لاتكون أكثر من مبررات لمقاومة أكثر عمقاً.

جرت العادة دائماً في معالجة الحالات عند الكبار على إعادة بناء مرحلة الرضاعة عند المريض. ولكن المحللين قلما نجحوا، هذا إن حدث، في إحياء الخبرات عند المراهقين. وبدأ بعضهم في بحث هذه الظاهرة المعقدة. فاكتشفوا أن المحللين كانوا يشجعون الميول الخاصة عند المرضى لمقاومة "النمو" عن طريق السماح لهم بالتعلق

بديناميات المحللين المطلقي القدرة بالنسبة لهم كأطفال ضعفاء. وكما عقب أحد المحللين المحترمين جداً "يزودنا المريض باضطراد بثروة من المادة الطفولية بمختلف الأشكال والتداعيات، حتى عندما يكون تاريخ الطفولة قد أعيد للتو بناؤه وجددت خبراته بشكل جيد تقريباً. إنه يتشبث بعناد بالمادة الطفولية". فلماذا يميل المحللون النفسيون كثيراً إلى تتبع المريض في هروبه باتجاه مرحلة الرضاعة؟ "قد يبتسم المرء لصيغة السلوك العدواني المباشر عند طفل صغير، ولكن العدوان عند المراهق يتخذ شكلاً أكثر إثارة وإزعاجاً وأحياناً لايمكن تحمله".

وعلى خلاف الرضيع والطفل الصغير اللذين يضفيان على آبائهم صفات مثاليةً ويعتبرانهما مخلوقين كاملين مطلقي القدرة، يدرك المراهقون أن الراشدين ليسوا تلك الكائنات المطلقة القدرة. ويشعرون بأنهم مثلهم في الهشاشة. هذا الإدراك، الذي يزعزع ثقة المراهق بكفاءته الخاصة، هو واحد من العوامل الرئيسية في ترويض ضميره وتوجيهه نحو تقييم أكثر مرونة وإنسانية لذاته وللآخرين. قبل حدوث هذه الأزمة في السلطة الأخلاقية، كان حب الفتى لنفسه ينسب إلى حد كبير إلى مشاركة والديه في القوة. وفي مرحلة المراهقة المبكرة، يقاوم الإصابة النرجسية الناجمة عن إدراكه لقابلية الهشاشة عند والديه عن طريق محاولته تكوين صورة لأم وأب مطلقي القدرة. هذا هو السبب الذي يجعل المراهقين الشباب، بتناقضاتهم المميزة، يعيبون على الكبار عدم كفاءتهم وعجزهم المطلقين، ولكن فقط لكي يصبحوا أكثر قلقاً عندما ينجحون في النهاية عن طريق تشويههم لسمعة الكبار في إثارة ردود أفعالهم البدائية. فاليوم يلجأ الفتى إلى إدانة أبويه من أجل سلوكهما الذي هو أدنى من حد الكمال؛ وفي اليوم التالي يرى فيهما أبوين مطلقي القدرة: "غيرهشّيْن، وبالتالي يمكنني أن أوبخ، وأعذِّب، وأرتكب كل عدوان من غير أن أشعر بالذنب أو أن ألوم نفسي". فلا عجب إذن أن نجد المعالجين لايميلون إلى إحياء انفعالات المراهق بشكل كامل عند مريض راشد.

من الناحية النظرية، يسلّم معظم المحللين النفسيين بتقييمات الوضع الشرعي للمراهقة كربيبة. وحتى الآن، طُرِحَت المسألة في اجتماعات ومناقشات عالمية، وفي أبحاث نظرية وسريرية. ويعترف المحللون بأن جهودهم العلاجية ستتعزز إلى حد كبير إذا هم أعطوا مزيداً من الاهتمام لمراجعة المراهق لطفولته. وقد أعتُرِف بشكل واضح بالحاجة إلى مزيد من الجهود المدروسة لتقدير أهمية دور المراهقة. ولكن رغم ذلك، تستمر

المقاومة الانفعالية. ويستمر اعتبار المراهقة نموذجاً مهيمناً، أو محطة في الطريق بين الطفولة والرشد، أو تلخيصاً لمرحلة الرضاعة.

وخلال العقود الثلاثة الأخيرة اكتسبت النزعة التلخيصية في التحليل النفسي، وقد تأثرت باكتشافات مرغريت ميلر حول المراحل المترقية في علاقة الأم-الطفل خلال السنوات الثلاث الأولى من العمر، دعماً إضافياً، أكثره بسبب نقيصة نظرية ميلر في الانفصال-التفرد. وشعار التلخيصيين اليوم "المراهقة هي ثاني انفصال-تفرد"، هو تكرار للسنوات الثلاث الأولى من العمر، لكنه طبعاً "في مستوى آخر".

في هذه النقطة، نجد أن الرحلة إلى موجودات ميلر تستحق العناء لبضعة أسباب. فعملها يحظى باهتمام واسع ورائج بين المعالجين والمفكرين من كل المذاهب النفسية، لكنها، كنموذج لفهم مرحلة النمو عند المراهقين، يساء تطبيقها باضطراد. وهذه مسألة تدعو للأسف، لأن نظريتها لو طبقت على نحو مناسب، فإنها ستقدم وصفاً أعمق للمراهقة وترجمة لمبادىء التحليل النفسي للنمو أكثر صدقاً من ترجمة التلخيصيين. تتألف القصص في تاريخ الحياة من أساطير ***متداخلة*** من مرحلة الرضاعة، والطفولة المبكرة، والكمون، والمراهقة، والرشد. ولذلك سوف أشير إلى مراحل الانفصال-التفرد لأنها تتسلل إلى معضلات المراهقة وحلولها وتؤثر فيها.

نشأت دراسات ميلر حول سواء الانفصال- التفرد من نظريتها في الأصول التكافلية للارتباط الإنساني. وقادها عملها مع بعض الأطفال المصابين باضطرابات شديدة ممن كانوا عاجزين عن إقامة رابطة تكافلية مرضية أو الاستفادة الفعالة من الذات الأمومية والذين لم يستطيعوا، علاوة على ذلك، أن يتخذوا الخطوات الضرورية باتجاه الانفصال عن الأم، إلى دراسة المراحل التي يظهر فيها الرّضّع الأسوياء من حالة التكافل.

الأحاسيس والاستجابات التي يأتي بها الوليد الإنساني العادي إلى العالم وتمكنه من الانسجام أو التنافر، من الاقتراب أو الابتعاد عن الحوادث المثيرة، هي جزء من الميراث التطوري. فالوليد قادر، حتى قبل أن يصوغ الرابط التكافلي مع الشخص الذي سيعنى به ويعلمه سبل الحياة، على اختيار نوع المثيرات التي سيستجيب لها وتلك التي سيتجاهلها. وعلى مدى الأسابيع الستة الأولى أو حول ذلك، يهتم الوليد الإنساني أولاً بما يجري داخل جسده. ولا ينتبه إلا بصورة عابرة لما يجري في العالم الخارجي. لكنه خلال هذه اللحظات من الانتباه اليقظ، يكون قادراً على التمييز بشكل مدهش. فهو يظهر أفضليات

لبعض الأصوات والمعروضات البصرية. فعند سماعه الهمس المرتعش لصوت أمه، يتوقف الطفل الجائع ابن الأسابيع الأربعة عن الرضاعة ويروح يبحث حوله، بأذنيه، بعينيه، بأنفه للعثور على مصدر ذلك الصوت الرائع، الصوت الذي سرعان ماسيصبح بالنسبة له أكثر روعة وإثارة من اشتهائه مصّ حلمة الثدي بشفتيه ولسانه أو إحساسه الرائع بعد امتلاء قناته الهضمية.

عندما يخرج الرضيع من اليَمْبوس limbo بين الجنينية والإنسانية، يبدأ بتكييف جسده مع جسد أمه. وتجتذبه خدماتها المخلصة وشغفه بالتلامس معها إلى أول محاورة إنسانية له. فهو، من وجهة نظره، لايعترف بوجود حدود بينه وبينها. فأمه وهو يكوّنان أَحَدِيّة تكافلية، يعومان معاً ضمن حد مشترك-غشاء يشبه الرحم من التواصل العاطفي. وفي صياغته للأَحَدِيَّة، تكون خبرته هي النعيم المطلق، وصلته الحميمة بالعالم. فما الذي يغري كائناً، أياً كان، بالتخلي عن هذه الحالة من الانسجام المثالي؟

ويستمر النوع نفسه من الأحاسيس والاستجابات الفطرية التي ساعدت مولوداً جديداً أشبه بالجنين لاختبار القوة الكلية في محيطه الداخلي والخارجي في دفعه إلى الاستكشاف، إلى التحرك باتجاه المشاهد والأصوات، إلى التماس البعد عن أمه، إلى اكتشاف العالم خارج غشاء الأم--الطفل. هذا الإحساس الأولي بالذات (النرجسية الأولية)، الذي يسبق في وجوده وجود أية صلة بالآخرين، يمنع الطفل من الاستسلام للنوم على الثدي فلا يستيقظ أبداً على العالم خارج ذاته. والدوافع لدى كل منا لكي يصبح ذاتاً في العالم تكمن، منذ اللحظات الأولى للحياة، هناك-في نشاط طاقات النمو. الفطري لدينا، في حيوية عضلاتنا التي تتصلب من غير انقطاع، في تطلعنا، في إصغائنا، وفي أيدينا الممدودة. وهكذا، وبعد المرحلتين الأوليتين: اليَمْبوس والأَحَدِيَّة، اللتين كانتا داخليتين نسبياً في تركيزهما، تبدأ بالتقدم عملية الانفصال-التفرد التي اكتشفتها ميلر. وتمتد هذه المرحلة من ثلاثة أشهر تقريباً إلى حوالي سنتين ونصف أو ثلاث سنوات من العمر. إن مراحل هذه العملية هي مايشير إليه المحللون وعلماء النفس عندما يتحدثون عن تلخيص المراهقين للانفصال-التفرد.

يتكون الانفصال- التفرد من طاقين مفتولين: طاق التفرد، الذي يجب أن يكون على علاقة بالنمو، والإحساس، والقوة العضلية، والذاكرة، والحس بالواقع، والاستقلال، والكلام، والقدرة العقلية، ووعي الذات؛ وطاق الانفصال الذي يستلزم ارتباط الرضيع عاطفياً بأمه-

الاقتراب منها، والابتعاد عنها، وإقامة الحدود بينهما، وتعلم حالات الحب والكره، والتنازل لها عن بعض من قوته الفطرية مقابل اختبار أنه آمن، وأثير، وموضع تقدير، ثم اكتشاف أنه منفصل عنها وتعلم القبول بهذا من أكثر الحقائق صعوبة في الحياة.

من محاورة الأحديّة التكافلية، يعي الرضيع بالتدريج وجود أمه ككينونة هناك بعيداً -في العالم. ويبدأ من الشهر الرابع إلى الخامس بالتميز عنها. فتنير بوجودها الطريق أمامه إلى عالم صغير مألوف خارج غشائهما النفسي المشترك. و ***التمييز*** هو المرحلة الأولى.

في فضوله الحذر مع الغرباء، في انسلاله بعيداً، وابتعاده زاحفاً إلى منطقة غير مألوفة وعودته مسرعاً إلى حضن أمه في محاولة للتزود بشحنة عاطفية، وفي تمهله في الطريق لتفحص وجهها بهدف الاطمئنان عندما يكون على وشك الإقدام على مغامرة، يجعلنا ابن الأشهر الثمانية ندرك بأنه مايزال حذراً بخصوص الانفصال. في هذه المرحلة، مرحلة ***التدريب المبكر***، تواصل طاقات التفرد عنده تحفيزها له لاستخدام قواه الفطرية بينما تواصل رابطته العاطفية بأمه كبحه ومنعه من الفرار بنفسه.

وفي شهره الثاني عشر، تصبح حركاته بعيداً عن أمه أكثر جرأة. لقد أصبح الدارج الحدث قادراً على الانتصاب والابتعاد ماشياً. وهكذا يبدأ المرحلة الفرعية للتدريب الذاتي. مع هذه الخطوات، عندما يبتعد ماشياً على قدميه، تكون ثنائية الجسم والعقل عنده قد بلغت لحظة اكتمالها. لقد أصبح العالم ملكاً له وهو الفاتح الجبار لكل مايراه. إن بينه وبين العالم علاقة غرامية إلى حد يمكّنه أن ينسى موقتاً كل شيء عن أمه، مالم تتركه وحيداً لفترة طويلة، وهي حالة يُستبدَل فيها مزاجه الفَرِح بآخر مكبوت، وهو تصور صامت حزين للحالة المثالية للذات التي خرجت إلى الباب مع الأم. وطالما بقيت أمه في المكان قريبة منه، سيعمل البهلوان المقتدر بثقة على إظهار براعاته في الدوران، والمشي على رؤوس الأصابع، والوثب، والتسلق، والحملقة، وإطلاق التسميات. فهو مبتهج، متخم بعظمته وقدرته الكلية العجيبة.

مع ذلك، وفي ذروة هذه الفترة المفعمة بالبهجة من الحياة، نجد الرضيع مازال لايدرك أنه وأمه كائنان منفصلان. وتقوم بهجته جزئياً على أساس وهم مؤداه أن العالم هو أم– أي أن وجودها يشمل العالم. ولن يتوصل قبل شهره الثامن عشر، عندما تكون ثنائية الجسم والعقل عنده قد اقترنت بعقل ناقص التفكير، إلى الإدراك بشكل تام بأن وجود أمه غير وجوده. وعندئذٍ يواجه أزمة ***التقارب***.

في هذه المرحلة يعتريه القلق. وتحل خيبة الأمل، والغضب، والحزن مكان المزاج المبتهج السابق. فتهيمن على جو المنزل نوبات من النحيب المترافق بـ "لا!" و "لي". وفي الفترة بين 18-24 شهراً من العمر، يتوقع الطفل أن تكون أمه في كل مكان، رغم ذلك، يقوم بإبعادها عنه عندما تقترب منه لتحمله. وتحل محل البهجة الواثقة لصلته الغرامية بالعالم نوبات غضب انفعالية عاصفة وتقلبات مزاجية عنيفة من الابتهاج المفرط إلى الحزن. ومع وعيه للانفصال، فإن هذا الجبار صاحب القدرة المطلقة الذي فتح العالم يجد نفسه صغيراً، وهشاً، وضعيفاً، وعاجزاً تماماً. ويسيطر عليه بشدة ميل طبيعي إلى اعتبار الأم المحبِطة سيئة كلياً والأم المرضية طيبة كلياً. وبصورة مماثلة، يخلع الطفل الدارج التصالحي على نفسه صفات الطيبة المطلقة أو السوء المطلق. زد على ذلك، أنه كثيراً ماتكون الغلبة للسيء، أي الجانب غير الطيب، فيسيطر هذا خلال هذه المرحلة. ويصبح الاحتفاظ بصورة ذاتية متماسكة أو بتمثيل ثابت للأم أو للأب مستحيلاً تقريباً عند طفل دارج.

ويتمنى لو يعود إلى النعيم المطلق للأحديّة التكافلية، لكنه لايستطيع الآن أن يتخلى عن إحساسه الانفصالي، عن رغبته العارمة في ادعاء الأحقية بجسمه وعقله بوصفهما ملكاً له. ويبدأ بحثه لكي يفهم شروط الحب الواقعي. فيمنى بكثير من الهزائم، والإهانات، والنكسات. لكنه يتعلم أخيراً أنه يمكنه أن يكون ذاتاً منفصلة من غير أن يتخلى عن إحساس الطيبة والكمال، وأنه يمكنه أن يدّعي الحق بعقله وجسمه ويحتفظ في الوقت نفسه بحب والديه. وعند بلوغه الثالثة من عمره، سيكتسب الطفل إحساسه الأولي بانفصاليته وهويته.

وفي الطريق إلى هذه الحصيلة النمائية الحاسمة، تسهم كل مرحلة من مراحل الانفصال -التفرد على نحو إيجابي بنصيب ما في صياغة ذاتية الطفل وشخصيته. ومن بين هذه الإسهامات تنظيم المقومات الفموية والشرجية للخاصية الجنسية، وتنميط استجابات الحس الحركي واكتساب اللغة، وتوسيع مدى الانفعال، وإغناء المزاج والتأثير على الاستعدادات، وتأسيس بداية للإحساس بالخطأ والصواب. عندما يحدث الانفصال-التفرد بطريقة عادية في كثير أو قليل، فإن التأثير المديد يعمل على تسهيل التحولات الجنسية والأخلاقية في مراحل النمو الأخيرة، كمرحلة المراهقة. وبالمقابل، عندما تكون محاورات الانفصال-التفرد غير وافية، فإنها سوف تتسلل وتشوه آخر الحلول النمائية. ولكن حتى في ظل هذه النتائج الأقل إيجابية، فإن مايحدث، كما سنرى، لايكون تلخيصاً للانفصال-التفرد.

رغم ذلك، يمكن للمرء أن يدرك سبب انكبابْ المهنيين على رواية ميلر بوصفها مدخلاً لفهم التكرار المفترض عند المراهقين. ويبدو واضحاً أن مراحل رحلة المراهق من الطفولة إلى الرشد هي نسخة عن مراحل الرحلة الأولى من الأحديّة إلى الانفصالية. وكان إغراء التشابه منذ الرضيع إلى المراهق لايقاوم.

نهم المراهق لنشوة الحب المثالي يذكرنا بالتكافل. وميله إلى الابتعاد متجولاً، واكتشاف العالم، والعودة بعدئذٍ إلى القاعدة الأساسية للحصول على قدر من شحنة عاطفية، يذكرنا بمرحلة التدرِيب المبكر. تبدو البهجة المتركزة حول الذات عند المراهق وإدراكه المبالغ فيه لمحيطه وقدراته الخاصة شبيهة إلى حد بعيد بعلاقته الغرامية التي يمارسها على نحو مناسب مع العالم. وتبدو الأمزجة الشاذة، والسلبية، وردود الفعل الحزينة، والمعروضات المزاجية للمراهقة وكأنها تكرار لسلوكيات التقارب. وبالتالي:

> تتماثل إلى حد مدهش ديناميات التفرد عند المراهقين مع العملية التي وصفتها الدكتورة ميلر وزملاؤها... وليس بعيداً أن تعمل التكيفات البنيوية الضخمة التي حدثت في المراهقة على تكرار عملية التكون البنيوي الأصلي.

> ... المراهقة المبكرة هي المرحلة الثانية للقوة الكلية-يشعر الفتى في هذه السن أنه قادر على القيام بأي شيء، الذات طيبة تماماً...

> ... الكبت الذي لاحظته ميلر وزملاؤها عند الدارج المتدرب المتأخر وهو يتحسس غياب أمه كثيراً ماينعكس على شكل كآبة وهيوجية عنده كمراهق، وهو يسعى إلى التعامل مع اللاموضوعية واستنزاف الذات اللذين ينجمان عن جهوده في الانفصال.

نسلم طبعاً بأنه لايمكننا التحدث عن طفل الكمون أو الطفل ماقبل المراهق ووالديه بوصفهما شريكين في حالة تكافلية قريبة إلى تلك الحالة التي ترافق الأشهر الأولى من الحياة، ويبقى صحيحاً أن هناك تشابهات سلوكية بين عملية المراهق (في ثقافتنا على الأقل) وعملية الانفصال- التفرد السوية ومراحلها الفرعية المتعددة، كما وصفتها ميلر.

نبّه بيتر بلوس، المحلل النفسي الذي تحدث أولاً عن المراهقة كـ "تفرّد ثانٍ"، إلى أنه على الرغم من أن النضج التناسلي يدفع إلى تجدد البحث عن هوية وعصرنة الحياة الأخلاقية، فإن هذه الحوادث العقلية والانفعالية الخاصة بالمراهقين يجب ألا تعتبر كنسخة مطابقة لأول *انفصال*–تفرد. وكان بلوس دقيقاً، مثله مثل ميلر، في المحافظة على التمييز بين كلمة "انفصال" وكلمة "تفرد". فالتفرد، وهو عملية نمو تتقدم باستمرار من الولادة إلى الرشد، يجتاز طفرتين رئيسيتين، إحداهما خلال السنوات الثلاث الأولى والأخرى خلال المراهقة. وتفرد المراهق، الذي يتضمن الوفاق بين النشاط التناسلي والأخلاقية، يختلف تماماً عن الانفصال– التفرد في مرحلة الرضاعة. يحدث الانفصال–التفرد مرة واحدة، واحدة فقط، خلال السنوات الثلاث الأولى من الحياة؛ ويقصد به فقط التمييز التدريجي من قبل الطفل للحدود بين ذاته الخاصة وحدود أمه وتقبله لتلك الحدود.

يشعر بعضُ المحللين النفسيين، شأنهم شأن شيوخ القبائل وعلماء البيولوجيا والمؤرخين الاجتماعيين، وكل الباقين منا، بمزيد من الاطمئنان عندما يمكنهم أن يقولوا عن المراهقة، "كانت هناك مسرحية عنيفة جداً، ورغم ذلك، إن مايحدث ليس جديداً حقاً".

رغم أن روسو كان يتأرجح بميوله ورؤاه الرومانسية *للبدائي الطيب* نحو خلع الصفات المثالية على ماهو طبيعي، فقد كان يعرف أن الطبيعة لاتتراجع. ففي *المحاضرة الثانية* التي كتبت قبل قرن من كتابة *أصل الأنواع*، تبنى روسو وجهة نظر تطورية عن الطبيعة الإنسانية كانت حديثة على نحو غير عادي. هناك من يقول، من أمثال كلاود ليفي–شتراوس، بأن أوصاف روسو للانتقال من الفطرة إلى الثقافة تطرح المعضلات المركزية لعلم الإنسان الحالي. مع ذلك، ونظراً لأنه لم تتوفر لروسو معرفة مباشرة عن الأنواع الحيوانية أو الأعراق المتوحشة التي كتب عنها، فقد كان مجبراً لأن يعتمد على الرحلات الأفريقية في القرنين السادس عشر والسابع عشر وعلى كتابات الشخصيات العلمية من معاصريه. ومن هنا جاء تمجيده للبراءة الأخلاقية والفكرية عند "الأعراق المتوحشة". ومثل ذلك كانت معرفته عن نمو الطفل، فمع أنها كانت متقدمة إلى درجة مهمة بالنسبة للقرن الثامن عشر، إلا أنها قامت أساساً على ذكرياته الشخصية، وخبراته كمعلم، وقراءاته الشكوكية لإصلاحات لوك التربوية، التي عارضها جملة بسبب تشديد لوك على التقييد والعقل كمَعلَمَين هاديين على طريق تنشئة الطفل. وهكذا يبخس روسو تقديره للنوعية

الخام للأخلاق عند الأطفال وبنيانهم النرجسي المعقد الذي ينشأ بالاقتران مع علاقة الرضيع بوالديه. لكنه مع ذلك، كان أول فيلسوف غربي يعترف بأن مجيء مرحلة البلوغ يعتبر ولادة **جديدة** للإنسان، يمكن فيها تسوية التناقض بين المصلحة الذاتية والواجب الاجتماعي. ومع استيقاظ العواطف التناسلية، يمكن للأخلاقية أن تتفوق على قبول لقوانين العقل بدون تفسير.

حتى هول، التلخيصي الأول، عندما تحدث عن الولادة الثانية كان يلمّح إلى ظهور صفات وراثية أثناء المراهقة لم تكن متوقعة قبلها، لو تم التوفيق بينها وبين الجنسانية عند البالغين، لأمكن تطويرها إلى ماهو أسمى وأكثر تقدماً في الطبيعة الإنسانية.

وفرويد أيضاً، الذي أضلته النظريات الهيكلية عن التطور عندما كتب حول البلوغ، ألقى ضوءاً قوياً على مايولده نضج الأعضاء التناسلية، الداخلية والخارجية، من تحسنات على الحالة العقلية والانفعالية. فالمناطق الرئيسية المثيرة للشهوة الجنسية قبل البلوغ هي سطح الجلد، والعينان، والفم، والشرج، إضافة إلى أعضاء التناسل التي لم تنضج بعد. وبعد البلوغ، يجب أن تخضع المناطق الطفولية المثيرة للشهوة الجنسية لسلطة الأعضاء التناسلية. هذه المناطق من الجسم التي تثير الشهوة الجنسية مع مايرافقها من تخيلات تسهم في طليعة اللذة الجنسية. فالإثارات التي تولدها تزيد من الانتصاب عند الذكور ومن تزليق المهبل عند الإناث. شدد فرويد على البعد الأخلاقي المأساوي لهذه التبعية للنشاط الجنسي عند الأطفال. فكتب كثيراً عن العلاقة العكسية بين الحضارة والتطور الحر للنشاط الجنسي. وعند نهاية المراهقة، يصبح قصور النشاط الجنسي عن إشباع الرغبات التي نتوق إليها ونتذكرها من مرحلة الرضاعة حقيقة في الحياة، أي حتمية حضارية. ورغم ذلك، تحقق التسوية بين النشاط الجنسي والطموح الأخلاقي عند المراهقين إنجازات حضارية نبيلة.

ومع أن فرويد كان يتحدث كـ هيكليٍّ حقيقي، موازناً بين العقليات عند البدائيين والمتوحشين، والرّضّع، والعصابيين، فإنه كان يميز أحياناً بين العقلية عند الرضيع وبينها عند البدائي من ناحية الأداء الوظيفي للعقل: "العقل البدائي خالد بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى ". العقل البدائي لايستعيد الماضي على شكل نسخة مطابقة للحالات الأصل غير الناضجة لكنه، على الأصح، يبعث في التخيلات الحاضرة تلك الرغبات الدفينة التي حجبتها، ولطّفتها، ونقحتها عمليات النمو التالية. فالأحلام، على سبيل المثال، لاتتضمن حالات من عدم النضج بل على الأصح أنماطاً فطرية من التفكير تتسلل باستمرار إلى

الحاضر مع كثير من تراكمات الماضي. والعقل الطفلي على عكس ذلك، لأنه يخضع لتنقيح دائم.

وعندما كان يتفق له أن يتحدث عن الوجود الإنساني، كان فرويد دائماً يؤكد بأن التوجه لايتخذ دائماً طريقاً مباشراً للوصول إلى النتيجة النهائية. فالتقدم العقلي مهمة دقيقة تستلزم دائماً حركة تراجعية. وجاءت التفسيرات السريرية التي قدمها فرويد للتفاعل بين الحركة التراجعية والحركة التقدمية أكثر براعة وتعقيداً بكثير من مجرد كونها تكراراً أو تلخيصاً.

ومع تقدم الحياة النفسية، وخصوصاً إلى تلك المفاصل التي يتوجب عندها تنقيح الطرق القديمة لتنظيم الخبرة بالارتباط مع المسائل الجديدة التي تبرز، يجب أن نتوقع دائماً حدوث حركات نكوصية موقتة، وهي في الواقع حركات مرغوبة. فالطرق الجديدة في التفكير، والشعور، والتخيل، والتصرف لاتُكتسَب في صيغتها الكاملة. وكما أننا لانتوقع أن نفطم طفلاً دارجاً بين عشية وضحاها، كذلك يجب أن لانتوقع أن يتخلى المراهق عن طفولته بدون صراع، بدون حزن، بدون قلق، بدون ارتداد إلى الماضي. ويكون النجاح متدرجاً ومعرضاً للنكس، والتجربة والخطأ.

إن مايحدث أثناء المراهقة ليس نكوصاً تاماً لكامل الشخصية. فقد يبدو المراهق في بعض الجوانب بدائياً تماماً، وفي جوانب أخرى مجرد شخص يفتقر إلى النضج إلى حد بعيد ويشبه الطفل، وفي بعضها الآخر أيضاً قد يبدو راشداً ومسؤولاً أكثر من أي وقت مضى. تمارس بعض ملامح الحياة النفسية، كحاورات الحب المبكرة بين الوالد والطفل مثلاً، جذباً تراجعياً قوياً جداً. وقد يكون هذا الجذب قوياً بما يكفي لإثارة أنماط ***بدائية*** من الحب والكره، وخصوصاً إذا كان لم يتم حل سناريوهات الماضي تماماً أو إذا كانت هناك رضوح لم يكن بالإمكان التغلب عليها في ذلك الوقت المبكر. ولكن حتى في هذه الحال، لايسلك المراهق كالرضيع الذي كان يسلك تلك الطرق الفجة لأنها تلائم مرحلة الطفولة ليس إلا. فالرضيع، في كروب أزمة التقارب، لايتصرف بطريقة بدائية بل كطفل سوي يحاول حل أزمة نمو طبيعية. وعندما نرى مراهقاً يتصرف كطفل دارج يسعى إلى التقارب، فسوف نفهم من ذلك بأنه يتراجع إلى نمط بدائي من الأداء الوظيفي. فهو لايعيد الماضي كما كان؛ بل الماضي هو الذي يتسلل إلى الحاضر، ويستخدم المراهق نمطاً بدائياً من الأداء الوظيفي لحل الأزمة الحالية والخروج منها.

نكوص المراهق في بعض جوانب الحياة العقلية أقل إثارة. فقد يكون مزعجاً للوالدين والمعلمين، لكنه أقل ترويعاً للآخرين، بمن فيهم المراهق نفسه. ففي حالات كهذه يفقد المراهق موقتاً أكثر الإنجازات النمائية، الحديثة منها فقط. وما يحدث هنا هو أن كثيراً من الميول التثقيفية التي اكتسبها مؤخراً أثناء الطفولة تضعف بصورة موقتة؛ فالصيغ الصَمِّيّة والمحسوسة للسيطرة العقلية كالاستظهار، والجمع، والتصنيف التي كانت في وقت ما تبعث الكثير من المتعة في نفس الأبوين والطفل تبدو وكأنها تتلاشى الآن، مثلها مثل الاستقامة، والطاعة، والكياسة، والنظافة، والاحترام البنوي. ولكن هذه الصيغ المنبعثة من التحسس بالواجب والتي تعبر عن الذكاء والطيبة المبنية على أساس خضوعه للسلطة كطفل يعيدها المراهق الآن للتنقيح، وليس للإلغاء. وفي غضون عقد أو نحوه، وإذا سار كل شيء على مايرام، سيعهد بهذه الصفات العقلية والأخلاقية لقدرات عقلية وأخلاقية أكثر تجريداً، هي مؤهلات الراعي والمشرع للجيل التالي من الرّضّع والأطفال.

تفيد هذه الحركات الرجوعية بصورة رئيسية في تخفيف القيود وتحرير الحياة العقلية. حيث تبعث الرغبات، والتخيلات، والأمنيات القديمة من معتزلاتها في العقل. ولكن لماذا يعتبر بعثها أمراً مرغوباً فيه؟ يعود ذلك لأننا عندما نتمكن في الوقت الحاضر من تناول الماضي من جديد، يصبح بمقدورنا تحويله وإعادة تأويله. والمراهقة توفر إمكانية انتقاء مايجب أن يتواصل وما يجب أن يبقى في الماضي. وتساعد هذه المراجعة التي يقوم بها المراهق في ضمان عدم استنزاف وجود الراشد بتكرار الماضي. ونحن من جانبنا نحترم الماضي ونعطيه مكانته الحقيقية جنباً إلى جنب مع الحاضر والمستقبل، ولكننا لانسمح له بأن يتغلب أو يفرض سيطرته على الجديد.

نتوقع خلال المراهقة، كما في كافة المراحل الانتقالية الرئيسية في الحياة الإنسانية، أن تحدث مواجهة بين الماضي والحاضر. وكما تشير التضحيات في طقوس البلوغ، هناك يتقابل الماضي والمستقبل؛ حيث يمثل الندب انبثاق لحظة حاضرة يمكنها استحضار الماضي وهي التي تخلق المستقبل.

وفي سبيل تقدمه نحو الرشد، يقوم المراهق برحلات إلى الماضي. ولكن هذه الرحلات ليست خطية، أكثر من كون الحركات التقدمية مباشرة إلى الأمام. ينحدر المراهقون إلى الماضي لأن المعضلات الجنسية والأخلاقية التي يواجهونها في الوقت الحاضر تتطلب التخلي عن تلك الجوانب من الماضي التي تعرقل الحركة نحو الرشد.

والدافع الرئيسي لتجدد ولادة المراهق هو تقدمه نحو المستقبل، ولكن هذا غير ممكن قبل العودة إلى زيارة الماضي، وتذكّره، وتنقيحه.

المراهقة، من وجهة النظر النفسية، هي الولادة الثانية التي اكتشفها كل من **روسو و هول**. فبعد مغادرة الوليد للرحم، يخضع للولادة النفسية الأولى ويظهر للعيان كفرد، يحمل إحساساً مترابطاً بذاتيته واستقلال هويته. وفي الولادة النفسية الثانية، التي هي إلى الرشد الآن، تكون تلك الحلول التجديدية التي تمثل كفاحنا في سبيل الكمال الإنساني. فإذا استندنا في إصدر أحكامنا معتمدين على المظاهر السطحية وحدها، فإننا نكون قد أهملنا كلياً المراجعة المثيرة للحياة الداخلية، التي هي موضوع المراهقة. وسوف نتمكن من حل رموز العواطف المستبطنة فقط في حال توصلنا إلى طريقة نترجم فيها المظهر الخارجي إلى ماهية. هذه الطريقة ذاتها في البحث يجب أن تضع في اعتبارها تداخل المظهر الخارجي والمضمون في سبيل الكشف عن الطريقة التي يقوم بواسطتها كل شخص بتركيب قصص حياته، ومراجعتها، وبالتالي إعادة تركيبها. والتحليل النفسي هو تلك الطريقة، لأنه يقدم تفسيراً للتفاعل بين الحياة الجنسية والأخلاقية، والخيال والواقع، والماضي والحاضر.

في البداية، في تسعينات القرن التاسع عشر، وضع فرويد ملاحظاته السريرية حول نفس psyche الراشد، واكتشف هناك علامات الحياة الطفولية، أي النشاط الجنسي الطفولي والعقدة الطفولية عند أوديب. اشتغل فرويد مع الراشدين واكتشف مرحلة الرضاعة. وبحث بعض من أتباعه مرحلة الرضاعة وتوصلوا إلى فهم أوسع حول سن الرشد. إن العلاقة بين ترجمة قصة الحياة التي تبنى عن طريق استعادة الحوادث الماضية، كما وضعها فرويد، وقصة الحياة التي تبنى عن طريق التصور التوقعي، كما في الاكتشافات الحديثة، ماتزال غير واضحة. وتشكل الأحاجي مصدراً مهماً للذعر والجدل بين المحللين النفسيين. والمراهقة هي حلقة الوصل بين الطفولة والرشد. وعندما نقتفي أثر نتائج هذه المرحلة من الحياة، نصبح أقرب إلى فهم المنطق المعقد لروايات الوجود الإنساني.

4

الحيوان الرئيس المتأخر

فاصل بيولوجي:

بداية البلوغ

يتقدم التطور الإنساني والنمو الفردي وفقاً لمبادىء تطورية تختلف كلياً عن المبادىء التي أعلنها هيكل وتبناها بحماس من بعده جمع غفير من المختصين بعلم الإنسان، والباحثين في علم الجريمة، والشعراء، والمحللين النفسيين. فالتأخر وليس التلخيص هو جوهر التطور الإنساني.

نحن سلالة بارزة في عالم الحيوان. ننتمي إلى تلك الرتبة من الثدييات الرئيسة، التي تتميز بنزوعها إلى تكرار ولادة البطون المفردة، وشدة العناية الوالدية، وطول مدى الحياة، وتأخر النضج الجنسي، وتعقيد الوجود الاجتماعي وشموليته. والملمح البارز لهذا الإرث الشائع للحيوان الرئيس الذي يميز الإنسان عن كافة الرئيسات الأخرى هو بطء النمو وتطاوله ***على نحو غير عادي***. إنه تعوّق النمو، أو تأخره هو الذي أفسح لنا مجال الارتقاء إلى أعلى نقطة على ***سلم الأنواع*** وتحقيق السيادة على كل مخلوق آخر حي. ثم إن عجزنا المتطاول، البيولوجي والنفسي، الذي يمتد حتى السنة الثالثة من العمر، يعمل على تمتين الرابطة بين الرضيع ووالديه، الأمر الذي يمكن معه إدراك التواصل بين الأجيال. وعلى عكس الرئيسات الأخرى، إن هذه الروابط لاتنفصم بعد النضج الجنسي.

يتيح لنا تأخر التخلق النهائي لدماغنا ونضجنا الجنسي إلى العقد الثاني من الحياة أن نستفيد من طول مدة التدرب في طفولتنا، الأمر الذي يؤهبنا للتمدن. وبما أننا نتعلم على مدى عقود كثيرة طريقة التصرف أكثر من تعلمنا مجرد الاستجابة لبيئتنا عن طريق القوانين الغريزية المضبوطة مسبقاً، يصبح اعتمادنا على بيئة ثابتة أقل صرامة. يمكننا أن

نؤثر في بيئتنا، ويمكننا أن نبدلها بشكل جذري أيضاً، لكي نرتقي باهتماماتنا العاطفية والفكرية.

وهناك إمكانية أخرى لفتوتنا لايمكن التغلب عليها هي قدرتنا على المحافظة، حتى بداية خرف الشيخوخة، على تفاعل نشيط وخلّاق مع بيئتنا. فنحن نثابر على التنقيب، والبحث، والاختراع، والاكتشاف. والإنسان، من هذه الجوانب، في كل العصور، وفي كل المجتمعات، وفي كل أدوار الحياة، أكثر شبهاً بالشيمبانزي الطفل ولا يشبه إطلاقاً الشيمبانزي الرزين الممتثل بقوة، الذي لم يتبدل كثيراً منذ كان في الخامسة أو السادسة من عمره. والطفل الإنساني لايشبه بأية حال الشيمبانزي الكبير، كما ظن التلخيصيون، ولكن الكبير من بني الإنسان يشبه الشيمبانزي الطفل. فنحن كالشمبانزي الطفل، الذي يتمتع على مدى بضع سنوات على الأقل بمزايا تأخر النمو، جوعى إلى تعلم أشياء جديدة. لاسيما وأن عقولنا مرنة وفضولنا كبير. فلا يمكننا مقاومة الرغبة في تحري الأحداث الجديدة، والتجوال، والبحث هنا وهناك، ندس أصابعنا في كل ركن وزاوية من عالمنا. تنمو الشيمبانزي الطفلة، بعد بدايتها المغامرة والمرنة، إلى النضج بسرعة. فيفقد وجهها التناسبات اليفعية التي تشبه التناسبات عند الإنسان. وتكتسب التناسبات القحفية عند الشيمبانزي الكبير: قحفاً دماغياً صغيراً نسبياً مائلاً إلى الخلف، وفكاً كبيراً بارزاً وخطماً. وسرعان ماتجد لها شريكاً فتصبح أماً. وهي، باستثناء التغذية والاحتفاظ بالإشارات وتساهلها في تشجيع توق طفلها إلى الاستكشاف، سوف تقطع كافة ارتباطاتها العاطفية مع أمها بالذات. ويكرر طفلها كل شيء سبق لها أن قامت به، وبالطريقة ذاتها تقريباً. وهكذا ***يعود كل جيل إلى البداية***. فلا يتغير شيء.

نحن بني الإنسان، نجتاز في نمونا طفرتين رئيسيتين: إحداهما أثناء الرضاعة والثانية من الحادية عشرة أو الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، أي مرحلة ماقبل البلوغ. وبين هاتين الطفرتين فترة نمو هادئة نسبياً يرتاح فيها كامل الجسم من عملية النمو في حين يتابع الدماغ طريقه إلى النضج. تطلق على هذه الفترة من الحياة عادة تسمية طفولة أو كمون أحياناً.

يرتبط النمو الثنائي الطور وما يرافقه من إرجاء في النضج الجنسي مباشرة بالطول الاستثنائي للفترة المتروكة للدماغ الإنساني لكي ينضج. فتصل الثدييات التي ينضج الدماغ عندها بسرعة إلى شكله النهائي، كالقوارض والسنوريات، إلى مرحلة النضج الجنسي

مباشرة بعد أسابيع، أو أشهر، أو سنوات من مرحلة الرضاعة. وإنه لعيب تطوري عند أي مخلوق أن ينجب طفلاً صغيراً قبل أن يرتقي دماغه وجملته العصبية إلى المستوى الذي تتطلبه وظائف النوع، الاجتماعية والوالدية.

تتوفر أمام أجزاء الدماغ المسؤولة عن تقدم الأداء الوظيفي الفكري الضروري للحياة الاجتماعية عند الإنسان فرصة النمو والتطور قبل أن تتلقى الأجزاء التي تستهل مرحلة المراهقة "الإشارة" البيولوجية للبدء بالأداء الوظيفي على مستوى الراشد. ويمكن القول بأن الطبيعة قصدت من تخطيطها هذا أن تنمو القدرات الفكرية والجنسية بالتتابع للمحافظة على استمرارية الحياة الاجتماعية الضرورية لكافة الأنواع، من القوارض التي هي أدناها إلى الإنسان الفاضل الذي هو أعلاها. يتيح النمو الخاص الثنائي الطور للفتيات والفتيان من بني الإنسان الفرصة لتعلم التعاون في حياة الأسرة والجماعة والتثقف بعادات المجتمع قبل أن يجبروا على التعامل مع المطالب المعقدة للتناسل، والمنافسة الجنسية، والإنجاب، ومستلزمات الوالدية المديدة عند النوع الإنساني.

كانت المظاهر الفيزيائية لمرحلة ماقبل البلوغ، أي النمو السريع للجملتين الهيكلية والعضلية، ونضج الأعضاء التناسلية، وظهور ونمو الخصائص الجنسية الثانوية كشعر العانة والثديين، قد لوحظت ووصفت أحياناً بدقة في معظم الحضارات القديمة وثقافات مجتمعات الصيد. مع ذلك، أحيطت الأسس البيولوجية لطفرة البلوغ إلى الرشد بالسرية على مدى العصور.

وعند نهاية القرن التاسع عشر، اكتشف البيولوجيون الغربيون أن مايعرف بالهرمونات الجنسية، الإستروجين Estrogen و التستوستيرون testosterone، معنيّة في إنضاج الأعضاء الجنسية وظهور الصفات الجنسية الثانوية. ولكنهم لم يتمكنوا، عندما يبدأ إفراز هذه الهرمونات، أن يدركوا سبب إفرازها، ولم يعرفوا العوامل التي قد تكون مسؤولة عن توقيت النضج الجنسي والسياقات التي تؤدي إليه. ولم يدرك العلماء إلا خلال العقود الثلاثة الماضية التفاعلات الهرمونية المعقدة التي تنظم بداية البلوغ، وسياقاته، وأمده. وتبقى الألغاز بدون حل حتى الآن. فالعامل الذي "يقدح" التبدلات الهرمونية التي تستهل حوادث البلوغ لم يُحَدّد بعد. وعندما تنتهي مرحلة البلوغ، نجهل بصورة تامة تقريباً كيف أو لماذا انتهت.

يتوجب على كهّان الشامانية* Shamanism وشيوخ القبائل أن يقوموا بعملية "تنشئة" الطفل بدون الاستفادة من كافة التفاصيل. أما نحن فمتنورون. فالمكونات الفيزيولوجية المركزية التي تضبط توقيت وسياقات ماقبل البلوغ والبلوغ تقع في مدى إدراكنا. مع ذلك، ماتزال معرفتنا مهزوزة وغير كافية. فاللغة التي نستخدمها لوصف بداية البلوغ تكشف مناطق ظل. فعُرى التغذية الراجعة، السلبية والإيجابية مع الـ "إيماءات"، والـ "تحولات"، والـ "مثيرات"، و "منظمات الحرارة" هي النموذج اللغوي الذي نستخدمه. ويتحدث العلماء بغطرسة عن "الأوامر من القشرة" التي "تنبّه الوطاء (هيبوتالاموس) hypothalamus"، وهم في الواقع لايعرفون الكثير عن طبيعة هذه الحوادث. ولكن هذا أفضل مالديهم في الوقت الحاضر*.

هذه هي في الأساس الطريقة التي تعمل بموجبها علاقة التغذية الراجعة. فعلى امتداد مرحلتي الرضاعة والطفولة، يكون الوطاء حساساً بشدة للتأثيرات الكابتة للكميات البسيطة من الهرمونات التي تفرزها خصىً ومبايض لم تنضج بعد. والقند gonads ذاتها لايمكنها أن تتقدم باتجاه النضج قبل أن تحرضها هرمونات خاصة تفرزها النخامى. يعمل الوطاء أثناء الرضاعة والطفولة على تثبيط النخامى عن إفراز هذه الهرمونات الموجهة للقند. لكنها مأن تتلقى الـ "إشارة" بأن جسم الطفل ودماغه قد أصبحا ناضجين بما يكفي لانتقال البالغ من الطفولة إلى الرشد حتى تعطي إشارة الانطلاق.

بداية البلوغ

تصدر أوامر المسير نحو البلوغ عن *الوطاء*، ذلك الجزء من الدماغ الذي يقع تحت المخ، خلف الأعصاب البصرية، عند نهاية جذع الدماغ. وهو الذي ينظم الوظائف الحيوية لجسم الإنسان. وعلى الرغم من أهميته الحاسمة في الأداء الوظيفي للكائن الإنساني، فإنه يزن فقط 300/1 من إجمالي وزن الدماغ وهو تقريباً بحجم حبة اللوز.

---

* الشامان كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى والكشف عن المخبأ وللسيطرة على الأحداث–المترجم.

* افترض في السنوات الأخيرة أن الهرمون النخامي، وهو الهرمون المنبه للأندروجين القشري (CASH)، كمنظم للأندروجينات الكظرية، التي يمكن أن تكون بدورها المنبه الذي يبدل الحساسية الوطائية. وهناك اكتشاف آخر حظي عموماً بقبول أوسع هي مفرزات الميلاتونين من الغدة الصنوبرية، وهي غدة صغيرة مطمورة في وسط الدماغ. ينقص تركيب الميلاتونين مع تقدم الأطفال في العمر. ويظن بأنه يكبت البلوغ عن طريق تثبيطه للهرمونات القندية. والهبوط في إفراز الميلاتونين قد يكون هو المنبه الذي يبدأ التحرك نحو البلوغ.

ومن خلال روابطه العصبية والخلوية مع القشرة المخية فوقه والنخامى تحته، يعمل الوطاء كمِكْمال للجملتين العصبية والصماوية. يقوم التحكم الرئيسي بكافة المفرزات الصماوية على أساس وضعية التغذية الراجعة السلبية، التي تمارس فيها زيادة لمستوى الهرمون في الدم تأثيراً كابتاً لزيادة الإفراز من ذلك الهرمون. يمكن لعوامل الإطلاق الوطائية التي تستجيب إلى المنبهات العصبية في مكان آخر من الجسم أن تعمل بسرعة على عديل حالة التوازن هذه.

عندما يتلقى الـ "رسالة" بأن الطفل أصبح جاهزاً لكي يصبح راشداً، فإن الوطاء يرفض طلب ناظمة القند عنده ويصبح أقل تحسساً للتأثيرات الكابتة للإستروجين والتستوستيرون. ثم يعمل على تركيب عامل إطلاق اللوتنة (LRF)، وهو الهرمون الذي "يأمر" النخامى لكي تسمح بتقدم النضج الجنسي.

و ***النخامى***، وتدعى سيدة الغدد لأنها تنبه بإفرازاتها كافة الغدد الأخرى الصماء، هي الغدة الوحيدة التي تشكل جزءاً من الدماغ. وهي بيضوية الشكل صغيرة جداً تتألف من فصين. الفص الخلفي المتصل مع نسيج الوطاء لايمارس تأثيراً مباشراً من أي نوع على البلوغ. أما الفص الأمامي فينظمه الوطاء بواسطة شبكة واسعة من الخلايا الدموية. يركب هذا الفص ويفرز مالا يقل عن سبعة هرمونات، أربعة منها تشارك بفعالية في أحداث البلوغ: هرمون النمو GH، والهرمون الحاثّ للجريبات FSH، والهرمون المُلَوِّتن LH [يعرف LH المذكر بالهرمون الحاثّ للخلايا الخلالية ICSH]، والهرمون الموجِّه لقشرة الكظر ACTH، الذي يتحكم بإفرازات الكظر، وهي غدة صماء تلعب أيضاً دوراً نشيطاً في البلوغ.

ينبه الهرمون الحاث للجريبات عند الأنثى تكوّن البيضة وإنتاج الإستروجين. ويختص الهرمون المُلَوِّتن بالإباضة وإنتاج البروجستيرون progesterone، وهو "هرمون مؤنث" آخر. وينبه الهرمون الحاث للجريبات عند الذكر تكوّن النطاف. ويعمل الهرمون الحاث للخلايا الخلالية على تنشيط الخلايا الواقعة بين النبيبات الحاملة للمني في الخصيتين لإنتاج التستوستيرون، وهو "هرمون مذكر".

ويعمل الهرمون الموجه لقشرة الكظر على تنشيط الغدة الكظرية، التي تنتج حوالي 30 هرموناً، منها الأندروجينات androgens والإستروجينات عند كلا الجنسين. يبلغ طول الكظرين 2 إنشاً ويتوضعان فوق كل كلية. تحرض الأندروجينات الكظرية نمو

أشعار العانة والإبط عند الإناث والذكور. وتحرض الكميات البسيطة من الإستروجين التي يفرزها الكظران بعض التبدلات التأنيثية، كما في النمو الهضبي للأثداء عند البالغات والبالغين. تنشأ التبدلات الرئيسية، التأنيثية والتذكيرية في حالة البلوغ من الإستروجينات المبيضية والإندروجين الخصوي، التستوستيرون. مع ذلك، سيكون هناك تفاعل وتوازن دائمان مع الإستروجينات والأندروجينات التي يفرزها الكظران. فالإستروجينات والأندروجينات الكظرية تتحمل المسؤولية الرئيسية لطفرة النمو البلوغية عند كلا الجنسين. وفي تلك الناحية، يمكن للهرمونات الجنسية المعروفة أن تعمل كهرمونات نمو، وذلك اعتماداً على الخلايا النسيجية التي تؤثر فيها.

القند المذكرة عضوان ينموان داخل الجدار البطني ويهبطان تدريجياً على كلا جانبي القضيب، حيث يتدليان خارج البطن بواسطة الصفن والحبال المنوية. ويكتمل هبوط الخصيتين عادة قبل البلوغ. وهناك في داخلهما 800 نبيباً ملتفاً، تحتوي بطانتها على الخلايا التي ستتطور إلى خلايا مولدة للنطاف (سرتولي Sertoli) بتحريض من الهرمون الحاثّ للجريبات. وبين هذه الخلايا تتوضع الخلايا الخلالية، أو الخلايا الليدغية Leydig cell، التي تنتج التستوستيرون بتنظيم من الهرمون الحاثّ للخلايا الخلالية. وتحرض الهبوط في مرحلتي الرضاعة والطفولة كميات صغيرة من التستوستيرون الذي تفرزه خصيتان غير ناضجتين والأندروجينات التي يفرزها الكظران. وتزداد هذه المفرزات بعد البلوغ فتحرض نمو القضيب، والبروستات، وأعضاء الإنجاب الأخرى المذكرة، والذكورة، والصفات الجنسية المذكرة الثانوية.

والقند عند الأنثى مماثلة للخصيتين عند الذكر. فالمبيضان يتوضعان عند الجنين المؤنث في الجوف البطني قرب الكليتين. ويهبطان تدريجيا إلى الحوض لكنهما، على عكس الخصيتين، يبقيان داخل الجسم. أضف إلى ذلك، أن حجمهما لايزداد إلا قليلاً أثناء البلوغ. كل مبيض بحجم حبة اللوز تقريباً ويحمل لحاء، أو قشرة غنية بالجريبات التي تحتوي على خلايا تناسلية أولية. ويظن أن عدد الجريبات التي تحتوي على البيوض يبلغ حوالي 500000 عند الولادة. والجريبات في شكلها غير الناضج كثيرة في مبيض الفتاة الصغيرة، ولكن أكثرها لايكتمل نموه أبداً، فيذوي ويختفي. وفي المرحلة الثانية من البلوغ تصبح الجريبات الباقية قادرة على القيام بوظيفة الراشد. لأن البيوض داخل تلك الجريبات تصبح مؤهلة للإخصاب.

قبل ثلاث أو أربع سنوات من انتظام الدورات الإباضية، يبدأ المبيضان بإفراز كميات محسوسة من الإستروجين. وتعمل الإستروجينات المبيضية بالتعاون مع الإستروجينات الكظرية على تحريض نمو البظر، والفرج، والرحم، والأعضاء الجنسية الأخرى المؤنثة، والأنثوية، والصفات الجنسية المؤنثة الثانوية. وبالتفاعل مع الهرمون المُلوِّتِن، ستبدأ الإستروجينات المبيضية والبروجستيرون بتنظيم الدورة الشهرية للإباضة والحيض.

نفترض أنه لايتم تفعيل دورة التلقيم الراجع للوطاء، والنخامى، والقند عند الراشد قبل أن تقوم العوامل، كوزن الجسم وحجمه، وسرعة الاستقلاب، وتخلُّق الدماغ، وعوامل النمو الأخرى بـ "قدح" الـ "إشارة" التي تُشعِر بأن الطفل أصبح جاهزاً للترقي إلى الرشد.

عندما يتلقىَّ الوطاء "إشارة" الجاهزية، ربما من مكان آخر في الدماغ أو ربما من هرمون نخامي يعمل فيه، سيقوم بتركيب العامل المُطلِق للهرمون المُلوِّتِن وإفرازه إلى الفص الأمامي من النخامى. وبعد ذلك بفترة قصيرة، ستبدأ الهرمونات القندية بتنظيم الحوادث المقبلة للمرحلة الأولى من البلوغ، وتؤدي هذه المرحلة بدورها إلى النضج الجنسي والتمايز النهائي للجنس. وتبدأ الهرمونات القندية بالتعاون مع الأندروجينات والإستروجينات الكظرية وهرمون النمو النخامي طفرة النمو التي ستشمل تقريباً كل عضو، وعظم، ونسيج من الجسم.

عندما تبدأ عمليات النمو الفيزيائي، التي تصل بالطفل إلى الرشد، والنضج الجنسي، والتمايز النهائي من ناحية الجنس، تكون لاعكوسة إلا في ظروف نادرة، كالأورام الدماغية، والقهم، وبعض الاضطرابات الهرمونية. إن الخطوط الأولية على مخطط الإنضاج، التي كانت هناك داخل الرحم، تظهر إلى النور لكي تعدل قليلاً فقط خلال الأشهر الأولى من الوجود خارج الرخم. فيظهر للعيان الراشد الطبيعي الذي أريد لنا أن نكونه. فيصبح كلنا راشداً وعلى الأخص في الأوضاع الإنسانية، كما في تناسب قحف الدماغ مع الفك، والجذع مع الساقين، وفي الأعضاء التناسلية والصفات الجنسية الثانوية، وفي الاختلافات الفردية لقامة الراشد، وتوزع شعر العانة، وشكل وحجم الثديين، وعرض الكتفين، وتوزع الشحم، والاستقلاب، وسرعة القلب التي تنجم من تفاعل المعطيات البيولوجية مع العوامل البيئية.

الذات النفسية التي ستتجسد في النهاية أكثر غموضاً. ووفقاً لهذا التحديد، سوف لن تلعب المعطيات البيولوجية ولا التأثيرات الاجتماعية ولا السيناريوهات الانفعالية في الرضاعة والطفولة أدواراً حصرية أو حاسمة. اتجاه السببية في علم النفس الإنساني ليس خطياً، وبالتالي يتداخل الماضي والحاضر. وظروف الحاضر يمكنها أن تحدد، لابل كثيراً ماتحدد تأثيرات الماضي. أما إلى أي مدى، وما هي الوسائل التي ستمارس بواسطتها الظروف السابقة في الرضاعة والطفولة تأثيرها على مرحلة الرشد، فمسألة تتوقف إلى حد كبير على الحلول التي برزت خلال انتقال المراهق.

ونظراً لما نتميز به نحن البشر من مرونة وإبداع كبيرين، يمكننا أن نعبر عن معضلاتنا ومآزقنا العامة عن طريق عدد من أنماط السلوك الجذابة والملطفة. فالمراهقة في تعدد مظاهرها تشبه ***كوميديا إنسانية*** ضخمة: الفتاة المصون في مجتمع الصيد ورحلتها الكونية إلى الرشد التي تبدأ وتنتهي في هوغان أسرتها، روسو ونضجه الجنسي المبكر، هول وتعوّقه، غولهاد وعفته، الشاب ذو الثياب الجلدية الذي يعتبر إلهاً في حلبة الرقص، المراهق الذي يحيط نفسه بصور أبطاله وبطلاته الخارقين، الفتى المحافظ الذي لايعي مايدور حوله، خليّ البال الذي يستهلك البيتزا ومربّي المص، الثائر على المجتمع بدون قضية، المراهقة الفارغة الرأس التي لاتهتم إلا بمظهرها، الفتى الهائم في حب لاوجود له على أرض الواقع. وبقدر مايبدو بين الأطفال من اختلاف، فإنهم جميعاً سوف يواجهون المعضلات ذاتها إذا أتيحت لهم الفرصة لكي ***يراهقوا،*** لكي يكبروا. ويتوجب عليهم حل تلك المعضلات قبل أن يبلغوا سن الرشد. وإذا قدر لهم أن يصلوا إلى مرحلة الرشد النفسية، فعليهم أن يواجهوا الوحدة والحسرة لأنهم سوف "يودعون الطفولة". وللوصول إلى هوية الراشد، يجب على كل المراهقين أن يعملوا على التوفيق بين رغباتهم الجنسية التي استيقظت حديثاً وبين السلطة الأخلاقية للمجتمع الذي يعيشون فيه. فإذا وجد بعض المراهقين من خلال هذه الصفقة طريقة لتعديل الإرث الأخلاقي للطفولة، فإنهم يكونون قد ابتكروا بعض الحلول الجديدة للخلاف الإنساني السرمدي بين الرغبة والسلطة. وبعملهم هذا سينتقلون بنا إلى مسافة أقرب من الحقيقة. لايبقى كل شيء كما هو. ونحن أيضاً ***لانعود أبداً بصورة تامة إلى البداية.***

مخطط البلوغ الإنساني في الإنضاج يضمن المستقبل. فهو يفتح مسالك التجديد. وقد فهمه ج. ستانلي هول، على أنه أثناء المراهقة "تنفتح كما يبدو بوابات تدفق

الإرث ... وهي فترة عصيبة لإعادة تنسيق القوى الموروثة. فيها تقفز العواطف والرغبات إلى الحياة النشيطة لكنها تحمل معها بصورة طبيعية تطور قوى أكبر من الضبط والتثبيط". الطفولة هي حافظة الماضي. والمراهقة تُدخِل إمكانيات جديدة وحلولا جديدة. يمكننا التعبير عن آراء بول ريكوور Ricouer حول التمييز بين الأحلام والفن على هذا النحو: الطفولة هي العالم الذي تنقله إلينا الأحلام التي تتطلع إلى الوراء، إلى الماضي. والمراهقة، التي هي أكثر شبهاً بعمل فني، هي رمز مأمول لتركيب الشخصية ولمستقبل الجنس البشري. وهي، كالعمل الفني الذي يضعنا على طريق اكتشافات جديدة، تشجع عندنا أهدافاً جديدة عن طريق تحريك طاقات كانت موظفة بدئياً في الماضي.

وعن طريق ضمان أن الوليد الإنساني العادي مُعَدٌّ لمشاركة راعيه في حوار الحب، يحافظ مخطط الإنضاج في الطفولة على استمرارية العرق الإنساني. هذا الحوار سيفرض نفسه، أحياناً في وجه شذوذات هائلة، كلما ولد طفل عادي في نسخة ما عادية لأسرة إنسانية. وحوار الحب بين الأم والطفل يحول الرضيع العاجز نفسيا، الطفل الذي يعرف فقط تجربة لاحدود لها عن حبه لنفسه، إلى كائن اجتماعي. يُغرَى هذا الرضيع للخروج من النعيم المستقل للنرجسية الأولية إلى مشاركات الحب التي تصبح شبَكة أمان لوجوده. ويصبح حوار الحب حيوياً بالنسبة له، وأكثر تشويقا وإشباعا من الطعام والدفء. وهكذا،تنشأ القوة المفرطة للسلطة الأخلاقية من ظروف أول ولادة نفسية، عندما يعتمد رضيع في وجوده الفيزيائي والنفسي بصورة كلية على حماية والديه واستحسانهما. والهلع من خسارة الحوار يمكن أن يجعلنا جميعاً أطفالاً جبناء خانعين، وهذا هو سبب كون الضمير الإنساني إلى حد كبير أداة الحالة الحاضرة. فهو لايرحم في معارضته للتغيير. ويحتفظ بالماضي.

توفر المراهقة فرصة إعادة صياغة الضمير القديم، الذي يتكوّن من ثمالات حوارات الحب الطفولية، والعيون المتيقظة، والأصوات الناهية، والمطالبات بالكمال. وفي نهاية شوط المراهق، قد تبدو العينان المتيقظتان أكثر وداداً بقليل، والصوت المجرد من القول أقل خشونة. ولكن أهم تغيير تُحدِثُه المراهقة هو تكييف المثاليات التي يقيس الشخص نفسه بها.

وأول حصيلة لعملية التكييف هذه هي أن المراهق يتعلم أن يسامح والديه لكونهما أقل قوة مما كان يتوقع. والنتيجة الأخرى هي أن نرجسيته الشخصية المفرطة، وخصوصا

قدرته الكلية وأحلام مجده، قد تُجسَّد وتُحوَّل إلى مثاليات اجتماعية. فيصبح حب الذات حباً للنوع. يُوجِّه الضمير إلى المستقبل، فيهمس مجيزاً الوصول إلى مابعد شبكة الأمان لوجودنا العادي والمحدود. ويقتضي الكفاح في سبيل مراجعة الماضي فورة في الحياة الداخلية. لكل طور، ماقبل البلوغ، البلوغ، الشباب، إسهام مميز في حلول المعضلات الداخلية عند المراهقين. كيف يمكنني أن أوفق بين الرغبة الجنسية وأوامر الضمير؟ كيف يمكنني أن أحتفظ بحوارات الحب الرائعة وعواطف الطفولة الحادة مع توكيدي على نشاطاتي الجنسية والتزامي بالمستقبل؟

وتُعرَض المسرحية. الفصل الأول، ماقبل البلوغ. وهي، من الناحية البيولوجية، عملية الوصول إلى البلوغ. وتغطي السنوات (11-14) بين أول إشارات جسم الراشد، كظهور شعر العانة وبروز الثديين، وبين القدرة على توليد البيوض والنطاف الناضجة. وهي، من الناحية الاجتماعية، تعلن الوداع للطفولة. وخلال مرحلة البلوغ (15-18)، وهي الفصل الثاني من المسرحية، تكتمل التبدلات الفيزيولوجية التي تنتقل بجسم الطفل إلى جسم الراشد. فيكتسب الفرد هوية جنسية لارجوع عنها. ويتوقع منه أيضاً أن ينجز نقلة لارجوع فيها أيضاً برغبته الجنسية بعيداً عن أسرته نحو الجماعة الاجتماعية الأوسع. ويجب عليه أن يتخلى عن إحاطة والديه بالصفات المثالية، تلك العملية التي مكّنته فيما مضى من الإحساس بالأمان، والقوة، وأنه محبوب حتماً. وهنا، تبلغ المسرحية ذروتها.

والشباب (18 أو 19 وما بعد) هو الذي يحل العقدة. إنه آخر فصل من فصول المسرحية، وتأثره بالحوادث النفسية المباشرة أقل واستعداده لتقبل التأويلات الثقافية أكبر مما كانت عليه في ماقبل البلوغ والبلوغ. مع ذلك، سواء تطاول الشباب ليمتد إلى العقد الرابع من العمر أو ضُغِط إلى الأجزاء النهائية من طقس تجديد الاندماج، فإن حلاً ما يجب أن يوضع للخلاف بين الرغبة الشخصية والسلطة الأخلاقية. فيُجَرَّد النشاط الفزيولوجي والجنسي التناسلي والقدرة على الإنجاب من إمكانياتهما المعادية للمجتمع ويُربطان بمكونات النظام الاجتماعي.

هذه التتابعات الموقتة إطار مناسب لتقييم الحبكة الأساسية للمسرحية. ولكن التوقيت المجدول لاينصف التعقيدات التحتية للقصة. وكما هي الحال مع أية قصة، فإن الانتباه الكلي إلى المجرى الظاهر للحكاية قد يحجب البنى التحتية التي تكشف المعنى. وفيما يتعلق بالمراهقة، فإن صدى المعضلات النفسية الثلاث الوداع، والتحول بالرغبة الجنسية،

والتوفيق بين الرغبة والسلطة- يتردد من الدقيقة التي ترفع فيها الستارة حتى لحظة قول آخر الكلمات. ومع أن كل فصل يسلط الضوء على واحدة من هذه المعضلات، فإن المواضيع الثلاثة تتفاعل على مدى المراهقة، وفقاً للمبادىء التي تقاوم المنطق الخطي.

يقتضي منا هذا التوجه، أن نقوم أولاً بتقصي الثوابت المهمة في الوجود الإنساني: الرغبة، وحوار الحب، والسلطة. فحوار الحب الإنساني هو وليد الرغبة. وعندما توجد محاورة الحب، يجب تقنين الرغبة. وتؤمّن السلطة قواعد التقنين. فتصبح الشرعية تمثيلاً. وسرعان مانكتشف أن النرجسية تفرض نفسها على حياة الرغبة ولا يمكن تجاهلها. أما كيف يمكن إخضاع الرغبة للجوع من أجل حوار الحب مع المحافظة على النرجسية، فذلك هو مطلب الوجود الطفولي. إن تنقيح المراهق يستوجب تحولات في الرغبة الطفولية، والسلطة الأخلاقية الطفولية، والنرجسية الطفولية.

فكيف يدخل حب الذات وهو- "مصدر جميع عواطفنا، ومنشأ ومبدأ الآخرين جميعاً، والوحيد فقط الذي يولد مع الإنسان ولا يتركه طالما بقي على قيد الحياة"-إلى التنقيح؟ وماذا عن ذلك الموروث من النرجسية التي سبقت حياة الرغبة ويبدو أنها تتطور وفقاً لقوانينها الخاصه؟ وماذا عن السلطة؟ أيمكن أن يكون حب الذات هو الذي يغذي جدول الحياة الأخلاقية؟ ربما كان الأمر كذلك. ولكن حب الذات، وفقاً لفهم روسو، لايكوّن وحده شخصاً أخلاقياً. إنه مصدر الفضيلة فقط في سياق الخلاف الكبير بين الرغبة والسلطة.

إن أساطير العثور على محاورات الحب، وفقدها، والحزن على فقدها، والعثور عليها من جديد وتخليدها هي سبيل واحد لوجود المراهق. أما السبل الأخرى فسوف تقودنا عبر عالم النرجسية والتناقضات الإنسانية الفريدة بين حب الذات و ***احترام الذات***. وعندما نسير على طول هذه السبل الملتفة نسأل، "هل ستنتهي المسرحية كما انتهت مسرحية ***هاملت***؟ وهل ستنتهي الفورة في حياة فرد ما، كما في التراجيديات، ببقايا جيل جديد فتقوم تلك البقايا بتنظيف الركام واستعادة القانون والنظام؟ أو أنها ستنتهي، كالكوميديات الاحتفالية بالحياة، بترك الكلمة الفصل للمحبين والمهرجين؟

الجـــزء الثـــاني

المعضـــلات والحلـــول

5

محاورات الحب I

الجدل الكبير بين الرغبة والسلطة

فاصل بيولوجي:

ماقبل البلوغ pubescence

يتفجر النمو فيدفع المراهق باتجاه المستقبل. وتندفع موجةٌ حيويةٌ جديدة فتفتح بنى الماضي وتوسع كل اهتمام وشهية، وتُفسح المجال أمام حلول جديدة. وعلى الرغم من هذه القوى العنيدة التي تدفع بالمراهق إلى الأمام، نحو مايجب أن يكون، فإن شيئاً ما يشده في الوقت نفسه إلى الخلف، إلى الوضع الذي كان عليه فيما مضى. فالطفولة لاتسمح باستبعادها. وسوف تفرض رغباتها القديمة وتطالب دائماً بسيادة تلك الرغبات.

وفي البلوغ أيضاً، وعلى وجه الدقة، عندما يمكن للنشاط الجنسي في النهاية أن يخدم الرغبات القديمة للطفولة، يواجه المراهق محرم سفاح القربى، الذي يجبره على صياغة رغبته الجنسية من جديد. فالوالدان، حتى هذه المرحلة، هما الهدفان الأوليان للجوع والتوق الجنسيين عند الطفل، والملاذان المقدسان ولو جزئياً فقط، لأنهما يوفران له الحماية. ويكتشف قوته من خلال قوتهما. وبعد البلوغ يجب عليه أن يتخلى عنهما كهدفين لرغبته. كما يجب عليه أن يتخلى عن المثاليات الطفولية التي تضفي القدسية على قوتهما. والتخلي نهائياً عن علاقات الحب في الطفولة يستلزم صراعاً عاطفياً طويلاً ومؤلماً. وتشدد المطالب التعسفية مقاومتها لإحساس مازال فجاً بما هو مباح، وللاختلافات بين الصواب والخطأ، والعقوبات التي تنشأ عن الانتهاك الأخلاقي. في بداية المراهقة، لايكون الضمير قد نما بعد. فهو مايزال استبدادياً في شروطه. ويطالب بالطاعة المتواصلة للوالدين الأمثلين اللذين هما أساس قدرته الاستثنائية. ويشدد على التنكر التام للجنس. فإذا أذعنت المراهقة

لرسائل الضمير عند تلميذة المدرسة، فإنها ستبقى مرتبطة بولاءات طفولتها، وسوف لن تجد مكاناً توجه نحوه رغباتها الجنسية. ولكي يصبح المراهق راشداً، عليه أن يحصل في النهاية على الترخيص بأن يصبح شخصاً يتمتع بنضج أعضائه التناسلية والقدرة على الإنجاب. وعليه أن يعترف بأن والديه ليسا إلهين مطلقي القدرة كما كان يتصور في الماضي.

ولذلك، يحرض البلوغ الجنسي على نقل الرغبة الجنسية إلى خارج الأسرة ومراجعة السلطة الأخلاقية. وعندما تنتشر عاطفة ما من جهة إلى أخرى، أو عندما يكون هناك ترتيب جديد للأولويات الأخلاقية، سواء في النظام الاجتماعي أو عند الفرد، فإن الحادثة تبدأ دائماً بشكل مختلف للعنف. ويطرح السؤال التالي: هل تكون الثورة التي سوف تحدث ثورة إلغاء أم ثورة تحويل؟

٣- عندما يصبح الطفل راشداً، يكون المجتمع دائماً في حالة خطر، ويكون الكبار خائفين. والسبب وجيه، فالمراهق يقاوم القيود الشخصية، وتعتبر المجازفات الذاتية التي يقدم عليها تهديداً للتقليد. ويذكرنا المراهقون بحضورهم الشامخ، الفيزيائي والنفسي، بالخصب وتجدد الحياة. لسنا نحن بل هم الذين سينجبون أجيال المستقبل. فهل سيتركوننا في المؤخرة كما فعلنا نحن مع أهلنا؟ هل سينسوننا؟ هل سيقومون بترحيلنا إلى قرى منعزلة أنيقة التبليط؟ أم هل يدوسوننا وهم ينطلقون بسرعة إلى مجرّاتهم الجديدة؟ الأفضل إذن أن نقيدهم، أن نجلدهم، أن نعزلهم في شرنقة الأسرة، أن نصوغ أجسادهم على غرار صنفنا الرجولي أو النسوي، أن نلقنهم القوانين القبلية ونتأكد من ركوعهم أمام سلطة الكبار.

ماأسرع ماننسى مراهقتنا نحن! فالمراهقون لايهدفون إلى إلغاء الماضي كما نتصور. أضف إلى ذلك أن تأثيرات ذلك الماضي ليست ضعيفة بالقدر الذي نظن. فأي رفض لكل ذات عزم من تلك التأثيرات التي اندفعت بعيداً يُجابَه بتوق عاطفي إلى رجوعها، لكي تتمثلها عواطف الطفولة. وحوارات الحب المبكرة عندنا تقاوم بعنادها أيَّ تحرك نحو المستقبل. لذلك لايمكن للمراهقين أن يخلقوا عوالم جديدة قبل أن يكتشفوا طريقة للتوفيق بين الماضي والحاضر. فالنضال للاحتفاظ بما هو قيّم من الماضي والعمل في الوقت نفسه على مقاومة الأساليب الطفولية للحب يهزان الحياة الداخلية بعنف.

تمارس روابط الحب الطفولية على الحاضر عملية جذب متواصلة. فما أن يتحرر المراهق ويستقل على نحو مفاجىء ومفرح عن الماضي الخانق، حتى يبدأ ذلك الماضي

بشدّ أوتار قلبه، يرجوه، يطالبه، يغريه، كل هذا من غير إدراك لما يحدث. فيعقب البهجة إحساس مربك بالحزن.

نحن بني الإنسان، عندما نُحاصَر عاطفياً في بيت أسري، أو بممتلكات شخصية ثمينة، أو على الأخص بشخص آخر، فإننا نجد صعوبة كبيرة في التخلي عن هذا كله. وسوف نضحي بالمصلحة الذاتية؛ ونفضل المخاطرة بحياتنا على أن نخلف وراءنا من كنا نحبه. وعلى الأصح، سوف نفضل أن نبقى فوق منحدر قريباً من بركان ناشط أو فوق دلتا من الأرض، حيث يمثل الإعصار المدمر للحياة حقيقة الحياة، على أن نتخلى عن هذا المأوى الخطر الذي نسميه بيتاً. وبما أن روابط الحب الطفولية كانت قد تكونت في فترة من العمر كنا فيها نعتمد عليها بشكل مطلق، لذلك تمارس علينا سلطة عاتية، أكثر من أي حصار آخر.

عند ذلك المفصل من الفترة النشوئية-مرحلة الرضاعة- حيث يكون الطفل أكثر هشاشة، من الطبيعي أن يصبح أولئك الأشخاص الذين يدللونه ويوفرون له الحماية هم فقط أشخاصه الآخرون الذين يميل إليهم بشدة. وسرعان مايتداخل الإشباع البسيط للجوع ومتعة التفريغ مع جوع لإقامة علاقات مع الآخرين، أي الجوع الجنسي الذي نطلق عليه تسمية الـ لبيدو libido.

واللبيدو لايكون موجوداً عند الولادة. بل يتطور في سياق حوار الرضيع-الأم وحوارات الحب الإنسانية تولد من الرغبة، من الدارات المتكررة أبداً للشهوات، والتوقع، والإكمال. ليس هناك من طريقة لإشباع الرغبات الإنسانية مالم تكن هناك رابطة مع شخص محبوب. وحتى عندما توجد تلك الرابطة، لابد أن يترافق الإشباع أيضاً بالتقنين، بالإحباط، بالخيبة، بالتمزق، بالانفصال، وبالشرعية-مكان الإشباع وزمانه وكيفيته.

أن لانكون قد خرجنا بعد إلى الوجود عند ولادتنا، تلك حالة إنسانية. ويجذبنا إلى وجودنا الإنساني الخاص وجود رعاية الأم التي تشبع دوافعنا الفطرية للرضاعة، والحمل، والهدهدة، والمداعبة. ولكن وجود الإشباع بالذات يضع قيوداً على الرغبة ويقنن الإشباع. وبهذا المعنى تكون الأم أيضاً أول مُشرّع. وقد يكون أسهل على الرضيع، إذا اقتضت الحاجة، أن يقايض الإشباع بالطاعة. ولكن الحالة أكثر تعقيداً.

لايمكن للرضيع أن يتحكم أو يتملّك هـذه المُشَرِّعَة الواسـعة القـدرة الـذي يعتمـد في وجوده عليها. فالأم تروح وتأتي على هواهـا. وتسـمح بـالتطفل مـن قبـل العـالم الخـارجي، وتقطع محاورات الحـب الرائعـة، التـي هـي أكثـر أهميـة مـن امتـلاء المعـدة. ويتذكـر بأنـه لايُحمَل دائماً، وأنه قد ينتهي إلى العدم واللاوجود.

وهكذا يبدأ جدل كبير بين الرغبة والسلطة. مرحلة الرضاعة هـي أسطورة العثور على أهداف للحب، وفقد تلك الأهداف، ثم العثور عليها مـن جديـد بـدءاً مـن المحـاورة إلى الغياب، من الإرضـاع إلى الفطـام، مـن الأحديـة مـع الأم إلـى الانفصـال عنهـا، مـن بداية استيقاظ الأشواق التناسلية إلى عار الهزيمة الأوديبية.

حـب شـخص آخـر يقتضـي شـروطاً. ونحـن نقبـل بتلـك الشـروط لأننـا نـدرك مـدى حدودنا، وتبعيتنا، وعجزنا، وهشاشتنا. فحب الآخر، مـع كـل إحباطاتـه وقيـوده، هـو شبكة الأمان بالنسبة للوجود الإنساني. وفي مختلف الأحوال، يكون الأشخاص الذين نتوجه إليهم بجوعنا أولاً هم ممثلونا الرئيسيون فـي السـلطة أيضـاً. ومنـذ البدايـة، هـم وسـائل التـأخير، والقانون، والنظام. إنهم الأعين اليقظة، والأصوات الناهية. وهم كوابح الرغبـة، التـي تنظم الاكتمال وفقاً للمبادىء التـي تكـون غامضـة بالنسـبة للطفـل. ولكـن، بمـا أن هـذه السـلطات المقتدرة هي أيضاً شبكة أمان لوجود الطفل، ولأن حواره معها أكـثر حيويـة مـن الـغذاء أو الدفء، لذلك سوف يخضع لمطالبها، ولكن ليس بدون مقاومة. ولا من غـير جهـود لحمايـة ذاته الخاصـة– ذلك الشخص الغامض غير المتبلور حتى الآن الذي يعتبره مركزاً لكينونتـه. كما أن التضحية بجزء من ذاته لايمر بدون امتعاض.

يتصل الفصل الحاسم لمحاورة الحب الطفولية بمصير الرغبة الأوديبية. وما يحـدث، هو أن حوارات الحب بين شخصين، حوارات الحب الثنائيـة فـي الطفولـة، تصبـح حبكـات ثانوية في سيناريو أكثر تعقيداً بكثير*. لاريب في أن الطفـل الـدارج يمـر فـي لحظـات من الكره والحسد لكلا والديه ولحظات أخرى من الحب الشديد. ولكنه قبل ظهور رغبة أوديب لايكتشف تورطه فـي مثلـث الحـب–الكره الـذي يجـبره علـى أن يضـع فـي حسـابه الغلمـة الجنسـية، والغيرة، والتنـاقض الوجدانـي، والشـعور بـالإثم. فهـو يقـارن جسـمه الصغـير والقاصر إلى درجة محزنة بعظمة وفعاليـة جسـدي والديـه. ويواجـه إذلال هزيمـة أوديب. فالمسرحية يجب أن تنتهي دائماً بهزيمة رغباته الأوديبية، وذلـك مـن أجـل حمايتـه وحمايـة

* يحدث السيناريو أيضاً في الشكل السلبي، أو اللواطي. انظر الفصل 7.

أسرته. ولأول مرة في تجربة الطفل لاتقنن الرغبة أو تعطى على شكل جرعات، بل تحظر كلياً. فدوافع المصّ، والبلع، والحمل، والمداعبة، والهدهدة كانت مجازة، حتى ولو بلغة "هذا يكفي"، " في هذا المكان"، "في تلك المرة". وكذلك يجابه الجوع الجنسي والقوة العدوانية اللذان يترافقان بدوافع الطفل لطرح أو احتجاز بوله وبرازه بإجراءات تدريبية واستحسان أو عدم استحسان متبادل من قبل الوالدين. ولكن الشهوات المرتبطة بالأحاسيس الشبقية المنبعثة من بظر، وفرج، وأعضاء تناسلية داخلية لم تنضج بعد لاتجد منفذاً، ولا تراخيص تبادلية، ولا هدفاً محبوباً ترتبط به. فالشهوات الجنسية الغامضة عند طفلة صغيرة يمكن أن تلازم فقط الصور الخيالية التي ترسمها لذاتها ولوالديها. وتكون المحاورات الجنسية الحقيقية التي تمثلها هذه الخيالات بصورة كلية خارج تجربتها. فتُفصَل الرغبة عن أي تبادلية، وتستوطن فقط على شكل تخيلات.

وأخيراً، وعند انتهاء الفترة الطفولية، تكون تلك الخيالات قد تنكرت تماماً إلى الحد الذي تبدو معه وكأنها أقصيت من الوعي. فيؤكد القانون والنظام في حياة الأسرة بأن الطفل غريب عندما يتعلق الأمر بالرغبة الجنسية. وخزي الطفولة الأكثر وضوحاً هو ذلك الاعتراف المدمر بأنه ليس مهماً مدى ما تكون الطفلة بارعة، أو مطيعة، أو محببة، أو ذكية، بل المهم أن لاتشارك وأن ***لاتتمكن*** من المشاركة في المتع الغامضة، والأصوات، والروائح، والتحريات التجريبية الجسدية، وأن لاتَنْظُرَ وأن لايُنْظَرَ إليها. ويحظر عليها حتى أن تتخيل تَواصُلَ الرغبة وما يرافقها من حدة لذيذة خلف تلك الأبواب المغلقة. ولايسعها أن تكون أكثر من متفرج على تلك المطارحات الغرامية الأكثر صراحة عند البالغين–تقبيل، عناق، لمس، نظرات متبادلة –والتي هي مستثناة منها أيضاً.

السيناريو الأوديبي هو ذروة الأساطير الطفولية حول فَقْد الأهداف اللبيدية. ولكنه يسبب كسباً من نوع سيء. فالطفل يكتسب عوضاً عن خسارته، كشيء خاص به، بعض السلطة الداخلية للسيطرة على رغباته الخاصة. هذا الكسب الجديد هو النتيجة الأكثر أهمية للجدل الطفولي بين الرغبة والسلطة. إنه جزء من الحياة العقلية الإنسانية التي تستمد قوتها من غياب، وفطام، وانفصال، وانسحاب لمحاورة الحب؛ إنه وسيلة السلطة التي تمثل الشرعية في حياة الأسرة. فهو يوطد نفسه على أنه جانب من الحياة الداخلية عند الطفل الذي ندعوه الأنا العليا أو الضمير، ويخضع الطفل لأوامره. يحتفظ الطفل برغباته ويتنكر لشهواته الجنسية في سبيل توسيع روابطه واندماجه بوالديه. ومقابل الفوائد التي يجنيها من

المشاركة في عظمة سلطة والديه وقدرتهما الكلية، يقوم الطفل بمحاولة لتحقيق الانسجام بين رغباته وبين النظام الاجتماعي. وستبقى هذه السلطة المُذوَّتة internalized authority عصية نسبياً على التحدي حتى البلوغ.

ينبغي لنا أن نتوقع تطوير القدرة لتقييد الرغبة لكي تكون حليفاً أثناء المراهقة وأداة لمقاومة الجذب نحو الماضي الطفولي، وخصماً جديراً لتشبثية الجوع الجنسي. ولكن الواقع ليس هكذا. فوظائف *الملاحظة* و *الضمير*، إضافة إلى الصيغ الطفولية لـ *التصورات المثالية*، التي تشكل الأنا العليا، سوف تقيد المراهق إلى الماضي بقوة كالقوة التي تتمتع بها الصيغ الطفولية للرغبة.

بوظيفة *الملاحظة*، تكشف الأنا العليا نظرتها الأرقة- نتيجة لخضوعها للمراقبة والنقد عن طريق النظرات المستتكرة. ويكشف *الضمير* بثبات شدة التعبير وقسوته عندما يكون بدون كلام، والتوبيخ الأولي، والإدانات والمحظورات اللفظية. حتى *التصورات المثالية* الطفولية التي هي وليدة النرجسية الطفولية والتي تنتقل بعدئذٍ إلى شبكة الأمان عند محب آخر، تلك المثاليات التي تقيس بها الأنا نفسها ورغباتها في الكمال الذي تناضل لإتمامه، حتى هذه الوظيفة تحمل معها عناصر الخضوع والاستسلام اللذين يصيخان السمع إلى الوراء، إلى القصة الطفولية العاجزة والهشة.

لاشك في أن نمو الحس الأخلاقي ضرورة إنسانية لامفر منها. ولكي يشارك الطفل في الحياة الاجتماعية، يجب عليه أن يكبح رغباته. ومع ذلك، إن أخلاقية الطفولة هي في الواقع فرع من تلك الرغبات. فالأنا العليا تقلق، تتحرى، تسبر، تغري، تعذب. إنها تظهر في أفكار أحلامنا كتهديدات بالفضيحة، بالخصاء، بالجوع، بالنفي-كالظل المرعب لإله أيوب، الذي يطالب بالخضوع قبل أي شيء آخر.

تعكس أخلاقية الطفولة أول التقمصات عند الطفل، تلك التقمصات التي تنشأ في وقت يكون مازال ضعيفاً فيه إحساسه بذاته وقدراته على المحاكمة أو اكتشاف العالم من حوله. في ذلك الوقت، يُسقِط الرضيع على صورتي والديه رغباته الخاصة الحادة وغير المروضة. فالأنا العليا الطفولية هي مستودع الرغبات والهموم الطفولية. وهي تشابه في فظاظتها حدة الرغبة التي تعمل على تقييدها.

زد على ذلك، أن القسوة المفرطة لأوامر الأنا العليا لاتتخد نموذجاً واقعياً-والدياً أو اجتماعياً، مع أن محتوياتها الظاهرة هي إرشادات اجتماعية. فمحتويات الأنا العليا عند الطفل الصغير تصاغ بصورة أولية على غرار الأنا العليا عند والديه، إلا في جزء يسير منها ينمو إلى الرشد. والأنا العليا هي ناقلة التقليد والقرارات المقاومة للعصر التي تتكاثر من جيل إلى جيل. وبعيداً عن اعتبارها وعداً للمستقبل، فإنها كثيراً مايشار إليها بوصفها مفارقة تاريخية للعقل الإنساني.

أثناء المراهقة، تكتسب أسطورة فقد أهداف المحبة والعثور عليها ثانية زخماً وإلحاحاً جديدين. ففي عملية التخلي عن محاورات الحب القديمة وإيجاد محاورات جديدة، يضيف المراهق فصلاً إلى قصة الجدل الواسع بين الرغبة والسلطة. وتتمثل أهم حصيلة للمراهقة في ترويض الرغبة الطفولية وإعادة تنظيمها تحت حماية النشاط التناسلي الراشد. أما الحصيلة الأخرى فتتمثل في ترويض الأنا العليا الطفولية. الشراكة حميمة بين الرغبة والسلطة، فهما قطبا الوجود الإنساني. وكما تُحَوّل إحداهما، سوف تُحَوّل الأخرى.

في فترة الكمون بين مرحلة الرضاعة والمراهقة، تُعلَّق الرغبة موقتاً، لكي يتفرغ الطفل لاكتساب المهارات والمعرفة، وقواعد وأساليب النظام الاجتماعي الذي يعيش فيه. فهو يتحرك خارج العش الأسري إلى عالم المعلمين والأنداد. فتنتقل إليه أشكال الحياة المتمدينة في العالم. ويكمّل ذاكرته، ومداركه للواقع، وآراءه حول معنى الواقع. فتصقل طرقه في اختبار الاختلافات بين الخيال والواقع. وخلال فترة الكمون، تحقق الدفاعات التي تعمل في وقت واحد على تهدئة السلطة وحماية حياة الرغبة تدريجياً مزيداً من التسويات بين التقييد والتعبير. فتصبح هذه الدفاعات أكثر مرونة، وأكثر تعرضاً للتأثيرات الجديدة. ولكن صوت السلطة يبقى بصورة أساسية صوتاً مانعاً، معبراً بدون قول ويمارس رقابة دائمة على حياة الرغبة. يهتم الأطفال في سن الكمون بالامتثال والطاعة. فينجحون في ظل النظام والتنسيق. وتستسلم العاطفة الفردية للولاءات الموضوعية في حياة الجماعة. فالأطفال في هذه المرحلة هم المواطنون المطيعون في المدينة الفاضلة الحسنة التنظيم.
قد نفاجأ بوجود صيغة لامتثالية تلميذ المدرسة في مدينة فاضلة. فقد تعودنا على اعتبار المراهق كبانٍ للمجتمعات المثالية. والمراهقون في الواقع هم أولئك البناة الخياليون. فهم الذين يفضلون النظري والمجرد على الحقيقي والمادي. حتى الامتثالي الغافل من الطبقة

الوسطى الذي يحب العالم كما هو سوف يهتم بالمثاليات والاحتمالات كمراهق أكثر منه عندما كان طفلاً صغيراً. فلماذا إذن هذا الربط بين الخطط المثالية وسنوات الكمون؟

المجتمعات المثالية ذاتها خليط مميز من الإمكانية الخيالية والمجتمعات التي تقوم على الامتثالية. فعبارة "مدينة فاضلة" التي لاتدل على "أي مكان"، استخدمت أولاً فيما يتعلق بمجتمع مثالي في ***يوطوبيا*** توماس مور، التي كتبت في عام 1515، وأعطى كتاب مور اسمه فيما بعد لكامل هذا النوع من الأدب.

يعود التراث الحقيقي للتخيلات المثالية في الأدب الغربي إلى ***جمهورية*** أفلاطون. ومجتمع أفلاطون كان يقوم على أساس النظام الطبقي الهرمي. أما مجتمع مور فكان لاطبقياً. ورغم ذلك، كان أفلاطون هو المصدر الرئيسي لأفكار مور ولكافة من جاء بعده من الكتاب المثاليين في أوروبا الغربية. إن مبدعي هذه المجتمعات الخيالية هم منتقدو النظام الاجتماعي القائم. فالتجمعات التي ينشئها المؤلفون تصمم عادة كعلاج للنظام الموجود: ***الجمهورية***، ***المدينة الفاضلة***، ***العقد الاجتماعي*** لروسو، و **والدن** لـ ***ثورو***[1] ، و **والدن** II لـ ***سكينر***.

أو قد تتخذ التخيلات شكل مغالاة هجائية لمجتمعات يستنكرها المؤلفون، كالطوباويات المضادة للطوباويين في ***نحن*** لـ زمياتين[2] ، و ***العالم الشجاع الجديد*** لـهيكسلي[3] ، و ***1984*** لـ أورويل[4] ، و ***البرتقالة الآلية*** لـ بورغيس[5] . هذه الروايات "اللامثالية" المعروفة هي أيضاً وخزات بارعة لكل النوع المثالي. فهي تلفت انتباهنا إلى ديكتاتورية المدن الفاضلة "الصالحة". ومع أن أهداف أفلاطون ومور كانت خيالية على نحو حماسي، فإن المجتمعات التي تخيلاها كانت مقيدة على نحو جائر وخال من العاطفة.

نشأت الجوانب الخيالية في ***المجتمع المثالي*** من المناخ الفكري الذي ساد في عصر مور. ففكرة أن المرء يمكنه أن يعمل بالخيالي وعدم الوجود كطريقة لحل المشكلات كانت تجديداً في القرن السادس عشر. وكان يمكن ملاحظة هذا الاتجاه حتى في علم الرياضيات،

---

[1] ثورو Thoreau كاتب وشاعر أمريكي (1817--1862)، عاش كزاهد يرتب العالم لكي يفهم ذاته -المترجم.

[2] Zamiatin كاتب وروائي روسي (1884-1937)، كان مسؤولاً عن حركة "الاخوة سيرابيون" وهي جماعة أدبية روسية أسست عام 1918، كانت تريد تحرير الخيال واستقلال الإبداع الفني-المترجم.

[3] Huxley شاعر وصحافي وروائي إنكليزي (1894-1975)-المترجم

[4] Orwell مفكر وروائي إنكليزي (1903-1950)، كتب عن البطالة-المترجم.

[5] Burgess كاتب إنكليزي معاصر، يصف في كتابه المذكور ولادة العنف وتطوره في أوساط الشباب-المترجم.

وهو حقل تخيل فيه الفلاسفة لأول مرة الأعداد السلبية، والصمـاء، والتخيليـة، والمفترضـة. وتأسيساً على ذلك، ليس هناك من وجود مادي لشيء اسمه مجتمع مثالي.

ولكن رؤية مور في محتواها حول المستقبل الخيالي ترجع إلى المـاضي. فقد أقـام مجتمعه المثالي وفقاً لمقاييس ديرية، لأنه كان أصلاً رجلاً متديناً بعمق مع ميل إلى النسـك. كانت الطوباوية عنده نظرة إلى الوراء، إلى مثالية القرون الوسطى، نوعاً من دير موسـع يقوم على نظام القديس بنيديكت. حيث يقضي الجميع أيامهم بعمل الخير. ويعيش السكان حياة تعاونية تشبه إلى حد بعيد الحياة في فوج من الكشافة. حيث لاوجـود لنشـاطات فاسـدة ومبددة للوقت كـ "المقـامرة" و "لعـب النـرد". والملابـس بسيطة ومتماثلـة بالنسـبة للجميـع، ولكنها ليست جميلة كأردية الرهبان الفرنسسكان.

والمجتمعات المثالية، سواء صيغت وفقاً لمدينة أفلاطون المثالية أو وفقاً لمجتمع مور في جزيرته الخيالية، هي مجرد أوهام، أي أحلام، وتشوُّفات. رغم ذلك، ثبـت فـي التطبيـق العملي أنها نسخ موسعة للحياة العاطفية عنـد الطفـل فـي عمـر الكمـون. وحتـى تلـك المدن الفاضلة الدينية الخالدة من نموذج الحجاج الضائعين، الذين يطمحون على نـحو غير واقعـي إلـى تجديـد اكتشـاف الـذات الأصيلـة وفهمهـا، هـي فـي أنظمتهـا القانونيـة الـتزام بإخضـاع *العواطف* الشـخصية والمحافظـة فـي الوقـت نفسـه علـى صيـغ الحضـارة وحيـاة الجماعــة وتحسـينها. فروسـو، الـذي ارتبطـت كتاباتـه بقـوة بـالرؤى الطوباويـة، كــان مدركـاً تمامـاً للتوتـرات بيـن مثاليـة الـذات الفرديـة ومثاليـة الـذات الجماعيـة. وكـانت تناقضاتــه طرحـاً للغموض الطوباوي. "ماذا يحدث للشـخصية الفرديـة فـي المثاليـة الجماعيـة؟" "كيـف لنـا أن نوفق بين توقنا للأصـالة الشخصية وتشوفنا إلى العمل الجماعي؟"

كـان روسـو يعـرف أن العواطـف الشـخصية ليسـت معاديـة بـالضرورة للمسـؤولية المدنية. ويصـرح "عواطفنا هي وسائلنا الرئيسية للبقاء". فخلال المراهقـة تمكنـت العواطـف الجنسية عند إميل من تحويل قلبه نحو باقي أبناء الجنـس البشـري. "طالمـا بقيـت حساسـيته محصـورة بفرديته الخاصة لم يكن في أعماله ماهو أخلاقي. وعندما بدأت تتوسع إلى خارج إطاره الذاتي فقط اضطلعت أولاً بالعواطف ثم بالأفكار حول الخير والشر، تلك التي كوّنتـه حقاً كرجل وكجزء متمم للنوع". اتخذ روسو، الذي كانت رؤاه الطوباوية تجمع بين المثاليـة الأفلاطونية والرومانتيكية الرعوية، موقفاً معارضاً من الخصـوصية اللاعاطفيـة للحيـاة فـي

الجمهورية. فقد انتقد جهود أفلاطون للتخلص من الروابط العائلية والفروق الجنسية كوسيلة لضمان المواطنية الصالحة والإخلاص للجماعة.

باستثناء بعض الحالات النادرة، صورت الطوباويات، سواء كانت صالحة أم سيئة، العواطف الفردية على أنها عدو لحياة الجماعة. فالحياة الأسرية والعواطف التي تولدها اعتبرت بحق عوامل ذات تأثير تقويضي على المدينة الفاضلة ذات التصميم الجيد. في ***العالم الجديد الشجاع*** يقاوم الحب الفردي بتشريع قانون يفرض بالقوة ممارسة العلاقات الجنسية غير الشرعية. وفكرة هذا التشريع تقضي بأن يتزاوج، خلال ساعات محددة، كل شخصٍ مع أي شخص يجده قريباً منه. وكطريقة وكدعامة أساسية مطلقة لهذا النشاط الجنسي من غير تمييز، يتم إلغاء صلة الأم بطفلها. وإنتاج الأطفال خارج أنابيب الاختبار، أو ينتزعون لكي يتربوا في بيئة لايلوثها الحب الأمومي.

في القصة السوفييتية ***نحن***، يجري إنتاج الأطفال صناعياً. ويرتدي المواطنون لباساً متماثلاً، ويحل الرقم محل الإسم. والمعلم إنسان آلي. ويُصَفَّى الشعراء وكل من لايمجد الحياة الجماعية في آلة يوجهها "فاعل خير"، أي الحاكم الأعلى. ساعات الجنس مسموحة، ولكن الحب الرومانتيكي ممنوع.

في المدينة الفاضلة الجيدة في ***الجمهورية***، يُشَجَّع الحكام على احتكار العلاقات الجنسية لتحسين النسل. ويجب أن يقوم المجتمع بتربية الأطفال. كما يجب طمس كافة العلاقات بين الطفل والوالدين. ويحصر أولئك الذين تتحكم فيهم العواطف والمثيرات الفيزيائية كالعمال، والفلاحين، والتجار، والحرفيين في أدنى المراتب الاجتماعية. والفلاسفة هم من يحكم، لأنَ الجزء الأفضل من بني البشر هو الجزء الذي يُستَثمَر في الحكمة والمعرفة.

التربية والتربية المعادة هما الموضوعان البارزان في تخيلات الطوباويين. فالمدينة الفاضلة عند مور تقوم على أساس التشريب اليومي بالدروس الأخلاقية. ويستخدم المعلمون أسلوباً لطيفاً ودمثاً. أما في الطوباويات السيئة، كطوباوية 1984، فالطرق التربوية صارمة. حيث يخضع الأبطال إلى التعذيب عندما لايقدمون الأجوبة الصحيحة. ويتم إجراء العمليات الجراحية لاستئصال ملكة الخيال. وأياً كانت الطريقة- الإقناع بالحسنى، أو غسل الدماغ، أو تشويه الجسم- فإن السلطات التربوية تمارس رقابة مستمرة على المتعلمين. إذ يساهم الملوك الفلاسفة، والمعلمون الدمثون، والأخ الكبير، وشاشة التلفاز، والأجهزة الآلية

في مراقبة المواطنين. فالمربون ساهرون على الدوام. وهكذا فُرضَ ثمن باهظ على اكتساب المعرفة. ولكن مراقبة الأدب، وخصوصاً الشعر، هي الدعامة الأساسية في المجتمعات الطوباوية. فقد سُجِنت أعمال شكسبير. ونُفي الشعراء.

المجتمعات المثالية أساطير ابتدعها أولئك الذين يهدفون إلى التمدن. ومع أنها صُوِّرت وكأنها رؤىً للمستقبل (أو مضادة لتلك الرؤى)، لكنها من الناحية الواقعية تعكس الماضي. فهي تحيي ذكرى تلك الحادثة الحقيقية للطفولة عندما أُمِر الطفل بالتخلي عن العواطف الشخصية في حياة الأسرة لكي يصبح عضواً مطيعاً في المجتمع. فالحادثة ليست وداع المراهق للطفولة، والجهد البطولي لمراجعة الضمير الطفولي وإخماد عواطف ورومانسيات مرحلة الرضاعة. ولكنها النفي الأوديبي والدخول إلى عالم اجتماعي أوسع. فالمحرمات ضد الحب الرومانتيكي، والثمن الذي فرض على التربية ودور المعلم، والإحساس باستمرار المراقبة، وكبت الفردية، والرقابة على الأدب، ومعاداة الروح الشعرية ليست رؤىً طوباوية خيالية. بل إن صرامة النظام الطوباوي تصور بدقة الضمير الطفولي غير الناضج.

يقوم الطفل في مرحلة الكمون ببناء سجنه الخاص به، حتى في الأوساط الأكثر تسامحاً كالمدرسة والبيت. فيبتكر النشاطات الرتيبة والطقوس الإلزامية لإسكات الرغبة. والمراقبة الجائرة التي تمثل دوراً مهماً جداً في الخيال الطوباوي أقل تكيفاً مع المعلمين والآباء الحقيقيين من تكيفها مع علاقة الطفل بضميره الخاص. وما خصائص الإدراك الشامل والمعرفة الشاملة عند الإنسان الآلي و ***فاعلي الخير*** إلا من بقايا الترجمات الطفولية للسلطة التي تستقر الآن في الضمير الداخلي عند الطفل في مرحلة الكمون. فالضمير عند تلميذة المدرسة يلازمها بآلام الاحتجاز، والأسر، والتعذيب، والنفي، والإفناء، والجدع.

يضع تلامذة المدارس قوانينهم الخاصة ويفرضون تكييفاتهم بالقوة. فيشعرون بأنهم أكثر أماناً عندما يُقَنَّن وقت الفراغ ويعطى على دفعات. يحبون ارتداء الزي النظامي، ويتجهمون للخصوصية السلوكية الشخصية. فالانحراف هو علامة المنبوذ.

يبتكر الأطفال ألعاب باحة المدرسة التي تنتقل من جيل إلى جيل وتمجد وتعزز الاخلاص التقليدي لحياة الجماعة. إن ارتباط الطفل مع الآخرين كأنداد له وطريقة نظرتهم إلى القوانين يساعدانه في مرحلة الكمون على تليين ضميره المعاند. فروابط الأنداد في الطفولة هي روابط طقوسية وامتثال، لاروابط عاطفية كما في المراهقة. "أنا لست وحيداً".

"أنتمي إلى جماعة". " نحن معاً نمتثل للقوانين". الألعاب موضوعية وتتواصل في مسارات معروفة تماما. وحبكات المسرحية مقننة. والأدوار مجمدة.

فالمجتمعات المثالية نُسَخٌ لما يمكن أن تكون عليه الحياة فيما لو تقدمنا مباشرة من الطفولة إلى الرشد. ويبدو أن رعاوية فيليب آرييه قياساً بالتجنيس الوسيطي للمجتمع، لاتشبه كثيراً الحياة في باحة المدرسة-إلا في كون الراشدين لايغادرونها أبداً في نسخته. فإذا نحن لم نترك باحة المدرسة أبداً، فإننا سنحصل على حضارة بدون ثقافة. سوف نمتثل للقوانين المتعارف عليها، والخطط المجمدة، والصيغ التقليدية، والإخلاص الموضوعي. وستكون مشاعرنا فياضة تنتشر بالتساوي على الأهل، والأصدقاء، والكلاب، والحدائق، والقوى الخارقة للطبيعة. وكما يعرف المخططون الاجتماعيون، أنه يمكن المحافظة بشكل أكثر فعالية على المُجتمعات المثالية إذا أمكن إلغاء الحياة الأسرية قبل سن المدرسة. وسيكون ذلك أفضل عند الولادة، أو قبلها إذا أمكن. وإذا قُدّر للرغبة أن لا تولد أبداً، فسيكون عمل السلطة بسيطاً.

أليست هذ هي النسخة "الطوباوية" لسنوات الطفولة كاملة تقريباً؟ ولكن كما يعرف معظم الآباء، والمعلمين، وكل من اختلس النظر من خلال بوابات باحة المدرسة، أن الطفل في عمر المدرسة ليس تماماً ذلك المخلوق الطيّع المتمسك بالتقاليد كما يبدو لنا في كثير من الأحيان. قد تكون عواطفه كُبِتَت وروضت، لكنها لم تُلْغَ. وهو في مرحلة الكمون يدافع عن نفسه ببسالة ضد انتهاك الرغبة. مع ذلك، يشعر أحياناً بحسد قتال ينهش أحشاءه. فتتسلط عليه عداوة حاقدة عندما يتذكر أنه هو الغريب المطرود من جنة عدن. زد على ذلك أنه يلجأ سراً إلى تغذية رغباته. والتعليل الوحيد لتمسك الطفل بشدة بالتقاليد والأنماط الدفاعية من السلوك في مرحلة الكمون هو الحثّ المتواصل الذي تمارسه الرغبة لكي تعبر عن نفسها. فهي تباشر الدفاع عن حقوقها فور ولادته. ويعرف ***الأخوة الكبار و فاعلو الخير*** تماماً ماذا سيواجهون.

يمكن كبح الرغبة وكتم صوتها، ولكنها موجودة دائماً ويجب أخذها بعين الاعتبار. فهي تفرض على الآخرين الاعتراف بحقوقها من طريق تغيير صيغها وأساليبها في التعبير، لأنها مراوغة. فهي تتعلم الكلام برفق، وتتنكر، وتحتل موقع الخصم، وتتغيب موقتاً عن الذاكرة، وتتظاهر بأن توقها آت من شخص آخر. وهي تعمل على استرضاء السلطة من خلال الطاعة المطلقة، ولكن فقط لكي تثور بطرق جديدة ومدهشة. والطاعة قد

تصبح، في الواقع، نوعاً من التحدي. وتتوارى الرغبة، بانتظار فرصة للانفجار، والاختراق، والاندفاع، وتولي السلطة. إذا كان محظوراً على الرغبة أن تراقب، فسوف تستقر على نحو بالغ الوداعة لكونها تخضع للمراقبة. أو أن تتخلى عن المراقبة والخضوع للمراقبة بسبب الغرور لكونها يمكن أن تقول "أنا أفضل وأقوى من أولئك الذين هم بحاجة لممارسة المراقبة. ولا أهتم أبداً. وليس هناك شيء أريد أن أراه أو أعرفه".

ولكن الرغبة تشعرك بوجودها في حالة عدم المراقبة، وفي الرغبات الصامتة، وأحلام اليقظة، وأحلام النوم، وفي عالم الخيال. ومع أن الأطفال يمتثلون للنظام في قاعة الصف وعلى أرض الملعب، فإنهم في حياتهم الخيالية تشغلهم معالجة خزي الهزيمة الأوديبية. فهم يلجأون مباشرة إلى تلفيق حكاية أسرية تجدد محاورات الحب في مرحلة الرضاعة وتعيد النظر في النهاية غير السعيدة. في تلك الحكاية، تتخيل البنت أنها أُبعِدت عن أسرتها الحقيقية ووضعت موقتاً في بيت بعض الفلاحين العاديين الذين يفتقرون إلى الصبر والنظافة، ويحبون الخصام، لكنهم يتميزون بالود. أما والداها الحقيقيان، اللذان ستعود إليهما يوماً ما، فنبيلان، مهيبان، قويان، رائعان، مرضيان، ويتألقان كمالاً. وهما أسمى بكثير في كل النواحي من الوالدين المتواضعين الذين أجبرت على الحياة معهما. هذان الوالدان،العاديان، المزعومان هما اللذان يحرمانها من مُتَعِ الراشد. وهما اللذان يخيبان أملها بانتهاكاتهما الأخلاقية وسيطرتهما غير التامة على العاطفة والرغبة. وهما من يتآمر ضدها لحجب الحقائق وتحريفها حول النشاط الجنسي والمخاض.

ولكن أمها وأباها الحقيقيين، والديها اللذين اختطفت منهما عندما كانت رضيعة، سوف لايحبان سواها. وسيعترفان لها بكافة أسرار السحر. وسيكشفان لها الكلمات السحرية. وسيكونان كاملين ويعرفان كل شيء. وسينقلان إليها معارفهما الشاملة وقدرتهما الكلية. أمها وأبوها الأرضيان ملائمان لعصب الركبة المكشوطة وطبخ الطعام، ولكن الطفلة تتوق إلى الوالدين السماويين اللذين كانت تعرفهما يوماً ما. ويبقى الأمل حياً إلى درجة ستبدأ معها حياتها من جديد في عش أسرتها الواقعية. وسوف تستعاد يوماً ما إلى جنة عدن، حيث كانت طفلة ملاكاً في حضن مريم العذراء، وكان حكام الإمبراطورية يحبونها إلى درجة العبادة.

والواقع أن طفلة الكمون لاتتقبل نفيها إلى وجود قذر لالون له، أي وجودها الذي تعيشه الآن. وسوف تنتظر مثل ساندريلا ذلك اليوم الذي ستنطلق فيه مرتدية لباسها الفضي

لكونها الأميرة الحقيقية. ويتخيل الصبي الصغير بأنه سوف يهزم الملك الفاسد، وينجو من مخالب الساحر، ويتغلب على التنين، ويحل لغز المتاهات المربكة التي سوف تقوده من ظلمة زنزانة وجوده الذي لايرحم.

في رومانسياتهم الأسرية وأحلام يقظتهم، يكشف تلامذة المدارس اقتدار ملاهي الرغبات وتكوين المثاليات في مرحلة الرضاعة. ولولا المراهقة كنا سنبقى إلى الأبد أولئك التلامذة الذين يتسترون على حياة رومانسية سرية تثير دائماً ضرام الرغبة الطفولية. ولكنا أشبه بأولئك المواطنين المطيعين الذين يجب أن يبقوا بصورة مستمرة تحت المراقبة.

إن الهدوء النسبي للرغبة أثناء الكمون يوفر للأطفال بضع سنوات تتقن خلالها تلك الرغبة أساليبها في التعبير، والتنكر، وطرق استرضاء السلطة. ومع تقدم البلوغ، ستُحل بعض قيود فترة الكمون. ولكن بعد أن تكون الرغبة قد رُوِّضت وعُدِّلت. وعند ذلك يكون الطفل قد أتقن معظم المهارات الاجتماعية والفكرية للمجتمع الذي يعيش فيه. فيبلغ مرحلة تروق له ويقيّم فيها الإخلاص خارج عش الأسرة. وعندما تعلن تبدلات ماقبل البلوغ والبلوغ قرب الوصول إلى الرشد، يكون المراهق قادراً على الاستنجاد بوسائل الحياة المتقدمة التي اكتسبها أثناء سنوات الكمون. وسوف ينجز رحلة المراهق تقريباً كمواطن متمدين.

ماقبل البلوغ pubescence

تشير هذه المرحلة حرفياً إلى الشعر الزَّغِب، والأشعار الناعمة التي تنمو على أوراق وسوق نباتات الإزهار وبعض أعضاء الحيوانات، وخصوصاً الحشرات. وفيما يتعلق بنمو الإنسان، قد تشير كلمة ***عانة*** pubes إلى شعر العانة أو إلى منطقة في الجسم تكتسي بشعر العانة. ويشير ***عظم العانة*** pubis إلى ذلك الجزء من العظم الذي يشكل الجدار الخارجي للحوض. وتشير كلمة ***بلوغ*** puberty إلى النضج الجنسي، أي الوقت الذي يصبح فيه الإخصاب ممكناً. وتكون العلامات الأولية لجسم راشد موجودة قبل أربع أو خمس سنوات من وجود بيضة أو نطفة خصبة.

تعلن مرحلة ماقبل البلوغ عن نفسها عند الفتيات بتبدلات في الأثداء، وبأول الأشعار الزغبية الناعمة فوق العانة. وفي حدود العاشرة والنصف إلى الحادية عشرة من العمر،

وقبل هذه الإشارات مباشرة، يمكن اكتشاف علامات أكثر أهمية هـي ذلك البروز الطفيف في حلمات الأثداء.

يتألف التبرعم الطبيعي للثدي من ارتفاع الثدي والحلمة معاً على شكل رابية صغيرة. وفي هذا الوقت أيضاً، تتسع قليلاً الدائرة الهاليّة التي تطوق الحلمة. ويتعمق اللون القرنفلي للحلمة والهالة بالتدريج ليصبح داكناً أكثر، ويتراكم الشحم في جسم الثدي. وأخيراً، تبرز الحلمة من الهالة والثدي وتنمو قاسية. وعندئذٍ تصبح حساسة خصوصاً للإثارات اللمسية والحسية الأخرى.

وخلال هذه المرحلة، ماقبل البلوغ، ينمو الثديان من 2/1 إنشاً عرضاً و16/1 إنشاً ثخانة إلى معدل 4.5 إنشاً عرضاً وثخانة 2/1 إنشاً. وتزداد المسافة بين الثديين بالتناسب مع تقوس الصدر. وهناك اختلافات كبيرة بين الأشخاص من حيث مدى هذه المسافة ومن حيث شكل الثديين وحجمهما النهائي.

* * *

ومن أهم التبدلات شيوعاً في الأعضاء الجنسية المذكرة نشير إلى تضخم القضيب بمقدار الضعف طولاً وثخانة، وسوف ينمو خلال فترة ماقبل البلوغ من معدل 2 إنشاً إلى 4 إنشاً تقريباً. والواقع، أن تضخم الخصيتين هو أول علامة خارجية، ويحدث دائماً قبل بدء نمو القضيب بحوالي سنة تقريباً.

يعزى نمو الخصيتين بالدرجة الأولى إلى زيادة حجم النبيبات المنوية الملتفة والتي يبلغ عددها ثمانمئة نبيب، وهي التي تشكل حجمهما الرئيسي. هذه النبيبات صغيرة قبل البلوغ، مبطنة بطبقة وحيدة من الخلايا غير المتميزة، يتناثر بينها قليل من حاملات المني، أي الخلايا المنوية. عندما يقترب الطفل من العاشرة أو الحادية عشرة من عمره، تبدأ بطانة النبيبات بالتثخن وتتمايز الخلايا لتصبح خلايا سرتولي Sertoli cells، وهي الخلايا المنوية عند الراشد. وعندما تتضخم النبيبات المنوية وتبدأ حاملات المني بالتكاثر، تزداد الخصيتان وزناً وحجماً إلى حوالي ثلاثة أضعاف ماكانتا عليه قبل مرحلة ماقبل البلوغ. وبعد سنوات قليلة ستبدأ خلايا سرتولي بإنتاج نطاف نشيطة.

وتزداد الخلايا الأخرى في الخصيتين، أي الخلايا الخلالية أو الخلايا الليديغية* Leydig cells، حجماً وعددا أيضاً. ومع أن الخلايا الليديغية لاتنضج تماماً قبل مضي عدد من السنين، فإنها تبدأ، عندما يقترب الطفل من عامه الثاني عشر، بإفراز التستوستيرون، وتبدأ، بالتعاون مع الأندروجينات الكظرية، بتنمية القضيب، والصفن، والبروستاتة، والحويصلات المنوية، وغدتي كوبر** Cowper's glands.

يتوسع الصفن، الذي يحيط بالخصيتين، إلى ضعف حجمة قبل بداية البلوغ. فيحمر جلده في البداية ويتغير نسيجه من نسيج أملس مشدود إلى نسيج مترهل متجعد. ومع التقدم في مرحلة البلوغ، يصبح لونه داكناً ضارباً إلى البني.

يظهر شعر العانة عادة في آن واحد مع بداية نمو أعضاء التناسل المذكرة. وأحياناً يتقدم ظهوره أو يتأخر قليلاً. ويظهر عند الإناث في آن واحد أيضاً مع تبرعم الثديين، وأحياناً قبل ذلك. يظهر الشعر في منطقة العانة في حدود الثانية عشرة من العمر عند الفتيان؛ وفي حدود الحادية عشرة عند الفتيات، ويسبق في ظهوره عادة أول دورة طمثية بحوالي سنة أو سنتين.

أول أشعار العانة مخضبة قليلاً، صهباء اللون عادة. وهي مستقيمة أو مجعدة بصورة طفيفة فقط. وتظهر على شكل نماء متناثر بصورة رئيسية عند قاعدة القضيب وعلى امتداد الشفرين الخارجيين للفرج. وينتشر الشعر فوق منطقة العانة عندما يصبح أكثر قتاماً، وخشونة، وتجعداً. ويصبح شعر العانة تدريجياً بالغاً في بنيته ولونه، ولكن المنطقة التي يغطيها تبقى أصغر بكثير منها عند الراشد. قد ينتشر الشعر بعيداً ليغطي السطح الداخلي للفخذين، لكنه لن يتجاوز الخط الناصف للحوض أو مكاناً آخر فوق قاعدة المثلث المقلوب inverse triangle. وعموماً، يتوزع شعر العانة، قبل البلوغ الحقيقي، على امتداد النمط الأفقي أو "المؤنث" عند كلا الجنسين.

وفي غضون سنة بعد ظهور شعر العانة لأول مرة، يبدأ الشعر بالنمو حول ناحية الشرج. وتدعى هذه الأشعار بأشعار حول الشرج، وهي عادة أنعم بنية من شعر العانة.

---

* الخلايا المنسلية عند الذكور–المترجم.

** غدتان تفرزان مخاطاً إلى مجرى البول عند الذكور اثناء التهيج الجنسي–المترجم.

وبعد ذلك بوقت قصير، يظهر شعر الإبطين، أو شعر تحت الذراعين، خفيفاً ومتناثراً في البداية ثم يصبح أكثر كثافة، وتجعداً، وخشونة.

يترافق ظهور شعر الإبطين مع بداية التشكل المتتالي لشعر الوجه؛ فيظهر أولاً عند زاويتي الشفة العليا، وبعدئذٍ فوقها، ثم عند الجزء الأعلى من الوجنتين وعند الخط الناصف تحت الشفة السفلى. وآخر المواضع التي ينمو فيها شعر الوجه عند الذكور هي جوانب الذقن وحدّها الأسفل. ويجتمع هذا الشعر مع شعر الوجنة وشعر الخط الناصف للشفة السفلى لتشكيل اللحية. أما عند الإناث، فلا يمتد تتابع الشعر الوجهي عادة إلى أبعد من زاويتي الشفة العليا أو فوقها.

قلما يكتمل نمو اللحية عند الذكور قبل المراحل النهائية لنمو شعر العانة. وفي المراحل المذكورة ينتشر شعر العانة عند الذكور ويشكل خطاً باتجاه السرّة. أما شعر فروة الرأس فينتشر على طول الأذنين. ويبدأ شعر الجسم بالنمو حول الثديين وعلى طول الساقين، والذراعين، والصدر، والظهر. وقد يتواصل نمو شعر الجسم عند الذكور إلى العقد الرابع من العمر.

أكثر المظاهر وضوحاً في مرحلة ماقبل البلوغ هي شعر العانة وشعر الإبط عند الجنسين، وتطور الثديين عند الفتاة، ونمو الصفن، والخصيتين، والقضيب عند الفتى. هناك تبدلات أقل وضوحاً عند الفتيات، ولكنها حاسمة ومميزة جنسياً من حيث الحجم والبنية الفيزيانية في الشفرين، والمهبل، والبظر. ينمو الثديان بصورة خفيفة عند الفتى، ويتراجع هذا النمو مع تقدم مرحلة ماقبل البلوغ.

جسم الفتى أكثف شعراً، وهو أطول قامة، وأعرض منكباً، وأخشن صوتاً، وأقوى عضلاً. ويتوسع قطر الحوض عند الفتاة، ويتوضع الشحم على الوركين، والفخذين، وربلتي الساقين، والثديين. تعتبر هذه الملامح، كأشعار العانة والإبطين والجسم، صفات جنسية ثانوية بمعنى أنها تحرضها الهرمونات الجنسية أو الإفراز الهرموني الجنسي التمييزي ولكنها ليست أساسية بالنسبة لأداء الوظيفة الجنسية أو التوالدية. وهي تسهم بشكل مهم في الميول الشهوانية وإثارة الرغبة التناسلية.

يوقظ النضج الجنسي جوعاً لمحاورة الحب التناسلية. وفي الوقت نفسه تعود خيالات مرحلة الرضاعة الأوديبية المكبوتة في أشكال مختلفة وتصرخ مطالبة بإعادة توكيد

سيادتها. فيعمل محرّم سفاح القربى، الذي كان في الأصل قد حمى الطفل عندما كان صغيراً من التعرض المبكر للنشاط الجنسي عند الراشد، على توطيد نفسه في ذهن المراهق.

وبينما كان يتم في وقت سابق تحمّل المحرّم بسلبية، فقد أصبح الآن يقف عائقاً في سبيل إنجاز الرغبة التناسلية. فهو يطرح بعض المعضلات التي تفرض على المراهق وضع حلول لها. "هل أتنكر للرغبة التناسلية وأبقى مخلصاً للماضي أم أوجه رغبات حبي التناسلية بعيداً عن الأسرة وأتخلى عن وفائي للطفولة ومثالياتها؟" وفي اختيارهم بين البقاء مرتبطين بآبائهم بطريقة طفولية لاتناسلية أو إثبات حيويتهم التناسلية والتزامهم باستمرارية الحياة، سيأتي قرار معظم المراهقين مؤيداً للتخلي عن الماضي.

ولكن القرار ليس مسألة كل شيء أو لاشيء ويمكن اتخاذه فوراً. فالكفاح لفصل الليبدو أو الجوع الجنسي عن الوالدين طويل وشاق. والرغبة سوف تهتبل كل فرصة لكي تجدد ارتباطها بالسيناريو القديم. وسوف لن يسمح الماضي بالتخلي عنه بسهولة أو عن طيب خاطر.

ومن جهة أخرى، إن رسالة الواقع واضحة جداً. وقد جرى إثباتها بالقوة في العالم الفيزيائي. فالجسم النامي، بشعر العانة، وتضخم أعضاء التناسل، والدفق المنوي، والتدفق الطمثي ينذر ببدء النشاط الجنسي عند الراشد وإمكانيات الإنجاب. تُعلَن الرسالة في فورة ضخمة لجملة الغدد الصم-المنبهات الهرمونية التي تشجع الرغبات التناسلية عند الراشد إضافة إلىالخيالات الشبقية التناسلية. والنظام الاجتماعي، الذي يجب أن يدافع عن نفسه ضد خطر إمكانية ابتلاع مصالحه الخاصة من قبل العواطف الباقية من مرحلة الرضاعة، يعلن برقة، ولكن بحسم، بأنه لن يتسامح بانتهاكات محرّم سفاح القربى.

وفي كل مرة يجري فيها تجديد التوكيد على الرغبات والتخيلات القديمة، يلح الواقع بإصرار على تحويل الجوع الجنسي عن الوالدين. فالواقع يخرب الصور المثالية التي كونتها محاورات الحب في مرحلة الرضاعة. وسوف تستمر مواجهة متطلبات الواقع بمعارضة مهمة طوال فترة المراهقة. ولكن في الشوط العادي للانتقال من الطفولة إلى الرشد، فإن احترام الواقع هو الذي يكسب المباراة ببطء إنما بشكل مؤكد.

6

محاورات الحب II:
الحداد على الماضي

فاصل بيولوجي:
طفرة النمو

لكي يكتمل انتقال مراهق من الطفولة إلى الرشد، لابد من تحقيق تحويل من نوع خاص للرغبة. وعلى نقيض التحويلات العادية التي تظهر في الأحلام وفي حياة اليقظة، والتي تتكون من الانتقال من شعور إلى آخر، ومن شخص إلى آخر، ومن إطار زمني إلى آخر-وهو انتقال إلى هنا وهناك لكافة أنواع العواطف والصراعات التي تكون موقتة ويسهل عكسها إلى الزمان/المكان/الشخص الحقيقي- فإن التحويل في المراهقة يتضمن رغبات سفاحية نحو الأقرباء حصراً، تمضي في اتجاه واحد فقط-بعيداً عن الوالدين-وهي رغبات ***لارجوع عنها.*** أطلقت على هذه الصيغة الخاصة للتحويل تسمية غير مناسبة "إقصاء" للتشديد على أنه عندما يقوم المراهق بفصل الليبدو عن والديه، فإن الجوع الجنسي يكون قد أقصي نهائياً ووُضِع في مكان آخر، ويكون هذا المكان عادة شخصاً من الجنس المقابل ليس عضواً في الأسرة المباشرة. والإقصاء يقتضي أكثر من التحويل. فنوعية الجوع الجنسي حُوِّلَت من شهوة سفاحية باتجاه الأقرباء إلى رغبة تناسلية راشدة.

وما يُقْصى في عملية ***الإقصاء*** هو الجوع الجنسي الذي كان فيما مضى مرتبطاً بالتصورات الطفولية عن الأبوين. ولهذا الإقصاء مظهران: رغبة تناسلية وشخص محبوب ترتبط به الرغبة. وأخيراً، يجب على المراهق أن يتوصل إلى تفاهم مع شهواته التناسلية. ولكن العامل الحاسم في تحقيق حرية الوصول إلى النشاط الجنسي، هو نجاحه في فصل الجوع الجنسي عن صور والديه (وأقربائه). وقبل أن يتمكن من التأكد من أن والديه لن يصبحا هدفين لشهواته التناسلية، يتوجب عليه أن يتفادى انفجار الرغبة. فعندما يصل

المراهق إلى البلوغ الحقيقي، تعمل المطالب المتناقضة لمحرم سفاح القربى على دفعه قليلاً نحو الجنون. وقد يؤدي فشله في الدفاع ضد الرغبة التناسلية إلى غشيان فعلي للمحارم. ومع ذلك، إذا أريد لطفل أن يصبح راشداً، فلا بد لنشاطه الجنسي من أن يجد وسيلة للتعبير عن نفسه عاجلاً أو آجلاً.

يبدو المراهق، من وجهة نظر الراشد، كمخلوق جامح تدفعه الرغبة إلى الجنون. ومايصعب على الراشدين إدراكه هو أن "جنون المراهق" يأتي نتيجة للحرب الشاملة اللاواعية ضد الرغبة بجميع أشكالها. وما بعض التصرفات السلوكية الغريبة والمربكة خلال سنوات مراهقته سوى تظاهرات مكشوفة لهذه الحرب الخفية. وهو يستعين في حربه على الرغبة بعدد من الإستراتيجيات. ولكن هذه الاستراتيجيات، أو الوسائل الدفاعية، مخصوصة بسنوات المراهقة، وتشير مباشرة إلى مشكلة الإقصاء.

التقشف الجسدي طريقة لكبح الرغبة. ولكن الحرب تتقدم عادة بإيقاعات تتناوب بين الامتناع والاستسلام. فرفض تناول الطعام والامتناع الذاتي عن القوت سوف يتناوبان مصحوبين بنوبات من النهم أو الطقوس المعقدة لأوقات الطعام. وسيتناوب رفض الاستسلام إلى النوم مع التمدد في السرير على مدى أيام من غير انقطاع. وسيتناوب رفض العناية بالجسم مع اهتمام مفرط في زينته، وغسولات الوجه، والصوابين الحديثة، وقضاء ساعات أمام المرآة في تفحص الجسد، ونتف أشعاره بملقط، واستخدام مراهم حب الشباب.

وتتم الغلبة أحياناً للتقشف. فهناك مراهقون ممن يتناولون على مدى أسابيع ما "يكفي فقط"، ويرفضون تناول اللحم، والدواجن، والسمك، والبيض، والحليب، والحلوى، والبطاطا، والمعكرونة، ويقيمون عملية النمو على مايجدونه من أنقى أنواع المواد الغذائية وأقلها إغراء، كالفاصولياء ورشيم القمح مثلاً. وينامون فقط ساعة أو ساعتين كل ليلة، ويرتدون مايشبه المِسْح، وهم إما ألايستحموا أبداً أو أن ينهمكوا في فرك الأوساخ عن أجسامهم وإزالة روائحها. هذا الصنف من المراهقين لايلين في حربه على المتعة الجسدية.

وسيعلن كثير من المراهقين حربهم الشمولية على الرغبة بالطريقة الأقل وضوحاً، أي عن طريق عدم المهادنة في الفكر والمواقف. وبهذا تتوفر الحماية لما يعتمل في الذهن ضد إغراءات الجسد المزعجة. فيبقى ماهو مثالي بعيداً عن دنس مؤثرات الإجرائية والضرورة. والمرء إما أن يحب وإما أن يكره. فاحتمالات مزج الضدين أو القبول بإمكانية التوافق بين وجهتي نظر متعارضتين أمر لايطاق.

يجب أن نتوقع خلال المراهقة وجود بعض من هذه الأشكال المختلفة من الوسائل الدفاعية العنيدة المضادة للرغبة. فالموازنة بين ملاحقة المتعة وكبحها، والمواءمة بين الرغبات المتعارضة، والتعاون بين العقل والجسد، وتنازل المثاليات المجردة إلى مستوى الضرورة العملية، كلها أهداف لايمكن لكائن إنساني أن يحققها بصورة كاملة. مع ذلك، ولكي يصبح المرء راشداً، يجب عليه أن يقبل بهذه التسويات. فتصبح في نهاية المطاف أهدافاً فكرية وعاطفية يناضل الشخص الأخلاقي في سبيلها، مع إدراكه الكامل بأنها قد لاتتحقق أبداً.

تترافق حرب المراهق ضد الرغبة بالحدة. فتعلن نشاطات النمو واليقظة التناسلية أن لاشيء غريب عند الإنسان. وهي تحث المراهق على تمثيل كافة الأدوار في الكوميديا الإنسانية الضخمة. مع ذلك، هناك أصوات أخرى، أصوات مرحلتي الرضاعة والكمون، التي تطالب بالتخلي، والتضحية، والامتثال. ولكي يتخطى حدود باحة المدرسة، وكآبة أوامرها وتوجيهاتها، ولكي يشارك في تجارب الحياة التي تفتح أبوابها له الآن، يجب عليه أن ينتصر على رغبته. مع ذلك، ليس مهماً مدى ماقد يكون عليه المراهق من التزام واعٍ بتطور الحياة والمستقبل، ويجب أن يتابع حربه ضد الرغبة حتى يتحقق الإقصاء. والمراهق لايعتمد فقط على الحرب ضد الرغبة. بل يكون جزء كبير من سلوكه انعكاساً لصنف آخر من الاستراتيجيات الدفاعية، ذلك الصنف الذي يوجه لتفكيك الروابط العاطفية التي تربط الطفل إلى والديه. والاستراتيجية الأولى الرئيسية في هذا الصنف هي الانتقال بالجوع الجنسي إلى خارج نطاق الأسرة.

وفصل اللبيدو عن الوالدين قد يتخذ نمطاً تدريجياً للتخلي عن الماضي جزءاً جزءاً. ولكن عندما يستيقظ القلق بتأثير تسلط الرغبة في سفاح القربى، فإن المراهق لايطيق صبراً على تحمّل هذه الطريقة البطيئة للفصل والتي تنطوي على المجازفة. ويتوجب عليه، في ظل ظروف كهذه، أن يلجأ إلى تكتيكات أكثر إثارة واستعجالاً. ومما يدعو للأسف، أن الطرق السريعة قلما حققت نجاحاً على المدى الطويل على الرغم من تهدئتها للقلق.

وأقصر الطرق وصولاً لنقل الرغبة في سفاح القربى إلى مكان آخر هي الهروب. فالمراهق ينتقل بذاته فجأة من نطاق الأسرة. إنه يهرب، إما واقعياً أو رمزياً. ولكن الهرب من رغبة الحب الأسرية، تجعله يعاني من توق لايطاق للمشاركة في الحب. ولهذا السبب، سرعان ماتحتبله في شباكها بعد فراره علاقة حب عاطفي عنيف. وبما أن هذا النوع من

الوقوع المندفع في الحب يقوم فقط بنقل الشهوات السفاحية بالقربى ولا يلغيها، لذلك سوف تبقى الرغبات القديمة ومحاورات الحب ملحاحة دائما. فهي تُمثّل في حجرات نوم أخرى مع أشخاص قد يكونون على طرفي نقيض مع الوالدين، إن في المظهر وإن في القيمة الاجتماعية، لكنهم في الواقع متنكرون كبدائل لهما.

ليس ضرورياً أن ينتقل المراهق بذاته من المنزل الأسري لكي يلوذ بالفرار من قلق الرغبة في سفاح القربى. فعندما يحاول المراهقون نقل الليبدو إلى مكان آخر، فإنهم على الأغلب، سيجدون طريقة للبقاء بأجسامهم في البيت. وعلى الرغم من كونهم تقريباً أكثر اعتدالاً ودهاء في طرق انتقالهم، فإنهم قد لايقلون تهوراً عن أولئك الذين يلوذون بالفرار فعلاً. فمثلاً، قد يتورطون بنقل عاجل لجوعهم الجنسي كنظرائهم الذين لم يجدوا ملاذاً آخر سوى الفرار من العش الأسري. وقد يجدون أنفسهم جائعين أيضاً لمشاركات الحب، فيندفعون بطيش إلى علاقات غرامية مع بدائل والديهم. المراهق في هربه واسع الحيلة دائماً. فهو قد ينتقل برغبته إلى قادة مثاليين أو إلى علاقات غرامية متغايرة الجنس مع لداته أو إلى إخلاص مفعم بالحب مع صديق من نفس الجنس. وقد تصبح زمرة الأنداد هدفاً لرغباته الغرامية. وكثيراً مايتخذ الهرب شكل "ولوع" بامرأة تكون في مرحلة ما من العمر تقع بين جيل الأم وجيله هو.

في كل مرة ينجح المراهق بنقل رغبة الحب بعيداً عن الأسرة، يمكنه أن يتجاهل، وهو مرتاح البال، قيمة والديه وينكر كل شيء يتحملونه. فهاهو قد تحرر في نهاية الأمر من "حبهما الخانق". وجردهما من كل أهمية. فيقبل البقاء في البيت كنزيل ثقيل لامبال بدون أجر.

قد تكون الانتقالات العاطفية للرغبة-الحب تعبيراً عن انفصال تدريجي أكثر نموذجية. أو قد تكون علامة على تعويق مرضي لمعضلة سفاح القربى. ويصعب قياس الدرجة التي تكون فيها الارتباطات العاطفية خارج الأسرة محطات وسيطة على الطريق نحو الانتقال الضروري والمناسب أو عَرَضاً لمرض ما. وعندما تكون مواثيق الحب الجديد مفاجئة، ونهائية، ومؤكدة بقوة، ومضادة لكل ماهو والديّ، من حيث القيمة، والمظهر، والطبقة الاجتماعية، فيجب أن يأتي النقل تعبيراً عن تراجع سريع جداً، وتفادياً لأحزان مطولة ومخاوف من انفصال تدريجي.

وعندما يكون الهرب الدفاعي من الوالدين نهائياً وليس موقتاً، فقد تكون له عقابيل أكثر سلبية، وخصوصاً فيما يخص المعركة المستمرة التي يخوضها المراهق ضد الرغبة. فعندما يُجرّد الوالدان وسلطتهما من الأهمية، فإن كافة الرغبات التي كانت ممنوعة سابقاً تصبح مجازة. وقد يؤدي إطلاق عنان الرغبة هذا إلى اتصال جنسي غير شرعي أو إلى مختلف أشكال السلوك الإجرامي الذي نطلق علية تسمية "جنوح الأحداث". وإذا واتى المراهق أثناء هربه حظ جيد أو معرفة لاواعية لربط نفسه مع أشخاص أو مجموعات خيّرة تحمل مثاليات اجتماعية لاإجرامية، فإنه قد يبقى على قيد الحياة بعد انسحابه السريع من حياة الأسرة من دون أن يلحق كثيراً من الأذى بباقي شخصيته. ورغم ذلك، سوف يبقى تهديد سفاح القربى. لأن الصراعات والمخاوف التي تترافق مع الرغبة في سفاح القربى سوف تستمر إلى حياة الراشد؛ ملقية بظلالها على الزواج، والوالدية، وعلاقات العمل.

وهناك طريقة أخرى لـ "الارتحال" عن الأبوين هي تحويل رغبة الحب والتبعية الطفولية إلى كراهية، فازدراء، فسخرية، فثورة. وعن طريق عكس عواطفه إلى ضدها، قد يظن المراهق أنه لم يعد معتمداً على والديه من أجل الحب والحماية. فهاهو قد تحرر منهما في نهاية الأمر. ولكن هذه الانقلابات المسعورة سوف تدفعه بقوة أكبر للوقوع في شباك الأسرة. يتفوق الهرب على الانقلاب العاطفي على الأقل في كونه يمكّن المراهق من الحصول على بعض المتعة من المشاركة في الحب. ومع قلب رغبة الحب إلى كراهية وعصيان اضطراري، لايبقى شيء سوى العداوة، والمعاناة، والألم لجميع من يهمهم الأمر. والقلب يُخلِّد الحاجة الدائمة للعمل على تعزيز الدفاعات ضد قلق سفاح القربى. زد على ذلك أن استراتيجيته تستتبع في النهاية مزيداً من التعقيدات المؤلمة والمرضية.

والمراهق، حتى الأكثر عدائية، سوف لايكون قادراً على التساهل مع رغباته الهدامة ضد والديه. وبدلاً من ذلك، سيتخيل في البداية بأنهما هما اللذان يكرهانه. ويشعر بأنهما يسعيان إلى تدميره. ويراهما ظالمين ومتعسفين. وبسرعة، قد يصبح العالم الراشد وكل مايمثله ظالماً. فينسحب المراهق من هذا العالم. ويرتد أكثر فأكثر إلى شباك كراهية الأسرة، مقلصاً وجوده أكثر فأكثر انسجاماً مع الانتقال برغبة الحب إلى خارج الأسرة.

قد ينتج عن هذا الانقلاب إلى الكراهية أن تتحول الرغبات التدميرية الموجهة إلى الوالدين لتنصب على الذات. وبدلاً من توقع فترات الحزن والقنوط التي ترافق الانفصال

الطبيعي، يخضع المراهق لردود أفعال كئيبة أكثر حدة وتطاولاً. وتشويه السمعة الذاتية والأشكال العنيفة من إذلال الذات وإيذائها هي نتائج شائعة لسلسلة الانقلابات: رغبة الحب التي قلبت إلى كراهة تتحول إلى كراهية عنيفة للذات. ويصبح التفكير بالانتحار أو تخيّله هو المظهر النموذجي لهذه الصورة الإجمالية لكره الذات، ويدخل أحياناً حيّز التطبيق، لالرغبة في تنفيذه ضد الحياة وإنما للخلاص من شكل أعمق من كره الذات.

الاستسلام العاطفي التام للوالدين هو من أكثر الاستراتيجيات المرضية في المراهقة. وهو بقدر مايدعو إلى الرثاء، قد يصبح آخر معقل للمراهق ضد الرغبة في سفاح القربى. هنا تُحلُّ معضلة سفاح القربى عن طريق النكوص إلى المرحلة المبكرة من تاريخ الرغبة، إلى مرحلة محاورة الحب، عندما لم تكن هناك حدود بين الذات والآخرين. يستسلم المراهق بروحه، بوحدانيته، بصفاته الخاصة المتشددة، بكل مفردات ذاتيته التي يعتبرها مركزاً لوجوده. فهو يتخلى عن شخصيته الخاصة ليصبح رسماً كاريكاتورياً لصورة الأم، أو الأب، أو خليطاً من كليهما. ويندمج في نسخة طفلية عنهما. بحيث لايكون له بعد ذلك وجود كشخص منفصل. ومع مايحمله إرجاع التكافل هذا من تأثيرات لتحرير الجسد من الرغبة التناسلية وإطلاق العقل من إسار كافة الحالات والصراعات التي تلازم حب شخص آخر، فإنه يعني طمس الروابط العاطفية الإنسانية وخسارة الصحة العقلية. وسيعمل المراهق بكل مايتيسر له من وسائل لحماية نفسه من هذا التذويب التام لشخصيته. فهو إذ يوضع أمام خيار مستحيل بين سفاح القربى الذي يعني النفي من الجماعة الإنسانية، وبين الاستسلام العاطفي الذي يعني الانحدار إلى التفاهة، فإن الانتحار قد يبدو له أفضل خيار.

وفي السياق الأكثر شيوعاً لانتقال المراهق، وفي مختلف الأوقات، وفي مختلف الترتيبات، سيستخدم التقشف الجسدي، والتخيل الذي لايلين، والانتقال برغبة الحب، وقلب الحب إلى كره لتفريج قلق سفاح القربى. فالمراهق العادي عندما يعاني من نوبات كره الذات، كثيراً ماينبذ كل شيء يمثله والداه. وتمر به لحظات يتمنى فيها لو يتخلص من صراعاته عن طريق تخليه عن جسده وروحه لهما. وسوف تتسلل بين حين وآخر إلى ذهنه أفكار الانتحار المخيفة. وحتى المراهق العادي، يحمل أحياناً انطباعاً عن ظلم وتعسف والديه.

مثالياً، سوف ينجح المراهق في نهاية المطاف في الاحتفاظ بما هو قيّم من محاورات الحب في الأسرة وينبذ منها مايكفي فقط لتوفير حيّز لبضع احتمالات حديثة.

وسيمثل إلفه شيئاً ما قديماً وشيئاً ما حديثاً. أو أن يعتمد اختيار الزوج، عندما تكون الحلول تقريباً أقل من مثالية، على أساس التماثل أو عدم التماثل المطلق مع النموذج الأصلي للوالدين. في هذه الحالات، تصبح النمطية شرطاً أساسياً للحب التناسلي. تشكل هذه الانتقالات الجزئية مدى عادياً من خيارات الحب، تقع في منتصف الطريق بين المحاولات مثالية والفاشلة عند نقل الهدف.

تتميز الحلول المثالية والحلول التي تقع في المدى المتوسط بأهمية كونها تمكّن الشخص من تلبية رغباته الجنسية مع الاحتفاظ بقناعاته الأخلاقية الداخلية حتى ولو حُرِم من دوره الاجتماعي. ولكن الأمر ليس على هذا النحو مع إخفاقات النقل.

تعلن إخفاقات النقل عن ذاتها خلال المراهقة الحقيقية عن طريق المفاجأة، والحدّة، والمبالغة في شكل الدفاعات الخاصة عند المراهق. وتقع أنواع الإخفاقات الفاشلة على ثلاثة محاور. أقلّها أمراضية تلك التي تُحَدَّد عندما يشن المراهق حربه بنجاح على الرغبة إلى حد يستأصل فيه تقريباً كل الميول الشهوانية والشبقية، ولا يسمح إلا لدوافع الحب والحنان بالبقاء على قيد الحياة. أما وقد نجح في دحر تلك الرغبة، فإنه يمكنه الآن أن يبقى مرتبطاً بالماضي المألوف وهو مرتاح البال. فلقد تم تفادي سفاح القربى. ولكنه، أي سفاح القربى، يعلن فوزه في اللاوعي، الذي قلما يتغير. فهناك، في اللاوعي، يتجدد الاتحاد بين الأحباء القدامى والرغبات اللبيدية القديمة. وكل مايبقى من نضال المراهق هو تلك الرابطة الحميدة بينه وبين الأم و/أو الأب. وفي الحالات الشديدة لهذا النمط من الحل الفاشل، تضيع فرصة إيجاد حب جنسي جديد أو تحقيق وصال جنسي مع أي كان. يشدد الفرد على الجوانب الغيرية والودودة في شخصيته. فقد يكون شخصاً مبدعاً على الرغم من إمساكه عن التناسل. وقد يصبح معلم مدرسة، أو رئيساً، أو ممرضاً، أو عالماً نفسانياً، أو شاعراً، أو رساماً. انتصار الرغبة السفاحية بالقربى في اللاوعي، شأنها كشأن كافة السيناريوهات الطفولية الأخرى التي بقيت بدون حل أو أنها حُلَّت على نحو سيء، قد تعمل كدافع لبعض الأدوار الاجتماعية.

تحافظ المجتمعات الإنسانية على ذاتها عن طريق محاولتها تأمين التنوع في الأدوار المقبولة تقريباً لكافة الأعضاء الراشدين. وينشىء المجتمع أيضاً هياكل لتوسيع هذه الأدوار وتحديد قواعد الخضوع لها. فإذا سادت بعض الحلول الشخصية ذات الطبيعة المنحرفة، فإن المجتمع يتكيف مع تلك الحلول عن طريق تطبيع انحرافاتها. ولذلك

لايصعب على الراشدين تغطية حلولهم التي هـي أقل ملاءمة من حلول المراهقين بدور اجتماعي. حيث لايمكننا أن نميز من الخارج الراقص أو العالم النفساني الذي يحافظ على مظهره الراشد فقط عن طريق التكيف مع نمطية دوره الاجتماعي. فعندما يستحوذ الهيكل الاجتماعي بشدة على شخص ما، فإن ذلك الشخص سيبدو منحرفاً فقط في حال انهيار ذلك الهيكل أو إذا لم يعد دوره مقبولاً أو إذا أهمل ذلك الدور.

يرتبك في أداء وظيفة الراشد على نحو أكثر خطورة أولئك الذين يتغلبون على الرغبة التناسلية ورابطة الحب. لقد انتصر قلب الحب إلى كره. وعند التأكد أنه لم يبق شيء، لاالجوع الجنسي ولا الأهداف التي يمكن أن يعلق بها، نجد أن الانتقال قد انتهى أمره وتم تفادي سفاح القربى. يحيا هؤلاء الأشخاص التعساء خلال بقية وجودهم في عزلة عاطفية مريرة. فيبقون بعيدين عن أية علاقة صميمية للحب بكلا نوعيه، النوع الحسي والرقيق أو النوع الغيري. وسيصبح القليلون منهم فقط نسّاكاً. ويمكن لقوة الكره الجامح والتخيلات الجائرة عندهم أن تعمل كحافز لتحقيق سلطة على الكائنات الإنسانية الأخرى. وعلى الرغم من المرارة والحسد اللذين يعتملان في نفوسهم، فإن هؤلاء الراشدين الضحلين عاطفياً سوف يظهرون في كل عمل يقومون به أنه يمكنهم أيضاً أن يسهموا في النظام الاجتماعي. فهم قد يستجيبون بشيء من الراحة النسبية إلى دور مصرفي، أو جنرال، أو مدير عام تنفيذي، أو قاض، أو سياسي، أو فيلسوف، أو رائد فضاء. مع ذلك، لو حرم بعض الفلاسفة من كتبهم ومناصبهم في الأكاديمية، فقد يصبحون نسّاكاً حقيقيين أو متدينين متحمسين. والجنرال بدون هيكله الاجتماعي الموسع وجيشه قد يبدو كمهووس زوراني.

ونجد المحور الثالث للحل الفاشل عندما لاتكون هناك دفاعات ضد الرغبة أو أية استراتيجيات فعالة لتفكيك الروابط العاطفية مع الوالدين. وبسهولة قد يصبح عندئذٍ احتمال سفاح القربى حقيقة. ولكن هذا الحل لايتكيف مع النظام الاجتماعي. ففي تلك المجموعات الاجتماعية الفرعية التي ينتشر داخلها سفاح القربى، توضع الأسر المعنيّة فوق أو خارج منطقة الوجود الاجتماعي العادي. فقد يكونون ملوكاً، أو ملكات، ويريدون المحافظة على السلطة المطلقة عن طريق الاستيلاد الداخلي. أوأنهم منبوذون، دورهم هامشي ويعتبرون منحرفين على الصعيد الاجتماعي، وهو الأكثر شيوعاً. وعندما يحدث سفاح القربى في أوضاع عائلية أقل استثنائية أو هامشية أقل، فإن الطفل يكون هو ضحية الانتهاك الجنسي من جانب الأهل. الرهبة من سفاح القربى راسخة في العقل الإنساني. وهي تقتضي

مجموعة استثنائية من الظروف العائلية لتطبيعها. ونكرر القول بأنه مامن وسيلة تساعدنا على تمييز الكرب العاطفي من الخارج، أما الثمن الباطني فيدفعه الشخص عندما يفوز سفاح القربى في المعركة.

يوضح الموقع المحصن للمراهق والاستراتيجيات المعقدة التي يحتاجها لحماية نفسه من قلق سفاح القربى بجلاء أن هناك فرقاً كبيراً بين كبت محاورة الحب الطفولية وبين زوالها الحقيقي. فعقدة أوديب تُكبَت عند نهاية مرحلة الرضاعة. ولكنها تبقى موجودة في اللاوعي، مُرجأة إلى البلوغ عندما تستيقظ من جديد لوضع حل دائم لها. والرغبات الأوديبية لاتتحول إلى سيناريوهات اجتماعية ذات مغزى. كل الرغبات الطفولية الأخرى أعطيت مغزى من خلال الإشارات الوالدية المتبادلة للعودة والغياب، والإرضاع والفطام، واستحسانٌ وعدم استحسان التدرب على ارتياد المرحاض، ونظرات الإعجاب والتجهم الموجهة إلى عري الطفل، وإخفاء الجسد الوالدي ثم كشفه. ولكن ليس هناك إشارات تعترف أو تتآثر مع الرغبات التناسلية الطفولية. خلال الطفولة المبكرة وسنوات الكمون، تتحول كل الرغبات الطفولية الأخرى إلى أنماط سلوكية وخِلالٍ متناسقة اجتماعياً كتعلم تناول الطعام أمام الناس، والأناقة، والنظافة، وحب الاستطلاع العقلي، واللباس الملائم، والدماثة، وإظهار المهارات والمواهب في الألعاب والأداء. ولكن التعبير عن الرغبة التناسلية بصيغة اجتماعية يبقى غامضاً على امتداد فترة الطفولة. ويمكن للطفل بعد البلوغ فقط، عندما يصل إلى النضج الجنسي، أن يعبر عن رغباته الجنسية ضمن شروط النظام الاجتماعي.

من وجهة نظر المجتمع، الذي يجب أن يحمي نفسه من أن تبتلعه عواطف الحياة العائلية، فإن التخلص الكامل واللاعكوس من رغبات سفاح القربى المرتبطة بكلا الوالدين هو التعديل الأساسي الذي تحققه المراهقة. أما ماذا يحدث لحياة الرغبة أو، على وجه الضبط، كيف يحل الفرد معضلة سفاح القربى، فأهميته ضئيلة بالنسبة للمجتمع، الذي يهتم فقط بأن تبقى مصالحه مصونة.

ينطوي الحل الحاسم لعقدة أوديب أثناء المراهقة على إمكانية مدّ الأنا العليا إلى شيء ما أكثر إنسانية من العيون اليقظة، والأصوات الناهية، والامتثال للمطالبة بالكمال. ففي عملية حل معضلة سفاح القربى، يروض المراهق ضميره عادة بما يكفي على الأقل لكسب

الترخيص لكي يكون راشداً يؤدي وظيفة تناسلية. فإذا انتزع من خلال صفقته ترخيصاً بالطموح إلى قيم ومُثُل أبعد من الامتثال الأخلاقي والإشباع الجنسي، فسيكون ذلك نتيجة لكفاحه الداخلي الشخصي، وهو كفاح لايمكن فرضه عن طريق أي نظام اجتماعي.

يهتم المجتمع فقط بتمدن الأفراد، ومغادرة عش الأسرة لتأسيس أسر جديدة، والقيام بالأعمال المخصصة لهم والتقيد بعدد بسيط من الوصايا الأخلاقية. فإذا كانت روابط الحب بين الوالدين والطفل ضرورية للمحافظة على النظام الاجتماعي، عندئذٍ سيقوم المجتمع بما يمكن لحماية الأسرة.

والمجتمع لاينظم نفسه بحيث يمكن لبعض الأفراد أن يكتسبوا ضميراً أخلاقياً يكون فيه السمو الأخلاقي مساوياً لأكثر من المصلحة الذاتية أو الامتثال الأخلاقي. ومع ذلك، عند توديع الطفولة يهتم بعض المراهقين، وهم في طريقهم لأن يصبحوا راشدين، بتوسيع حدود وجودهم الإنساني أكثر من اهتمامهم بالمحافظة على النظام الاجتماعي كما هو.

يأتي حل المراهق لمطالب محرم سفاح القربى المتناقضة على شكل عملية بطيئة ومؤلمة. لأن ترتيبات الواقع لايمكن إنجازها دفعة واحدة. إذ يجب القيام تدريجياً، وبإنفاق باهظ للطاقة العاطفية، باستعراض كل ذكرى من الذكريات والتوقعات التي كانت تربط اللبيدو إلى الوالدين واحدة واحدة، فتُختبَر من جديد، ويُعاد تفسيرها. هذا الجزء الشاق من العمل العاطفي هو النموذج الأولي للحزن على موت شخص محبوب. ومن خلال هذه الترجمة الخاصة للتخلي عن الماضي، يعترف المراهق لأول مرة بالطبيعة ***اللاعكوسة*** لهذه الخسارة. فهو ليس مفجوعاً حقيقياً، ولكنه بتخليه عن الماضي بمثل هذه الطريقة التدريجية، اكتسب القدرة على الحزن.

والمفجوع الحقيقي يعي وعياً متفاوتاً بأن أحواله المزاجية مرتبطة بفقد شخص محبوب. ولكن المراهق لايعرف سبباً لوقوعه المفاجيء فريسة للحزن، واليأس، والقلق والحنين إلى الماضي، لأنه لايملك الوسيلة التي تجعله يدرك على نحو واع بأن أحواله المزاجية التي تتغير باستمرار وعواطفه التي تبدو متقلبة يمكن أن تعزى إلى فقده لماضيه الطفولي. فهو يعاني من فقده لصيغة طفولية للرغبة، على خلاف المفجوع الحقيقي الذي يعاني من خسارة لاتعوض لشخص حقيقي. فوالداه الحقيقيان مازالا موجودين.

وكالمتفجع الذي يُحَوّل كامل عدوانه بعيداً عن ذكرى الشخص المفقود، حيث تُضفي عليه الآن صفات مثالية، يضفي المراهق صفات مثالية على الماضي الضائع ويوجه العدوان إلى مكان آخر، نحو الوالدين عادة والأعضاء الآخرين في الأسرة. فقد تتسبب نوبات الغضب العدائية الموجهة إلى الوالدين والحط من قدرهما في إضعاف معنوياتهما. وعلى الرغم من حيرتهما وأذاهما، فإنهما ينجحان في متابعة الحياة. فيحاولان تخفيف مايمنى به المراهق من خيبات ويأس لاسبيل إلى تفاديهما. ويتعذبان معه، ويتساءلان بخوف حول الحصيلة النهائية. فيبدو وكأن مصير الأسرة بالكامل معلق في كفة ميزان.

وعاجلاً أم آجلاً، سيتحرر كل من المفجوع الحقيقي والمراهقة من انشغالهما بالماضي. فيستريح الجميع لأن الجيشان العاطفي قد هدأ. تتعامل الراشدة مع والديها باحترام ودماثة. ولكنها تعرف، ويعرف والداها أيضاً بأن شيئاً ما جميلاً قد ارتحل، وسوف لن يعود أبداً. على الرغم من الترحيب بالحب الجديد المتسم بالاحترام، إلا أنه قد يكون قاسياً بشكل خاص بالنسبة للوالدين، اللذين يواجهان نهاية الحياة وذبول الرغبة. فقد أُطلِق سراح الراشدة الشابة لتجد لها حباً تناسلياً خارج الأسرة.

إن رحيل الطفل الراشد من عش الأسرة، بالنسبة للوالدين، هو الوقت الذي يعودان فيه إلى دراسة حياتهما الخاصة. فيتذكران يوم لقائهما، وحبهما، وزواجهما، أي اللحظات التي قضياها معاً، حلوها ومرّها. ويغرقان في الذكريات حول ولادة هذا الطفل الرائع، وأولى ابتساماته، وأولى خطواته، وأول أيامه في المدرسة، وتدرجه في الدراسة وكفاءاته، وأول موعد له مع فتاة. وتسرح أفكارهما بشوق وأسى إلى الأيام "الذهبية" لطفولتهما، إلى أميهما وأبويهما كما كانا يبدوان آنئذٍ- قويين جداً، ورائعين جداً- إلى ألعاب باحة المدرسة، إلى ربيع الشباب عندما دفعت بهما نشاطات النمو إلى المستقبل حيث كان كل شيء يبدو ممكناً.

طفرة النمو

يشارك كل حجم من حجوم الجسم، سواء كان عضلياً أو هيكلياً (المعصم، الحوض، القلب، الأحشاء البطنية، الغدة الدرقية، الوجه) في طفرة النمو عند البالغ، فيما عدا الدماغ

الذي يصل إلى أقصى نموه وتمايزه قبل أن تبدأ مرحلة ماقبل البلوغ وتعقّد نمو النسيج اللمفي.

والعنصر الرئيسي الذي يستهل هذه الطفرة، عند كلا الجنسين، هو تزايد إفراز الأندروجينات الكظرية. وتؤثر على طفرة النمو أيضاً الإستروجينات الكظرية وهرمون النمو الذي تفرزه النخامي. أما نتائج التمايز الجنسي في النمو، كاتساع الكتفين، وضخامة العظام، وامتداد ربلة الساق عند الذكور، وزيادة تراكم الشحم فوق الوركين والفخذين عند الأناث، فسببها، كما يفترض، هو التستوستيرون عند الذكور والإستروجينات المبيضية عند الإناث.

وطوال مرحلة ماقبل البلوغ، يزداد حجم الخلايا والأنسجة العضلية للقلب، والمعدة، والكلى، والكبد، والطحال، والأمعاء تزداد حجماً. هذه الزيادات الحجمية ليست مثيرة، ولكنها تسهم في الإحساس الداخلي بالاعتزاز.

إن أكثر تبدلات النمو إثارة هي تلك التي تطرأ على العظام الطويلة في الساقين، والذراعين، والجذع. هذا الجانب من النمو هو الذي يظهر ويبرز كنمو شعر العانة، والخصائص الجنسية الثانوية، والأعضاء التناسلية الداخلية، والبنى الداخلية للإنجاب. فنمو العظام الطويلة مسؤول مباشرة عن الزيادة السريعة في طول القامة أثناء البلوغ. وتطلق على هذه الزيادة تسمية طفرة الطول. وطفرة الطول هذه قد تبدأ عند البنات في أي وقت بين التاسعة والنصف والرابعة عشرة، وعند الصبيان بين العاشرة والنصف والسادسة عشرة والنصف من العمر.

يعتبر عمر العظام الطويلة معياراً لحالة النمو أفضل من معيار العمر الزمني. فوفقاً لمعيار النمو الهيكلي، قد يصل بعض الأفراد إلى نهاية مرحلة البلوغ بينما يكون آخرون بالكاد دخلوا فيها. والعمر الهيكلي عند البنات أكثر سبقاً منه عند الصبيان بدءاً من الحياة الجنينية وما بعد-حتى الرشد. فعند البلوغ يكون هناك تفاوت سنتين بين الجنسين. وتعتبر البنات على امتداد مراحل الرضاعة، والطفولة، والمراهقة، أكثر سبقاً من الصبيان في العمر النمائي وفي النضج الجسدي. فهن يسبقن الصبيان في النضج الجسدي. وتنتهي طفرة الطول عندهن قبلهم بسنتين تقريباً، كما يكتمل تمايز الخصائص الجنسية عندهن قبلهم بسنة أو سنتين. ولكن فترة النمو عند الصبيان أطول منها عند البنات، وهم عند نهاية البلوغ عادة أطول قامة منهن.

سياق طفرة الطول هو نفسه عند كلا الجنسين. يصل طول الساقين أولاً إلى ذروته، يليه اتساع الورك وعرض الصدر. أما طول الجذع وعمق الصدر فآخر المستعجلين. وتنضج عظام القدم قبل ربلة الساق أو الفخذ. ويبلغ الزند أقصى سرعته قبل ستة أشهر تقريباً من العضد. هناك مقومان رئيسيان للقامة هما طول الساقين وطول الجذع. فبينما يكون طول الساقين أثناء الطفولة مسؤولاً عن معظم الزيادات في القامة، فإن طفرة القامة أثناء البلوغ تعزى بالدرجة الأولى إلى السرعة في نمو الجذع. وتنعكس النسبة الطفولية لطول الساقين إلى الجذع أثناء المرحلة الأولى من البلوغ.

لايتوقف النمو بعد البلوغ في أجزاء الهيكل العظمي، أو الفك والوجه، أو بعض الفقرات. ولكن المشاشات، أو نهايات الأطراف في العظام الطويلة سوف تنغلق كلياً، وبعدئذٍ لايمكن لتلك العظام أن تتابع النمو أبداً.

لاتلتحم العظام الطويلة في وقت واحد، بل ضمن سياق معين. وأول المشاشات التي تنغلق هو المرفق. وتنغلق مشاشات الركبة بعد سنة أو سنتين، ويكون ذلك في السابعة عشرة عند الأشخاص المبكري النضج وليس قبل الرابعة والعشرين من العمر عند الأشخاص المتأخري النضج. وآخر المشاشات التحاماً-بعد عدة سنوات من اكتمال معظم العظام الطويلة الأخرى-هي نهاية الخط الناصف لعظم الترقوة. ويظن أن طفرة الطول تتوقف عند الصبيان في حدود الثامنة عشرة وعند البنات في حدود السادسة عشرة من العمر، ولا تزداد القامة بعد ذلك إلا بحدود 2%.

وانغلاق الأكثرية الساحقة من العظام الطويلة يعني عادة انتهاء مرحلة البلوغ. وقد تم تحديد السياق الدقيق لانغلاق المشاشات عن طريق تحليل الهيكل العظمي للجنود الأمريكان بين السابعة عشرة والثامنة والعشرين من العمر من الذين كانوا قتلوا في الحرب.

بما أن أكثر الراشدين ينسون العواطف المؤلمة التي ترافق وصولهم إلى سن الرشد، لذلك يميلون إلى تصور سنوات المراهق متخمة بالنفعية. فهم يرون أن أمام المراهق إمكانيات غير محدودة لتأسيس علاقات الحب، والصداقات، واهتمامات الرقص، والموسيقا، والملابس، والتعلم، والعمل. ولكنهم لايدركون دائماً لماذا تبرهن العلاقات الجديدة في الحب

والصداقة، والاهتمامات العاطفية الجديدة بأنها غير مستقرة، وعابرة، ومخيبة بشكل يحطم القلب.

يبحث المراهق باستمرار عن صيغ جديدة للحب، لكنه يبقى مرتبطاً بالماضي، وسيحاول حتماً تحويل الخبرات الجديدة الكامنة إلى نوع من إعادة تمثيل الماضي إنما بشكل متنكر. وغالباً مايكون أول أحبابه شبيهاً بالأب أو الأخ في بعض الجوانب. وكثيراً مايمثل مع أنداده دوراً يهدف إلى تقويم الإهانة الطفولية. وفي الرقص أو الموسيقا، يستعيد موقتاً نشوته العاطفية وابتهاجه لأنه كان طفلا محبوباً لدرجة العبادة في مركز العالم. وعلى الرغم من نجاح هذه الخبرات، بالاشتراك مع محاولة الاحتفاظ بالقديم تحت ستار الحديث، في تحويل الجوع الجنسي والطاقات العدوانية إلى خارج الأسرة، فإنها تنتهي بعد أن تكون قد استنزفت المراهق عاطفياً. وهكذا تكون خيبة الأمل عميقة.

ويصبح العالم الخارجي، على مدى فترات من الزمن، خلواً من مفاتنه وملاهيه القديمة. فلايمكن استثماره بالرغبة. وعندما لايكون هناك مكان تتجه الرغبة إليه، ولا شخص آخر ينصب الحب عليه، ولا إمكانية لتحويل الجوع الجنسي إلى صداقة أو نشاط، عندئذٍ تسيطر الأمزجة الكئيبة ومشاعر القنوط. يخالج المراهق أحياناً إحساس غامض بالخسارة، يليه حزن لم يعرف لشدته مثيلاً في أي وقت خلال حياته الماضية. زد على ذلك، أنه عندما يؤجل الليبيدو، لعدم وجود شخص يرتبط به، فإن الخوف من فقدان المحاورة قد يكون ساحقاً بالنسبة له. هذا النوع من القلق يشبه الارتداد إلى الصفة العدمية في الشهور الأولى من مرحلة الرضاعة.

وما الأمزجة الكئيبة، والتفاعلات الحزينة، وحالات القلق العميق، التي هي نموذجية جداً بالنسبة لمرحلة المراهقة، سوى تظاهرات للنضال الداخلي في سبيل التخلي عن الماضي وفي الوقت ذاته لعدم السماح له أبداً بالارتحال. وكتعبير عن هذا النضال، تظهر إلى حيز الوجود عاطفة جديدة تتسم بالمرارة والحلاوة. يمكن للطفل أثناء المراهقة أن يجرب لأول مرة الحنين إلى الماضي الضائع و الإحساس بـ لاعكوسية الزمن. فما كان موجوداً فيما مضى قد ارتحل. ولا يمكن استرجاعه، إلا في الذاكرة.

يصبو الطفل الصغير إلى الماضي، حتى لو كان رضيعاً. فالرضيع عندما يتوق إلى أم غائبة، فإنه يركز عواطفه داخلياً. ويحاول استعادة أحاسيسه بالسعادة والأمان، والصفاء، والنعيم، والكمال، والانسجام، في العالم المفقود للأحدية-الحب، حيث كان وجود الأم في

كل مكان. يدعى هذا المزاج الداخلي الذي يسود في الرضاعة بـ "الكبت". فهـو يشـبه حنيـن المراهق إلى الماضي. ولكن الرضيع لايعتبر الماضي مفقوداً لايرد.

وبعد بضع سنوات، عندما يصبح بمقدور معظم الأطفال أن يتقدموا بدون أم على فترات زمنية أطول، فإنهم يرتاحون أيضاً بما يكفي لفكرة أنهم يمكنهم العودة إلى أيام الرضاعة. وهم كثيراً ماينتحبون، ويتشبثون، ويَحْبُون على أربع، ويمصون الإبهام، وتعتريهم نوبات غاضبة، ويسعون للفت الأنظار، ويتبولون أثناء النوم. في هذا يمكن استعادة الماضي. كما تصبح مقولة لاعكوسية الزمن غير صحيحة.

ولكون الأطفال في عمر المدرسة أكثر وعياً وانضباطاً، فإنهم يرفضون عن وعي كل مايتعلق بحياة الرضيع. ويتخلون عن عواطف مرحلة الرضاعة ويمارسون كل مابوسعهم لترك الماضي وراءهم. ويساعد طفل الكمون على مقاومة الماضي اعتزازُه بالمنجزات الجديدة والقدرة على اصطفاء الأصدقاء من خارج الأسرة. مع ذلك، تواصل هذه الأشواق التعبير عن نفسها عن طريق الألعاب في باحة المدرسة، حيث يمكن للحياة أن تتجدد مع كل شوط جديد، وفي الحياة الرومانسية السرية التي تعيد أحباب الماضي إلى وضعهم السابق. وهنا مايزال الزمن عكوساً؛ فهاهو الماضي يمكن استحضاره ومراجعته.

لايمكن للمراهق أن يضع تقييماً ناضجاً لتوقه إلى الماضي مقترناً بقناعة عدم عودته ثانية إلا بعد أن يكون قد أحس تماماً بما خلّفه وراءه. فالشابّة لاتدرك عمق معاني حنينها إلى الماضي. ولا تستوعب أن استحضارها له يتصل بمرحلة الرضاعة والترجمات الطفولية لذاتها ولوالديها.

تمتد جذور الفكرة التي تفيد بأن مرحلة الرضاعة هي العصر الذهبي بالنسبة للنوع الإنساني إلى حنين المراهق إلى الماضي. فالمراهقون خصوصاً، لابل وكثير من الراشدين أيضاً، يتخيلون بشكل دائم أن سنوات الرضاعة كانت نقية وبريئة. ومهما كانت تلك المرحلة مخيفة أو مهينة أحياناً، فإننا نتوهم أنها كانت رائعة في معظمها.

يصعب على المراهق خلال سنوات مراهقته أن يتحمل الفجيعة والحزن. لذلك يلجأ إلى بعث الذكريات السارة والمبهجة من ماضيه الطفولي لتخفيف خيبات حاضره. فالمنافسة والحسد العائليين اللذين يستفيقان عن طريق عواطف المراهق تحجبهما ذكرياته حول أنه كان فيما مضى رضيعاً أو طفلاً كاملاً ومستهاماً به تماماً. وفي مزاجه التواق إلى الماضي، تستفيق رومانسيات الرضاعة، لاالإحباطات والهزائم. ويصوغها كتّاب الرومانس الراشدون

على أنها "الجنة تمتد حولنا في طفولتنا الأولى"، أو أن الطفولة الأولى كانت "الطرق العامة الميسرة حيثما ذهبت/ولا يمكنني المجيء من جديد".

الحنين إلى الماضي يخفف الحزن، لإنه ينتزع حُمَّة الإحساس بالخسارة. والحزن يصيب الروح بالجدب، فيعمل الحنين إلىالماضي على إخصابها. تذكرنا دموعنا الصامتة بفقدان البراءة. ومجرد التفكير في جودة الماضي، يولِّد إحساساً بالكفاءة الداخلية. الزمن هنا لاعكوس، ولكن جودة الماضي، تعمل الآن كدافع إلى الطموح. والحنين إلى حالة مفقودة يمكن أن يعزز الوعي الاجتماعي عند المراهق. فالحنين إلى الماضي يثير أحياناً بعض التأملات حول طريقة تحسين مصير الإنسانية. وتتحول الصور المثالية التي رسمت للماضي إلى مثاليات اجتماعية.

وتوضح الأغاني المألوفة في المراهقة معنى الفقدان حتى عندما تقتصد في حجبها لحدة الطبيعة الشخصية لذلك الفقدان. وما نسمعه هو كلمات أغنية شعبية تدور حول حب خائب:

في آب يجب أن تموت
ففي الخريف تعصف الرياح قارسة وباردة؛
وفي أيلول سأذكر
حباً كان جديداً لكنه شاخ الآن.

الصداقة الحميمة في سنوات الدراسة:

وداعاً ياروزي، ياملكة كوروتا
سأراك أنا وجوليو هناك
في باحة المدرسة.

أيام الصفاء والسرور التي كانت:

إنه زمن وياله من زمن!

كان زمن البراءة

زمن الثقة.

لابد أن يكون ذلك قد مضى منذ عهد بعيد،

لدي صورة،

أحتفظ بذكرياتك

إنها كل ماتركته لي.

* * *

كوداكروم

تعطينا تلك الألوان الناصعة اللطيفة

تعطينا خضرة فصول الصيف

تجعلك تظن بأن كل العالم

يوم مشمس

البطلات والأبطال الذين جسدوا الكمال وارتحلوا:

جو ديماغيو! إلى أين ترحل؟

فالأمة ترمقك بنظراتها المستوحشة.

الأمة التي كنا نحلم بها ثم ارتحلت:

جاؤوا جميعاً

ليبحثوا عن أمريكا

كلهم جاؤوا ليبحثوا عن أمريكا.

أتينا على متن سفينة أبحرت شهراً

دخلنا في العصر، في اللحظة الأكثر غموضاً

وغنينا لحناً أمريكياً
ولكن لابأس في ذلك؛ لابأس في ذلك
فالمرء لايمكنه أن يكون سعيداً دائماً

وبعدئذٍ، وبما أنه يصعب على المرء أن يتحمل أحياناً عبء المقارنة بين ماكان وما هو كائن، فإن الحنين إلى الماضي، مع الاتجاهات الخفية للأمور الحسنة التي يجب أن تأتي بعد، يخضع للرعب:

إننا ننجز أعمالنا بنجاح
نجمع أجرنا
ونعتقد بأننا نجري على الطريق القويم
بينما نحن في الواقع ننزلق بعيداً

* * *

كلمات الأنبياء تكتب على جدران الأنفاق
وردهات المنازل
وتُهمَس في أصوات السكون

المراهق مجدد على نطاق واسع. ولكنه كثيراً مايحزن بصمت، ويستغرق في أحلام اليقظة، ويتوق إلى الماضي الذي كان، وتدفعه كفاحاته الفعالة في سبيل التفرد دائماً إلى الأمام، إلى عالم الآخرين. ولكي يكتشف من هو فعلاً ومن ليس هو، ينهمك بحماس في اجتذاب الأصدقاء، والأحباب، والمجموعات، والأنداد. إنه يتوسع، ينفتح على بيئته، يطلب منها تلك الاستجابات التي تعزز قضيته. أما وأنه الحيوان الرئيس المتأخر، فإنه يستطيع أن يؤثر في بيئتيه، الطبيعية والاجتماعية، لابل ويمكنه أيضاً أن يبدلها بشكل جذري. وهناك ميزة أخرى، تخص الحيوان الرئيس الإنساني، هي قدرته على تغيير وسطه الداخلي- تخيلاته، رغباته، آماله، وعيه لذاته-عن طريق الاستخدام الموقت للعالم الخارجي وصياغته بحيث يستجيب لهذه التخيلات والآمال. يمكن بهذه الطريقة تبديل ومراجعة حتى أعمق الأعماق في حياتنا الداخلية، من خلال الطبقات الكثيرة لتنقيحها التراكمي.

وكلما استطاع المراهق أن يتمثل مايقدمه له العالم الخارجي ويضعه تحت تصرفه، كانت الفرص أمامه أفضل لتعديل اتجاه الباقي من حياته. وبعيداً عن المواد التي تقدمها له بيئته الاجتماعية، فإنه يكوّن بيئة ذاتية خاصة. إنه من الناحية العملية لايبدل البيئة الاجتماعية، بل يستخدمها في هذه الحالة لغرض فريد هو تبديل ذاته، لتعزيز حياته الداخلية وتحسين قضاياه العاطفية.

لايمكن عادة تفحص الحياة الداخلية عند المراهق لعدم إمكانية الوصول إليها. ولا يتهيأ لنا دائماً مأتى للوصول إلى علاقاته النامية والمتبدلة باستمرار بين حياته الداخلية وأعماله في العالم الواقعي. وما يمكننا ملاحظته هو جوعه الشديد إلى العلاقات العاطفية. ويدهشنا، وأحياناً يغيظنا، بممارساته الغريبة في تكوين أصدقائه، وأحبابه، ومعلميه، وأخواته، ووالديه، وأوثانه، وفاتناته- بانهماكه الكامل في الاستفادة من الناس الآخرين في أغراضه الخاصة.

فهو يمارس على أولئك الذين يعرفونه تأثيرات من نوع خاص. فنتفاعل معه على مدى أشهر بعفة وغيرية أكثر جرأة مما يقتضيه الحال مع أي إنسان آخر، كما لو كان قديساً. وفجأة يبدو لأسرته ولأصدقائه مسخاً كريهاً، مُجسّداً للشر. أشعث الشعر، مُشَوّه القسمات حقداً، مزمجر الصوت أجشّه. وسيفاجئنا في الأسبوع ذاته بإنقاذ أخيه الصغير من متنمرين عند زاوية الشارع. فيشرق وجه المسخ بهالة من الشجاعة والبطولة، ويبدو أنه يحملها في داخله لكي تكون كل شيء. لكنه لايمكنه أن يكوّن صورة ثابتة حول حقيقة كينونته وماهية تلك الكينونة. فيشعر في داخله بالتمزق والارتباك.

ومن حسن حظ أكثرنا وحظ المراهق، أنه يمكنه التعبير عن هذا التمزق الداخلي في الملاعب بشكل يختلف عنه في البيت أوغرفة الصف. وبما أن مجموعة الأنداد هي المقبولة أكثر عنده وهي بيئته الطبيعية، لذلك يصبح طبيعياً أيضاً أن يحاول الاستفادة إلى درجة هامة من وسط الأنداد للتعبير عن هذه المشاعر الممزقة والصور المتنافرة حول كينونته. ذلك هو واحد من الأسباب الذي يجعل بيئة مجموعة الأنداد حاسمة بالنسبة للصحة العقلية عند المراهق. فهو "يكوّن" مجموعة الأنداد وفقاً لحاجاته العاطفية الخاصة لكي يحقق تكاملاً صحياً لتجربته الذاتية. وهو لايهتم أبداً في تبديل هذه المجموعات أو تبديل العالم. فقد ينضم مثلاً إلى مجموعة تهدف إلى تعزيز قضية تحرر المرأة. ولكن المراهق الممزق أكثر اهتماماً بتحرره الذاتي. إن مجموعة الأنداد التي يكوّنها موجودة في ذهنه. فهم هم، قد

يشبهون أو لايشبهون الصور التي كوّنت لهم. وعندما نلاحظ سلوكه في هذه المجموعات، نبدأ بإدراك مايدور في داخله.

نموذجيا، يتجول المراهق بين المجموعات دون أن يشعر بالارتباط مع أي منها. فهو يرتدي في كل مجموعة قناعاً مختلفاً. ويلتمس في هذه المجموعة السلطة لكونه متفوقاً وواسع المعرفة. ويسيطر في تلك المجموعة لأنه يهاجم أكثر أعضائها ضعفاً. هنا يكون صامتاً كثير التفكير، وهناك صاخباً وممقوتاً، وفي مجموعة أخرى يزدري الآخرين ويحتقرهم. وينضم أحياناً إلى مجموعة خاصة لكي يكون هدفاً للاحتقار والهجوم. وأينما ذهب، يبدو قادراً على انتزاع نوع الاستجابات التي يحتاجها من أنداده. فهو قادر على جعل مجموعة الأنداد تستجيب له كأم أو كأب سيء تماماً، ومُخيِّب، ومُخْزٍ أو كوالد طيب تماماً يهب حباً غير مشروط، واهتماماً سليماً، ورضى شاملاً. إن غياب أي ترابط عاطفي صميمي في خبرات هذه المجموعة من الأنداد يجعل المراهق يشعر بالوحدة وبأنه معزول بقسوة عن أنواع المحاورة التي يرغب في الحصول عليها. فلا يعرف كيف يتصرف.

وأخيراً، قد تولّد هذه القوانين المميزة إحساساً أقوى بالاستمرارية والترابط. فما يقوم به المراهق هو تنقيح للماضي عن طريق إعادة تمثيله في الحاضر. فهو يُحدِثُ تغييراً في مفردات الماضي التي يجب أن تتلاشى في خلفية حياته الراشدة، كما لو أنها لم تكن موجودة إطلاقاً. هذه هي محاورات الحب في الماضي التي يمكنها أن تعوق إلى أبعد حد تقدمه إلى المستقبل.

فما حدث فعلاً في الماضي بين رضيع ووالديه في البيئة الخارجية الواقعية انتقل إلى جوانب الذات الخاصة عند الطفل، إلى وعيه، إلى خيالاته، إلى أحلام يقظته، إلى طرق تفكيره وشعوره. لقد خُلِّد عن طريق استدخاله، ليس كما حدث فعلاً بل في هذه الأشكال المختلفة من التفكير والشعور.

وخلال المراهقة، كثيراً ماتُقلَب العلاقة الديناميكية بين الحياة الداخلية والعالم الخارجي. فعن طريق إعادة استظهار بعض الجوانب من البيئة النفسية المُدْخَلَة الآن، يمكن للمراهق أن يظهر الماضي إلى العلن- ربما تظهر الأمور الآن على نحو أفضل قليلاً. ومن خلال إعادة التمثيل يحاول المراهقون، وهم غير واعين تماماً، معالجة بعض إذلالات وحرمانات مرحلة الرضاعة.

عندما يقوم مراهق بإعادة تمثيل الماضي في الحاضر، فإن أعماله لاتكون عملياً صورة طبق الأصل عن كيفية تصرفه أو تصرف والديه في الماضي بل، على الأصح، تعكس الطرق التي تمثلت فيها هذه العلاقات المبكرة في عقله. فالمراهق لايقوم بتلخيص الماضي. بل هو ملزم بالتوجه نحو إعادة التمثيل لأن شيئاً ما يتعلق بمعضلاته الشخصية كمراهق *يشبه* بعضاً من معضلاته في مرحلة الرضاعة. هذه التشابهات تثير ذلك الماضي الخالد الذي هو دائماً على استعداد للتسلل إلى الحاضر عندما يحمل رضحٌ حاليٌّ عناصرَ تتطابق مع رضح الماضي. فتستيقظ الصيغ البدائية للتفكير والشعور.

تخلِّف حتميات الحياة العقلية السوية في الطفولة إرثاً يمكن تنشيطه فيما بعد في أي مرحلة من مراحل الحياة. والتنشيط في الحاضر هو الذي يجعل صيغ الأداء *بدائية*. فالرضيع لايسلك بطريقة بدائية؛ ولا المراهق الذي يكرر تمثيل سلوك الماضي كرضيع. ولكن الجذب التراجعي الذي تمارسه محاورات الحب المبكرة يحتمل أن يثير بشكل خاص صيغاً بدائية من الأداء الوظيفي أثناء المراهقة، وذلك عندما تخضع الشخصية لمثل هذه التبدلات المثيرة والتي تكون ساحقة أحياناً. إن هيجان الخيالات والأفكار البدائية مخيف جداً بالنسبة للمراهق. لأنه يشعر في نفس اللحظة بارتباك وانسحاق أكبر من المعتاد. وهنا، ولكي يتحرر من الماضي، يجد نفسه ملزماً باللجوء إلى التعبير بالعمل أكثر من العمل الداخلي لحل معضلاته. وهنا يصبح الأصدقاء غير المشبوهين أو المخلصون الموقتون في المجموعة هم الدعائم والشخصيات في مسرحيته الدرامية التنقيحية. وبمثل هذه الطريقة الغريبة لتكرر الأدوار، يجري تنقيح بعض من الرضوح المتبقية من مرحلة الرضاعة.

واحد من هذه الرضوح الحتمية في مرحلة الرضاعة هي أزمة الانفصال، أي عندما يدرك الطفل أنه وأمه ليسا واحداً. تحتفظ الأم عادة بخبرة مترابطة عمن تكون حتى عندما يصاب رضيعها بالغيظ نتيجة الإحباط، أوبالتهيج من الانزعاجات الداخلية كالجوع أو الإثغار، أو يشعر بالإذلال عن طريق إدراكه للفصل، أو بالحزن من خلال عدم قدرته على التنبؤ بتحركات أمه المتكررة ذهاباً وإياباً، أو بارتعاشه بسبب ذلك الخوف الرهيب من فقد المحاورة. ولكن كل تجربة عاطفية غير سارة تثير عنده صورة أمٍّ هي نوع من فم عضّاض، أو شيء حاد ونافذ، أو ساحرة مفترسة، أو مسخ مزمجر. وعندما يكون راضياً بعد وجبة جيدة أو مطوقاً بدفء ذراعي أمه الناعمين ورائحتهما الطيبة أو يقوم واثقاً باكتشاف العالم من حولها، هنا، تبدو الأم كاملة الطيبة، لاتحبط أبداً، ولا تخيِّب أبداً، ولا

تقطع أبداً محاورة الحب الرائعة بالذهاب والإياب على هواها. في هذا النعيم، في لحظات البهجة، يشعر الرضيع بأنه هو بالذات رضيع كامل الطيبة، مفعم بالحب، بالكمال الذي يبعث على الغبطة.

إضافة إلى هذه التبدلات الموقتة للتجربة الذاتية الأخرى، تقدم كل صفحة من مرحلة الرضاعة تجربتها الخاصة المختلفة حول من هي الأم، من هو الأب، من هي الذات، بمختلف صفاتها المتعلقة بالحب أو بالمغزى العدائي. فصفحة ***الأحدية التكافلية*** مثلاً، تحمل معها تجربة شمولية للطيبة والثقة بالمعنى الإضافي المحتوم والعرضي للخوف والغضب. وعلى العكس، تصبح صفات الأم عدائية وسيئة كلها أثناء أزمة ***التقارب***، عندما يُجبَر الرضيع على أن يضع في حسابه الحقيقة المحتومة لانفصاله عن أمه. فالمخاوف من الانفصال تعزز الميل الطفولي إلى رؤية الوالد والداً مختلفاً، وذلك اعتماداً على ماإذا كان يشبع رغبته أو يحبطها. والأم التي تفهم تماماً وتُشبِع هي طيبة كلياً. والأم التي تسيء فهم الرغبات أو تحبطها من نواح أخرى هي أم سيئة كلياً وعدائية. ويُنظَر إلى الأب أثناء أزمة الانفصال كفارس إنقاذ في درع لامع، وأحياناً كعصبة الساحر الشيطانية، وفي أحيان أُخرى كنذل خسيس يتطفل على محاورة الحب بينه وبين أمه ويخرّبها. أضف إلى ذلك، أنه عندما يصل إدراك الطفل للانفصال إلى أوجه، تجعله استجاباته الغاضبة، والهيوجة، والمذلّة، والمحزنة، والمرتعشة يشعر بأنه طفل سيء إجمالاً ويمكنه أن يدمر العالم وكل شيء فيه.

وعندما تنتهي أزمة الانفصال إلى حل، يكتسب الطفل القدرة على الاحتفاظ بصورة مناسبة عن نفسه، وهي صورة مستقلة نسبياً عن حالاته العاطفية المتغيرة. وبصورة مماثلة، يكون قادراً في أغلب الوقت على الاحتفاظ بصورة إيجابية لأمه أو أبيه ككائن إنساني كامل يحبه ويعجب به. يتضاءل الانقسام إلى طيب كلياً/سيء كلياً بصورة كافية تسمح للطفل بدخول المرحلة النهائية من طفولته المبكرة وهو يحمل صورة راسخة كثيراً أو قليلاً حول من هو ومن والداه. وفي الوقت الذي يفترض فيه أن يضع في حسابه إهانات ومعضلات المثلث الأوديبي، تكون قد تقلصت أهمية محاورات الحب الثنائية السابقة في الطفولة. وتصبح مجرد حبكات ثانوية، حوارات بسيطة في مسرحية أوديبية أكثر تعقيداً. سوف تساهم المحاوَرات الثنائية في الصفة العاطفية للاندماجات الأكثر تقدماً عند الطفل ذي السنوات الخمس مع والديه وفي طبيعة وقوة الأنا العليا عنده. ولكن حل المثلث الأوديبي

الطفولي يُحْدِث *صياغة* لكامل تجربة الطفولة، صياغة تخلد كل محاورات الحب في الطفولة وتمد شخصية الطفل بحس الترابط والوحدة.

يشكل حس الترابط هذا تهديداً أثناء المراهقة. فالحاجة إلى الانتقال تُحْدِث حتماً درجة ما من النقض لصياغة الحلول الأوديبية، التي تقوم بدورها بتجديد نشاط الآليات "الانقسامية" للفترة الطفولية. والانقسام مغاير تماماً للميول الطبيعية عند المراهقة نحو استقطاب العالم إلى صالح وطالح، إلى مواقفها التي لاتلين، وعدم تحملها لكفاءة أو إئتلاف الأضداد. ولكي تتكيف مع تبدل جسمها وتتعامل مع رغباتها، تميل إلى اعتبار نفسها وكل شخص آخر إما جميلاً أو قبيحاً، مثيراً أو مملاً، غبياً أو ألمعياً، كريماً أو بخيلاً، ودوداً أو عدائياً. هذه المواقف هي مظاهر للاستراتيجيات الدفاعية التي ترافق الإقصاء. وعلى عكس هذه المواقف التي يمكن توقعها من المراهقة، والتي قد تكون مزعجة لبقية الناس ولكنها مريحة لها، فإن إرجاع الانقسام يؤدي إلى ترددات عنيفة في الطريقة التي تَخْبُرُها بنفسها- تشظٍّ مخيف يدفعها إلى التوجه نحو الخارج. فتعمل على ملاءمة الصور الممزقة لها ولوالديها وانتزاعها من الآخرين أيضاً، وهي صور لم يكن بالإمكان صياغتها على نحو مناسب في ذروة الفترة الطفولية.

يحق لنا أن نتوقع تفاقم الميل لنقض التركيب أثناء المراهقة إذا لُوِّثَت المراحل الأولى من الطفولة بافتئات عدواني شديد، أو عدوان فرداني بسيط جداً، أو حركة تقدمية غير منتظمة للمحاورات اللبيدية (قبل أن تتاح الفرصة للرضيع لكي يتمتع بتجربة الأحدية يجابه بمعضلة الفصل)، أو خصوصيات مميزة في السياقات الناضجة للجلوس، والحبو، والمشي، والكلام، أو توقيت غير ملائم أو تشديد مفرط على الفطام والتدريب على ارتياد المرحاض، أوتعرض شديد للاختلافات التشريحية بين الجنسين، أو الإغراء الجنسي من أي نوع.

ولكن حتى لو كانت مرحلة الرضاعة أكثر أريحية، فلا بد لها من أن تترك ثمالات من الكرب الطفولي التي ستندفع بقوة إلى الواجهة أثناء المراهقة. والمراهقة فرصة لتخفيف الأضرار الطفولية. أو يمكن أن يؤدي الجذب الرجوعي الاستثنائي لهذه الرضوح إلى إغلاق مبكر -هروب، انسحاب سريع، استسلام عاطفي، ذُهان، انتحار. يقضي بعض الراشدين حياتهم وهم يحاولون تصحيح الماضي. فمن المألوف أن تفتح الحيوية عند المراهق بنى الماضي وتشق الطريق لمزيد من التراكيب المترابطة.

إلى جانب تصرفاتها الغريبة مع رفيقاتها، تنهمك المراهقة العادية بعلاقات رفاقية أكثر صميمية، وهي علاقات اعتدنا أن نعتبرها ميزة خاصة بالمراهقة. فهي تتخذ عادة صديقة خاصة أو صديقتين تشاطرهما عواطفها، وأسرارها، ومخاوفها. وبعد ذلك يأتي الغرباء الذين تعتبرهم، هي ورفيقاتها، أغبياء، وضعاء، ومعادين، وبشعين. وتنتمي أيضاً إلى مجموعة من المدرسة أو من الجوار تعتبرها كجماعة أنداد لها قاعدتها البيت؛ فهي تعتمد على وجودها هناك دائماً، وخصوصاً عند عودتها من رحلتها الموحشة إلى الماضي الجيد تماماً، السيء تماماً. ونادراً ماسوف تذكر خلال حياتها اللاحقة أي شيء إطلاقاً من تلك التصرفات-لاسلوكياتها القديمة ولا ردود الفعل التي أثارتها. إن هذه العلاقات الجماعية الزائفة والموقتة سوف تتأصل في الشخصية المتبدلة والأكثر تماسكاً التي ستصبح عليها الفتاة فيما بعد. وعلى عكس ذلك، سيبقى أصدقاؤها الحقيقيون ومجموعتها المنزلية معززين دائماً بسبب العلاقات المهمة التي ساعدتها على أن تصبح في وضع أفضل من الوضع الذي كانت عليه. ولذلك تعمل على تخليد تلك العلاقات في الشخصية المتبدلة، والأكثر تماسكاً التي ستكون عليها في نهاية المطاف. وتعمل أيضاً على تخليدها في ذاكرتها.

ولكن حلبة التمثيل تختفي فور تأديتها لغرضها. ويثبت أن تلك الأدوار إنما هي أدوار مؤقتة، فإذا مانجحت في إعادة ترتيب الأولويات العاطفية لمحاورات الحب الثنائية والأوديبية، فإنها سوف لاتنتقل إلى حياة الراشد. والمحاورات تُنقَل ولا تُطمَس. وما يبقى من الأسطورة الطفولية هي الصياغة الصحية والأكثر تقدماً. ويغدو الأمر كما لو أن الحلول النفسية للطفولة الإنسانية تُرِكَت في حالة عدم اكتمال بحيث قد يخلّف التنقيح الذي يمارسه المراهق طابعه على الصيغة الراشدة. يحتاج تواصل الأجيال عند النوع الإنساني إلى ارتباط متين ومطوّل بين الوالد والطفل. وعند بلوغ النضج الجنسي، يجب حلحلة هذه الأربطة بشكل يتيح للمراهق أن يغادر عش الأسرة ليصبح عضواً راشداً في المجتمع بشكل عام. فبقاء الحضارة على قيد الحياة يقتضي، إضافة إلى ذلك، المحافظة على ماتم تعلّمه أثناء مرحلتي الرضاعة والطفولة ونقله إلى الجيل التالي.

والحقيقة، إن محاورات الحب الطفولية لاتضيع تماماً. لكنها كثيراً ماتُنقَل، وتستمر في ممارسة تاثيرها على الحاضر، الذي ينعكس في تلك الرغبة الأساسية الثابتة بالاحتفاظ بروابط الطفولة. ويمكن للمراهقة أن تحرر الفرد لكي يشارك بشكل كامل في معرفة وتجربة جديدتين. ويمكنها أن تحرر الراشد لكي يواصل سعيه الجاد في سبيل إمكانية

الكمال الإنساني. وما نتطلع إليه عند انتهاء انتقال المراهق هو أن لايستهلك الراشد جزء كبيراً من حياته في إعادة تمثيل الماضي وتكراره في الحاضر.

ولكن هناك، عند كل منا، تلك الأضرار التي لايمكن إصلاحها والإهانات التي تستمر وتتسلل إلى وجود الراشد. فقد تصبح هي بذور اليأس، فيما يخص تلك التكرارات الرتيبة لإيذاء الآخرين وبالتالي لإيذاء انفسنا. أو، كما يحدث غالباً، قد تكون الرضوض المتخلفة حافزاً للتجديد والتغيير. وبما أن العواطف القديمة تشق طريقها عنوة إلى الحاضر، فإن الفرصة تبقى متاحة أمامنا لإعادة كتابة النصوص، وإدخال بضع شخصيات جديدة، والتخلص من صفة أو صفتين، وقد نلجأ إلى تبديل النهاية أيضاً، ونحرر الحبيب والمهرج في داخل كل منا.

7

الجسر
بين محاورات الحب والنرجسية
حب الوالد من الجنس نفسه

تستلزِم المراهقة توسع العواطف العائلية إلى تلك العواطف الجنسية والأخلاقية التي تربط الأفراد بوحدات عائلية جديدة، وتجمعاتهم الاجتماعية، ونوعهم. وعندما يُخيَّر المراهقون بين الإبقاء على ارتباطهم بأسرهم بطريقة طفولية لاتناسلية وبين إثبات نشاطاتهم التناسلية والارتباط بالحياة المتقدمة، فإن معظمهم سيختار التخلي عن الماضي. سيبدأ المراهق، عاجلاً أو آجلاً، بتوجيه المكوّنات الشبقية التي كانت مركزة علىالوالد من الجنس الآخر نحو شخص مستثنى من محرم سفاح القربى. وتنقل في العملية تلك العواطف التنافسية والعدوانية التي كانت مركزة على الوالد من الجنس نفسه وتُوجَّه أيضاً إلى خارج الأسرة إلى العمل والتنافس الجنسي مع الأنداد، وإلى النشاطات الوالدية والمشاركة الاجتماعية.

ومع توسعات العاطفة العائلية التي يمكن تمييزها بدرجة أكبر تتداخل بمكر، جنباً إلى جنب، تلك التحويلات التي تنطوي على عواطف جنوسية نحو الوالد من الجنس نفسه. وفي هذا مايخص الرجولة والأنوثة أكثر مما يخص تحويل الليبيدو المتغاير الجنس. كما أن فيه مايخص العلاقة مع الوالد من الجنس نفسه أكثر بكثير من مجرد المنافسة، والغيرة، والمزاحمة. وفي الحالة السوية، تبقى المكونات الشبقية لعلاقة الطفل بالوالد من الجنس نفسه في الساحة الخلفية. وما نراه عند الطفل هو تقمص سلوك الوالد، وسماته، وميله، ومحبته، وإخلاصه، ودليلاً هاماً على رغبة نرجسية في اكتساب تلك الصفات التي يحبها

ويستحسنها عنده. ولكن في فترة ماقبل البلوغ، يواجه كل طفل معضلات تتمثل في إيجاد حل للعواطف الشبقية والنرجسية المركزة على الوالد من الجنس نفسه.

وتتمثل المسائل الحاسمة، الجنسية والأخلاقية، بالمحافظة على روابط رقيقة وعاطفية مع الوالد من الجنس نفسه، ونزع شبقية العواطف التي ترتبط به وتحويلها إلى مكان آخر، وتهذيب مانسب إليه من مثاليات رفيعة. ولكن لايمكن حل هذه القضايا بمجرد تحويل تلك التوظيفات الشبقية والنرجسية إلى علاقة مع شخص من جنس المرء ذاته مستثنى من محرم سفاح القربى. فخيارات الحب الجنوسي أيضاً لاتقوم فقط على أساس تحويل كهذا. ولابد لكافة المراهقين، أياً كان توجههم الجنسي النهائي، من مواجهة هذه القضايا. وهي جزء من مشكلة كل مراهق عند وضع خيار دائم له في حياته العشقية. فيتوجب عليه أن يتوصل إلى تفاهم مع كفاحاته الجنوسية-تلك الكفاحات التي كانت قد استيقظت أولاً في سياق الحياة الطفولية داخل الأسرة.

يتمنى الصبي الصغير أن يحصل من الأب، جنباً إلى جنب مع كفاحاته الشبقية نحو الأم ومشاعره التنافسية تجاه الأب، على المتعة الجنسية التي يتصور أن الأم تحصل عليها من الأب. ويتمنى صبي صغير أيضاً أن يقدم للأب المتعة الجنسية التي تقدمها الأم للأب. وتماماً، كما يُستَحَثُّ الصبي الصغير إلى كفاحاته الأنثوية، تُستحَثُّ البنت الصغيرة إلى كفاحاتها الذكورية. فتود لو تقدم لأمها ماتتصور أن الأب يقدمه لها وأن تحصل منها على ماتتصور أن الأب يحصل عليه منها. تولِّد هذه الرغبات بالضرورة حسداً للوالد من الجنس المقابل-الوالد المرغوب من أجل قدراته على الإشباع، والذي يتلقى النعم الجنسية المشوقة. ومن ناحية أخرى، تصان نرجسية الطفل الصغير وتُعزَّز عن طريق نسبة صفات التمجيد المثالية للوالد من الجنس نفسه. فالصبي الصغير يحب في أبيه مايريد لنفسه أن يكون عليه. والبنت الصغيرة أيضاً تحب في أمها ماتريد لنفسها أن تكون عليه.

يمكن للصبيان والبنات في الطفولة أن يتحملوا التعايش المشترك لمطالبهم الأنثوية والذكورية. ولكن النضج الجنسي يتطلب حلاً ما يكون نهائياً للهوية الجنسية. فنوع الرجل أو المرأة الذي يصبح عليه المرء واختيار الرابطة الجنسية هما مسألتان في يد القدر، ومثلهما أيضاً مسألة التوصل إلى اتفاق حاسم مع جوهر الحب النرجسي الموجّه إلى الوالد من الجنس نفسه -ذلك الوالد الذي بدأ يُنظَر إليه الآن كما هو فعلاً، وليس كإله كليّ القدرة يمكنه أن يعكس رغبة الطفل في الكمال.

وبناء على ذلك، لايعتبر قيام المراهق بتكيف جنوسي أو مغاير للجنس من القضايا الدينامية المركزية، بل تتمثل أهمية القضية في كيفية توصله إلى ذلك التكيف والتوازن النسبي بين حب الذات والقدرة على حب الآخرين. هل الشخص قادر على الالتزام بعلاقات حب دائمة؟ هل تتطلع العلاقات التي يقودها النرجسي لرؤية مايرغب المرء لنفسه أن يكون عليه منعكساً عند شخص آخر؟ هل يتمتع الشخص بطاقة جنسية وأخلاقية تؤهله لأن يكون راعياً ومشرّعاً للجيل القادم؟ وكما رأينا، فإن الجنسية الغيرية لاتعتبر ضمانة للنضج الجنسي أو الأخلاقي. ولكن التقاليد الاجتماعية توفر للراشد المتغاير الجنس إمكانية تغطية حلوله، التي هي أدنى من الحلول المناسبة، بدور اجتماعي. فالفيلسوف الذي يحرم من منصبه في الأكاديمية قد يصبح ناسكاً أو متديناً متعصباً. وقائد الجيش بدون بنيانه الاجتماعي الموسع وجيشه قد يبدو مصاباً بالهوس الزوراني. والجنوسيون، مالم تُكرِهُهم التقاليد الاجتماعية على القيام بدور المنحرف، فإنهم يضعون أيضاً عدداً من الحلول الناجحة أوالفاشلة لمحرم سفاح القربى.

وبقدر مايتعلق الأمر بالعواطف الجنوسية عند كل مراهق، تصبح المعضلات المطروحة هي: ماذا يفعل المراهق حيال الكفاحات الشبقية نحو الوالد من الجنس نفسه؟ وبالمثل، عندما يجرد الوالد إياه من الصفات المثالية، كيف يمكن المحافظة على احترام الذات الذي استُمِدّ من الصفات التي نسبت إليه؟ وماذا سيحدث لتلك الصفات المثالية التي كانت مركزة على شكل صور له؟

وتزداد هذه المعضلات تعقيداً عند ***كلا الجنسين*** عن طريق الرغبات والعواطف الشديدة التي تترافق بالانفصال-التفرد، وتلك المحاورات بين الأم والطفل التي تمارس في الذاكرة جذباً باتجاه الأشكال المبكرة من النشاط الجنسي اللاتناسلي. وكل شكل سائد تقريباً من أشكال السلوك في المراهقة موسوم بالصراع بين الاستسلام للنشاط الجنسي الطفولي والتأكيد على النشاط التناسلي. فالاستمناء مثلاً يحسِّن معرفة المراهق برغباته التناسلية والإثارة التي تؤدي إلى التفريغ التناسلي. ولكن التخيلات التي ترافق الإثارة الذاتية يمكنها أيضاً أن تعزز رغبته في أن يكون طفلاً سلبياً يُعنى به إلى الأبد. فالرغبة، كما يبدو، تعبث بالحياة أكثر مما تمارسها. يمكن تأجيل مشكلات اختيار الجنس Gender. فالمرء ليس بحاجة إلى الاضطلاع بمسؤولية "الراشد الجنسية والأخلاقية. والمشكلة الرئيسية التي تنشأ مع اختيار الحب الجنوسي، هي أن هذا الحب يتطلب دائماً شيئاً من التخلي عن النشاط

التناسلي. ففعل الحب الجنوسي يشجع بالضرورة هيمنة النشاط الجنسي الطفولي وبالتالي درجة معينة من الخضوع للماضي. وهكذا، يصعب جداً على الجنوسي أن يقاوم إغراءات التمهل في مكان مثالي للغموض التناسلي، أي العبث بالحياة أكثر من ممارستها. مع ذلك، فالاستسلام ليس أمراً حتمياً. وكما هي الحال مع أي صراع لمقاومة الماضي، فإن أي محاولة لتصحيح إهانات الطفولة ورضوحها، يمكن للسيناريوهات من خلالها أن تمثل تكراراً رتيباً لإيذاء الآخرين وإيذاء أنفسنا أو أنها يمكن أن تكون حوافز للتجديد الثقافي والطموح الأخلاقي.

وأياً كان آخر خيار للحب عند المراهقين، لابد لهم جميعاً من أن يصارعوا مساعيهم الجنوسية. وتتعقد في هذا الصراع جاذبية المحاورات بين الأم والطفل عند كل صبي وبنت. وتتسرب العواطف الجنوسية-النرجسية في علاقة البنت بأمها وفي علاقة الصبي بأبيه، دائماً عن طريق الرغبة الملحّة باستسلام المرء، جسداً وروحاً، لراعٍ سحري كلي العطاء، دائم الوجود، راعٍ سوف يعكس كل مايريد المرء أن يكون عليه. ويقاوم المراهقون والمراهقات الرغبة الملحة والمزعجة في الخضوع للماضي بكل مايملكونه من طاقة وحيوية.

فإذا كان على الصبيان والبنات أن يصبحوا رعاة ومشرعين، فما عليهم إلا أن يجدوا وسيلة للمحافظة على علاقة رقيقة وعاطفية مع الوالد من الجنس نفسه. ويتوجب تجريد النشاط الجنسي من الجانب الشهواني، وأنْسَنَة الصفات المثالية بحيث يمكن تركيزها على أطفال المرء بالذات، على الواجب، على المهنة، على المثاليات الاجتماعية والأخلاقية. إن تحويلات العواطف الجنوسية في الطفولة تؤثر على الامتداد الفردي إلى الوحدات الاجتماعية التي تمتد إلى أبعد من المجال الأسري حتى أكثر من توسع العواطف الأسرية الجنوسية المغايرة. وكما هي الحال مع أي انتشار للعاطفة من عالم إلى آخر، فإن الحادثة تبدأ بشكل مختلف للعنف.

التمهيد لمرحلة ماقبل البلوغ المذكر هو تحول عنيف عن الأنثوية. إذ يرافق الفوضى المفرطة والعدوانية الصاخبة للصبي من 11-13 من العمر نسق مزعج من الأشكال العدوانية للسلوك: تصوير مستمر لأهداف ومناظر عسكرية، تململ، قلق، لغة بذيئة، تخريب، سرقة، تنافس عصابات، مهاجمة "اللوطيين" ورموز التهديد الجنسي. يبدو الصبيان

في هذا العمر مصممين على التخلص من حب الجنس. فهم يعتبرون البنات ساحرات، ماكرات، مخادعات، غير جديرات بالثقة. ويجدون متعة بالغة في تعذيب المعلمات ومعلمي الفنون من الذكور.

إن مايخشاه الصبيان في هذه السن،(11-13 عاماً)، هو السلبية من أي نوع كانت. فعندما يتصرفون على نحو سلبي، يمكننا أن نتأكد تماماً بأن تصرفهم عمل عدواني صُمِّم لتعذيب والد أو معلم. وعندما تكون أمه على عجلة من أمرها لتصطحب الأطفال الصغار إلى المدرسة وهي في طريقها إلى العمل، يصاب الصبي بعجز مفاجيء يمنعه حتى عن ربط شريط حذائه. وبينما يقوم المعلم بشرح وظيفة فاتته، يقابله بالتثاؤب، والتحديق الحالم، والنظر عبر النافذة. وما يفجر المخاوف عنده هو أنه لايذكر سوى أنه عالة، أو إغراء الاستسلام للمداعبة، والولوع، والتحبب، والعواطف الرقيقة. النزوع إلى الأذى في أحسن الأحوال، والعنف في أكثرها سوءاً هما الوسيلة التي يعلن بواسطتها الصبي ذكوريته. وسيكون كل شيء على مايرام إذا لم تتطاول تلك الذكورية إلى احتبال البنات والنساء، اللائي يعتبر وجودهن بالذات تهديداً دائماً للرجولة.

في هذا العمر، وعلى نقيض السنوات الأخيرة من البلوغ الحقيقي، يقيم الصبيان البالغون علاقات دمثة، وهادئة مع الآباء. فالوالد حليف، ورفيق ثائر على الأم، التي هي بصراحة وبساطة كلبة نزاعة إلى الاستبداد. وبما أن الأم كثيراً جداً ماتعذب وتثار من قبل ابنها، فإنها قد تتحول، في تصور ابنها، إلى شيطان نصف مجنون. وتمر أوقات قد تغضب فيها الأم من التحالف بين الأب والابن. ويقلقها إدراكها بأن "ابنها الصغير" أصبح على أبواب الرجولة لما ينطوي عليه هذا التحول من مغامرة وجنوح. ولكن الأب، والمعلمين الذكور، ورجال الشرطة أيضاً الذين قد يظهرون أحياناً على مدخل المنزل، يتبادلون الغمزات المتساهلة للرابطة الذكرية: "الأولاد هم الأولاد".

السيناريو المستبطن لهذه المقدمة للبلوغ المذكر هو الفرار اليائس الذي يباشره الصبي من الأم الراعية في الطفولة، الأم المعبودة والمقتدرة التي كانت أول من داعب جسده، ورعته، وهدهدته، وعلمته ماذا وكيف ومتى يأكل، ونظمت وقت ومكان تبوله وتغوطه، وبدا وكأنها تمتلك جسده، وعقله، وروحه. وما يبعث على السخرية ألا تكون التبدلات الفيزيائية التي تطرأ في البلوغ المبكر مطمئنة إجمالاً للصبي. فبالمقارنة مع البنات من العمر نفسه، يكون الصبيان في الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة من العمر غالباً أقصر،

وأقل نمواً من الناحية الجسدية، وأقل تفوقاً من الناحية الأكاديمية. وتعذبهم خيالات لاواعية بأنه من المناسب إلى حد ما أن يكون للمرء أثداء وأطفال رضّع، وهي خيالات مرتبطة بزيادة إحساسهم بالدونية مقارنة بالجنس "الأضعف"، الذي يحمل في الواقع هذه الصفات التي هي موضع حسد. وما يزيد الطين بلة، أن المنطقة التناسلية في الفترة ماقبل البلوغ ترمز إلى ثديي الأنثى، كما أن الخصى هي المنطقة التي ينمو فيها الصبيان على نحو أكثر إثارة وحيوية.

تزداد الخصيتان حجماً من 4 غ في التاسعة إلى 17 غ في الرابعة عشرة وإلى 20 غ في السابعة عشرة من العمر. والآن، هاهما الخصيتان تنموان، والقضيب يصبح أكبر قليلاً، وأحياناً ينتصب بشكل لاتمكن السيطرة عليه، مع مايرافق ذلك من قذف منوي غامض، وبضع شعرات عانيّة أيضاً وتَهَضُّبٍ ثديي صغير لكنه مزعج، فيشعر الصبي بضرورة حشد ثروته العضلية لتفادي الاستسلام العاطفي الذي يوازي الأنوثة بالنسبة له. وأي استسلام يعادل تماماً صيرورته رضيعاً سلبياً منفتحاً وهو يرغب سراً لو يكون ذلك الرضيع. والإصرار الصاخب على كونه رجل الرجال هو تعبئة ضخمة، دفاع شامل بضربة أولى وقائية تقوم بها ذكورية الصبي التي ماتزال هشة وبدائية فحسب. فالتصرفات الإظهارية في التعرض للخطر -الجرىء بوقاحة ومنطق امسك بي في العراء إذا أمكنك- هي إشهار للذكورة: "يمكنني أن أفعل أي شيء. لاشيء يمكن أن يحدث لي. جسمي منيع على الأذى".

خلال هذه المرحلة، يصل إلى الذروة في خلع الصفات المثالية على أبيه، وبالتالي ينجح في رفض كل شيء حوله يمكن أن يكون مناقضاً لصورة الرجل القوي والمقتدر. وقد يبدو الأب عند كافة الآخرين صنفاً مختلفاً للرجل، الرجل الذي يخضع لزوجته والريّس الذي يشبه جباناً خانعاً. ولكنه عند الابن، هو الأفضل والأعظم. وفيما بعد، من الخامسة عشرة تقريباً إلى السابعة عشرة، عندما يبدأ الحط من قدر الأب، سيتحول إلى هذا الأب كثير من عدوان الصبي الذي كان موجهاً إلى الأم وبيئة الرعاية عموماً-بما فيها المباني، والأنفاق، والآثار العامة، والمتنزهات. فيتنافس الأب والابن على المكشوف. وتكتسب المنافسة والغيرة زخمهما عند كلا الجانبين. في هذا الوقت، تنطوي المعاني الإضافية الشبقية للعلاقة بين الأب والابن على التهديد. فيضاعف الابن تشويه سمعة أبيه خصوصاً في تلك اللحظات حيث يمكن لبعض المشاعر أن تغريه بالحنو عليه.

وتبدأ الأم تفقد صورتها كساحرة طاغية مفترسة. ولكن أساسيات محرم سفاح القربى ستعمل على إبقاء الصبي على مسافةٍ حذرة منها. فقبل اكتمال الإقصـاء، سيواصل الصبي المراهق النظر إلى أمه بدرجة ما من الريبة والخوف. وسوف لن يدهشنا بأن تصبح علاقاته معها أكثر دفئاً ووداداً عندما يتخذ له في النهاية صديقة أو صديقتين. وعندما ينشب أحياناً بينه وبين أبيه خلاف ضار ومشادات عسيرة، فإنه قد يلجأ إلى أمه أيضاً التماساً للعزاء والتفهم.

عندما تصبح هذه الصفات الذكورية أكثر وضوحاً ويقينية، يمكن للصبي أن يبدأ بالاعتراف بأن الجنس المقابل يحمل بعض الإغراء. وعلى الرغم من استمرار نفور الصبيان من هذا الشرك الماكر، فإن البنات يصبحن بالنسبة لهم مخلوقات جذابة ومغرية. يعتصب الصبيان معاً عند أولى مقارباتهم للبنات. فهن مشاغبات ومفترسات. ولكن إله الحب الذي لايرحم أصبح الآن أكثر وداداً ورعاية. فتستحوذ على الصبي مشاعر رغبة حانية نحو بنت أحلامه. وتتحول حدة مقارباته الفظة والمبتذلة إلى مقاربة خرقاء لمغازلة متمدينة. وتتمازج العاطفة والولع مع الشهوانية الصرفة. فيُفتتَن الصبي. ويهزأ منه أصدقاؤه ويستخفون به. ولكنه يبتعد عنهم، لأنه منتصر. إنه يقوم بذلك مبتهجاً. لقد انتصر إله الحب ببطء وثقة على ضحية أخرى مستعدة. فالاستسلام يساعد موهبة الحب.

ومع أن البنات، من جانبهن، يحملن ميولاً رومانسية منذ السنوات الأولى للبلوغ وما بعد، فإن الوقت الذي يستغرقنه للتوصل إلى تفاهم مع أنوثتهن ليس أقل. فمع ظهور أولى الشعرات الناعمة وبمجرد توفر الإمكانية لاكتشاف الاندفاع في حلمتي الثديين، قد يصبح التعرض لثنائية الجنس عند البنت أقل منه عند الصبي، لكن الجذب الرجوعي إلى محاورات الحب بين الأم والطفل تشكل أيضاً تعقيداً لكلتيهما. فالبنت التي كانت كفاحاتها الأصلية في سبيل استقلالها الذاتي عن أمها أكثر إثارة، وعنفاً، ومشحونة بالنزاع، يتوجب عليها من هذه الناحية أن تكافح أكثر من الصبي. فالنزاع العاطفي في فترة المراهقة بين الأمهات وبناتهن يمكن أن يتظاهر بدرجات ضارية. والكفاح، الذي هو نتيجة للصراعات الشخصية الباطنية الفريدة، يتفاقم دائماً بالرسالة الاجتماعية الماكرة التي تتضمن أن البنات سيكنّ أحسن حالاً لو بقين أشبه بالأطفال.

ولأن إغراءات التمهل للالتصاق بالأم والتدليل والمداعبة -أي الإغراءات التي تعتبر "أنثوية" وبالتالي فهي مقبولة اجتماعياً-ماتزال حية فقد تميل البنت ابنة الرابعة عشرة من العمر إلى الفرار من الأم على نحو مفاجيء. وهناك طريقة واحدة للفرار هي الوصول إلى مرحلة اشتهاء المغاير على نحو مبكر. وكثيراً جداً مايكون الجنوح الأحداثي الأنثوي نتيجة للاتصال الجنسي غير الشرعي. إن ماتنشده البنت عند الرجل أو الصبي الذي تهرب إليه هو العناق والعناية. فهي تتخيل بأنها رضيع على الثدي. والوصال الجنسي بالقضيب والمهبل بالنسبة لها أقل أهمية من استعادة حالة الإرضاع. وتتمثل الانحرافات الأنثوية النموذجية بسرقة المعروضات، والكذب، ونشر الإشاعات، وما شابه من جرائم "سرية" ترمز إلى عمل البنت للتوفيق بين حصولها على الحب الأمومي الذي تتوق إليه وبين اشمئزازها من الحصول عليه.

إن كثيراً من البنات لايجدن حاجة إلى الفرار من أمهاتهن. لأن النشاط الجنسي عندهن لايأتي مبكراً. وتأتي جرائمهن السرية ضد الجانب الثانوي من القانون والنظام. فهن لايلحقن ضرراً بأنفسهن أو بالعالم عموماً. ولكنهن قد يحاولن بجد وثبات كبيرين، وبطرق ماكرة، أن يصبحن مثال النسوية المثيرة للغريزة الجنسية. وما يخترنه من تبرج مفرط، وتسريحات غريبة، ولباس مستهجن فاضح ليس أكثر من صور كاريكاتورية للأنوثة البالغة. فهناك نوعية منحرفة الملبس بالمقارنة مع فنونهن الخليقة بالنساء تنجح في تخويف الصبيان الذين لايحتاجون إلى الكثير لإخافتهم.

وهناك طبعاً بنات "طيبات"، بنات يشركن أمهاتهن في كافة أسرارهن، وقلما يستسلمن، هذا إن حدث، إلى إغراء العادة السرية، أو يقعن في ضيق، أو يسرقن أو يتبرجن بإفراط أبداً. إنهن صور طبق الأصل لنسخة مثالية عن الأم ، ومن المعتاد أن يبقين كذلك- يقلدنها في طريقة تسريحها لشعرها، ولباسها، وطعامها، وحديثها، ومشيتها. وتتفاخر الأم المتغطرسة "لم نكن يوماً متقاربتين كما نحن الآن". بحار المراهقين صافية وهادئة بالنسبة لهذا الثنائي المؤلف من الأم والبنت. فلا عاصفة، ولا كرب. وكل شيء يجري برفق على سطح الماء عائداً إلى البداية، لقد بدأت البنت تصبح امرأة تماماً كما هي الحال سابقاً. وسوف تبقى أمها أفضل صديقة لها حتى بعد أن تتزوج. فهي أمينة سرها وحليفتها ضد زوجها. وما من رجل يمكنه أن يعترض هذه الصداقة الحميمة بين الأم والبنت. إن كثيراً من المجتمعات التقليدية والمجموعات العرقية، التي لاينتظر من البنات فيها أن يقمن

بأكثر من مجرد تبديل هوغان عائلي بآخر، تقرر خيارات النمو إلى النسوية وتحددها، وهذا النوع من الألفة بين الأم والبنت يمكن أن ينتقل بصورة عادية إلى ذاتيهما وإلى الآخرين. وعندما تكون صيغ النسوية أكثر عدداً، فما علينا إلا أن نتوقع مزيداً من الكرب الداخلي والصراع المكشوف بين الأم والبنت، حتى في ظل تلك الصداقة الحميمة التي وصفناها آنفاً، والتي تكون أكثر عنفاً ودفاعية من الألفة الهادئة في المجتمعات التقليدية.

وفي حين يشعر الصبي قبل البلوغ بالذل من علامات الأنوثة على جسده، فإن البنت فيما بين 11-13 من عمرها ستقوم عملياً بأي شيء يمكن أن يؤكد ذكورتها. فتكون غلامية بشكل صفيق، وكأنها تحاول عن عمد تقريباً تفادي الانتقال إلى النسوية. تتشبث البنات في مرحلة ماقبل البلوغ، وبعضهن أكثر وعياً من أخريات، بمعتقد سحري حول أنه مايزال بإمكانهن أن يقررن مصيرهن إلى الذكورة أو الأنوثة. وتدرك البنت في بعض اللحظات السؤال "هل أنا صبي أم بنت؟" الذي يعذبها بالآمال الكاذبة. إن تحول البنت-الصبي المفعمة بالحيوية، المشاكسة، الـ " مخبّلة"، بين عشية وضحاها، إلى بنت، عاطفية، مكتئبة، في الخامسة عشرة من عمرها تعتني بنفسها بشكل دائم، كان قد حدث عن طريق التقويض التدريجي وغير المحسوس لأوهام الغرور النرجسي الشامل: "لاحاجة بي للصبيان. يمكنني أن أقوم بكل شيء بنفسي".

إن اعترافها بأنها ليست ممنّعة ضد *الفن الشبقي* عند الذكور يسبب بعض التفاعلات العابرة لاحتقار الذات عندها كغلامية. وتواجه توقها التناسلي بالدخول في مرحلة مبتذلة، تستخدم فيها كالصبيان كثيراً من الكلمات القذرة، وتحاكي مشيتهم المختالة، وتسريحات شعرهم الأباشية، وستراتهم الجلدية ذات الأزرار الفضية. وسرعان مايستسلم هذا الاحتجاج الذكري لإلحاح شبقها الأنثوي. ولكن على الرغم من ميلها شبه الحاسم إلى الجنس المقابل من أجل الإشباع اللبيدي، تواصل البنت، حتى بعد البلوغ، صراعها مع رغباتها في التماس العاطفي والفيزيائي مع الأم. وعندما لاتكون البنت قد صيغت بشكل ثابت إلى النسوية عن طريق طقس انتقال أو تقليد اجتماعي متميز، فإن خيارات كونها امرأة بالغة أو امرأة-بنت ملتبسة من الناحية التناسلية تبقى مفتوحة حتى يكتمل انتقالها من المراهقة-مع أن هذا الاكتمال قد يمتد أحياناً إلى مدى بعيد داخل مرحلة الرشد، وأحياناً لاينتهي.

ومع تقدم البلوغ، يحتمل أيضاً أن تعمل حساسية البنت لتأنثها التدريجي-تضخم الثديين وانتصاب حلمتيهما، استدارة الوركين والفخذين، دورات الحيض التي تنبهها إلى

"الأسرار الداخلية" لرحمها ومبيضيها-على استحضار الاشتهاء الجنوسي بدرجة مساوية لاستحضار اشتهاء المغاير. تستغرق البنت بضع سنوات لإنجاز نقل الليبدو بشكل دائم عن أمها. فإغراء الانسلال عائدة إلى حضن أمها يتربص دائماً في خلفية أفكارها وخيالاتها. وتنطوي المشاعر العدوانية التنافسية عند المرأة تجاه أمها دائماً على مزيج من التوق الشبقي الليبيدي- أحياناً لكي تكون الطفلة السلبية المعتنى بها، وأحياناً لكي تكون الحبيب النشيط الذي يشبع كافة الرغبات عند أمها.

وتبدأ نوبات من التوق تليها نوبات من الاستخفاف للتحكم في سيناريو علاقة البنت المراهقة بأمها. فافتتانها بثدييها وفخذيها يجدد توقها إلى الأم، إلى ثديي الأم، وذراعيها، وفخذيها، وحضنها، ومداعباتها التي كانت فيما مضى تشكل عناصر أقوى علاقة غرامية عرفتها حتى الآن. وفي هذا السيناريو الطفولي الذي يُبعَث الآن، كان الأب صوت القانون والنظام، الشخص الذي قام بدور المتطفل، الشخص الذي أعلن في النهاية أحقيته بالأم: "الأم لي، وليست لك. كفاك عناقاً، وتدريباً على ارتياد المرحاض، وتودداً، وسعياً لجذب نظرها. علاوة على ذلك، فأنت لاتملكين مايلزم لإرضائها. أما أنا فلدي ذلك الشيء الذي تريده أمك وهو غير متوفر لديك". والأب، الذي يبقى في ذهن البنت كرمز للقوة والسلطة، لايصبح عادة هدفاً للتشويهات الاستفزازية للسمعة التي تباشرها البنت المراهقة. وقد تعمل في مرحلة تالية من حياتها، عندما تشحنها الفكرة الحقيقية للقدرة المذكرة بحسد واستياء مريرين، على جعل بعض الرجال يدفعون ثمن الإهانات التي تعرضت لها في طفولتها. أما الآن، أثناء البلوغ، فأمها هي التي تدفع.

الأشواق الجنوسية المثلية عندما تستيقظ تماماً، هي أيضاً علامات على نبش المظالم المألوفة ضد الأم، وتأمّل عيوبها وإعطائها سجلاً بالدرجات التي حصلت عليها في الجمال، والحكمة، والقوة، والشجاعة، والعدالة، والعفة، والتعقل. إن هذه المقاييس الصارمة تعاكس الجذب الشبقي. ولكنها عن طريق الانتقاص من قدر المرأة التي كانت قد خلعت عليها في الماضي الصفات المثالية وتماثلت معها فيما بعد، تعمل البنت المراهقة على قياس ذاتها الخاصة فتعتبر نفسها تافهة وعاجزة.

وعندما تتخذ البنت صديقة خاصة لها، رفيقة تشركها في أسرارها وتخيلاتها، فإن ذلك يساعدها على التحول بعواطفها بعيداً عن أمها. ثم إن تقمص شخصية صديقة خاصة ورائعة يسهم أيضاً إلى حد بعيد في تعزيز احترام الذات عندها. وترتبط كل من البنتين

بقلب وعقل صديقتها. وتعتمد كل منهما على الأخرى في غذائها العاطفي والفكري. فهما تتشابهان لباساً، وحديثاً، وطعاماً، ومطالعة، وتدور أحلامهما وينصب عشقهما على الصبيان والأحباب أنفسهم، وعدوّهما واحد. إن نوع المرأة الذي ستصبح عليه البنت يتأثر إلى حد كبير بتقمصها شخصية هذه الصديقة. وتستمد الصداقة طاقتها من حب استطلاع الحياة الجنسية عند اليافعين. فتعملان معاً على إيجاد تفسير لمعنى التبدلات الجسدية عندهما فيما يخص النشاط الجنسي للراشدين. ويتكون معظم الأداء من العلاقات الجنسية السرية والرومانسية: تصوّر العلاقات الغرامية بين الآخرين، وإكمال المثلثات الغرامية المدبرة باللقاءات السرية، والعواطف الغريبة، والغيرة، والخيانة. وتتكون التخيلات المشتركة من مزيج من الصور العقلية المستمدة من صوابين التلفزيون، والكتب الهزلية، والمجلات النسائية، وتُقبّل بحوادث من *آنا كارنينا*، ومصير جينس غوبلن، والحنين إلى الأيام الطيبة القديمة في الطفولة. وقد تعمل البنتان على نقل الفعل إلى أرض الواقع. فتصبحان شريكتين في مثلث غرامي عن طريق التنافس في سبيل وصال وملاطفة بنت أو صبي آخر. وكثيراً ماتستمر الصداقات بعد هذه الاضطرابات الشبيهة بالاضطرابات الأوديبية. ولكن هذه العواطف قد تخرج عن السيطرة. وقد يكون انفصام الصداقة مدمراً كأي علاقة غرامية أخرى. وتكون البنت محرومة فيما بين صداقتين، والأم، كالعادة، هي التي تدفع الثمن.

واحد من أهم التحولات عن التعقيدات العاطفية للعلاقة بين الأم والبنت هو "الولوع" الصميمي للبنت بامرأة أخرى-معلمتها، مستشار مخيمها، جارتها في البيت التالي. ويمثل هذا الولوع حلاً أنثوياً عند البالغة. وللصبيان أيضاً علاقاتهم الغرامية الجنوسية، وقد ينهمكون بعمق في إضفاء الصفات المثالية على الصبيان الأكبر سناً أو على الرجال. ولكن لأسباب سنعرفها فيما بعد، لاتترافق هذه الحلول المذكرة بالحدة العاطفية التي ترافق الولوع الأنثوي.

والولوع صلة غرامية وحيدة الاتجاه. فالمرأة المبجلة التي تكون هدفاً له قد تدرك ذلك أو انها لاتدركه. ويحتمل أن تكون في آخر العشرينات أو مطلع الثلاثينات من عمرها، أي في مرحلة ما من العمر تقع بين عمر متيمتها السرية وعمر أم تلك المتيمة. وهي التي ترشد البنت في خضم البحار العاصفة. فهي تجسد البدائل الإيجابية للقيم والمواقف المنتقصة عند الأم. وتساعد البنت على تحويل عاطفتها الجنوسية إلى شغف عابر أو دائم- بشعر تنيسون، باللغة الفرنسية، بلعبة كرة القدم أو كرة السلة، بسياسات كامو، بموسيقا

فالدي، بأساليب المطبخ الأجنبي. وبذلك ترتفع العاطفة الجنوسية إلى ماهو أسمى، أي تتصعد، كما كانت. وتكتشف البنت بأن هناك تقاليد للمغازلة والزواج تختلف تماماً عن مثيلاتها في أسرتها. فيزداد خصباً واتساعاً إحساسها بمن تكون ومن يمكن أن تصبح. ومع أنه يُنظَر للمرأة الأكبر سناً كـ "شخصية حرة" فاتنة تتناقض بشكل واضح مع الحياة المنزلية التافهة وغير المهذبة التي تقودها الأم، فإنها، في دور الناصح، تتذكر غصّات مراهقتها بالذات وتلاحظ بشكل حساس الخط الفاصل بين الحرية والقيد.

ومن سوء الحظ أن لاتكون أهداف الولوع لدى المراهقة دائماً أشخاصاً حماة ورعاة. ففي الواقع، قد يتم اختيارهن، على وجه الضبط، بسبب إغراء تحفظهن وجلالهن النرجسيين. والنسوة من هذا النوع يبتهجن بالاستحمام بالأشعة الذهبية لعملية إضفاء الصفات المثالية. فيجدن في نظرة الاحترام التي توجّهها البنت المراهقة إليهن المرآة التي تعكس حاجاتهن النرجسية. وهن لسن بعيدات أبداً عن انتهاز فرصة اللجوء الموقت للبنت المعرضة للخطر للإفلات من سلطة أمها. تتوجه البنت إلى امرأة من هذا النوع التماساً لتعديل علاقتها المحبطة مع أمها وربما من أجل عدد من الإحباطات في علاقتها مع الأب أيضاً. فينشأ استخفافها بأسرتها من محاولاتها نقل رغبة الحب إلى مكان آخر. وعن طريق ارتباطها بهذه المرأة المبجلة، تحل البنت جزءاً من مشكلة النقل وتستعيد في الوقت نفسه احترام الذات الذي فقدته في تشويهاتها لسمعة الأم. ولكن الإجلال والإعجاب الاستثنائيين اللذين تنتزعهما النرجسية المحترمة يفاقم ماقد يكون مجرد توتر عاطفي عادي متوقع بين أم وابنتها المراهقة. هذه المرأة ليست حارساً للشباب. إنها تهتم فقط باستعادة قدرتها المطلقة وعظمة طفولتها الخاصة.

يمكن أن يكون للاضطراب الذي يعقب هذا التولعات العاثرة تأثيرات عميقة على خيارات الحب المستقبلية عند المراهقة، وإحساسها بالصواب والخطأ، ومثالياتها الاجتماعية. ويمكن للتقمصات الأنثوية المستمدة من الصداقات الخاصة، والتولعات، وعلاقات الحب الأخرى المغلفة بالمثاليات أن تكون مصدراً لاحتمالات جديدة أو يمكنها أن تنشط الحوارات القديمة في الطفولة.

عندما تحاول البنت التي تقمصت أثناء المراهقة شخصية المرأة النرجسية الخادمة لذاتها القيام بأدوار امرأة راشدة، فإنها قد تجد نفسها فوق منصة دوّارة على الدوام. فتتحول من علاقة غرامية مشبوبة مغلفة بالمثاليات مع رجل (أو امرأة) أناني، لامبال، ومن ثم

تعود، بعد خيبة يمكن التنبؤ بها، إلى الرجل الحاني، العاطفي، الراعي الذي يشبه أمها وأباها اللذين قدر لهما، لأنهما مجرد كائنين إنسانيين وليسا إلهين مطلقي القدرة، أن يتعرضا للذل بسبب العواطف النرجسية المطهرة. وبقدر مايتعلق الأمر بخياراتها الحقيقية بخصوص النشاط التناسلي، فإن البنت قد تكون أو لاتكون مغايرة الجنس "على نحو سوي". ولكنها في تخيلاتها ماتزال رضيعة معتمدة على الثدي. تتوقف هذه المرأة الشبيهة بالطفل دائماً، ليس في مرحلة ما من الرضاعة أو الطفولة بل في العالم الانتقالي للمراهقة. لقد نجح ولوعها في إعادة حشد الأجزاء العادية الصالحة كلياً/السيئة كلياً من الفترة الطفولية وتحويلها إلى ميول مرضيّة. سيناريو المراهقة هذا نموذج في الحياة النفسية للطريقة التي يحدد بها الحاضر الأهميةَ العاطفيةَ للماضي. وقد تكتسب القضايا الطفولية في الحاضر حدة أكبر وعلى الأغلب معان جديدة.

ستسعى المرأة–الطفلة الدائمة إلى الحصول على ترخيص من "الشخصيات الحرة" المغلفة بالمثاليات من أجل أيّ، لابل كل، كارثة جنسية وانتهاك أخلاقي. وتكون هذه الانتهاكات أحياناً بديلية فقط. فهي تنجح عن طريق المشاركة بالألق السحري للمآثر الجنسية والانحرافات الأخلاقية لحبيبها الحالي. وعندما تضمحل الفتنة–وهو ما يحدث حتماً–فإنها تبحث عن شخص عادي حنون من أفراد الأسرة لمداواة جراحها. فهي تنتظر أن تستعيد من هذا الشخص الأمان، والقيود، والمحظورات، والحماية التي سعت جاهدة إلى الإفلات منها عندما كانت مراهقة. هذه المرأة–الطفلة الأبدية لم تَنْمُ لاجنسياً ولا أخلاقياً. فمُثُلها الاجتماعية ومعاييرها الأخلاقية متقلبة وتخضع للتغيير كأشواقها الجنسية. لقد فقدت ذلك النزر اليسير من الاستقرار الحاسم بالنسبة لأي نمط من الحياة المختارة أثناء المراهقة عندما أخفقت في حل الخيوط المتشابكة لمحاورات الحب الطفولية.

باستثناء تلك المجتمعات التي يُقَنْونُ فيها طقس انتقال أو تقليد ما تقمص البنت المراهقة شخصية امرأة أسطورية مقدسة أو مجرد أم عادية، وفي أكثر المجتمعات حداثة، تترك البنت وشأنها تقريباً لتضع بنفسها حلاً لمعضلة أشواقها لأمها. وتميل التقمصات الجديدة في المراهقة إلى التذويت وتُستَمَد من صداقة أو صداقتين ومن الولوع. وتتركز هذه الحلول المؤنثة، مع أنها مبررة في التقاليد الاجتماعية، على التقمصات الشخصية، لاعلى الولاء للجماعة أو للمجتمع. وفي هذا السياق، تحظى الطقوس الأنثوية للانتقال بتأكيد مماثل.

ومن جهة أخرى، إن الرسائل التي تعطى للصبي عن محرم سفاح القربى في كل المجتمعات الإنسانية تقريباً معدة إلى حد كبير لجهة جذبه إلى الاندماج مع النظام الاجتماعي الأوسع. فيُشدَّد على الدقة في تعزيز الروابط مع الأم وعلى تأسيس الولاءات خارج نطاق الأسرة. ويشحن الصبي بضرورة التخلي عن الأساليب الطفولية. ويتواصل الخوف، حتى عند الرجال المتحررين الشفوقين والأقل شوفينية، من مصيدة الحنان لأنه توجه خفي سائد للعلاقات مع النساء. وهذا الخوف يرسخ علاقاتهم مع الرجال الآخرين.

تبدو الرابطة المذكرة وكأنها ملمح مبيّت للعلاقة العادية بين الأب والابن. فالأب والابن يتنافسان فعلاً على حب الأم ومداعباتها، ولكن الأب يصبح أيضاً حليفاً للطفل منذ الرضاعة وما بعد. ومع اعتبار الأب متطفلاً، فإنه هو البطل الذي ينقذ الصبي من العلاقة الغراميّة الثنائية المقصورة على الأم. هناك طبعاً أشكال مختلفة لهذا التحول الأمثل للحوادث. فبعض الآباء والأبناء يجدون صعوبة في سبيل الدخول في تحالف منسجم؛ فهم غير متلائمين مزاجياً، أو قد يفضل الأب أحد أطفاله على الآخر، أو قد يكون مستبداً، أومضللاً، أو ضعيفاً. وقد يكون غائباً عن الأسرة من الناحية العاطفية. وأحياناً قد يتحول الأب بأشواقه الشبقية إلى ابنه لكي يعوض فشله في زواجه. وفي هذه الحالة، لا يكون التحالف المذكر إيجابياً. فالاستغلال النرجسي هو الذي يشجع الحسد عند الصبي والخوف من النساء ويشجع رغباته السلبية الخاضعة فيما يتعلق بالأب. ولكن عندما يصل الصبي إلى المراهقة يكون التحالف عادة قوياً بما يكفي في مرحلة البلوغ لمقاومة التجريد من الصفات المثالية والحرب الأيديولوجية والمنافسات التي لاتلين. زد على ذلك أن مختلف الفرص التي تؤمنها الرابطة المذكرة تساعد الصبي على حل معضلة أشواقه الشبقية نحو أبيه.

يحدث الولوع طبعاً حتى في الرابطة المذكرة. وسوف يبقى في تصورات وتخيلات الراشد كتجسيدٍ للرجولة الكاملة، كصورة مبجلة يقارن بها الرجل دائماً عند أدنى إثارة، إنها الصورة المدجنة لأبيه. سيندب الرجل الراشد في ذاته، في فترات الأزمات العاطفية خصوصاً، ذلك الشخص المثير، الفاتن، المغري، المغامر، الجانح الذي حال دون ظهوره فقط استسلامه لتدجين الزواج والأبوة. ولكن بما أن للصبي العادي أيضاً عدداً من البدائل لكفاحاته الجنوسية، فإن الثمالات العاطفية لولوعه كمراهق تكون أكثر خضوعاً من النوع

الأنثوي. وحدة الولوع، التي تميز الولوع الأنثوي، موجهة عند المراهق فقط نحو الذكر الجنوسي. والذكر الجنوسي قد يكرس حياته في سبيل البحث عن الرجل المثالي الذي كان يحبه أثناء المراهقة.

تنطوي صداقات المراهق الذكر العادي على معان شبقية صريحة. فالاستمناء المتبادل، ومشاطرة المومسات والبنات "السيئات" المآثر الجنسية، والنشوة الصريحة في ملعب كرة السلة، والتعري وتفحص الجسم في حجرة الأدراج المقفلة، هي ممارسات مقبولة اجتماعياً لمن سيصبح رجل الرجال. وقد تقترب هذه الممارسات بشكل مخيف من الجنوسية المثلية. فإذا بدأت المكونات الجنوسية المثلية لهذه النشاطات العاطفية تكتسب زخماً، فإن الصداقة سوف تنتهي بشكل مفاجيء. وحتى بعد أن يستسلم الصبي في النهاية لـ ***الفن الشبقي*** لدى امرأة شابة ويمارس معها حياً ثابتاً إلى حين، فإنه يكافح لكي يكون رجل الرجال. مع ذلك، إن المرأة، حتى تلك التي تعلن تحررها من الرجل، هي على الأرجح دائماً امرأة الرجال[1] أكثر من كونها في أي وقت امرأة النساء[2] ومن يعتبر نفسه من بين الرجال رجل النساء[3] قليل. إن رجالاً من أمثال دون جوان وكازانوفا ليسوا استثناء، طالما أن المثل الأعلي للذكورة المفرطة هو الذي يؤجج فجورهم-"النرجسية القضيبية"، بالمعنى التقني.

تعمل الجماعات الاجتماعية المذكرة في مرحلة المراهقة، كالفريق الرياضي، أو النادي السياسي، أو النادي الاجتماعي، أو عصابة الشارع، على تأمين الحماية ضد الأب الخصاء والأم المفترسة الاستئثارية. وبالتأكيد على سيطرة القضيب، تعمل هذه المجموعات على تعزيز الاندماجات الذكرية. وتعمل أيضاً على تحييد الميول الجنوسية. والصبيان الذين يحتاجون إلى الهرب من مخاوف الخصاء والانفصال عن طريق صيرورتهم كالأم (أو الرضيع)، يستمدون الشجاعة من المجموعة لتوكيد ذكوريتهم واستقلالهم. يضاف إلى ذلك، أن الجرأة وركوب المخاطر من قبل مجموعة المراهقين هي استراتيجية مذكرة للتعامل مع المخاوف المرتبطة بالجوانب الأنثوية الغامضة والتي لم تستكشف بعد. والتمييز الواضح بين الذكورة والأنوثة الذي يُشدَّد عليه في المجموعات المذكرة يطمئن الصبيان المراهقين إلى حد بعيد.

---

[1]-المرأة التي تجمع مواصفات الرجولة من منظار المجتمع-المترجم.

[2] انظر الحاشية السابقة-المترجم

[3] انظر الحاشية السابقة-المترجم

وعلى مدى الحياة، تستمر المجموعات المذكرة من مختلف الأصناف في تأمين منافذ للدوافع الجنسية والعدوانية عند الرجال إضافة إلى بدائل للصور المثالية التي كانت تُركّز على الأب. وعن طريق تركيز تلك الصور المثالية على المجموعة، يخفف الرجل، إذا جاز التعبير، أشواقه وأمجاده الجنوسية بين عدد أكبر من الأشخاص وبذلك يعمل على إضفاء الموضوعية عليها. وهذا هو السبب الوحيد الذي يجعل المثاليات الاجتماعية عند الرجال أكثر تجريداً مما هي عليه عند النساء. تشجع التقاليد الاجتماعية النساء على توظيف مثلهن العليا في العلاقات الشخصية والأسرية، بينما يحظى الصبيان بالاستحسان الاجتماعي عندما يوظفون طاقاتهم في المجموعات خارج الأسرة.

تملأ الولاءات للمجموعة ومثُلها الفراغ الذي يخلفه تجريد الأب من الصفات المثالية. فاحترام القائد والانقياد لمثالياته وقيمه، التي هي معايير وعلامات امتياز للمجموعة بالكامل، يساعدان الرجل على تحويل حبه لأبيه إلى حب للمجموعة. وتعمل الرابطة الذكرية على تحويل اتجاه التيارات الجنوسية. ولكن قد يكون تأثير الرباط المذكر ذاته ضئيلاً جداً على أسلوب ترويض الضمير. فقد يكون الرجل مجرد خاضع، وخائف، ومستهام بشكل مطلق، وطفولي في علاقته بالمجموعة أو قائداً كما كـان فيما مضى مع أبيه. ومع أن الولاءات للمجموعة تنطوي على شكل من الرابطة الاجتماعية، فإنها كثيراً ماتتخذ أشكالاً دينية، أو عسكرية، أو سياسية، أو اقتصادية ينشطها *احترام الذات*. الاقطاعية، والفروسية، والمسيحية، والحياة المشتركة، والانضمام إلى المؤسسات المهنية-كلها تستخدم تلك التقاليد التي تدعم المصلحة الذاتية عند الذكور: الغرور والكبرياء الفارغين. يقارن الرجل نفسه بالآخرين في المجموعة. ومن أفضلية موقعه الجيد فيها، قد يكتشف بأنه أفضل من أولئك الذين هم خارجها، وهذا بدوره يحثه على الالتزام بمثالياتها. قد يشعر عضو المجموعة بالحسد والغيرة تجاه من هم أعلى منه في التسلسل الهرمي، ولكنه يوازن هذا الإذلال الكامن بإحساس الازدراء نحو من هم دونه أو من هم خارج المجموعة.

عندما يكون *احترام الذات* عاطفة هادية للولاءات في مجموعة الرجل، فإن مثالياته قد تكون طفولية على نحو مبالغ فيه كما هي حاله عندما كان يعتبر والديه المصدر الوحيد للحب والحماية. وصحيح أن الرجل يرتبط بإخوانه من خلال اندماجهم المشترك بقيم المجموعة ومصالحها. ولكن إذا وقع أحد الإخوة في الخطيئة عن طريق قيامه بعمل ينطوي

على سوء التقدير، فإنه سوف يقاسي من مصير كمصير والد تم تجريده من الصفات المثالية.

في تلك الناحية، قد تتمتع المرأة بميزة أخلاقية على الرغم من عدم تمتعها بفائدة الولاءات الجماعية الأوسع التي قد تساعدها على عدم تذويت مطالبها الجنوسية وتصعيدها. وقد تعمل مشاغلها العاطفية المشبوبة، الشخصية والبيتية، على تنشيط تلك الحساسيات الحانية التي هي السمة المميزة للمثاليات الأخلاقية. ولكن هذا يحدث فقط في حال قيام المرأة بتعديل المثاليات التي تقيس نفسها والآخرين بها بنسب إنسانية.

إن تحويل الأشواق الجنوسية للوالد من الجنس نفسه نحو أشخاص آخرين ونحو المجموعة الاجتماعية الأوسع في شكلها اللاشبقي المُصَعَّد، يمثل مظهراً واحداً فقط لتهذيب الضمير. والمظهر الآخر يترتب عليه مصير الصفات المثالية التي رُكِّزَت على ذلك الوالد-العناصر النرجسية لعلاقة الحب بين البنت والأم، والابن والأب.

واستمرارنا في قياس أنفسنا والآخرين بمعايير صارمة للكمال، تلك المعايير التي هي من بقايا ضميرنا القديم، يؤدي إلى محاولات محمومة نحو تمجيد الذات وتفخيمها. وعندما يكون *احترام الذات* هو المحرك الرئيسي في مجموعتنا، العائلية أو المتضامنة، حينئذٍ نكون نحن تلك النفوس الممزقة التي تحدث عنها روسو. إن تمزقنا بين عواطفنا الشخصية وواجباتنا الأخلاقية، لايجعلنا صادقين مع أنفسنا ولا مع مواطنينا. "بتجرجرنا إلى أمام في مسالك مضادة بالطبيعة والرجال، ونحن مجبرون على توزيع أنفسنا بين هذه الدوافع المختلفة، إنما نتبع دافعاً مركباً لايؤدي إلى هذا الهدف أو ذاك. وكذلك في الصراع والترحل أثناء المسيرة الكاملة لحياتنا، فإننا ننهي تلك المسيرة بدون أن نقدم شيئاً صالحاً لاأنفسنا ولا للآخرين". عندما لانسيطر على مثالياتنا، فإنها هي التي تسيطر علينا. فنخدم بخنوع أياً كان أو أي شيء يبشر بترقيتنا إلى موقع أعلى من موقع جارنا.

وعندما نروض تلك المثاليات، فإننا لانتخلص من الوهم أو من آمالنا في سبيل الكمال الإنساني، بل نكتسب رؤية موسعة لما يعنيه كون المرء إنساناً. ونكتشف أنه لايجب أن نكون قديسين أو أبطالاً لكي نكون مخلصين لمثالياتنا. ونكتشف أيضاً بأنه مامن أحد منا يمكن أن يستثنى من العذابات التي يعاني منها الآخرون. فنرى في مأزقنا الأخلاقي الخاص مأزق النوع البشري بأجمعه. ومن جديد يتوصل روسو إلى وجهة النظر: " ماالكرم،

ماالرحمة، ماالإنسانية، إذا لم تُطَبَق عملياً على الضعيف، أو المذنب، أو النوع الإنساني بشكل عام؟"

وداروين، مع إدراكه الكامل لتطور النوع الإنساني، فكر أيضاً بتقييم تقدم النوع البشري بلغة النظرة الحانية من قبل إنسان لآخر. وتنبأ، في عام 1871، بأنه عندما تصبح المشاعر أكثر حناناً ووداداً، فإنها لابد أن تمتد لتشمل كل بني الإنسان، بمن فيهم الأعضاء غير النافعين في المجتمع، وانتهاء بالحيوانات الدنيا. وفي عام 1920، كرر المحلل النفساني فلوجيل آراء داروين حيث قال:

> يُفهَم من الإمعان في إخضاع الشخصية الإنسانية لسلطان القيم الأخلاقية (التي قد تمثل فيها العلاقة بين الوالد والطفل دوراً رئيسياً) أن تعطى على الأقل درجة ما من الاهتمام في كل المجتمعات المتمدينة إلى الحاجات-المادية والعقلية-لأولئك الذين لم يعد بمقدورهم إعالة أنفسهم أو مواصلة حياتهم بدون مساعدة.... هذه العناية بالمسنين، بالآباء المتوحدين أو المقعدين من قبل أبنائهم يمكن اعتبارها من الناحية الشرعية واحدة من أكثر تعبيرات المبادىء الأخلاقية الإنسانية بصورة خاصة جمالاً وتأثيراً في النفس-وهي مرحلة يرتفع فيها الإنسان نهائياً فوق الصراع الوحشي من أجل الوجود.

قبل أن تصبح المراهقة مؤهلة لتوجيه نظرة حانية نحو الضعيف، والمذنب، والنوع الإنساني بوجه عام، يتوجب عليها أن تصل إلى تسوية مع حقيقة أن والديها ليسا كائنين مطلقي القدرة كما كانت تتصور سابقاً. فأثناء الطفولة، تمت مقايضة القدرة الشخصية المطلقة (حب الذات) بفوائد المشاركة في المجد والقدرة التي نعزوها لوالدينا. فنُجبَر على تحمل موازنة أنصبتنا الحالية نصف المقدسة بالحماية والحب اللذين يوفرهما لنا والدانا المقدسان. وأثناء المراهقة، ولكي نكتسب القدرة الحقيقية وسماحة النفس اللتين تغذيان مثالياتنا الأخلاقية، يجب أن نروض أنفسنا على القبول بعيوب والدينا، وخصوصاً ذلك الوالد الذي اعتمدنا عليه في تقمصاتنا الرئيسية.

والتقمصات الجديدة للصديقات، والراشدات المحببات، والرموز الثقافية، والمجموعات الاجتماعية تساعد المرأة الشّابّة على تحمل الأذى النرجسي الناتج عن إدراكها بأن المرأةَ التي صاغت ذاتها الخاصة على منوالها بعيدة عن كونها مخلوقاً مقدساً تمت صياغته في السماء. ولكن في الحساب النهائي، فإن تقمص المرأة لشخصية أمها

المؤنسنة (تقمص الشاب لشخصية أبيه المؤنسنة) هو الذي سيضمن الحيوية وقابلية الحياة لقيمها الاجتماعية ولمغزى قيمها الأخلاقية. فقبل أن تكتسب العضوية الكاملة في جيلها الراشد وتُكيّف مثالياتها مع التعقيدات الواقعية للوالدية، ومع العمل الجدي لكسب العيش وإعالة نفسها أو مساعدة أسرتها، ومع طباع الزميلات، والناصحات، والمديرات، لايمكن أن نتوقع أن تكون الشابّة قادرة على أن تقيّم بشكل كامل موجوداتها وديونها أو أن تقدر قيمة الأساليب المدهشة التي بها تشبه أمها بأمانه.

ومع أن الحساب النهائي ينتظر حتى تأخذ الشابّة بزمام مسؤوليتها كراشدة، إلا أنها قد تكون، قبل ذلك بوقت طويل، شخصاً استبطانياً، ومحللاً موثوقاً لذاته. وكلما أتاح نظامها الاجتماعي فرصاً أكثر للصداقة، والحب، والعمل والدراسة الهادفيْن، والمسؤولية السياسية والاجتماعية، والقدرة الواقعية والنجاح الحقيقي، كانت أقل اعتماداً على الزهو وتمجيد الذات اللذين يجُعلانها تشعر بأنها أكثر حكمة ورفعة من أمها. أما المراهقة الأكبر سناً فترى نفسها في مرآة أقل ألقاً. وبما أنها تحمل الآن بعض الشفقة الذاتية، فقد أصبحت قادرة على الإحساس بمزيد من الشفقة على نقاط الضعف عند الآخرين. ومع تقدم عملية الإقصاء، يصبح تضخيم السمات السلبية عند الأم غير ضروري. فعندما تتعزز هويتها الخاصة، أي إحساسها بمن هي ومن ليست هي وتصبح مستقلة على نحو أقل ضجيجا، تبدأ الشابّة من جديد بتقدير قيمة أمها لجهة من هي في الواقع ومن ليست هي.

يعزز العودةَ إلى تقدير قيمة الأم (والأب) احترامُ الشابّة لأبعاد الزمن التاريخي. إذ ذاك، كانت مراهقة صغيرة، فعملت طفرة نمو ماقبل البلوغ، أي موجة الحيوية التي وسّعت كل شهية واهتمام، على توليد خوف لكنه، رغم ذلك، كان إحساساً رائعاً بالحرية. وتتصور المراهقة الأصغر سناً نفسها في عالم من الإمكانية اللانهائية. إذ يمكنها أن تصبح امرأة أو رجلاً، أو شاعرة، أو ممثلة، أو مبرمجة حاسوب، أو فلكية، أو ممرضة، أو أمينة سر، أو طبيبة، أو أميرة، أو عالمة، أو روائية. لقد كانت على وشك أن تصبح شخصاً جديداً كلياً. فالزمن في تقدم دائم.

عندما تبلغ المراهقة بقعة محدودة الإمكانيات، تنظر الشابّة حولها فتدرك نقص العالم الاجتماعي الذي ورثته. فالمجتمع ليس أماً سحرية شاملة الرعاية أو منقذاً يحقق الأحلام والرغبات. ولأول مرة تعاني من القلق الوجودي للعيش في حياة فريدة لكنها عادية، تصل بين لحظة الولادة النهائية ولحظة الموت النهائية. لأنها تَنْظُمُ، وهي تروي قصتها

الشخصية، الماضي والحاضر والمستقبل معاً. فالروايات التاريخية عن الأبطال والبطلات، والعشاق المشهورين، والفنانين، والعلماء التي كانت تأسرها عندما كانت طفلة ومراهقة لم يعد بمقدورها الآن أن تتنافس مع الإيحاءات المثيرة للترجمات الذاتية التي تغزو خيالها. أما وقد أرخى الماضي قبضته عن الحاضر، فإنه يمكن للشابّة الآن أن تنظر إلى الوراء وتعيد تقييم ماكان. وما كان من تفسيراتها التأملية الاستعادية حول الطفل-الأم-الأب يُبعَث الآن عن طريق رؤاها للمستقبل، وهي رؤىً عملية وواقعية إلى حد أبعد.

احترامها لمحدودية الزمن، والاستمرارية التاريخية للذات التي أصبحت عليها وإحساسها بأنه مهما كانت سيطرتها كبيرة على قدرها، والحاجة ونزوات الحظ-كلها تطورات ستفتح عينيها على الحقائق التاريخية والأبعاد المأساوية عند أمها. وهنا تتحدث ملبومينة* ، التي تعرف أن تلك الأبعاد المأساوية لاتروق للأطفال.

تعاب الأم المقتدرة، ويُحَط من مقامها عن طريق الصفات إياها التي كانت تعتبر في الماضي صفات قدسية وبطولية. ولكن هذا يحدث عندما لايتمتع الطفل بمؤهلات نقدية فيما يتعلق بالإنجاز الوالدي ولا بطريقة لتقييم أسلوب البقيا الوالدية. والآن، في المراهقة، يعترف بالمصادر الأصلية للقوة الوالدية لجهة ماكانت عليه: الفخر، المنافسة، الإدراك، الوسوسة، الدفعية. زد على ذلك، أن الأم لم تعد بعد الآن بيّنة ضد الحظ أو الحاجة أو أنها أدنى من أي كان.

تنظر الشابّة إلى أمها بعينين أكثر صفاء-بمحاكمة عقلية وصبر. فترى الشخص يحمل نصيباً من نقاط القوة ونقاط الضعف التي ترثها الطبيعة البشرية العادية. مع ذلك، سوف تستغرق فترة ريثما تستوعب الطرق الهامة الكثيرة التي تشبه فيها أمها. فالمظهر الخادع لجادة ماديسون، ووُول ستريت، ومدرسة السكرتيريا، وراد كليف، كل ذلك بالكاد تقريباً يخفي المسحة المميزة لوادي أوهايو. وعندما تحاول من جانبها إغراء طفلها بمباهج لباب الأرضي شوكي المهروس، يبدو صوتها الملاطف والمغري بصفاقة "يم، يم" تماماً كصوت جدة الطفل التي كانت تستخدمه على مدى سنوات كثيرة مضت. لقد نجحت محاورات الحب الطفولية في البقاء حية في اللاوعي، على الرغم من أن الشابّة ستحاكي عن وعي وبشكل انتقائي تلك الصفات التي تروق لها عند أمها. ويتيح لها إحساسها بالحقيقة التاريخية أن تختار وتصطفي من كل الأمهات، على اختلافهن، أمها التي كانت بالنسبة لها:

* ربّة المأساة عند الاغريق-المترجم.

بريق الأمل من أم طفولتها، والشجاعة للبدء بسيرة جديدة من أم سنوات كمونها، والقناعات الراسخة عند الأم حول الصواب والخطأ التي لم تستسلم للاستخفاف المدمر عندها كمراهقة، والإخلاص والولاء للأسرة التي كانت دائماً ظاهرة في مكان ما.

العثور على أهداف الحب وفقدها، وإعادة إجراء المحاورات القديمة، والحزن على المفقودات، وتخليد الماضي-هذه هي بعض الموضوعات في رواية المراهق. وتتضمن الموضوعات الأخرى البارزة أساطير النرجسية. يجب أن تعمل النرجسية على تنشيط الروح التقدمية للضمير، أي الإيمان بالكمال الأخلاقي للعرق الإنساني، وهذه واحدة من التناقضات الظاهرية في الوجود الإنساني. وبالرجوع إلى طرق التركيز على الذات في الطفولة، يجدد المراهق صياغة النرجسية الطفولية ويكيفها للمستقبل. وسوف تتفكك بنى الماضي بحيث يقدم كل من التيارات الثلاثة للنرجسية-الحب الجسدي، واحترام الذات، والقدرة الكلية، طاقاته للمستقبل.

8

النرجسية I
انحراف الشبقية الذاتية

فاصل بيولوجي:
البلوغ

يمكن للمراهق أن يمثل بصورة مصغـرة، وبشكل مزعج، كل مانعرفه عن النرجسية. فطريقته في تعظيم ذاته مثلاً، تدفع إلى الحنق. ومع أن الآباء المعاصرين مستعدون لمواجهة الأنانية، والتمرد، وعدم الرضا عند المراهقين خلال سنوات مراهقتهم، فإن الواقع يكون دائماً نوعاً من الصدمة.

وبالمقارنة مع الجمال البريء للنرجسية الطفولية، التي يستمتع بها الآباء عادة لابل ويشجعونها أحياناً، فإن السمة النرجسية عند المراهق مزعجة ولا تطاق. ومع ذلك، فإن الطفل الدارج الأناني لايتمتع بقدرة حقيقية. أما المراهق الذي يظهر من جديد بمظهر المستغرق في شؤونه الذاتية فيُنظَر إليه بحذر، وينمو ليصبح أكثر رشداً كل يوم، وهو فعلاً ذكي، وساخر، وطائش. ونرجسيته تتحدى سلطة الوالد واحترامه لذاته.

والفتاة المراهقة تلجأ أيضاً إلى إعادة تقييم والديها من جديد. فتقوم بإجراء جرد لكل الصفات الرائعة التي كانت نسبتها لهما في تلك الأيام البريئة عندما كانا مصدرها الوحيد لاحترام الذات والأمان. وتسعى الآن لاستعادة مالم يكن لها خيار سوى في إعطائه. فتحاول أن تستعيد اكتفاءها الذاتي الطفولي (الموهوم). والنرجسية عند المراهقة أكثر أهمية، وأكثر تهديداً من النسخة الطفولية. والمُراهِقَة التي هي كبيرة كوالديها، أو أنها أكبر منهما، يمكن أن تبدو أيضاً مُهَدِّدَةً من الناحية الفيزيائية.

لماذا تزداد النرجسية حدة في المراهقة؟ فبينما يكون الانتقال جارياً مجراه، يُحوّل الجوع الجنسي بعيداً عن الوالدين ويعاد توجيهه من جديد. وقبل أن تكون المراهقة قادرة على تقييد نفسها بعلاقة جنسية مع شخص آخر، ينشغل بالها إلى حين، لابل إن اهتمامها بجسدها بالذات يستغرق انتباهها استغراقاً تاماً تقريباً.

تعمل الزيادة السريعة والمثيرة للإستروجينات والأندروجينات في الدوران على زيادة الرغبة الـ نسية حدة وتنبه مولدات الشهوة الجنسية في سطوح الجلد وفتحات الجسد. وتعمل هذه الهرمونات أيضاً على خفض الحواجز العادية ضد المنبهات المثيرة للشهوة الجنسية. وهكذا، ومع أن طفلة ماقبل البلوغ تكون محاصرة بالمنبهات البصرية، والصوتية، والكلامية، والشَمّيّة، واللمسية التي تهيج أفكارها وأحاسيسها الشبقية، فإنها لاتكون قد تهيأت بعد عاطفياً أو جسدياً للنشاط الجنسي التناسلي. ومن هنا، ينشط في تخيلاتها الجنسية الشبقُ الطفولي للمصّ، والتلوث، والتعذيب، وأن يُنظر إليها، وأن تُخْتَرق بالقوة. وتخلع في سلوكها اليومي على جسدها، وغرفتها، وملابسها، ومقتنياتها، وعلى أجساد ومقتنيات الآخرين الصفات الشبقية الطفولية: فهي شرهة، فوضوية، وضيعة، استعرائية، تطفلية. ووهكذا، يتم عكس النزعات الحضارية للطفولة المبكرة ومرحلة الكمون.

وبقدر مايشكل هذا السلوك غير الحضاري إزعاجاً للوالدين، والمعلمين، وللآخرين، فإنه لايقل إزعاجاً بالنسبة لفتاة ماقبل البلوغ نفسها، التي يتوجب عليها أن تقاوم إغراءات النهم، والسرقة، والتباهي بعرض جسدها أمام الناس. وقد تنهار مقاومتها للعادة السرية بتأثير عبارة عرضية، أو رائحة عابرة. فالتفجر المفاجىء للرغبة الذي لايمكن التنبؤ به يدمر تماماً احترام المراهقة لذلتها، لأنه يمثل تحدياً لإحساسها بسيطرتها على جسدها ومصيرها.

وسوف تحاول مقاومة هذه التهديدات الموجهة إلى نرجسيتها عن طريق العمليات الإنقاذية النموذجية التي تحدث في المراهقة، والتي هي نفسها عمليات تركيز على الذات بشكل مفرط: قضاء ساعات أمام المرآة في تفحّص وتهذيب العيوب الجسدية، ترك ملابسها وغرفتها في حالة فوضوية، وصولها إلى المائدة متأخرة وفي حالة شعثاء، نسيانها كل مايتعلق بالمواعيد العائلية. هذه التصرفات المتحدية والطائشة هي الطريقة التي تقول فيها المراهقة للراشدين (ولنفسها)، "يمكنني أن أفعل ماأشاء، ومتى أشاء". ولكنها لاتستقر على

هذا الإيمان لفترة طويلة. فعلى الرغم من إحساسها مؤقتاً بقدرتها على إثارة انفعالات والديها، فإن الانتصار الظاهري لقدرتها المطلقة يعمل على المدى الطويل على تقليص احترامها لذاتها. فتشعر فعلاً بعجزها وبأنها خاضعة لرحمة هذه الدوافع الطفولية الإلزامية والمربكة. وبتعبير آخر، يحتمل أن تكون الوسائل التي تجربها المراهقة لاستعادة قدرتها واحترامها لذاتها طفولية كطفولية الإهانات التي تقصد تخفيفها بها. فالأساليب الطفولية لإثبات القدرة ونظام احترام الذات، التي كان قد تم التخلي عن أكثرها أو كبحها جزئياً على الأقل أثناء مرحلة الكمون، تتسلل الآن إلىالحاضر وتتخذ صفة بدائية.

هناك سبب آخر لزيادة تركيز المراهِقة على ذاتها يتمثل في حساسيتها للإهانة. إن هذا المخلوق الوقح المتحدي هو، في الوقت ذاته، مخلوق رقيق نوعاً ما، غِرٌّ، حساس، هشّ. فقد يتلاشى كامل إحساسه بأهميته الشخصية لمجرد مواجهته بالعبوس. وقد يعتبر الأمانة في توضُيح الحقائق بمثابة نقد مهم.

أوهام القدرة المطلقة هي طقس اليوم. ويعبر عنها المراهق بإيمانه بأنه مامن شيء مستحيل، وأنه يمكنه أن يفعل أي شيء، وأن يكون كما يشاء، وأن يحل أي مشكلة في العالم، وأنه يتمتع بقوة كلية ويتحكم بنفسه ومحيطه. ويعمل عظمتُه بوقاحة وبدون أن يطرف له جفن على ضوء عدم إتمامه للجزء الأكبر من العمل الذي بدأ به، وإدراكه بأن صورته الذاتية المرغوبة لاتتطابق أبداً مع الصورة التي تخيلها، وعدم قدرته على الالتزام بقراراته الصباحية البراقة: أن لايأكل كثيراً، أن لايكونَ فوضوياً، أن لايستمني، أن لايكون وضيعاً، أن لايطمع في مايملكه الآخرون. وهو في أوهامه ورغباته كلي القدرة. أما على أرض الواقع، فيعاني بشدة من الإحساس بأنه ليس مقتدراً إطلاقاً. وأنه غير مفيد من الناحية الاجتماعية. ويجعله عجزه عن مقاومة الإغراء يشعر وكأنه معتوه عقلياً. وتتعادل غطرسة خططه وتأملاته مع عجزه وعدم قدرته على إنجاز أي شيء. إن الهروب المتهور للخيال وتأملات التسامي يحملان المراهق إلى عالم الإمكانية اللامحدودة. وقلما يمكننا أن نتوقع أن تتنافس أفكار العجز، والكبح، والتركيز، والأخذ بناصية الإمكانيات الواقعية للمرء مع الإشباعات السريعة التي تقدمها أحاسيس القدرة الكلية.

وانسجاماً مع إفراطه في تقييمه لقدرته الشخصية، يميل المراهق إلى إضفاء المثالية على أفكاره، وقيمه، ومظهره الفيزيائي، وعلى فلسفات الأشخاص المختارين على نحو خاص من عالم الراشدين. ويترافق نكوصه إلى الاستغراق الجسدي والقدرة الكلية بالعبادة

المفرطة والتقليد اليائس لأوثانه. وفي هذه المرحلة فقط تصبح أوثانه غير والديه. في بعض الأحيان، تكون الأوثان المختارة للعبادة نماذج طاهرة وقدسية تمثل توق المراهق إلى الصلاح والتضحية بالذات. وفي أحيان أخرى، سوف يحترم ويمجد قسوة وإغواء الرجال والنساء الذين يمثلون الإغراءات التي يكافح ضدها. تمثل البطلات والأبطال الجدد إغراء بسبب فتنتهم، أو جرأتهم الجنسية، أو ثروتهم، أو شهرتهم في الأمور السياسية، أو الفن، أو العلم، أو الجريمة. وعلى الرغم من التوقف عن اعتبار هذه الأوثان نماذج للصفات الأخلاقية المتقدمة، إلا أنهم يُعتَبَرون في الواقع إحياء أو تشخيصاً للقدرات الجنسية، والدنيوية، والأخلاقية التي كان الطفل يعزوها إلى والديه. أما وقد أصبحت الآن سلطة الوالدين وأهميتهما موضع شك، فإن المراهق يبحث من جديد في النماذج الموجودة في العالم الخارجي عن الكمال الذي يمكنه أن يتقمصه. فيضعف بشكل هام الضمير الصارم والمثاليات التي يقيس نفسه بها تلميذ المدرسة المهذب. لأنها تستبدل بما يبدو وكأنها قيم سطحية للغاية. والواقع، أن كثيراً من المثاليات عند المراهق الأصغر سناً مسخرة فقط لخدمة تمجيد الذات. ولايشعر المراهق الغر الحساس بالأهمية والقوة إلا من خلال ارتباطه، في الواقع أو الخيال، مع أولئك الذين يبجلهم.

سنجد جدران غرفته وأبواب خزانته مغطاة بالملصقات، والصور الفوتوغرافية، والتذكارات الأخرى التي تمثل أبطاله وبطلاته الخارقين الحاليين. والإشارة الوحيدة الموثوقة التي يمكن للوالدين عن طريقها أن يعرفا بأن المراهق قد اتخذ سبيله أخيراً نحو مطامح ذاتية أكثر واقعية ومعايير أخلاقية أقل تمجيداً، هي النظافة التدريجة للحيز الجداري في حجرته. وفي نهاية مرحلة البلوغ وبداية مرحلة الرشد، سوف يبقى القليل من تلك المقتنيات المعزّزة. فسوف تبقى واحدة أو اثنتان من البطلات. بينما تختفي الأخريات بدون أن يخلفن أثراً. كثيراً ماتبدو النرجسية عند المراهق مزعجة، ولكنها، رغم ذلك، سوف تتحول إلى مقاومة عنيفة ضد التعلق بالماضي.

كثيراً ماتعتقد المراهِقة بأنها تتحرر من قيود وجودها الدنيوي كتلميذة مدرسة بمجرد انتهاكها للقوانين وتحديها للسلطة. فيطرح ضمير تلميذة المدرسة عندها ما "ينبغي" وما "لاينبغي". وتخلص نفسها من "الواجبات" و "الالتزامات" التي تحول كل مخالفة صغيرة إلى إهمال أو جريمة. لاشك في أنه لم يخطر لها ولا لأسرتها بأنها تباشر، عن طريق شكها

بالمعايير الأخلاقية التي وضعتها وهي طفلة، أولى خطواتها في رحلتها نحو شكل من أشكال الضمير أكثر حزماً، وأكثر معقولية، وأقل فظاظة، وأكثر أخلاقية.

ويشب الطفل العالة، المرْعِيُّ، المحبوب، المطيع، الأخلاقي إلى إهاب راشد مستقل، راعٍ لنفسه.

وفي العاشرة والنصف من عمرها، وبعد أن أصبح بالكاد ممكناً اكتشاف بروز حلمتي ثدييها، تحتاج البنت لفترة خمس سنوات تقريباً من النمو الفيزيائي لكي تصبح قادرة على إنتاج بيوض ناضجة. فهي تقضي، في أفضل الظروف، مايقرب من عقد من الحياة النرجسية قبل أن ترشد. وحتى بعد أن تصبح الشابّة أقل انشغالاً بجسدها الخاص وقادرة على الوقوع في حب شخص آخر، فإن القاعدة النرجسية لأول علاقة غرامية لها يجب أن تفسح المجال لاستيعاب الاختلافات بين الواقعي والمثالي. ولكي تركز ذاتها في علاقة جنسية ثابتة، يفترض فيها أن تعترف، عاجلاً أو آجلاً، بأن الخيبة هي النهاية الطبيعية لعلاقات الحب كلها. ويصبح بالإمكان تحمّل هذا الإعتراف المؤلم جداً فقط في حالة كون الشابة قادرة، في مكان ما على امتداد الشوط، على التوفيق بين أحلام مجدها وحياة الإمكانية العملية.

وفي الفترة الفاصلة، يحبس والديها أنفاسهما ويبتهلان. وبدون أن يستفيدا من الطقوسية، والتردد في قرارهما الأخلاقي، يقفان جانباً خائفين، مرعوبين، مزعزعين بسبب العظمة الهائلة لبديلهما الأخلاقي الزائف. فهما لايستطيعان تشريط جسمها بحكمة العصور. ولا يمكنهما صياغتها إلى نوع من الأنوثة التي يألفانها. كما أنه ليس بإمكانهما حبسها في كوخ بانتظار هدوء العاصفة. فقد أصبح بطلاها الأسطوريان في نظرها غريبين وشاذين ومعاديين. ورحلتها الكونية تختلف إجمالاً تقريباً عن تلك التي يذكرانها. ويحاولان، بنجاح أحياناً، توجيه السفينة إلى مجرى هادىء. ولكن المياه الأخلاقية عكرة وغادرة. فيرتعدان لرؤية الفساد من حولهما. وبشيء من الاحتراس، تطرح الطفلة عنها ضمير تلميذة المدرسة وتغوص فيها. فهل تعود إلى الظهور من جديد؟ ومتى ستعود؟ ألن تمكن مشاهدتها؟ هل غرقت؟

وقبل أن تعود إلى الظهور، ستبذل قدراً كبيراً من الطاقة النرجسية في عربدتها مع أوثانها الزائفة، وعبادتها للقيم السطحية. وستقارن نفسها بالآخرين، فيأكلها الحسد، والكره، والغيرة. وقد تَزِلُّ أيضاً بشكل كارثي إلى الاختلاط الجنسي اللاشرعي، واللصوصية،

والتخريب المتعمد، والسكر. وفي الوقت نفسه، ستكون مع صديقاتها ورفيقاتها لطيفة، غيرية، ودّية، كريمة، شفوقاً، شجاعة عاطفية أكثر من أي وقت مضى. وهي في آن معاً ساحرة وقديسة. تلهو بالرذائل وتتفتح روحها على فضائل غير محدودة. وتبرز المراهقة، خارج غلاف النكوص النرجسي للخادرة، كراشدة شابة مهيأة لتكوين الرأي، والنقد، وأخيراً لاتخاذ القرار بنفسها على أساس التجارب التي تتجاوز حدود العش الطفولي داخل أسرتها، وهو ماتستحقه فعلاً. فهي لاتطاوع ميولها دون اكتراث بالعرف. ولكنها أيضاً لاتعتمد على المعانقات والإجلال لمعرفة الخطأ والصواب. فالعيون اليقظة والأصوات المحذرة عندها، ربما أصبحت أكثر وداً وأقل اتهامية مما كانت عليه في طفولتها.

ولكن التيارات الثلاثة للنرجسية تتراجع أولاً إلى مصادرها الأصلية، فيتركز الليبدو على جسد المرء بالذات. ويتعدل احترام الذات عن طريق تقمص الآخرين الذين خلعت عليهم الصفات المثالية. ورغم أن المراهِقَة لم تحقق شيئاً واقعياً، فإنها تتبجح بقدراتها وتتخيل نفسها وقد عادت إلى عالم الإمكانيات اللامحدودة. ومع تقدم المراهقة، يتنافس الماضي والحاضر على الأسبقية. ومن جديد تتدفق تيارات النرجسية إلى الأمام. وتتحرك في البداية بطيئة، تبدلية، مع كثير من الحركات التراجعية على طول الطريق، ثم تندفع مسرعة عندما يبدو فجأة وكأن الصبي الغر، المتعثر، المرتبك، الأخرق أصبح راشداً. يصل الصبيان والبنات إلى مرحلة البلوغ، وبعد بضع سنوات يصبحون رعاة ومشرعين للجيل القادم. وقبل أن نتعرف إلى المستقبل، هاهو بين يدينا.

البلوغ

أولى علامات البلوغ عند الإناث شعر العانة الناعم، والبروز الذي بالكاد يمكن كشفه لحلمتي الثديين، وتبرعم الثديين اللاحق بعد ذلك بقليل.

وفي الوقت نفسه، وكعلامات على تبرعم الثديين، تبدأ التبدلات الأخرى حركتها أيضاً بفعل تتعاون فيه الإستروجينات الكظرية والمبيضية. ويبدأ نمو المهبل، والفرج (قبة الفرج، والشفران الكبيران، والشفران الصغيران، ودهليز المهبل، والبظر)، وغدد بارثولين، والرحم.

تحل العصيات اللبنية المنتجة للحمض محل النبيت الجرثومي المهبلي الذي كان هزيلاً من قبل. وتتبدل قيمة باهاء PH في المادة المخاطية المهبلية من 6–7 في الطفولة

إلى 4-5 في سن الرشد، وهذه الزيادة في درجة الحموضة إيجابية بالنسبة للخصوبة. ولكن التبدل البنيوي الرئيسي هو الذي يطرأ على المهبل، حيث تزداد ظهارته ثخانة ويترسب فيها الغليكوجين، الأمر الذي يشكل مناخاً إيجابياً لعصية حمض اللبن. ويزداد المهبل عرضا وطولاً. ويَحْمَرّ سطحه المخاطي.

وتحدث أيضاً تبدلات مهمة في الفرج. فيظهر النسيج الشحمي في تلك الناحية، وتثخن الشفتان الكبيرتان الخارجيتان للشفرين مما يجعلهما تنموان فوق الشفتين الصغيرتين الداخليتين. ولا تتقارب الشفتان الخارجيتان كما هما الآن في أي مرحلة أخرى من مراحل الحياة. هذا الملمح، الذي يترافق بسرعة نمو الوركين والفخذين وتراكم الشحم عليهما، يساعد على إخفاء مدخل المهبل والفرج. وستبرز قليلاً الذروة المثلثية للشفتين الداخليتين الصغيرتين ويتبدل لونها من الأحمر القرنفلي إلى لون أعمق ضارب إلى البني.

يتناسب نمو البظر في مرحلة البلوغ تقريباً مع نمو القضيب عند الذكر. ويكتسب القدرة على الانتصاب، شأنه في ذلك شأن حلمة الثدي والقضيب. وتزداد غدد بارثولين حجماً وتنتج مادة مخاطانية عند تهييج البظر والأجزاء الأخرى للفرج. وتعمل هذه المادة المخاطية على تزليق الفرج أثناء الاستمناء، والمداعبة، والجماع.

أما الرحم، المثبت داخل جوف الحوض، فينمو تقريباً إلى ثلاثة أضعاف حجمه في الطفولة. يسبب تنبيه الإستروجين للعانة والجزء السفلي من الحوض ميل جوف الحوض إلى الأمام وبقاء عنقه أقصر نسبياً. وبما أن الرحم يتكيف مع الشكل المتبدل للحوض، لذلك سيتبدل حياطه من الشكل الأسطواني إلى شكل ثمرة الكمثرى. وفي الوقت نفسه، ينمو البوقان طولاً ويصبحان أكثر انفتاحاً. وسوف تزداد كثيرا ثخانة غشاء أو بطانة الرحم. ومع التقدم في مرحلة البلوغ، يزداد تمايز الخلايا في الغشاء المبطن للرحم.

يحين وقت طرح بطانة الرحم أو ***بدء الطمث*** لأول مرة عند البنت الأمريكية العادية في الثالثة عشرة من العمر تقريباً. ودورات الحيض الأولى دورات لاإباضية وغير منتظمة. وفي مرحلة البلوغ، وبتنبيه من الهرمون الحاثّ للجريبات، سينضج في كل دورة جريب يحتوي على بيضة واحدة. وتمر هذه البيضة المنطلقة إلى بوق فالوب وتنتظر الإخصاب. تشكل بطانة الجريب، بتنبيه من الهرمون الملوتن، الجسم الأصفر، وهي بنية مبيضية بقدر 1-1.5 سم. يتوسع الجسم الأصفر في حالة حدوث الحمل. وسوف يفرز البروجستيرون، الذي يساعد على تعزيز الحمل. وإذا لم يحدث الإخصاب، يتنكس الجسم

الأصفر لتلك البيضة، مخلفاً نسيجاً متندباً. ويظن بأن القدرة الكاملة على التوالد لاتتهيأ للإناث قبل أوائل إلى منتصف العشرينات من أعمارهن.

وأول علامة خارجية للبلوغ عند الذكور هي تضخم الخصيتين والصفن. وعندما تتضخم الخصيتان تفرزان التستوستيرون، الذي ينبه نمو القضيب.

يترافق نمو القضيب بتضخم البروستات وتطورها. وهي تتوضع مباشرة تحت عنق المثانة، عند قاعدة القضيب. وتنمو من بنية صغيرة جداً، شبيهة بالسنفة، إلى حجم وشكل ثمرة الكستناء. وتتكون قبل البلوغ فقط من قنوات تنتهي في براعم. وهذه البراعم هي نقاط النمو للخلايا المستقبلية المسؤولة عن إفراز السائل المنوي. والنمو السريع لخلايا الإفراز مسؤول عن ازدياد حجمها. عند قذف المني، تقوم البروستات بقذف سائل قلوي، لبني رقيق إلى الإحليل. ويؤمن هذا السائل الجزء الرئيسي السائل من المني. فتعمل هذه القلوية على موازنة الحموضة التي تحملها مقذوفات الحويصلات المنوية.

يقع الحويصلان المنويان فوق البروستات. وهما امتداد لجزئي الأسهر، وهي القناة التي تصلهما بالخصيتين. يعمل جوفا الحويصلين المنويين كمستودعين لتخزين النطفة القادمة الخصيتين. وجدرانهما مؤلفة من خلايا غدية تسهم في تغذية السائل المنوي.
إضافة إلى الخصيتين، والبروستات، والحويصلين المنويين، هناك عضو آخر يمكن أنه يسهم في تركيب الدفق هي غدد كوبر، التي يظن بأنها مماثلة لغدد بارثولين عند المرأة، وتقع خلف الصفن عند قاعدة القضيب. سائل غدد كوبر الزَّلِقُ الشفاف هو مخاط قبل القذف، وقد ينضح من فتحة الإحليل إلى ذروة القضيب في أي وقت أثناء الإثارة الجنسية.

في ذروة الإثارة الجنسية، تتسبب التقلصات في القنوات الخصوية والأسهر في دفع النطفة إلى الإحليل. وعندئذٍ تمتزج مع السوائل البروستاتية القلوية، أي السائل المنوي، والمادة المخاطية من غدد كوبر. تشكل هذه المنتجات مع بعضها المني الذي يُدفَق أثناء الإيغاف.

يحين وقت أول قذف للسائل المنوي، أو بدء الإنزال thorache، عند الصبي الأمريكي العادي في حوالي الرابعة عشرة من عمره. وتسبق هذا الحدث عادة بعدة سنوات قذوف لامنوية. وبعد ثلاث أو أربع سنوات أخرى سوف تنضج النطفة تماماً ويحمل المني تركيباً راشداً. ومن المحتمل أن تترافق بداية الخصوبة الذكرية بزيادة حجم السائل المنوي

وتبدل قوامه إضافة إلى شدة الإحساس بالتشـنجات الدفقيـة. ولكـن الصبـي لـن يبلـغ مرحلـة الخصوبة القصوى قبل مطلع أو منتصف العشرينات.

في الفترة الفاصلـة بيـن التخلـي عـن أهـداف الحـب الطفوليـة وإيجـاد محـاورة حـب راشدة، ينعكس الجوع الجنسي على جسد المـرء بـالذات. فالعـادة السـرية، التـي تفـرّج هـذا الجوع من خلال معالجة يدوية للأعضاء التناسلية، تحتل مكانة حاسمة فـي حيـاة المراهـق. وهي وسيلة تربط الحياة الخيالية الطفولية مع حياة الإنجاز الفعلي.

تقتصر الكتابة حول موضوع العادة السرية في المراهقة تقريباً على التجربة المذكرة وتخيلات الاستمناء المذكرة. ويُظَن أن الكبت الكامل للعادة السرية أكثر حدوثـاً عنـد البنـات منه عند الصبيان. وتساند هذا الظن نظرية أن البنت ذات التركيب الخنثوي الشـديد فقط– " النموذج النشط أكثر من السلبي"–ستواجه صعوبة في إنكار العادة السرية. ويقال بأن البنت السـلبية الأكـثر نموذجيـة هـي التـي تنجـح فـي مقاومتهـا للعـادة السـرية. وفكـرة أن البنـات المليحات لايبحثن بفعالية عن الإشباع الجنسي، وأنه لابد من إغوائهن إلى النشاط الجنســي، واضحة في معظم الدراسات العلمية حول العادة السرية عند المراهقين.

واسـتناداً إلـى دراسـات إحصائيـة، يحقـق المراهـق أول إيغـاف عـن طريــق العــادة السرية، بينما تحققه البنت عن طريق المداعبة أو الملاطفة الجنسية. وتذكر الدراسـات بـأن كافة الذكور تقريباً يمارسون العادة السرية خلال سـنوات المراهقـة. بينمـا تذكـر أن حوالـي نصف الإناث فقط ممن خضعن للدراسة يمارسن تلك العادة. زد على ذلك، أن البنات عندما يمارسنها، فإن ممارستهن تكون أقل تكراراً مما هي عليه عند الصبيان.

من جهة أخرى، هناك دراسات سريرية أكثر وضوحاً حول سنوات المراهقة تكشف أن معظم البنات يستمنين، وأنهن في الواقع يحققن أول الإيغافات عن طريق العادة السـرية. ومع أن الاستمناء عندهن فعلاً أقل تكراراً منه عند الصبيان، فإن مقـاومتهن لإغرائـه لاتقـل عمـا هـي عليـه عندهـم. وتتمثـل القضايـا الديناميـة المهمـة فـي كفاحـات المراهـق المنفـردة والباسلة ضــد إغـراء الاسـتمناء والانتصـار علـى الرغبـة التناسـلية أو الهزيمـة أمامهـا فـي النهاية. هذا لايعني أن لدى الصبيان والبنات تجارب متشابهة فيما يتعلق بالعادة السـرية أو، إذا أردت الحق، بأي تجربة جنسية. فتخيلاتهم الجنسية مختلفـة. وكذلـك هـي مواقفهـم تجـاه أعضائهم التناسلية. والسبب الوحيد هو أن الصبيان المراهقون يعيشون مع واقع الانتصـاب عندهم، هذا الانتصاب الذي يكون مرئياً ويصعب التحكم به. وهذه الحقيقة وحدها تؤدي إلى

تجارب مذكرة فريدة هي مزيج من الزهو والإهانة. فالقضيب يعتبر غالباً كـ "شيء" له حياته الخاصة.

ومن هنا يكون الاستمناء عند الذكر وسيلة، ليس فقط لاختبار الإثارة الجنسية، بل أيضاً للتغلب على القضيب–أي كبحه. لاشك في أن هذه المواقف المتناقضة تجاه القضيب تسهم في زيادة تكرار الاستمناء عند الذكور. البنات أكثر كتماناً فيما يخص نشاطاتهن الاستمنائية، وهن غير واثقات بشأن الموضع الجسدي لاستجاباتهم الجنسية. ولكن كلا الجنسين يكرهان مناقشة تخيلاتهم الاستمنائية مع أي كان، حتى مع أندادهم الموثوقين والكبار الذين يثقون بهم في أمور أخرى. تتغذى التخيلات التي ترافق الاستمناء من الصور الوصفية التحليلية، والروايات، والشعر، والفن والأدب المثيرة للشهوة الجنسية.

وعلى الرغم من معرفة أن كل الصبيان تقريباً يستمنون وربما تقوم بذلك الأكثرية الساحقة من البنات، فإن الكبار يستمرون في اعتبار الجماع الناقص Onanism شذوذاً–عملاً يولّد الاضطراب العقلي والظروف الفيزيائية المرضية. وتستمر العادة السرية في إثارة تفاعلات مختلطة حتى بين المحللين النفسيين، وهم أول الأطباء وعلماء النفس الذين راحوا يبحثون بصورة جدية في حياة الخيال التي ترافق السلوك الشبقي الذاتي، المتمثل بالعادة السرية.

نشرت جمعية التحليل النفسي في فيينا، في عام 1912، مقالتها الدورية حول الجماع الناقص. فاتفق المشتركون في النقاش على أن أهم مجموعة من بين المسائل المطروحة هي تلك التي تتعلق بالخيالات التي ترافق الاستمناء. وأجمعوا على أن هذه الخيالات، وليس الفعل الفيزيائي بحد ذاته، هي التي تثير بالدرجة الأولى تفاعلات الخجل والإحساس بالذنب. وتركزت الاختلافات الرئيسية في تلك المقالة حول السؤال "هل النشاطات الاستمنائية في حد ذاتها مؤذية فيزيائياً ونفسياً؟" كان جواب فرويد على هذا السؤال إيجابياً. فالتأثيرات السّمّيّة للتفريغ غير المناسب للطاقة الغريزية يمكن أن تكوّن نواة للعصاب الذهاني. والإفراط في الاستمناء يولِّد أعراض الاستنفاذ–وهن عصبي، إمساك، صداعات، تعب. وكانت حالات القلق التي أدت إلى هذه الأعراض نتيجة مباشرة لـ "إثارة الجماع" بدون تفريغ.

ولكن المحللين النفسيين المعاصرين لم يؤيدوا الفرضية السّمّيّة. وما يعتبره هؤلاء خطراً رئيسياً للاستمناء عند المراهق هو احتمال تعزيزه للتعلق الجنسي المرضي الطفولي.

ويعتقدون أن العودة من الخيال إلى الواقع تصبح أكثر صعوبة بسبب الملذات الحسية للعادة السرية. وبالمقابل، يميل بعض المحللين النفسيين، وخصوصاً أولئك الذين بحثوا في قضايا النرجسية عند المراهقين، إلى اعتبار أن النشاطات الاستمنائية عند المراهقين والمراهقات لاتخلو من فائدة. فقبل أن يمثل الاستمناء تعلقاً غير صحي بطليعة اللذة الجنسية، فإن استمناء الأعضاء التناسلية وتخيلات طليعة اللذة الجنسية التي ترافقه يمكن أن تؤمن رباطاً معقولاً بين الرغبات عند الطفل والنشاط الجنسي التناسلي عنده راشداً.

وهناك مايبرر هذا الظن، إذ أنه بمقدار ماتمثل العادة السرية مظهراً من مظاهر النرجسية وخياراً لإشباع الخيال من خلال المشاركة في العالم الواقعي، يجب اعتبارها تهديداً لاحتياجات الجماعة الاجتماعية الأوسع. وحجم المحرمات ضد العادة السرية هو أيضاً انعكاس لتناقض الراشدين تجاه الأشخاص الذين لم يصبحوا راشدين بعد وتجاه النشاط الجنسي بشكل عام.

ومع مجيء العصر الصناعي وشروطه لإطالة أمد فترة التدرب بين الطفولة والرشد، أصبحت المراهقة ظاهرة ينبغي جدياً أخذها بعين الاعتبار. فلقد بدأنا نعتبر المراهق بذرة المستقبل، وأمل الجنس الإنساني. ولذلك راحوا، مع نهاية القرن، ينظرون في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية إلى المراهق الذي يمارس العادة السرية باشمئزاز وريبة. وما كان يميز المواقف الجنسية هو اعتبار العادة السرية كشارة للشباب، بينما اعتبر الحيض كمصدر للجنون، والوهن العصبي، والهيستيريا، ونوبات الإغماء، والجريمة. وقلما أتى الكتاب على ذكر ظاهرة الاستمناء عند الإناث. وقد اعتبر بدء الحيض نظيراً لبدء الدفق. في ذلك الوقت، كما هي الحال اليوم، كان محرم سفاح القربى موجهاً بالدرجة الأولى إلى الذكر، الذي كان يُنظَر إلى قوته الجسدية، ومَنِيِّه، وأعضائه الجنسية بوصفها التهديدات الرئيسية للنظام الاجتماعي. أما التهديد من قبل الأنثى فقد وجد في الأسرار الغامضة لفترات طمثها وفي الشكوك والمخاوف التي بها يُنظَر إلى التجاويف والأجزاء الداخلية من جسدها. الأب الذي يمثل القانون والنظام الاجتماعي، هو المبدأ الأخلاقي الصامت (الذي لايقول شيئاً-المترجم) للضمير. أما الجذب النكوصي نحو الأم والأشياء الأنثوية، فقد كان وما زال يُفهم على أنه تقويض للقانون والنظام، في المجتمع، والطبيعة، والعالم.

تأكد وجود الخوف من العادة السرية عند المراهقين مع دخول القرن العشرين عن طريق ملايين الرسائل المثيرة للشفقة التي تلقاها الأطباء الدجالون والمصلحون الجنسيون من الشباب الذين أرعبتهم قذوفهم اللاإرادية وهزيمتهم في معركتهم ضد العادة السرية. ففي عام 1895، استلم "وسيط" نيويوركي واحد ثلاثة ملايين رسالة شخصية كتبها صبيان ورجال استجابة للإعلان عن شركات دوائية وأطباء. فقد قرر شاب نموذجي "من محتد طيب" أن لايذهب إلى الكلية، لأنه كان منهاراً ولا بد أن يُجَنّ سريعاً. وقال آخر بأنه ابتاع مسدساً، وخطط لقتل نفسه بعد زيارته لوالدته إذا لم يتحقق له تخفيف بعض من عذاباته. وآخر كان يحمل في جيبه بصورة مستمرة حبلاً قوياً، بانتظار اليوم السعيد عندما يتمكن من استجماع شجاعته لشنق نفسه.

كان البعض يظن بأن القذف اللاإرادي والظواهر النموذجية لنمو المراهق تشكل أضراراً تحدث نتيجة للأفعال الاستمنائية المحظورة. وقد عمل الأطباء الدجالون، سواء عن جهل مماثل أو عن خداع معلوم، على تعزيز نظرية الأذي الجسدي في نشراتهم السيارة ونصائحهم.

وأُدرِج في الكراريس والإعلانات عدد كبير من الأعراض التي قد تنتج من العادة السرية. ولم يكن أكثر منها سوى ذلك القدر الكبير من التغير الطبيعي في الأعضاء الجنسية المذكرة: الهبوط غير المتناظر للخصيتين وتدليهما، ارتخاء الصفن والتغيرات الصبغية فيه، وضع القلفة، طول القضيب. وقد عزيت التبدلات الوعائية في الصفن إلى الجماع الناقص، كما كانت الأحلام السيئة، والبقع الجلدية، والخجل تفسر على أنها تعبير عن أفكار داعرة. وكل تفصيل عن أي عضو كان يوصف على أنه عرض للوهن الاستمنائي.

كانت البروميدات، والمقويات، وحبات الخبز هي النظام اليومي. فكان يصفها الأطباء المشهورون والدجالون على حد سواء. واشتملت المعالجات الطبية المعروفة على الأرغوت Ergots، والتّنفُّط، وقطع أعصاب معينة، والختان. وقد باع الدجالون ملايين الزجاجات من أقراص السكسين Sexine، أوبزرة الأعصاب Nerve Seed، أوالشرارات الحيوية الباريسية Paris Vital Sparks، التي تعد بالفحولة والتعفف في العبوة نفسها. وكان ينصح بِلَفِّ القضيب المتمرد بضروب من الوسائل الميكانيكية من النوابض المطاطية والسلكية. كما كان ينصح بالقثاطير والأنابيب من النوع الكبير لإقحامها فيه. وكان بعض هذه الأجهزة يباع بثمن باهظ. وكونت الشركات ثروات كبيرة من بيع الأحزمة الكهربائية

وأجهزة التعليق. ومما يثير السخرية، أن تنتهي تلك الأجهزة إلى إثارة خيالات شبقية حادة. وقد أُغرِق مكتب براءات الاختراع في واشنطن بعروض الأجهزة التي تعالج الاستمناء.

وأعلن ج. ستانلي هول: "الاستمناء هو الجانب الأكثر مدعاة للحزن من بين كافة جوانب الضعف والخطيئة عند الإنسان". ولكنه باعتباره نصيراً مخلصاً للشباب، أدان التكتيكات المفزعة. ونصح، بدلاً من ذلك، بضرورة التحدث بصراحة وإخلاص أخلاقي عند التعامل مع خطيئة الاستمناء. وأجرى هول دراسات مفصلة حول الرذيلة ووجد نفسه مجبراً على الاعتراف "في أي مكان تُباشر فيه البحوث، تكون النتائج مروعة فيما يتعلق بمعدل الانتشار، وتوحي تلك النتائج بأن الغرب يتميز قليلاً، هذا إذا كانت له أية ميزة، عن الشرق بسجلاته المحزنة، وأقل مايقال في الرجل المتمدين أنه ليس أفضل في هذا الجانب، إن لم يكن أسوأ، من أخيه البدائي". واعترف فيما بعد أيضاً "كل مانعرفه يقود إلى مايؤكد بأنه (الاستمناء-المترجم) أكثر شيوعاً بين الأعراق المتمدينة منه بين الأعراق البدائية".

وعندما بدأ هول في بحث أسباب الاستمناء، أعلن عن قناعته بأن النمو العقلي المبكر أو فرط التعبير النفساني وعدم كفاية التعبير الفيزيائي قد يكون هو المنبّه الرئيسي. ووضعية الجلوس تسهل هذه العادة إلى حد كبير. والنقاهة الطويلة، والبواسير، والإمساك المعاود، والبطالة، والكسل، وضعف الإرادة، والعوامل الوراثية قد تلعب دوراً مهماً أيضاً في مفاقمة المرض المخاتل الذي يؤثر على "الطبيعة الإنسانية كحشرة فوق ثمرة تُحْدِثُ النضج المبكر وتنشط الوظيفة الإنتاجية". ويعتقد هول بأن فصل الربيع خصوصاً محفوف بالمخاطر، وكذلك المناخ الدافيء، والملابس غير المناسبة، والطعام الدسم، وعسر الهضم، والعصبية، والجلوس المطوّل، وتصالب الساقين أثناء الجلوس، والصفع على القفا، والسير الرتيب جداً، وإجهاد الذاكرة. ويمضي قائلاً: "كثيراً مايبدأ البلوغ عند الأطفال الأذكياء العصبيين بحدة جامحة تقريباً ورغبة مفاجئة فيجرف الفرد إلى طرق مؤذية قبل أن تكون الكوابح الأخلاقية أو حتى العقلية قد أصبحت فعالة بوقت طويل. هنا، تكون شدة الخطر واحدة من الغرامات التي يدفعها الرجل ثمناً لوسيلة نموه التي لايمكن تقييمها على المستوى الإنساني- اليد".

كان هول مطمئناً فيما يتعلق بنتائج الاستمناء. فالدماغ سوف لن يُستَنزَفَ. وليس وشيكاً حدوث العَتَه، والبلاهة، والشلل، والموت الفجائي. ويؤكد على أن الخطر الأكثر شيوعاً هو الإحساس بالتفاهة، والخطيئة، والدنس، الذي يجرد الحياة من الفرح ويدفع

الضحية إلى يأس مطلق. مع ذلك، لم يستطع هول، مع كل الجدّية الأخلاقية، أن يروض نفسه على التغاضي عن انتقاص الذات. وكرس نفسه لإعادة الفرح إلى الشباب عن طريق مشاركته في المعركة ضد "التأثيرات التي تصدر، كما يبدو، عن الشيطان في مقره".

وعلى الرغم من اعترافه بأن الأمراض العقلية التي تنتج عن الاستمناء ليست خطيرة كما كان يظن عادة، فإنه كان يعتقد بأن هناك علاقة مباشرة بين الاستمناء وانحطاط الصحة الفيزيائية. وفي تقديره أن السبيرمين spermine (C5,H14, N2) مثلاً، يلعب دوراً في إزالة نواتج التحلل الجسدي. ولذلك، قد يكون فقْدُ السبيرمين مرتبطاً بفقد تركيز الآحين، والمحّين، والهضمونات. وفقدان السبيرمين قد يستنزف حيوية الجسم ويؤدي إلى الوهن العصبي، والتشنجات البصرية، وتشديد منعكس الرضفة، والبشرة الأرجوانية والجافة، والإنهاك، والترهل، والسعال الجاف، ولزوجة اليدين.

وفيما يتعلق بالنتائج الأخلاقية للعادة السرية، يذكر هول الكذب، والكتمان، والنفاق، والاستحياء، والجبن، والأنانية، والطيش. أما فيما يتعلق بالحياة الأخلاقية، فقد لوحظ خمود الشفقة والتعاطف مع الآخرين. "قلب المستمني ضعيف كصوته". ويتعوق النمو باستثناء المجالين الخلقي والعقلي. وتظهر العلامات المبكرة للقُحامة، والشيخوخة–ابيضاض الشعر، والصلع، والاحديداب ووهن المشي.

ولتفادي الكوارث الناتجة عن العادة السرية والمساعدة في تفريج العذابات العقلية والفيزيائية عند الاستمنائي المراهق، يصف هول بطريقة إنسانية ليس البروميدات أو الأجهزة الآلية التي كان ينصح بها من هم أقل معرفة، وإنما الولاء للحياة المسيحية وعدد من التدابير الصحية الوقائية. فالبرد، كما يقول، هو واحد من أفضل الكوابح لفرط الاستمنائية. وللاغتسال البارد بدون تنشيف فوائد خاصة. والغذاء المناسب هو الحليب، والخبز، والحبوب، والخضار الغنية بالبروتين والفسفور. ولا بد من تناول قليل من اللحم فقط بما يؤمن الملح للهيكل العظمي، والآح للعضلات، والدهن للتنفس. ومن الطبيعي أن يعمل البيض، ولحم الصيد، والمنكّهات، والقهوة، والكحول فقط على مفاقمة الاستعدادات الخطرة التي أتينا على ذكرها. وأثبتت التمارين، والمنافسات، والمباريات بأنها مفيدة.

لايجب شدّ السراويل بالحمالات إلى أعلى، بل يجب إرخاؤها وعدم ربطها بإحكام. وإلا فإن الإثارة ستعمل على إدامة المنبّه والإغراء. والملابس التحتية يجب أن تكون فضفاضة ومن غير ربط. كما يجب تثبيط كل الأوضاع، وأنماط السلوك التلقائية، والعادات

التي تسبب الاحتكاك. ويجب وضع الجيوب على الجانب تماماً وأن لاتكون عميقة جداً وأن لاتبقى ممتلئة. كما يجب تثبيط عادة وضع الأيدي فيها. ويظن هول بأنه قد يكون من الأفضل لو يرتدي الصبيان السراويل التي تنفتح فقط على الجوانب.

يجب أن يكون الفراش قاسياً إلى حد ما، والغطاء خفيفاً. فالفراش اللين يشعرك بالرفاه ويغريك بالبقاء في السرير لمدة أطول بعد الاستيقاظ. ليس من المؤكد أن يكون الصبيان الذين يتأخرون في أسرتهم من الاستمنائيين، ولكن عادة النهوض المبكر أفضل للعينين، والأعصاب، والمعنويات. وينبغي أن يكون لكل مراهق سريره الخاص إن لم نقل غرفته. ولكن لايجب أن تكون الغرفة بعيدة أو معزولة عن مراقبة الكبار.

وللوصول إلى غاية التصحح العقلي الجيد، يقترح هول: "ربما تكون مثاليات العفة التي يمكن عرضها علىالشباب أثناء هذه الفترة المتطاولة من الاختبار هي الأكثر سمواً. وهو ثمنٌ باهظ يتوجب على الرجل دفعه لقاء اكتمال النضج. الكسل والحياة المأمونة للطلبة يسعّران الإغراء، وكذلك تفعل التغذية المفرطة التي تزيد العقم، إلى الحد الذي ينفصل فيه الميل إلى الاستمتاع والقدرة الفعالة للوالدية اللذان وحّدهما الإله والطبيعة، وفي فترة ما قد تكون متغيرة يصبحان، عكسياً، كل منهما كالآخر".

ومع أن هول كان أسلم طوية وأنبل مقصداً من أكثر الذين علقوا على مشكلة الاستمناء، فمن الواضح أنه ربط بين العادة السرية وبين ضعف الإيمان وتخريب الأسلوب المسيحي للحياة. كان هول عالماً نفسياً من الطراز الأول، مع ذلك، كانت لهجته الإنجيلية حول هذا الموضوع غريبة وأحياناً مضحكة. إن ماعجز هول عن فهمه هو أن العادة السرية، كأي ملمح من ملامح المراهقة-إضفاء الصفات المثالية، والتحديات، والولوع- يمكن أن تتحسن أيضاً مع توقف عملية النمو. فالمشكلة لاتتمثل في العادة السرية كنشاط عام بل، على الأصح، بوظيفتها في كل حالة على حدة. وهكذا، على الرغم من بداهة بعض مما انطوت عليه وجهة نظر هول حول وجوب تأجيل انغماس المراهق في النشاط الجنسي الراشد، فقد عجز عن إدراك أن العادة السرية قد تشكل سياجاً ضد النشاط التناسلي المبكر. ولكنه، في الواقع، لم يستصوب أي شكل من أشكال النشاط الجنسي إذا لم يكن على علاقة بالإنسال والحياة الأسرية، وهو في هذه النقطة، يشارك إلى حد بعيد في الأخلاقية الرسمية لعصره.

انتهى المحللون النفسيون إلى تقدير أن ماهو عصيب حول العادة السرية ليست ممارستها بشكل عام وإنما الدور الذي تمثله في قضايا المراهقة. وبهذا المعنى، قد يعمل الاسمناء أحياناً على تعزيز النكوص ويعرقل جوانب الحركة التقدمية لنمو المراهق. وعن طريق غرضها المجرد في تأمين الملذات الجنسية، بدون أي من النزاعات التي ترافق العلاقة مع شخص آخر، يمكن للعادة السرية أن ترسخ الميول المحافظة النكوصية التي يمكن بسهولة كبيرة إرجاعها إلى حالتها السابقة في التاريخ الإنساني. وقد تصبح كابحاً ضرورياً ومألوفاً للتوتر. وهي، مع مايرافقها من تخيلات، قد تعمل على إدامة الغلبة للنشاط الجنسي الطفولي. وقد يبلغ الاستمناء درجات مرضية عن طريق تعزيزه للأنماط الجنسية الطفولية أكثر من عمله على تخفيفها وإعادة تنظيمها.

عندما تتعزز التعلقات المرضية الطفولية، يتخلى المراهق عن تحديات المنافسة الجنسية. ويمكن أن تتعزز الأشواق السلبية عند الصبي نحو أبيه، تلك الأشواق التي كثيراً ماتبلغ ذروتها في رغبته باحتلال موقع الأم عند الأب، من خلال الخيال الاستمنائي. وفي التخيلات العادية اللاواعية عند المستمني التي تعبر عن هذه الأشواق، يتظاهر الصبي بأن ليس له قضيب لكي لايعتبر خطراً. وبعدئذٍ قد تتواصل خيالات إنكار القضيب لتمثل انسحاباً أبعد من النشاط الجنسي التناسلي. فتقتصر رغبات الصبي على أن يكون موضع رعاية، وأن يُدلَّل، ويُلاطَف، ويُقدَّم له الغذاء، ويُنَظَّف، وأن يُصفَع على إليتيه، وأن يُعطَى حقنة أو يُطعَم من الثدي من قبل شكل أمومي. هذه التخيلات تغذي عنده كراشد رغباته بالتساهل معه سلبياً وأن يكون موضع رعاية. فهو يتوقع ويلتمس حماية واهتماماً أموميين من البيئة الاجتماعية بالذات. وسوف لن يكون قادراً على تقبل الاحتياجات الواقعية للوجود المستقل. ولكي يضمن إشباع أشواقه السلبية، يخضع مختاراً لأي إهانة قد ينزلها به حُماتُه. ويطيع خانعاً وثنه المقتدر الذي يصطلي بفيض إشعاعه. والمثاليات التي بها يقيس نفسه، هي مثاليات الرضيع التي تتسم بالمبالغة الحمقاء. وتتأكد العيون اليقظة والأصوات التي لاتقول شيئاً من أن الإشباع السلبي لحاجاته ينطوي في حد ذاته على عقاب كاف لتخفيف أي إحساس داخلي بالخجل والإثم. وتبقى حياته الاجتماعية وحياته الأخلاقية طفوليتان كحياته الجنسية.

ليس هناك من سبب يدعو بنت شابّة لأنّ تضع الآخرين في اعتبارها بقصد الحصول على شريك جنسي بينما تجد كافة مصادر المتعة في داخل ذاتها. فهي ليس

مطلوباً منها أن تنهمك في مشكلات الاختلافات التشريحية بين الجنسين. وليس مطلوباً منها أن توفر المتعة أو أن تناغم إيقاعاتها وإثاراتها الجنسية مع مثيلاتها عند الشريك المحبوب. لأنها في تخيلاتها الاستمنائية يمكنها أن تكون كل الحاجات، الفم والثدي، الشرج والهدف المولج. وبالتالي، لن يُطلَب منها أن تعمل على إيجاد حلٍّ للصراعات بين السلبية والإيجابية، والعطاء والأخذ، التي هي أولويات على جدول الأعمال عند اليافع. يتضمن جدول الأعمال عند المراهق مشكلة كيف يتصرف الطفل الذي كان موضع رعاية وخاضعاً للقوانين لكي يصبح راعياً ومشرعاً. فإذا لم يتعلم كيف يسلك بدون الاعتماد على المحاورات القديمة، عندئذٍ تتغلب الحياة الأخلاقية البدائية. وتخشى البنت من احتمال حدوث الإحباطات والصراعات في الوجود المستقل، لذلك قد تعمد إلى التنازل عن حقوقها إلى النشاط التناسلي والسلطة الأخلاقية. ويمكنها أن تكون في تخيلاتها الاستمنائية العبد والسيد معاً. وفي علاقاتها مع الآخرين ستكون شبيهة برضيع عاجز يتصور أن عليه أن يضحي بالحب لكي يشعر بالقوة ثم ينكرها لكي يشعر بأنه محبوب.

وبمقدار مايمثل الخيال الاستمنائي استسلاماً عاطفياً للماضي، أي تنازلاً سلبياً عن الجسد للأم أو للأب، يصبح الفعل الاستمنائي تعبيراً عن الكره للأعضاء التناسلية والذات التناسلية. وبذلك تصبح العادة السرية مرتبطة بحنق الضمير البدائي. وبالتالي يصعب اندماج الرغبة الجنسية الشخصية مع متطلبات النظام الاجتماعي.

وقد يصبح الاستمناء تعبيراً عن مأزق قتالي كما هي الحال مع كافة النشاطات النكوصية في المراهقة، وخصوصاً عند أولئك الذين يظهرون حتمية النكوص الموقت من محاورات الحب إلى النرجسية. أو قد يصبح عرضياً لجاذبية منحرفة نحو إشباع الحاجات الجنسية بطريقة طفولية. أو قد يضمن استبدال الوجود الخيالي بالحياة في العالم الواقعي: "يمكنني أن ألهو تماماً في الحياة؛ لايفترض بي أن أحياها". من ناحية أخرى، قد يحسّن الاستمناء حركة التطور إلى أمام. وهو من الناحية النموذجية، يرافق إلى حين وبدرجات مختلفة، كل هذه الاحتمالات.

عندما تكون المفاتن الطفولية شديدة الإلحاح، يصبح الاستمناء أيضاً وسيلة أخرى لتخليد صيغ الحب والكره عند البالغين. ويصبح شكلاً آخر من الاستسلام العاطفي، انعطافاً آخر عن خط السير إلى النشاط الجنسي الراشد. إن الانزلاق أعمق فأعمق إلى التخيل، أو التشوق للإشباع السلبي، أو الوقوع في حب الأعضاء التناسلية الذاتية، أو الاهتمام

المحصور بالأعضاء التناسلية عند الآخرين يحول دون التركيز العاطفي أو الفيزيائي على شخص واقعي.

ولكن الشبقية الذاتية عندما تسلك هذه الممرات، فإنها تكون عرضاً واحداً فقط من بين كثير من أعراض ميل مرضي مُعَمَّم وليست أبداً هي *سبب* النكوص. يبدأ النكوص والسبيل الذي يتخذه عن طريق الصراعات التي تحدق بانتقال المراهق وحداده وعن طريق التعلقات المرضية والكوابح التي تتولد في المرحلة الطفولية. وفي الواقع، يمكن للاستمناء عنده أن يعمل على تحسين النمو عن طريق السماح للشخص الراشد الذي مايزال في طور النشوء أن يطالب بامتلاك جسده الجديد وأن يتعرف على تعقيدات إستثارة الأعضاء التناسلية وتفريغها. وهي الطريقة الوحيدة التي بها ينقذ جسده من التبعيات الطفولية. وعندما يبعد نفسه عن مداعبات الوالدين ونظراتهما الرقيقة، يتعلم أن يحب ويفهم جسده بصورة مستقلة.

هنا يقول المراهق "الجسد جسدي. وأنا المسؤول عن مكان وأسلوب وزمان إشباعه". وفي الوقت نفسه، يمكن للتخيلات التي تترافق بإثارة الأعضاء التناسلية وتفريغها أن تدفع البنت البالغة إلى بدايات التماس مع الأعضاء التناسلية عند الجنس المقابل. وفي تخيلاتها الاستمنائية- التي هي تصويرية بالدرجة الأولى، مع مايرافقها من سيناريوهات لفظية- تكون البنت في وقت واحد هي الذات والآخر. والذات والآخر هي نسخ مترجمة أيضاً عن الوالدين. وقبل البلوغ، تكون سناريوهات الجماع نسخاً مترجمة أيضاً لما يمكن للبنت أن تتخيل حدوثه بين والديها. وبما أنها مستبعدة من تبادلات المحاورة التناسلية-التناسلية، فإن ماتراه وتسمعه أو مالا تراه ولا تسمعه مما يجري بين والديها سوف يُترجَم إلى تلك الإثارات الشبقية التي تشارك فيها-إرضاع الثدي، الصفع على القفا، النظر إليها، طرحها أرضاً بالقوة، قذفها في الهواء وتلقيها في آخر لحظة.

قبل البلوغ الحقيقي، لن يُشرَع في اتخاذ قرار حول حدود المسموح والممنوع من الرغبة الطفولية. وعندما يقترب الصبي أوالبنت من البلوغ، تستبدل الترجمات الطفولية للسلوك الجنسي تدريجياً بالتخيلات التي تتضمن إثارة الأعضاء التناسلية وتفريغها. وعلى خلاف تخيلات الاستمناء في فترة الكمون والبلوغ المبكر، فإن تخيلات البلوغ الحقيقي تتضمن صوراً للشركاء المشتركين في الجماع التناسلي. فمجرى القصة يتضمن الإحتمالات المختارة لطليعة اللذة الجنسية، ولكن هذه الاحتمالات تُصنَّف ضمن موضوع

نضج الأعضاء التناسلية واحتمال تفريغها بشكل تام. وأحياناً تكون التخيلات شبيهة بأحلام اليقظة التي تتطاول بما يشبه القصص القصيرة.

العادة السرية عمل جنسي سري، يكتسب فيه النشاط التناسلي معنى عاطفياً يتمثل في أمن الأفكار الخاصة لدى المرء. وهو فعل تجريبي، أي وسيلة لاختبار المقبول وغير المقبول من الأفكار، والمشاعر، والإشباعات الجنسية، وأيها يمكن أو لايمكن أن تشارك في النشاط التناسلي. ويعمل كل مراهق على تكوين ترتيب خاص ترتبط به طلائع اللذة الجنسية الطفولية وتفريغ الأعضاء التناسلية.

الاستمناء التناسلي عند المراهق نشاط جنسي محدد الطور يعمل شيئاً فشيئاً على تجريد طلائع اللذة الجنسية من مقاصدها الشبقية المستقلة وتخصيص هذه المقاصد تدريجياً لأدوار استثارية وتمهيدية. فتصبح أعضاء التناسل أعضاء تفريغ وإنجاز. وهو، كفعل فيزيائي، خالٍ من طليعة اللذة الجنسية الحقيقية. رغم ذلك، تتضمن التخيلات إمكانية تمثيل أي نوع من هذه اللذة الطليعية. وفي الوقت نفسه، يعمل النشاط الاستمنائي على تشجيع الإثارة الشبقية للخصيتين، والبروستات، والقضيب والبظر، والأشفار، والدهليز المهبلي. وعن طريق الاستمناء، تُختبر الرغبات الطفولية في سياق نضج أعضاء التناسل. يتضمن الخيال الاستمنائي المركزي النهائي المفصل تماماً الإشباعات الطفولية المجازة والاندماجات الجنسية التناسلية الرئيسية. والامتناع عن الاستمناء يعوق تكامل الرغبات الطفولية مع الرغبة التناسلية ويشجع موقفاً كئيباً بيوريتانياً فيما يتعلق بالجماع.

وعلى خلاف العادة السرية، يمكن للنشاط الجنسي المغاير المبكر أن يتدخل في التفصيلات الكثيرة للحياة الشهوانية، وهو العمل البطيء للخيال الذي يوحد رغبات الحب الطفولي مع النشاط التناسلي الراشد. كثيراً مايمثل الأداء الجنسي المغاير المبكر خوفاً شخصياً من الجذب النكوصي للجوع الجنسي الطفولي-الخوف من أن لايكون المرء قادراً على تسليم الجسد للأم أو للأب، أي الخوف من الجنوسية والانحراف.

إن طفرة النمو بوجه عام وخصوصاً نضج الأعضاء التناسلية هي، بالنسبة للصبيان والبنات الذين يجتازون هذه التبدلات الفيزيائية، حوادث مثيرة تستحوذ على انتباههم وخيالهم. فعندما يقترب الصبي من البلوغ، ينهمك في مراقبة نمو قضيبه وخصيتيه حجماً وطولاً، وصفنه الذي يصبح أكثر استرخاء وانصباغاً. وتصبح الانتصابات أكثر تكراراً وأطول أمداً. كما تحدث زيادة في القدرة على قذف كميات أكبر من المني بتواتر أكبر،

وتستقبل هذه الحوادث باعتزاز مقترن بخوف رهيب من الضرر التناسلي. هذه التفاعلات المتناقضة من الناحية العاطفية تخلق نوعاً من الانهماكات الحلقية بالأعضاء التناسلية. فمخاوف الخصاء تنبه الدوافع الاستمنائية بهدف الاطمئنان، وهذه بدورها تفاقم مخاوف الخصاء. ويكون الصبي مستعداً، يكافح لتفادي الإغراء. مع ذلك، يبدو أن الإثارة الجنسية كالبرق لايمكن تحديد المكان الذي تندفع منه. والإثارة التناسلية متكررة وشديدة، ينبهها بسهولة عدد كبير من الصور والأفكار، التي تتطلب سرعة الدفق والتفريج. وتتصارع طقوس الاستمناء الطويلة والدقيقة في فترتي الكمون والبلوغ المبكر مع الرغبة الجديدة في بلوغ ذروة التهيج الجنسي بأسرع مايمكن.

واليوم، يصبح التزليق الطقوسي للقضيب والتخطيط لطرح المني، اللذان كانا يساعدان الصبي صغيراً على تأخير الإثارة والتفريغ، عائقين في سبيل الرغبة في التوصل إلى سرعة الإشباع. وتعمل الأحاسيس المؤلمة الناتجة عن امتلاء وصلابة القضيب أثناء تأخر التفريغ على تعزيز المخاوف الوسواسية التي تعتبر إلى حد بعيد جزءاً من وجود المراهق. محيطياً، يشعر الصبي بنبضات في رأسه، وتسارع محموم في سرعة ضربات قلبه وتنفسه، وإحساس بالحرارة في كل مكان، وانكماش وتصلب في الصفن. وعندما يتسارع النظم الإيغافي ويبلغ الذروة، تصبح الإثارة شاملة ومختلفة كلياً عن ممارسات سنوات الكمون الاستمنائية الطقوسية التقليدية الأقل حدة والتي يمكن التحكم بها بسهولة أكبر. والإيغاف اليوم بات يسبب تفريجاً مثيراً كبير لكنه تفريج يرافقه إحساس حاد بالخيبة. وكثيراً مايفسر إحساسه التالي بالتعب على أنه نتيجة لاستنزاف السوائل الحيوية والطاقة من جسده.

وتَخْبُرُ البنت في بداية بلوغها نعوظ حلمتي الثديين عندما تتصلبان وتبدآن بالبروز من الهالة ويتكور الثديان. وتحاول أحياناً إخفاء حلمتيها تحت ملابس فضفاضة مناسبة. وفي أحيان أخرى، تحاول عرضهما باعتزاز عن طريق ارتدائها ملابس ضيقة كالكنزة أو البلوزة. وتشغلها روائح التعرق، وحب الشباب، والشحم فوق الوركين والفخذين، والشعر الناعم فوق الساقين، وشعر الإبطين. وتدرك، حتى قبل أن يبدأ الحيض عندها، بحدة الإثارة الجنسية للبظر، والأشفار، والفرج. وتتمثل التقنيات الاستمنائية عندها أثناء البلوغ المبكر بجهود تبذلها لتوحيد هذه الأحاسيس الشهوانية المتيسرة بوفرة مع تلك الأحاسيس الغامضة من المدخل. كما أن ضغط الفخذين والضغط على ناحية العانة يشكلان تقنيتين استمنائيتين

لمحاولة توحيد أحاسيس الأعضاء التناسلية الخارجية والداخلية. وكثيراً ماتترافق هذه التقنيات بتخيلات اختراق المدخل بشكل قسري، مع ذلك، فإن عدداً قليلاً جداً من البنات يخترقن أو يولِجْنَ أصابعهن أو أشياء أخرى في المدخل. أما الاستمناء المهبلي فنادر، وإذا مورس، فإنما يمارس بصورة موقتة.

عندما تبدأ الدورات الإباضية عند البنت، تعمل التقلصات الرحمية ومِزَق النسيج والدم على إيقاظ مخاوفها من تمزقها إلى نتفٍ، ومن تحطم جسمها من الداخل. ولكي تكبح هذه المخاوف، قد تلجأ إلى الهجوم الدفاعي على أعضائها التناسلية الخارجية فتحاول اقتحام المدخل أثناء الاسمناء. وبدلاً من الخضوع السلبي للهجوم المخيف على أجزائها الداخلية، تصبح هي المهاجمة. وفيما بعد، عندما تهدأ تلك المخاوف الأولية، سرعان ماتعود البنت عادة إلى الطرق المألوفة والرقيقة كشد الفخذين والتقليص الاختياري لعضلات الحوض والعضلة المَصَرَّة. فالضغط على كامل الناحية التناسلية بمنبه مباشر ما للبظر والحلمتين يصبح التقنية المركزية للاستمناء. ولكن هذه الطرق تستخدم اليوم لإطالة أمد إثارة الأعضاء التناسلية وتفريغها، ولاختبار الصعود التدريجي إلى ذروة الإثارة التناسلية، ولإيقاف التفريغ، والبدء من جديد.

وتضاف إغراءات الاغتصاب والاختراق القسري عند البنت إلى تخيلات المتعة الجنسية الطليعية الكثيرة التنوع، كإغراءات كونها يُنْظَر إليها، وتُرضَع، وتُداعَب. ولكن تخيل الاغتصاب لايستبعد. بل يتضخم بطلائع أخرى للمتعة الجنسية.

الاحتفاظ بدرجة ما من الإثارة التناسلية المتواصلة مهم بالنسبة لإحساس البنت في السيطرة على جسدها. فاستمرارية الإثارة تساعدها على مقاومة المخاوف من أن أجزاءها الداخلية قد تخرج أو تتخرب أثناء ممارسة الجماع. يتعاظم أحياناً هذا المستوى الواهن المعمم من الإثارة التناسلية ويزداد حدة بما يكفي لإحداث سلسلة من هزّات الجماع التلقائية. وقد تعقب هذه التفريغات اللاإرادية حالة مخيفة من التفاهة، والاستنزاف، والفراغ. خبرات الاستنزاف المرعبة هذه عقابيل مألوفة أيضاً للتفريغات الاستمنائية الموجهة، وخصوصاً عندما تكون حادة ومرضية. وعندئذٍ يُوَلّد الإحساس بالاستنزاف حاجة إلى الإنعاش بمنبه خارجي. فتصبح البنت تواقة لإحساس مثير.. فتبحث عن الارتعاشات. وتتورط في نشاطات خطرة. وتصبح إغرائية مع أعضاء الأسرة والأصدقاء. فتعبث، وتعذب، وتظهر جسدها. وعندما يستجاب لعروضها الجنسية بالمثل، ترد بالانسحاب. وعموماً، إن جهودها الاستمنائية تتجه

نحو المحافظة على الإثارة الجنسية على مستوى المداعبة التمهيدية، وتثبيط التفريغ إلى أطول فترة ممكنة، وتفادي خطر الاختراق.

تميل الملاطفة المتغايرة الجنس والعلاقات النكاحية بين الصبيان والبنات في بداية البلوغ لأن تكون مشحونة بالتوتر. فالبنت تستاء وتخاف من سرعة وانطلاق التفريغ المتعجل عند الصبي. ويصاب الصبي بدوره بالارتباك ويعتريه الغضب لأن البنت تفضل الاستثارة بالمداعبة والإثارة التي تتصاعد ببطء. يعاني الصبيان والبنات جميعاً من عذاب تعاقب نوبات الإثارة التناسلية ومشاعر التعب والتفاهة التي تنتج عن المعارك الاستمنائية. وفهمهم للعلاقات بين المداعبة التمهيدية والتفريغ التناسلي مايزال ملتبساً. وهم، مالم يستحثوا في وقت مبكر إلى منافسة وأداء جنسيين من قبل أندادهم أو آبائهم، أو عن طريق بعض الاتجاهات الاجتماعية السائدة، فإن نشاطاتهم الجنسية سوف تقتصر على الملاطفة الهادئة ومن ضمنها التقبيل والتماس الجسدي الحميم بلباس كامل. إن تردد البنت وخوفها من الاختراق يعيّنان حدود هذه المواجهات الجنسية ويخمدان العدوان الجنسي لدى الصبي. يرتاح كثير من الصبيان في بداية البلوغ لتعيين هذه الحدود–حتى على الرغم من غضبهم لاحتقار بسالتهم الذكورية وألمهم فيزيائياً لحاجتهم إلى تثبيط القذف. إن هذه العلاقات المبكرة المتغايرة الجنس قلما تؤدي إلى هزة التهيج الجنسي.

تعمل المداعبة الجنسية المتغايرة الجنس على مساعدة المراهق في أن يصبح أكثر دراية بأعضاء التناسل والنظوم الجنسية عند الجنس المقابل. ومن خلال هذه العلاقات الجنسية الأولى، يكتسب الصبيان والبنات حساً تجريبياً بالواقعية حول النشاط التناسلي. فيقابلون هذه الخبرات مع تخيلاتهم الاستمنائية. مع ذلك، هناك عوائق تنشأ في مطلع مرحلة البلوغ من الاختلافات العاطفية بين الصبيان والبنات، تعوق طبيعة الألفة الحميمة الحقيقية والاهتمام المتبادل اللذين سيتطوران فيما بعد على نحو مثالي. وحتى بعد البلوغ الحقيقي، عندما تصبح الملاطفة أكثر إتقاناً ويمكن أن تؤدي إلى هزة التهيج الجنسي، يستخدم الصبيان هذه المواجهات الجنسية لتعزيز إحساسهم الهش بالذكورة. فهم يستاؤون من الحاجات التبعية أياً كانت. ويخجلون ويخافون من تشوقهم لأن يكونوا موضع اهتمام ورعاية. والبنات، على العكس من ذلك، يَتُقْنَ الآن للتبعية والألفة الحميمة المطولة. يتوق الصبي إلى واقعية الفعل وسرعة التفريغ. أما البنت فتفكر أحياناً فقط برواية غرامية

حقيقية، وتدور خيالاتها حول إنجاز جنسي، وتتوسع حتى أنها كثيراً ماتنطوي على رغبتها في أن تكون راعية ومرعية من قبل شريك محبوب.

أثناء البلوغ المبكر يصل الصبيان والبنات، كما يبدو، إلى أقصى علاقة عاطفية مرضية بالنسبة لأجسادهم الراشدة الناشئة عن طريق التعامل بالإثارة والتفريغ في سريّة نشاطاتهم الشخصية الاستمنائية. أما بعد الوصول إلى البلوغ الطبيعي، فإن الملاطفة والملاطفة حتى هزة التهيج الجنسي تكمل الاستمناء بشكل تدريجي كشكلين رئيسيين من أشكال الإثارة والتفريغ الجنسيين. مع ذلك، يستمر الاستمناء نفسه في تأمين درجة ما من التكامل الجسدي–العقلي ودرجة كبيرة من المتعة الشبقية. ولكن نتيجته إثم، وقلق حول ضرر الجسم، وخجل متجدد لعدم التمتع بقدرة كافية لمقاومته. وما تزال التخيلات المتطورة تتضمن معان إضافية للعظمة والقدرة المطلقة. ولكن الآثار اللاحقة هي مشاعر الدونية واتهامات الذات بسبب الأفكار والصور الذهنية المخجلة.

يشير الغياب التام للعادة السرية أثناء المراهقة إلى العجز عن التعامل مع الدوافع الشبقية. ولكن البنت المراهقة تظن بأن الاستسلام للحوافز الاستمنائية يعني أنها محكومة بالجوع الجنسي لا بكبح جسدها. فيعمل الصراع الداخلي ضد العادة السرية على مسؤوليته بدون الحاجة إلى التذكير الخارجي الذي تمارسه المحرمات الوقائية. ويضمن هذا الصراع أن يؤدي النمو التصاعدي إلى النصر. والبنت المراهقة لاتحقق نصراً نهائياً على العادة السرية بصورة عاجلة أو دائمة، ولكن الحب الجسدي يحقق نصراً على الضمير القديم. فتُخفَّف بعض المحظورات الجنسية التي نشأت أثناء بناء الضمير الطفولي. وأخيراً، يعمل الاستمناء، مع مايرافقه من تخيلات وما يولّده من صراعات داخلية، على مساعدتها في ادعاء امتلاكها لجسدها وذاتها كراشدة محبوبة ومُحِبَّة ومؤهلة للتعبير الكامل عن النشاط التناسلي. وتسمح الترجمة الراشدة للفعل الجنسي بالتعبير عن جوانب الجوع الجنسي الطفولي التي كانت محظورة سابقاً.

يجب على المراهقين المعاصرين، الذين يفتقرون إلى أنظمة أصولية وثابتة للمجتمعات التقليدية، أن يضعوا في اعتبارهم، سواء لجهة الأفضل أو الأسوأ، مسألة العودة إلى الأنماط الطفولية لكي يكون المرء موضع حب. ومن خلال تفصيلات تخيلاتها لمحاورات الحب الطفولي، تهيء البنت المراهقة نفسها للحب التناسلي؛ وتكون لديها فرصة لاختبار مرونة استجاباتها الجنسية. هل ينبغي لي أن أستسلم لرغبتي مع عدم السماح

بامتلاكي؟ هل يُسمَح لي بأن أصبح راشدة، بأعضـاء تناسلية راشـدة؟ هـل يفترض بي أن أتنكر لجسدي والأحاسيس الصادرة منه لكي يُسمَح لي بأن أصبـح راشـدة؟ هـل أنـا عاجزة عن مواجهة أشواقي حتى أعود إلى الماضي؟ هل أنـا المسؤولة عن تخيلاتـي الغرامية أم أنني مبتلاة بها؟ هل يمثل شعر العانة والثديان عندي شذوذاً؟ أم إثماً؟ بأي من طلائـع اللذة الجنسية يمكنني أن أستمتع عند مشاركتي لشخص آخر في الوصال الجنسي؟ أي منها يجب أن أحيله إلى الخيال؟ عن أي من متعـاتي الطفوليـة يجـب أن أتخلـى بصـورة نهائيـة؟ هل يسمح لي بالنشاط التناسلي فقط إذا رفضت الخضوع للرضع، والنظر، والعض؟

خيال الاستمناء محاولة متفردة وجريئة يقوم بهـا المـرء لفهـم جسـده، لكـي يحب أو يكره ذاته الخاصة وجسده الخاص بطريقة موجهة ومنظمة فـي علاقـة خياليـة مـع شخص آخر. وبهذه الوسيلة يصبح المراهـق ببـطء قـادراً فيزيائيـاً علـى حـب شـخص حقيقـي عن طريق إضافة عدد من المتعات الطفولية-كالنظر، والعض، والملامسة، واللعق، والتربيت، والرضع، والمداعبة- إلى التماس التناسلي المتبادل.

9

النرجسية II

الفن الشبقي وأحلام المجد

شبهات هول حول فصل الربيع والإثارات الشبقية الناجمة عن فرط التخيل، والتمدد في السرير، والسير البطيء المترف، وحتى اللباس المحكم، لها مايبررها. ولكن بمقدار مايمكن لهذه المنبهات أن تغري فتاة مراهقة بالاستمناء، فإنها تغريها أيضاً بالوصال الجنسي مع شخص آخر. فعلاقات أول حب لها تولد في الربيع، في وقت الصباح، في وقت الفجر، من نعوظ حلمتيها، من الحفيف الملحاح لثيابها على فخذيها الناعمين المستديرين الممتلئين وهي تتهادى بترف في الشارع. كل شيء يتآمر عملياً لتحقيق التماس الجسدي بينها وبين فتى أحلامها.

في السنوات الأولى من فتوتهم، يصبح معظم الفتيان والفتيات على دراية بتبدلات أجسادهم، وأعضائهم التناسلية، وصفاتهم الجنسية الثانوية الظاهرة. فالفتيات يتكيفن مع التبدلات الدورية؛ ويتعلم الفتيان كيف يكبحون أو لايكبحون الانتصابات عندهم. وتصل الصراعات الاستمنائية إلى الأوج. يكافح الفتيان بعنف لتأكيد ذكوريّتهم؛ وتعمل الفتيات في محاولة للتوفيق بين أنوثتهن وحبهن لأمهاتهن. وكلا الجنسين يناضلان لمقاومة الانجذاب إلى الأم الراعية. وتقتصر المداعبة الجنسية بين الفتيات والفتيان على "الاستكشاف"–عناق لطيف وملاطفة–وهي من حيث الجوهر ماتزال استمنائية بالدرجة الأولى–أي أن الشبق هو محاولة للتآلف مع الأحاسيس التي تثيرها الأعضاء التناسلية للمرء بالذات.

تلي مرحلةَ ماقبل البلوغ هذه، أي مرحلة النمو الشامل والاستغراق الذاتي المضطربة، مرحلةُ الإيضاح والتكامل التي تأتي مع البلوغ الحقيقي. وتصبح الاختلافات بين الجنسين والاختلافات في الصفات الجسدية والعاطفية، في الطفولة والرشد، أكثر استقراراً وأوضح تحديداً. فملامح الوجه، وتوزع الشعر، وشكل الجسم تكون راشدة في

مظهرها. يبلغ الرشد بالمعنى الفيزيائي في السابعة عشرة من العمر 50% تقريباً من الفتيان المراهقين. وفي الحادية والعشرين ينضج جنسياً كل الفتيان تقريباً. وفي التاسعة عشرة أو العشرين من العمر، يصبح لدى معظم الفتيات دورات إباضة منتظمة، وهن قبل ذلك بعدة سنوات يظهرن ويتصرفن على نحو أكثر شبهاً بالنساء. وأثناء البلوغ، تبدأ الصفات الجنسية الثانوية للجنس المقابل بالارتباط بالرغبات الزواجية، بالتشوق إلى العلاقات العشقيّة الثابتة، بالنشاط الجنسي التناسلي، والإنجاب. فالبلوغ هو ربيع الطفولة، وهو البوابة إلى الرشد.

درجنا على إدراك أن الربيع، بالنسبة للطبيعة، هو الزمن المعروف بفصل التزاوج. "في الربيع تتحول سوسنة مفعمة بالحياة إلى حمامة لامعة؛ في الربيع يتحول خيال الشاب بيسر إلى أفكار الحب". الحياة طافحة بألوان جديدة. والهواء مفعم بالأغاني. وتظهر زوائد جديدة على أجسام الحيوانات تبشر بقدوم الفصل–أعراف، قرون، أشعار انتصابية، قنازع، ريشة زواجية. والماعز والقرود تطور لِحىً. ويكتسب الحُباحِب إشعاع حبه. ويزهو العشب والهواء بالروائح والصخب. وتئز الحشرات وتصرصر. وتفتح العصافير أجنحتها لإظهار ألوانها الرائعة؛ فتصفق الأجنحة وتصلصل. وتختال الثدييات وتمرح. فالعالم الحيواني غارق في تمثيل فنون الحب، دعوات الحب، رقصات الحب–إنه الفن الشبقي لفصل الربيع.

يقبل المراهقون على استمرارية كل هذا عن طريق المبالغة وتعديل صفاتهم الجنسية. ويتضمن الفن الشبقي عند كل الجنس الإنساني التشويهات الجسدية، والوشم، وحلاقة الشعر أو تركه ينمو إلى أطول حد ممكن.

كل جنس يعرف تماما الخصائص الجنسية الثانوية عند الجنس الآخر وتثيره تلك الخصائص: الحلمات، النهود، المناكب العريضة، الأكتاف المنحنية الضيقة، الأهداب الطويلة، الحواجب المقوسة الرفيعة، الصدر الأشعر، الأذرع والسيقان الناعمة، الغمازات، العيون المميزة، العيون المائلة الضيقة، الأصوات الخشنة، الأصوات الإيقاعية العذبة، لثغات الألسنة، اللهجات، المقامات المرتفعة للأصوات، الشعر الأجعد، الشعر الفلفلي القصير، شحمة الأذن الصغيرة جداً، انحناء الإصبع القرنفلي، قوس القدم. وتتنوّع الإشارات التي تولد الشبق عند النوع الإنساني وتتبدل بشكل دائم. وتتعزز قابلية التبدل عن طريق طول فترة الاعتماد على الأم والأب باستعرضاتهما الفريدة المولِّدة للشبق –

التبويزات الخاصة، التجهمات، الإشارات، أساليب الضحك، البكاء، تغيرات مقام الصوت، الوَضْعات، خطوات المشي، شكل العيون، لون العيون وتركيبها.

تختار الشّابّة من بين هذا العدد الواسع من الإمكانيات الإنسانية المولِّدة للشبق أجزاء من جسدها لتعرضها أو تخفيها، تبالغ فيها أو تقلصها، تزينها، تشوهها-أية إشارة، أي تجهم، أية وَضْعة، أي مقام للصوت؛ أية طريقة لتجميل وجهها وتصفيف شعرها. فتصبح تلك هي مستلزمات فنها الشبقي الفريد التي ستتكرر دائماً.

ويقدم النظام الاجتماعي أزياءه المعتمدة في اللباس والزينة: بلوزات عالية مكشكشة، ياقات محفورة، سراويل ضيقة، سراويل فضفاضة، مظلات، مناديل، قبعات مستديرة، قبعات قشية، أقراط طويلة، حلقات أنفية، أشرطة، أساور، خلاخيل، عصائب الأذرع، عصائب الرؤوس، الريش، مسكرة العيون، علامات سهم كيوبيد على الشفتين، اللاتبرج، سلاسل الساعات، الأسنان المحشوة بالذهب. وسيختار جيل المراهقين من تلك النماذج السائدة مايجعلهم جيلاً مستقلاً مع أفضلياته الفريدة المولدة للشبق. عندما تكون الأخلاق والعادات في النظام الاجتماعي في حالة انتقال، يصبح التأكيد على اختلافات الأجيال أكثر إلحاحاً بالنسبة للشباب. وفي أوقات كهذه سوف يبتكرون مزيداً من المجازات المثيرة والمزخرفة لتزيين الجسد.

في بداية مرحلة ماقبل البلوغ، يتقدم التكيف مع نظام ملابس الجيل من خلال العرض الشبقي والتفرد. وبعد الوصول إلى البلوغ، يحاول كل مراهق أن يركّب صورة ذاتية أكثر لما يعنيه امتلاكه لجسد جنسي راشد. ماهي مفردات الملابس أو زينة الجسم أو أساليب الحديث والمشي التي تميزني كعضو في جيلي؟ وأي المواد يجب أن يتضمنها لتلبية قيم أسرتي وطبقتي الاجتماعية؟ وما هي المواد التي تظهر بشكل مطلق بأنني أمرأة ولست رجلاً؟ إلى أي مدى أجرؤ على أن أكون مختلفة؟ أم يجب أن تكون لدي الجرأة على أن أكون مختلفة؟

ليس مهماً إلى أي عمق تتجذر تلك الاستعراضات الشبقية في شخصية المراهق، ولكن المهم أنها تهدف إلى تأكيد الوصول إلى النشاط الجنسي الراشد، والتمييز بين الذكر والأنثى، واختلاف الجيل. يمكن لفتاة شابّة أن ترتدي سروالاً وقميصاً خيطَ لرجل. كما يمكن لشابٍّ أن يُجَمِّل عينيه بمواد التجميل، وأن يضع ريشاً في شعره، وعقداً في عنقه. يمكن لزوجين مراهقين أن يحجبا اختلاف الجنس بينهما عن طريق اللباس، وتهذيب الشعر،

واستخدام وسائل التبرج، واختيار الحلي بحيث يبدوان متشابهين إلى أبعد حد ممكن. ويشدد هؤلاء الشباب على اختلاف الأجيال ويهزأون بالمصطلحات الجنسية للنظام الاجتماعي الراشد. ولكن الطبيعة الشبقية الصريحة في وضْعاتهم، وإشاراتهم، وخطواتهم، وزخارف اللباس والجسد عندهم لاتغيب عن الفهم. ثم أننا لانحتاج إلى قدرات خارقة لتمييز المرأة من الرجل.

كما تتأثر قرارات الفتاة حول أي الأجزاء من جسدها يجب أن تضخمها، أوتقلصها، أوتشوهها، أوتحجبها بتخيلاتها حول طليعة اللذة الجنسية التي كانت قد طورتها منذ بدايات فترة ماقبل البلوغ. تلك الخيالات التي كانت قد نسجتها في البداية كوسيلة لتخفيف القلق المرتبط بسرعة النمو. وبعد الوصول إلى البلوغ، يتداخل بقوة أسلوب الحبكة والصور الذهنية مع حقائق امتلاك أعضاء تناسلية راشدة ورغبات راشدة من أجل مشاركة جنسية. وفي تركيبها لمظهرها المثير للشهوة الجنسية، تدل الفتاة شريكها الجنسي المحتمل على أجزاء جسدها التي أعدتها لكي تكون معالم لطليعة اللذة. يضاف إلى ذلك أنها تُسقِطُ صورة ذاتها كأنثى، وتأمل أن تجد هذه الصورة معكوسة في نظرات وإيماءات الحب عند شريكها الجنسي.

وعلى الأساس نفسه تقريباً، يكوّن الشّاب فنه الشبقي. فقبل ذهابه إلى موعد مع امرأة يعرفها، أو إلى مجرد لقاء مع واحدة يأمل أن يلقاها، يهذب شعره، ويجرب العبوس، والنظرات، والوضعات أمام المرآة، ويستقر على الملابس التي تبرز ذكوريته بشكل فعال- القميص التائي الذي يظهر كتفيه العريضين، والسروال الضيق الذي يشد الانتباه إلى أعضائه التناسلية، وأليتيه، وفخذيه، وربلتي ساقيه، وحذاء قذر كدليل على تحرره من الوضع الاجتماعي. ويضع أيضاً في عنقه طوقاً ذهبياً للتشديد على وضعه. ويأمل الشاب في أن يجتذب شريكة جنسية، ويحلم بأنها سوف تستجيب شبقياً لتلك الأجزاء المذكرة والقوية من جسمه.

يرتاح الشاب، أثناء ممارسة الحب، عندما يكتشف أن بإمكانه الاعتماد على الإشارات التمهيدية من شريكته. والمراهق الذكر يشعر بالطمأنينة مع استبارات الخطوة خطوة في المداعبة وطليعة اللذة. فهذه الاستبارات تتيح له الوقت لاكتشاف فم الفتاة، وحلمتيها، وفرجها، وردفيها، ونحرها. ويتأكد من الاختلافات بين الخطوط المحيطية في جسدها وجسده. إنها أنثى. وتطمئن الفتاة من ناحيتها أيضاً على أنوثتها وكونها مرغوبة

كشريكة في الحب عندما تكتشف أن إيماءاتها بخصوص طليعة اللذة مستحسنة ومفهومة. قد تكون الملاطفة بمثابة إجراء تمهيدي للجماع الفعلي. إلا أن الملاطفة هي، بالقدر نفسه، غاية في حد ذاتها، وخصوصاً بين المراهقين الأصغر سناً وفي المراحل الأولى من العلاقة الجنسية. فالملاطفة في ذاتها ولذاتها، مهما كانت محدودة، يمكن أن توفر الإشباع الشبقي لكلا الشريكين.

تشارك كل الثدييات تقريباً في المداعبة الجنسية التي لاتؤدي أبداً إلىالجماع. والذكر عموماً هو الذي يستهل وينجز نشاطات الملاطفة الثديية، فيستخدم التنبيه الفمي أو اليدوي على سطوح جسد الأنثى وداخل أعضائها الجنسية وعليها. أما الثدييات غير الإنسانية، فمنطقة الفم أو الخطم عند الذكر هي العضو الأساسي الذي يستخدم للتمهيد الجنسي. وسواء كان ذلك بواسطة الفم، أو اليد، أو بانضغاط جسد على جسد، فإن أكثر مايؤدي إلى الإثارة والاستجابة الجنسيتين هو نوع من الاتصال اللمسي. وفي حين أن المستقبلات الشبقية الأساسية عند الحشرات هي أعضاء الشم والذوق، وعند العصافير أعضاء الإبصار والسمع، فإن المستقبلات الجنسية الأساسية عند الثدييات هي أعضاء اللمس الانتهائية التي تتوضع مباشرة تحت سطح الجلد وفي بعض المراكز العصبية الأكثر عمقاً في الجسم. وهناك بعض المناطق في أجسام الثدييات، تعرف بالمناطق الشبقة، غنية بمثل هذه الأعضاء اللمسية الانتهائية. فالمناطق المحيطة برأس القضيب والدهليز المهبلي تتميز بحساسية خاصة للتنبيه اللمسي. وتقوم مقام الجسور بين المراكز العصبية في الأعضاء الداخلية وبين المناطق العصبية التي هي على صلة مباشرة أكثر مع العالم الخارجي. وبناء على ذلك، يتعرض للإثارة الشبقية بدرجة عالية كامل سطح الجلد عند الإنسان؛ وراحتا اليدين والقدمين، وشحمتا الأذنين، والحلمتان، والخصيتان، والإبطان، ومنطقة الحوض، والأليتان، وأجفان العينين، وتحت خط الفك وحوله. ويمكن بمرافقة التخيل المناسب، تحقيق إثارة تكفي للوصول إلى الإيغاف عن طريق إثارة لمسية لأي منطقة شبقية.

تختلف طرق الملاطفة من مجتمع إلى آخر. وتعتمد هذه الخيارات إلى مدى كبير على تحديدات الذكر للمنطقة الشبقية عند الأنثى والتي لاتتوافق دائماً أو بالضرورة مع رغباتها. فالثديان مفضلان في بعض الثقافات؛ وفي ثقافات أخرى، يُفضَّل قفا العنق، والكاحلان، والردفان، وباطن الفخذين.

يمكننا أن نجد كافة أنواع الملاطفة التي يعرفها المراهقون اليوم في الأدب القديم الذي يدور حول الحب والغزل عند بني الإنسان. حتى في المجتمعات الأنجلوأمريكية التي كانت أكثر تحفظاً من الناحية الجنسية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، مورست على نطاق واسع بين الشباب، ذكوراً وإناثاً، نشاطات المداعبة الجنسية التي كانت توصف على أنها عبث، أو مغازلة، أو لهو، أوتقبيل، أو مداعبة. ويميل المراهقون في الوقت الحاضر إلى مباشرة الملاطفة في وقت أبكر من الأجيال السابقة. فهم أكثر صراحة وتقبلاً لهذه النشاطات. وتشيع كثيراً الملاطفة في حالة العري وحتى حدوث الإيغاف.

في البلدان الأنجلو أمريكية والغربية، يحتمل أن تتكون أولى تجارب الملاطفة من التماس الجسدي العام، والعناق، والتقبيل البسيط. وبعد ذلك سرعان مايكتشف المراهقون متعة "قبلة الروح*" وأشكالها المختلفة التي لاتنتهي كما يبدو: لساناً للسان، ومصّ الشفة واللسان، ولعق باطن الشفتين باللسان، واستبار اللسان عمق فم الشريك، واللحس، والعض، والرّضع. والاستبار اليدوي من قبل الذكر لمختلف أجزاء جسد الأنثى، وخصوصاً الثديين والردفين، شكل آخر مفضّل من أشكال الملاطفة. وأصبحت معالجات الذكر لثديي الأنثى العاريين أو المكسوين جزئياً وحلمتيهما بلسانه أو شفتيه واحدة من ممارسات الملاطفة التي تستخدم على نحو متزايد. ويشيع التنبيه اليدوي للبظر، والشفرين، والدهليز المهبلي، والمهبل. مع ذلك، مازال التنبيه الفموي للأعضاء التناسلية عند الأنثى يعتبر قريباً جداً إلى "المضيّ إلى نهاية الشوط" وهو مقبول فقط عند بعض المجموعات الاجتماعية. المراهقات الإناث أكثر حرية من أمهاتهن أو جدّاتهن إذا انهمكن في التنبيه الفموي أو اليدوي للمناطق الشبقية المذكرة-الثديين وحلمتيهما، ووراء الأذنين، والأليتين، والفخذين، وسطوح الجلد. ولكن مازال هناك بعض النفور من معالجة الأعضاء الجنسية المذكرة، ويمكن التغلب على هذا النفور عادة بطلب من الذكر.

تترافق أولى تجارب الحب عند الشباب بشكل من أشكال الملاطفة الأولية الشبقية حتى الإيغاف. فإذا استمرت علاقة الحب بين الشريكين فترة طويلة من الوقت، فإنهما قد يتآبران، اعتماداً على ثقافتهما، وديانتهما، وخلفيتهما الاجتماعية، حتى تحقيق الجماع. مع

* القبلة النارية أو المتأججة-المترجم.

ذلك، يستمر اعتبار الملاطفة والملاطفة حتى الإيغاف من النشاطات الجنسية المهمة حتى بعد أن يصبح الجماع أكثر قبولاً لدى الزوجين.

تصبح الإثارة الشبقية التي تميز هذه المشاركات الجنسية المبكرة أكثر حدة عن طريق الخصوصية النرجسية في علاقات الحب. يستحوذ الحبيب بصورة تامة على انتباه حبيبه. فتستنفذهما تلك العلاقة كلياً، سواء استمرت عدة أيام أو عدة أشهر. يسيران معاً عبر العالم كما لو كانا وحيدين وليس هناك من أحد سواهما. فما أن ينظر أحدهما في عيني الآخر، أو يمس رؤوس أصابعه، أو يستنشق شذا جسده، أو يشعر بالعاطفة ذاتها في اللحظة ذاتها، حتى تستيقظ شهوته الجنسية. وأثناء ممارسة الحب، يعمل كل منهما على إثارة الآخر إلى أقصى ذرى النشوة. وبعد الإيغاف، يواصلان تضامّهما كما لو كان الجسدان جسداً واحداً. ويتشبث أحدهما بالآخر كما لو أنه لاتوجد حدود بينهما. وتعكس عينا وإيماءات كل منهما صورة الآخر وكأنه يقول "أنت رائع". وحتى عندما ينفصلان فيزيائياً، يتوهم كل منهما أن وجود الآخر يغزو العالم-الغيوم، الأشجار، الصخور، الرياح، الشمس، القمر. والأمواج المتكسرة تردد همسات حب الحبيب. والنجوم تومض برسالة تقول "أنت رائع".

كل شيء يسير على مايرام مع الحبيبين طالما كانا قادرين على عكس حالة الكمال المطلق، طالما استطاعا الاحتفاظ بنشوة الجسدين المندمجين في جسد واحد، طالما لم يتشوش الانسجام الرائع بينهما بالحاجة إلى تفهم أعمق وأكثر تعقيداً أو ببعض الدلائل على احتمال وجود بعض الاختلافات بينهما في الرأي. وعلى الرغم من الإلحاح على الانسجام التام الذي يقوم على أساس عدم وجود اختلافات في القيم، والرغبات، والأماني، والآراء، فإن أحد الشريكين في علاقة الحب أو كليهما سرعان مايجد ضرورة للتأكيد على الحدود، والاستقلالية، والاختلاف بينه وبين شريكه. لأن الكمال المطلق بصرامته يبدو أشبه بتجربة مرعبة لحالة اختناق أو وقوع في شرك. فالعلاقة الكاملة تترافق بشكل دوري بالتذمر، والجدل، والشكوى، والعذاب. وأحياناً تكون ضراوة الغضب كصدار نجاة ينقذ الحبيبين من الغرق في نعيم اتحادهما الكامل. وينفصل الحبيبان في حالة هياج. وبعدئذٍ، وبصورة سحرية، وعلى نحو لايمكنهما مقاومته، وعندما تضطرهما الحاجة، ويكتشفان أن مامن أحد آخر في العالم مستعد لأن يعكس من أجلهما ماأراداه مرة لنفسيهما، أو مايريدانه في

الحاضر، أو ماقد يريدانه للمستقبل، ينجذبان إلى بعضهما فيعود كل منهما للآخر للقيام بجولة أخرى من الحب المثالي.

وتبقى شريكة الحب موضع إعزاز وعبادة طالما استطاعت أن تتوجه كلياً بوجهها المتيّم إلى الطريقة الصحيحة، وفي اللحظة المناسبة تماماً، وبالنظرة الصائبة الدقيقة. وستقدر قيمة الشريك طالما أمكن استخدامه كشريك شامل العطاء دائم العناق. ولكن الشريكة الكاملة أيضاً ستنتهي حتماً لأن تصبح عادية في جوانب تكفي لإحباط الرغبة، للفشل في إشباع الأماني السحرية، وتفشل في عكس الإعجاب والتمجيد؛ إنها مخلوق يحمل عيوباً، ونقائص، وآراء وأفكاراً خاصة، وذاتاً مستقلة لايمكن التحكم كلياً في قدومها ورحيلها. وفي ظل هذه الحتمية، قد تُهجَر الحبيبة بدون تعليل. ويُستأنف البحث من جديد عن حب مثالي آخر.

كثيراً ماتكون علاقات الحب الأولى هذه مجرد مكاسب نرجسية. وسوف يتأذى منها أحد الحبيبين أو كلاهما. فتسود نتيجة للنشوة الحادة التي ترافق أول حب مشاعر الخيانة، والشك، واليأس، وانقطاع الرجاء. وعلى الرغم من خدمة الذات والخصوصية المدمرة التي تلازم أحياناً أول حب عند المراهق، فإن الجدول الذي يربط حب-كره الماضي بالمستقبل وبالحياة الحاضرة في هذا العالم تعبير صادق في تدفقة وأصالته. فالحبيب قد يشبه نسخة ما مثالية للأم أو للأب، أو الأخت أو الأخ، أو ترجمة ما للذات الذهبية التي كانت، أو مزيجاً ما من طرفي العلاقة استطاع مرة أن يجعل العالم يتألق جمالاً وكمالاً. الحب الأول هذا سيكمن في ذاكرة الراشد، على أهبة الظهور بكامل قوته تقريباً بوصفه حباً مثالياً كان قد حمله المرء، بوصفه إنجازاً جنسياً تاماً حققه مرة ثم فقده إلى الأبد.

نحاول عادة، وبدرجات مختلفة من النجاح، أن ننسى كمراهقين لوعة الحب فلا نتذكر إلا مسراته. ويمكن للعقل الإنساني أن يكون ماكراً في أساليب احتفاظه بعذوبة الذكريات. فبعض الذكريات النموذجية التي يحملها المراهق من مرحلة الطفولة المبكرة على اعتبارها مرحلة ذهبية، مرحلة براءة ومرح، يحتمل جداً أن تكون بمثابة ستائر تخفي وراءها إحباطات المراهقة. ولكن تزييفات الطفولة المبكرة تساعد المراهق على تحمّل لوعة علاقته الغرامية بشكل أفضل. هناك، في الواقع، سبب وجيه يجعلنا نعتقد بأن كثيراً من الذكريات في طفولتنا المبكرة لم تتكون في تلك المرحلة وفي مرحلة الطفولة المتأخرة، لكنها تكونت في مرحلة المراهقة. فحوادث الطفولة المتأخرة التي تتصل بها الذكريات قد

تكون حدثت، ولكنها عندما حدثت أصلاً كانت حميدة وغير لافتة للنظر. والشاب المتحرر من الوهم سوف يتأسى بتوليد ذكرى يوم سحري من أيام طفولته المتأخرة، يوم الروابي الخضراء، يوم الخبز الأسود الشهي المدهون بالزبدة والعسل. هناك الهندباء البرية الصفراء، وصبيان صغيران يمرحان مع قريبتهما الأثيرة. فالذكرى حجاب للشابّة التي كان أحبها وأضاعها. كانا في ذروة علاقتهما الغرامية، التي لم تتجاوز النظرات السحرية واللمس برؤوس الأصابع، وكانت ترتدي فستاناً شفافاً أصفر بلون الهندباء البرية. وسرعان مارفضت عباراته المعسولة حول واقع رزقه وهو صاحب العمل الثابت والتطلعات الواعدة، اقتصادياً واجتماعياً.

حنيننا كراشدين إلى مرحلة الرضاعة، والطفولة، والشباب يقوم على أساس مصير أول علاقة غرامية في الشباب، سواء كانت واقعية أو متخيلة، والتي تشبه الماضي مع أنها تمثل، في الوقت نفسه، خطوة عملاقة إلى المستقبل. فهي التي دفعتنا من الحب الطفولي إلى الحب الراشد. وكانت وسيلة وسيطة في نقل الرغبة عن أهداف الحب في الماضي. وهي تخلّد الماضي، ربما ليس تماماً كما كان ولكن كما أردنا له أن يكون.

ليس مهماً كيف نصبح راشدين، فما من حب (حتى ولا حب الأم لرضيعها) يمكنه أن يتنافس على نحو إيجابي مع الحب النرجسي لعبادة الذات عند الشاب. وكلما مسّنا القدر أو الحاجة بضر، وأبخس تقدير من نكون، فإننا يمكن أن نكافح لاستعادة نرجسيتنا الضائعة من خلال علاقة غرامية سحرية. فعندما يتضاءل اعتبار المرء المهني، أو يفقد بيته في حريق أو إعصار، أو يفقد عمله، أو يصاب طفله بمرض عضال، أو يواجه فراغ العش عندما يغادر أطفاله المنزل، أو يعاني من آثار فقدان أحد الوالدين قد يدفعه إلى تجديد نشاطه للبحث عن حب مثالي.

مامن واحدة أبداً تكبر تماماً إلى درجة تتخلص معها من شوقها إلى الحب الذي يعكس كل الأشياء الرائعة التي كانت عليها أو التي قد تصبح عليها. ولهذا يبني بعض الرجال والنساء كامل وجودهم على مطاردة الحب السحري، معتبرين الحياة التي يعيشونها حالياً موقتة ليس إلا. فيلجأون بخيالهم إلى أنهم سوف يُنقَذون، عاجلاً أو آجلاً، من الحياة اليومية التي تزداد وحشة. ويعمل الخيال والوهم على إعادة صياغة الحياة اليومية وإغنائها. ولكن الخيال الملحاح الذي ينصب عند الراشد على الإنقاذ من الحاجة يُحَوّل الحياة اليومية

إلى سجن، إلى حرمان. ويحط التخيل من أهمية الملذات المتيسرة للمتعة، من أهمية النجاح الذي قد يفخر المرء به، من أهمية الأشخاص المحبوبين الذين يهتمون بنا.

وأخيراً تواجه متصيّدة حب استجلاء الذات ذاتاً كريهة لايمكن أن تكون موضع حب، هي الذات التي أصبحت عليها. وتدرك أنها في بحثها المسعور عن تحقيق الذات تخلت تدريجياً عن كل إمكانية، واحدة إثر الأخرى، للحب من الزوج، والأطفال، والأصدقاء، والزملاء.

وماذا عن المتبقّين، أولئك الذين أدركوا أن ملذات الحياة العادية تتقلص عن طريق البحث الفردي الشبقي عن حب مثالي، أولئك الذين قبلوا فكرة أنهم عن طريق تصريف شؤون الوجود اليومي وفقاً للأعراف، سوف يكافأون يوماً ما لقاء حرمانهم من نشوة الحب عند المراهقين؟ حياة يومية، أسرة، سيرة، دعوة، مهنة، كلها تبدأ كبدائل تعويضية للعلاقات الغرامية في المراهقة (سواء كانت واقعية أو متخيلة) والتي كان لابد من أن تمنى بالخيبة لأن مرآة الحب النرجسي هي دائماً مجرد خداع آني. وماتعكسه الأم من بهاء رائع لرضيعها لايُظهَر تماماً، حتى في الأشهر الأولى من الحياة، أحلام مجده وأوهام قدرته الكلية مع التحمل الذي لايكلّ. وتلجأ إلى التقنين في تحقيق الرغبة ؛ والمرآة تتأرجح.

يرث المراهق من الطفولة توقعات وعواطف حب استجلاء الذات. ولكن شيئاً ما جديداً يضاف في المراهقة إلى الإرث الطفولي. فيتعمق نعيم هذا الحب عن طريق الحدة الشهوانية للنشاط التناسلي. من هنا، يرث الراشد من المراهق وهم الكمال الذي تعززه المتعة التناسلية الرائعة.

لاتنهض الشابة الراشدة بمسؤوليات الرعاية والتشريع فقط كتعبير عن قبولها لأوامر المجتمع المشروعة. بل تفعل ذلك وفي خيالها أمل في أن تستعيد من خلال الحياة والعمل داخل الأسرة ذاتها الإمكانيات السحرية التي أخفقت في العلاقات الغرامية، الواقعية أو المتخيلة، في مرحلة المراهقة. وتعمل، كمراهقة شابة، على تكييف حياة الإمكانيات اللامحدودة مع حيلة الإمكانيات المحدودة، أي مع خطط حياتها اليومية، التي كانت قد استهلتها كبدائل لحب مثاليّ لانهاية له، تلك الخطط التي تستمر حتى تكتسب قيمتها الخاصة بها. ولكن هذه الحياة اليومية في العمل والولاء للأسرة، على أثرتها ونفاستها محكومة أيضاً، إن عاجلاً أو آجلاً، بأن تكون موضع شك، وتتجه بعدئذٍ إلى خيبة الأمل أيضاً. وتضع كل مراهقة في حسابها دائماً حقيقة أن قرارات وجودها اليومي نشأت من محاولة

الإبلال من الحرمان النرجسي في المراهقة. يمكن للحياة اليومية أن تقدم إنجازاً كبيراً ولفترة طويلة وصولاً إلى المرحلة التي تنتهي فيها الخطط المستوحاة من المراهقة واحدة واحدة إلى نتيجة ما أو إلى الإخفاق، بحيث لايخلّف تحقيق الأهداف إلا العناء الذي بذل في متابعتها.

تصل امرأة ما إلى أوج مهنتها لتدرك فقط أن ماأحرزته من شهرة وثروة لايتناسب مع عقود قضتها في طموحها المسيّر، ولا يعادل تنكّرها للأمومة. وتكتشف امرأة أخرى، كان وجودها اليومي مرهوناً بمسرات الحياة الأسرية وأحزانها وتربية أطفالها، عند وصولها إلى منتصف العمر بأن الغنائم لقاء المغامرة الجنسية التي ضحت بها والسيرة اللامعة كانت عبارة عن غرفتي نوم فارغتين، وبعض الألبومات التي تضم صوراً فوتوغرافية لأطفال يترعرعون، وخزانة متخمة بالأشياء التذكارية للعبة البيسبول، والحيوانات المحشوة العفنة، وزوج يعتبرها كبديل كئيب لفتاة أحلامه الرائعة عندما كان مراهقاً.

فماذا يحدث عندئذٍ؟ يلتفت الراشدون المخيبون إلى الوراء، إلى سنوات مراهقتهم حيث كان يبدو لهم كل شيء ممكناً. فيقررون الحصول على رحلة أخرى إلى الصبا. هنا، نرى راشدين يتصرفون كمراهقين-يطفرون على أنغام موسيقى الديسكو، ويتنافسون مع الساخطين والذين يتعرضون لحسدهم من أطفالهم المراهقين، للحصول على شركاء شباب في علاقاتهم الجنسية. ونرى في اللقاءات المهنية هذه الصور الكاريكاتورية المحروقة لشباب يتمددون في ردهات الفنادق، يتزينون بالريش، والقمصان التائية، والسبحات الهندية، وعصابات الرأس، وسراويل الجينز، والبلوزات الإثنية، ونسمع طنين الجيتارات، وإنشاد التراتيل. نرى أباً لاتذاً بالفرار من الشرك المنزلي، مستبدلاً زوجته الإياسية الكئيبة بطفلة الزهرة الذهبية التي لن تشيخ أبداً. ونرى أماً فوق حلبة الرقص تتمايل منتشية بين ذراعي ديونيسوس* ذي السترة الجلدية والقلب الذهبي والقدرات التناسلية الفائقة. وترحل الأم، متأثرة باستيقاظ شهواتها الجنسية، من عشها الفارغ لتجد شيئاً من تلك الحياة الممكنة التي خلفتها وراءها عندما قبلت أن تعمل وفقاً لمفهوم المكافأة لقاء حرماناتها النرجسية عن طريق التزامها بتصريف الوجود اليومي وفقاً للقواعد المتعارف عليها.

---

* إله الخمر عند الأغريق-المترجم.

وتكافيء مراهقة نفسها لقاء الحرمان من تصوراتها المثالية الطفولية عن طريق النكوص الذي يحاكي الطفولة: انحرافات الغلمة الذاتية، تقديس الورع والتواضع والقسوة والإغراء عند أوثان جيلها، والوقوع في حب شريك يستجلي ذاته. وبصورة مماثلة، يعود والداها، وهما في أواسط العمر، إلى المراهقة عندما تمنى مشاريعهما التي ابتدآها في الشباب بالخيبة. في الحالة الأولى، يكون النكوص موقتاً، نكوص يساعد على الانتقال ويهيء الطفل الذي كان عاجزاً فيما مضى ليصبح راعياً ومشرعاً؛ ويساعد أيضاً على تعيين وترسيخ الاختلافات بين أجيال الأطفال والراشدين. في نكوص الراشد إلى المراهقة، تتلاشى الاختلافات الجيلية، مكوّنة أوضاعاً مماثلة للانتهاكات الرمزية لمحرم سفاح القربى إن لم تكن انتهاكات واقعية، وتشير إلى أن هناك شيئاً ما فاسد على نحو خطير في دولة الدانمارك*.

ولكن ليس كل نكوص إلى المراهقة سيكون بالضرورة كارثياً. فهناك في ميراث المراهقة، فيما يخص الراشد، ماهو أكثر من النرجسية المُشبِقَة. في ذلك الميراث شيء ما ذو قيمة يمكنه أن يؤمّن سياجاً ضد خيبة الأمل عنده، سواء كانت تلك الخيبة صغيرة أو كبيرة.

وقد قيل أن العالمين الجنسي والأخلاقي ينموان مترادفين. فالبلوغ الجنسي ينطوي على عدد من الإيحاءات لأنسَنَة الضمير.

يكتشف بعض المراهقين، حتى في تلك اللحظات الطويلة للشفاء من فجيعة علاقاتهم الغرامية الأولى، وسيلة تسهل عليهم تحمّل خيبتهم الحاضرة. فيحولون الرغبة الشخصية إلى شوق من أجل كمال الجنس الإنساني. وتعالج الفتاة الشابة جراحها. وسوف لن تجازف في علاقة رومانسية شخصية أخرى قبل اندمال تلك الجراح. رغم ذلك، يستمر جوعها الجنسي في إلحاحه. وكذلك أيضاً، عندما تكف عواطفها عن الارتباط بالحزن على الأمجاد التي فقدتها، فإنها تنطلق لتتوسع نحو الخارج، إلى العالم. فتعانق الجنس البشري؛ وتدخل في اتحاد صوفي مع الإله، مع الطبيعة، مع الموسيقا، مع الشعر، مع الأمور السياسية، مع الرسم، مع الرقص، مع نظريات التطور. وفي علاقاتها الغرامية مع العالم، تتوسع الفتاة المراهقة بذاتها على نحو ودود إلى عالم الأخرين.

---

* جملة وردت في مسرحية هاملت لشكسبير –المترجم.

المنطقة المقدسة بين نهاية الطفولة وبين ماسوف تصبح حياة راشدة عادية فيما بعد هي هامش، مدخل، عتبة، ممر يتناول فيه الطفل الراشد ماهو مقدس. ولأنها غير كاملة؛ لأنها ممزقة بين ماكانت عليه في الماضي وبين واحدة ما غامضة توشك أن تصبح عليها، تتشوق الفتاة إلى تلك الخبرات التي تحمل الكمال والوحدة. وهذه الأشواق في حد ذاتها لاتؤثر كثيراً على المثاليات الاجتماعية، والدين، والأخلاق. تستغل المراهقة الأفكار السياسية، والفن، والطبيعة، والخالق في سبيل تقوية ذاتها. هذه الهواجس الثقافية هي الحدود المبهمة للعواطف الأخلاقية التي تربط الأفراد بنوعهم. ولكنها، أي الهواجس، خطوة في الاتجاه الصحيح. وتنطوي في حالات كثيرة جداً على بعض الحلول الجديدة لمعضلات الوجود. وتشير إلى الإمكانيات التي يمكن إنجازها عند آخر مرحلة في الحياة.

هذه الانتقالات من النرجسية المُشبِقَة إلى الانجذابات الصوفية والفكرية هي مصدر واحد لمكافآت المراهق لقاء الحب المخيِّب. والمصدر الآخر هي طاقات النمو في مرحلتي ماقبل البلوغ والبلوغ. يفتح هذان المصدران مسارب فيضان الإبداعية التي تدفع المراهق إلى تمثيل أدوار الآلاف في الكوميديا الإنسانية. وتبدأ المراهِقَة بمشاريع عديدة، أكثرها لاينجز أبداً. ولكنها تنجز بعضاً منها. فتصبح شاعرة، ملحّنة، تعزف الفلوت أو الغيتار، تدرس الباليه أو الرقص النقّري، تكتبَ الكراريس السياسية، تحرر العمود الفني في صحيفة مدرستها، تشكل الطواقم للاحتفالات المدرسية، تصمم الملابس، تستغل فريق كرة القدم، تغني في كورس الكنيسة، تنظم الاحتجاج ضد انتشار الأسلحة النووية.

هذه الخيارات هي جزء من ميراث مراهقتنا أيضاً. وسوف يعمل بعض الراشدين، عندما تنتهي مشاريع حياتهم اليومية إلى الخيبة، على إنهاء رواياتهم التي كانوا بدأوا بها في المراهقة، فينفضون الغبار عن الـ شتانواي* العتيق ويعزفون على الأوتار القديمة. وقد يقرر آخرون استرجاع القضايا الاجتماعية والأخلاقية التي تخلوا عنها في شبابهم، لكنهم سيقومون الآن بتمثيل دور الأوصياء على الشباب، على الأكبر سناً الذين ينفتحون على أولئك الذين لم يعودوا أطفالاً عاجزين والذين هم على وشك استلام زمام مسألة أو مسألتين حول العلاقة بين السلطة الشخصية والمسؤولية الأخلاقية. وآخرون أيضاً لايفعلون شيئاً جديراً بالملاحظة أكثر من العودة من جديد إلى قراءة الشعراء والفلاسفة الذين ألهموهم في الماضي أن يكونوا فقط أكبر قليلاً مما هم في الحياة العادية. فتنشأ برعاية المراهقين

---

* Steinway، إحدى ماركات البيانو، أي أنهم يلجأون إلى الموسيقا للتعويض عن خيبة الأمل–المترجم.

صداقات جديدة بحيوية متجددة، وتُستَهَل المتابعات الثقافية من جديد. وتدخل قدرة جديدة بسبب الحنين إلى الماضي. فهناك طفرة أخرى للتعلم، مع احتمال زيادة في الحكمة.

وكميرات آخر من سنوات مراهقتنا، يستمر أكثرنا في اعتقادهم بأن شيئاً ما في الحياة هو أكبر من الجنس، والعمل، والإنجاب، والامتثال الأخلاقي. ولكن ذلك الشيء يروغ منا في أغلب الأحيان. فلنقل أن ذلك الشيء هو مايجب أن نفعله حيال الكرامة الأخلاقية، قدرتنا على أن نبقى صادقين مع أنفسنا، حفاظنا على حيوية الومضة الخيالية حتى لو استحال تحقيق مانريد وأصبح وهماً. لنقل أنها قناعتنا في أنه مسموح لنا الانطلاق نحو أقاليم غير مكتشفة، لكي نصبح مهندسين في جنات عدن الزاهرة تلك التي سوف تقوم مكان الصحارى، لكي نعيد الإنسان والحيوان إلى موطنهما الذي كانا فيه في الماضي ثم فقداه. تلك هي الذرى الحقيقية للعظمة عند المراهقين! والسؤال هنا، هو ماإذا كانت هذه الرؤى مصممة لتوسيع العواطف الشخصية لكي تشمل جماعة أكثر عدداً، أم أنها مسخرة فقط لجهة تمجيد الذات؟

يُقدَّر لعدد قليل جداً من بيننا أن يصبحوا في المستقبل فعلاً مهندسين معماريين، ولكن الإيحاءات التي نرثها من سنوات مراهقتنا تسمح لنا بالمشاركة في الأفعال التخيلية لأولئك الذين يصبحون كذلك. فهي تمكّننا من البقاء مخلصين لقناعاتنا–في أن هناك بعض الحقائق غير المكشوفة، وأنه يمكن صياغة الحاضر المُخَيِّب إلى ماهو أفضل. مع ذلك، قد لايلقى هؤلاء الأشخاص ترحيباً في أي مكان. وقد يفقدون تأثيراتهم، ارتباطاتهم بالحياة اليومية التي يجب أن تساعدهم وتعزز رؤاهم. وقد حذر كيركغارد* من الحالات التي قد يخسر فيها أي منا نفسه– في اللامتناهي بدون محدودية أو في المتناهي بدون تأثير العمل، أو الزواج، أو المهنة، أو الدافع الباطني، أو الالتزام السياسي، أو الإحساس بالجماعة. ولكن إذا كان هؤلاء الأشخاص الخياليون ملاحين حازمين، فإننا سوف نعتمد عليهم فيما يخص آراءنا بأنفسنا وآمالنا في الحياة ذاتها.

أحلام المجد

المسألة غير العادية حول الفضيلة هي أنها تعتبر في كل مجتمع إنساني كسِمَةٍ لكل ماهو فاضل ونبيل في الشخصية الإنسانية. وتختلف التعاريف، فكانت كمال الشكل،

* كيركغارد، سورين (1813–1855): فيلسوف ولاهوتي دانمركي. يعتبر مؤسس الفلسفة الوجودية–المترجم.

والجمال، والحكمة عند أفلاطون؛ والشجاعة، والتعقل، والاعتدال، والعدل عند أرسطو؛ والرجولة والبسالة عند الرومان؛ والعفة، والبسالة، والتقوى في النظام الفروسي. ولكن موضوعاً واحداً يبرز على نحو دوري، وهو مستقل تماماً عن هذه الأنواع للتجربة الفاضلة، إنه التناقض الظاهري في تطابق المصلحة الذاتية مع مصالح كافة الكائنات الإنسانية الأخرى. وتتكرر الصيغة الأساسية، هنا وهناك، على مدى التاريخ. "لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه". والطاهر وفقاً لليوبانيشاد* هو "من يرى كل الكائنات في ذاته وذاته في كل الكائنات". وتحمل الرسالة أحياناً مضامين سياسية إضافية، كما قال لنكولن، "بما أنني لاأريد أن أكون عبداً، فإنني لاأريد أن أكون سيداً".

تنطوي طقوس البلوغ في أكثرها على تناقض ظاهري. ويعتبر تبدل الحالة الذاتية للطفل بمثابة حدث اجتماعي وعالمي في آن معاً. وبما أن الفتاة تولد من جديد كامرأة ولود وكاملة، والفتى كرجل مخصب وكامل، فإنهما يقدمان للنظام الاجتماعي هدايا الحضارة- دواء، محاصيل، طريقة لخبز كعك الذرة. لابل أكثر من ذلك، إذ يفترض فيهما من الآن فصاعداً أن يكونا مثالين للمقدس، لتلك القوى الأولية التي تصل إلى ماوراء الشخصي والاجتماعي لتؤثر في ماهو عالمي.

التناقض واضح في اعتقاد روسو بأن منشأ جميع عواطفنا، وأصول ومبدأ كافة العواطف الأخرى، أي حب الذات، يمكن أن يتحول إلى حب النوع كحصيلة للمراهقة إذا ماتمت تغذيتها بحكمة. ولا شك في أن فرويد يلمّح إلى تحول مماثل عندما يقول، "إن ماينسب إلى أدنى جزء من الحياة العقلية عند كل منا يتبدل، من خلال تكوّن المثل الأعلى، إلى ماهو أسمى في العقل الإنساني عن طريق مقياس القيم عندنا".

ومع أن المحللين النفسيين المعاصرين لايؤيدون المقولات اللاماركية[1] التي يتضمنها تصريح فرويد الاستفزازي، لكنهم يشيرون بثبات إلى هذه العبارات في كتاباتهم حول ذلك الجانب من الأنا العليا الذي يدعى مثال الأنا. ويقال بأن مثال الأنا ينشأ عند الطفل في النرجسية الأولية ويستمر عنده راشداً ليمثل أسمى مكتسبات الجنس البشري. ويصف بيتر بلوس تحول الأنا العليا أثناء المراهقة على النحو التالي: "تشكل الأنا العليا مساراً يبدأ من

---

* Upanishad، من تراث الهند الروحي، وهي أقدم النصوص الفلسفية وعددها 108 ولكنها في الواقع تزيد عن الـ 200، ومعناها الحرفي "مقالات المعادلات".

[1]- مذهب في التطور العضوي وضعه لامارك، جان باتيست (1744-1829)، البيولوجي الفرنسي.

النرجسية الأولية إلى " الأمر القطعي"، أي من الشكل الأكثر بدائية للحياة النفسية إلى أعلى مستوى من الإنجازات الإنسانية". أو كما يقول فرويد، "إن مايتصوره أمامه كمثل أعلى له هو بديل لنرجسيته الطفولية التي فقدها ..." يعمل مثال الأنا الناضج، الذي تمتد جذوره إلى النرجسية الفطرية في الطفولة، حتى عند الراشد كوكالة لتحقيق الرغبات. وعلى نقيض ذلك، تستمر الجوانب الأخرى للأنا العليا، التي تنشأ من خلال التجارب الطفولية المبكرة غير الممتعة، في تأدية وظيفتها كوكالات للتقييد والحظر. وتمثلت الأنا العليا عند سيمون لوغري، "بقدرة السوط التنفيذي للقلق بوصفه مقنعاً ووكالة فعالة". وبالمقابل، فإن مثال الأنا يشبه "الابتسامة المغرية والمغوية للموناليزا[2] ". فيخفف عن طريق تجسيد آمالنا، وتوقعاتنا، وطموحاتنا أعباء التضحية الغريزية ويعرض علينا مكافآت لقاء تنازلاتنا. وكما تفعل هذيانات الرغبة بالقدرة الكلية وأحلام المجد على مساعدة الطفل في تحمّل خيبات وإخفاقات كونه مخلوقاً ضعيفاً، وعاجزاً، وتابعاً بصورة تامة، كذلك تفعل الطموحات الأخلاقية والمثاليات الاجتماعية على مساعدة الراشد في تكييف نفسه مع الأبعاد المأساوية للحياة. وعن طريق إخلاصه لمُثُله العليا، يحتفظ بنرجسيته، ويكافح في الوقت ذاته في سبيل الوصول إلى كمال النوع الإنساني. فيندمج حب الذات بهذه الطريقة بحب كافة الآخرين من بني الإنسان.

وكما قد نتوقع، كثيراً مايؤدي اندماج المصلحة الشخصية مع الطموح الأخلاقي إلى إساءة الفهم. فقد جاء في نصيحة بولونيوس لـ لايرتس -"هذا قبل كل شيء: كن صادقاً مع نفسك، فيستتبع ذلك، كما يعقب الليل النهار، أنه لايمكنك أن تكذب على أي إنسان"، وهي نصيحة قد تكون شريرة، رسالة للانتهازية الصرف. فالفضيلة لاتنبع من المصلحة الذاتية بمثل تلك السهولة التي يوحي بها بولونيوس. ولايرتس المتهور، والمنهمك في شؤونه الذاتية قد لايكون استوعب التعقيد الأخلاقي التي تنطوي عليها تلك العبارات. وما هو أكثر احتمالاً أن تكون تلك النصيحة قد عملت فقط على تعميق المأزق الأخلاقي عند الرجل. ولم يكن بولونيوس أيضاً مفيداً كثيراً لأوفيليا وهاملت. فقد كانا برعمين واعدين. ولكن لم يكن هناك من هم أكبر سناً ليتولون إرشادهما. فالفساد الأخلاقي كان متفشياً في

---

[2]- أشهر لوحة رسمها ليوناردو دا فنشي، بل أشهر لوحة رسمها فنان لوجه إنسان. ومونا الباسمة هذه كانت زوجة فرنسيسكو جوكوندو. أعد لها ليوناردو وهو في فلورنسا ثم أمضى أربع سنوات في رسمها في فرنسا. وهي موجودة في متحف اللوفر في باريس.

دولة الدانمارك. وكان الثلاثة، لايرتس، وأوفيليا، وهاملت، يتخبطون لكي يتصرفوا وفقاً لما يحملونه من مثل شخصية عن الرجولة والأنوثة. ولم يكن أي منهم قادراً على التحرر من الماضي. ولم يكن هناك في أسرهم ولافي مجتمعهم عموماً مثاليات تثقيفية أو وظيفية نحو مايكافحون من أجله. وفي النهاية، يحطم كل منهم الآخر إضافة إلى الجيل الأقدم الذي فشل في تقديم النصح المناسب. كان هوراشيو Horatio يعرف مسألة أو مسألتين حول العلاقة الملتبسة بين النرجسية الشخصية والمُثُل الأخلاقية. وهو الذي اختير لإلقاء مرثاة جيله الضائع على "عالَم لم يُعرَف بعد". وسيعرف كيف يمكن أن تؤدي المصلحة الشخصية والمثاليات الجوفاء "إلى أفعال شهوانية، ودموية، وغير طبيعية،/[إلى] اجتهادات غير جوهرية، مذابح عرضية،/[إلى] ميتات تصطنع عن طريق ذريعة ماكرة وقسرية.

على الرغم من أن مثال الأنا يمنّينا بوعود الكمال، فإنه قد يكون قاسياً وفظاً كالعينين اليقظتين والأصوات المحظّرة لبقية الأنا العليا. تقتضي القصة الكاملة لترويض الضمير أن نقتفي أثر تطوره على مسارين: النرجسية الأساسية الفطرية، والنرجسية الثانوية التي استمدت من تحويل الطفل لنرجسيته الخاصة إلى إضفاء الصفات المثالية على والديه. فأثناء الطفولة، تتم مقايضة القدرة الشخصية الكلية بفوائد المشاركة في المجد والقدرة اللذين نعزوهما إلى الوالدين. والمراهق، كما رأينا سابقاً، يجب أن ينسجم مع واقع من هما والداه. فوالداه اللذان كانا في تصوره مطلقي القدرة هما ناقصان دائماً. لأنهما لايتمتعان بقدرة كلية. ويحملان العيوب ونقاط الضعف التي ترثها الطبيعة البشرية العادية. والفتاة إذ تجرد علاقتها مع أمها (والفتى مع أبيه) من مضمونها الجنسي، فإنما تتيح توظيف هذه النشاطات النرجسية الجنوسية في العالم الاجتماعي-بوصفها مُثُلاً مجردة قد تدرك في المستقبل. وسيجتاز حنوها على كلا والديها، وقدرتها على أن تغفر لهما كونهما أقل مما كانت تتصورهما عليه، طريقاً طويلة نحو أنسنة المعايير التي تقيس بها نفسها والآخرين من الناس.

ولكن ماالذي يحدث عندئذٍ للنرجسية الفطرية الأولية؟ هل ينبغي لنا أن نفترض بأن الطفل يتخلى لأبويه عن كامل نرجسيته لقاء فوائد محاورة الحب والحماية؟ أم يبقى بعض من تلك الطاقة النرجسية الفطرية مركّزاً على الذات؟ كان فرويد غامضاً في هذه المسألة. فمصير النرجسية الأولية وإسهامها *المباشر* في الحياة الأخلاقية واحدة من أحاجي التحليل

النفسي التي لم تجد لها حلاً. ومع أن فرويد لم ينتقص أبداً من تجارب الحضارة ومنغصاتها المحتومة، فإنه ترك حيّزاً ما في الحياة للتخيل وتحقيق الرغبة. وبينما تحافظ الجوانب الأخرى للأنا العليا على الحضارة عن طريق مطالبتها بالتنازل والتضحية، فإن مثال الأنا يمثل الوجه الآخر للحضارة المفعم بالأمل، المظهر الخيّر الذي ندعوه الثقافة. ومع أن بعضاً من المحتوى الأخلاقي لمثال الأنا ينشأ من النرجسية الثانوية التي كانت رُكِّزَت على الوالد، فإنه يُحتَفَظ بجزء من هذه النرجسية من أجل التخيل. وينشأ ذلك الجزء من النرجسية الأولية، من حب المرء لنفسه، الذي لايُنقَل أبداً إلى عالم محاورة الحب.

يبدو أننا نعرف منذ البداية بالذات أن هناك ماهو أكثر من الرغبة والشرعية بالنسبة للحياة. فنحن مشعوذون قبل أن نكون أي شيء آخر-مهرجون وشعراء نجدد المجد الذي كان، حياة الإمكانيات اللامحدودة، الحياة قبل التناقضات، قبل معرفتنا المهينة بأننا فُصِلنا عن العالم إلى الأبد.

تستعيد الفتاة المراهقة، عن طريق أساليبها النرجسية إلى حد الاستهجان، وخصوصاً من خلال تخيلاتها حول القدرة الكلية وأحلام المجد، تماسها مع الزمن الذي كانت فيه صادقة بشكل مطلق مع نفسها. فتنفتح الطريقة التي أتاحت لها الاحتفاظ بالشعور بالكرامة والكمال حتى على الرغم من ضرورة تخليها عن قدر كبير من نرجسيتها الفطرية إلى عالم محاورة الحب. وهي الطريقة التي وُجِدَت منذ اللحظات الأولى من الحياة.

وفي وقت ما، قبل أن تواجه الطفلة الإحباطات التي تلازم العلاقة مع الآخرين، تتاح لها طريقة فطرية لاستحضار الشعور بالقدرة الشخصية. فيُجابَه هجوم العالم المحدد المتناهي للنور، والصوت والتخوم الواضحة تماماً بالقدرات الفطرية لدى الطفلة الوليدة لتجاهل أو لتخليص نفسها من هذه المزعجات الخارجية عن طريق حركاتها الجسدية الخاصة. وقد تعمل موقتاً، حتى على الرغم من الإثارات الداخلية التي لايمكن بسهولة تجاهلها أو إزالتها، على تكذيب قدرتها الكلية الرائحة في المنعكس والإشارة، وتؤدي التوترات التي تسببها هذه الإثارات إلى البكاء، وضرب الرجلين، واستدعاء الأم. وإيماءات المصّ وعطف الرأس تستدعي حلمة الثدي إلى الفم. وعن طريق إيماءاتها الخاصة، تستحضر الطفلة الأم، تستحضر الثدي. وعلى الرغم من عجزها المطلق، فإنها تلتمس العون من خلال الحركات الخاصة لجسدها. مما يمنحها الشعور بأنها كلية القدرة. وتجرب بعد ذلك المغالطة المنطقية الأولى فيما يتعلق بتصرفاتها الخاصة. ولا بد أن نجد الطلائع

والنماذج البدئية لأوهامها بالمجد، أوهام قدرتها الكلية وإمكانيتها في تحويل الواقع إلى أي شيء تصبو إليه، في نشاطها كطفلة في كل مرة قبل أن يتكون لها أي نوع من الإحساس بهدف لدى من تعتمد عليه حقاً في الإعالة، والسلامة، وتخفيف التوتر، ومكان تستقر فيه عواطفها. هذه التجربة الأولية التي تقوم بها ذات المرء الخاصة لها تاريخها الخاص بها وطاقتها الخاصة بها أيضاً، وهي طاقة مستقلة نسبياً عن الطاقات المرتبطة بشخص آخر.

لايمكن طبعاً للطفل الوليد التابع كلياً، والعاجز كلياً أن يبقى على قيد الحياة بدون ارتباط مع أحد ما يرعاه بما يكفي لتغذيته، وتدفئته، وحمله، وحمايته من صدمات العالم الخارجي ومن ضغوط وتوترات الانزعاج الداخلي. وتقلبات محاورة الحب موجودة فعلاً منذ الولادة وتتداخل بعدئذٍ مع مصير حب المرء لذاته. ولكن الوليد الجديد في مرآة ذاته شخص يطاوع ميوله دون اكتراث بالعرف، وهو كامل، ومكتفٍ ذاتياً. وحب شخص آخر، على الرغم من كونه شبكة أمان للوجود، لايمكن أن يكون مرضياً تماماً كالإحساس الشديد بخلق الحلمة عن طريق اشتهائها.

ينبغي أن تبدو الأمهات والآباء من أفضل الشركاء لتعزيز نرجسية الطفل، لكي يستقبل انعكاس القدرة الكلية والحب الكامل وغير المشروط له. مع ذلك، فالطفل امتداد لنرجسية والديه. ونحن كآباء، نطمح إلى مساعدة أطفالنا لكي يحبوا أنفسهم بمقدار حبنا لهم. فعندما نراهم محزونين أو مخيّبين فإننا نشعر بالأذى وبإلحاح الرغبات مثلهم أو ربما أكثر منهم. وتصبح مخاوفهم وإخفاقاتهم هي مخاوفنا وإخفاقاتنا. وما من أحد من خارج العش الأسري سيعكس الكمال نحوهم، أو سيهتم كثيراً بهم أو يتغاضى بكرم كبير عن نقائصهم ونقاط ضعفهم كما يفعل الوالد. ولكن حتى الحب بين طرفين، الحب الذي يتصف بالكمال تقريباً وبشمولية الحماية، لايخلو من التوتر. وشكلا النرجسية، أي الحب النرجسي عند الآباء والترجمة الخاصة لحب الذات عند الأطفال، لايتحدان بتبادلية غير واضحة الحدود.

بقدر مايكون أطفالنا امتدادات لنرجسيتنا الخاصة، بقدر مانكتشف أننا غير قادرين على التحمل إذا لم يعكسوا إلينا كل تلك الأمور الرائعة والمدهشة التي نتصور أنها كانت، أو رغبنا لو كانت، أو لو تكون لدينا. ومن جهتنا، نعمل على إبقاء الأمل حياً عند أطفالنا باسترداد كمالنا النرجسي المفقود. ولكن بما أننا راشدون متحضرون أيضاً وندرك أخطار الانهماك النرجسي بالشؤون الذاتية، فإننا نحذرهم عندما نكتشف أنهم يفرطون في حب

أنفسهم. فنحن نحذّر من الكبرياء، نفرض الحشمة، نقيد الخيال، نطلب الامتثال للقيم الأخلاقية في العالم الواقعي، ونضع الكوابح للرغبة. يمكن أن تكون الأم أو الأب، فقط في الأشهر القليلة الأولى من الوجود، مرآة لاعيب فيها تقريباً لحب الطفل الاستثنائي لنفسه وإحساسه بالكمال المطلق وقدرته الكلية. ولكن حتى في هذه الحال تُقنّن الرغبة؛ لأن المرآة تتأرجح.

يمكن للتهديد بالفصل عن الآخر المستجلي لذاته والمقتدر أن يولّد قلقاً شديداً عند الطفل: قد يتلاشى كيان المرء بالكامل، قد يتشظى، قد ينهار إلى الأبد، ولا ينهض مرة أخرى. هذه المعاناة من العجز والكرب اللانهائيين يمكن أن تكبح جوانب التجربة الذاتية التي تُستَمَد من ممارسة القدرة والحرية الشخصيتين لاستخدام المرء لجسمه وعقله بالشكل الذي يراه مناسباً. وإذن، يعتبر من قبيل الخير أيضاً أن يُخَيِّبَ عالم الآخرين بالتعويق، والإحباط، والصراع، والتقييد، والشروط، والمطالبات بالتنازل. وللخير أيضاً أن أماً لايمكن أن تكون دائماً داخل الجلد وخارجه بامتداد لانهائي كامتداد المشيمة-الرحم، الجنين-الأم-سائل السلّى. ومامن أم، في الحالة الإنسانية، يمكنها أن تكون مرآة كاملة لقدرة طفلها الكلية.

وهكذا يواصل الطفل إكمال مهاراته الحقيقية في العالم الواقعي. فتضمن طاقاته النمائية ومطالبه التفردية لعضلاته ومداركه أن تصبح قادرة أكثر وأكثر؛ سوف يمد يده، يمسك، يجلس، يزحف مبتعداً، يقف، يمشي، يعدو، يقفز، يلفظ الجمل ويظن بأن الأفكار ذات البنى الرمزية هي نفسها عند كل الكائنات الإنسانية. وعندما تتوسع هذه القدرات الإنسانية الفطرية وتتعزز، فإنها ستزود الطفل بقدرة ما حقيقية تتخطى العالم الواقعي الذي يعيش فيه. وما ممارسة القدرة الحقيقية إلا بقية واحدة من قدرتنا الكلية البدائية. والبقية الأخرى هي قدرتنا على تصوّر العالم المُخَيِّب كمكان أفضل وأكثر انسجاماً مما هو عليه في الواقع.

عندما يصبح صعباً تحمّل المحن والإهانات الناتجة عن التنازل، عندما تخيّبنا محاورات حبنا، عندما يصبح التناول، العدو-الوثب، الاستكشاف-الدهشة مشقة، تشوشاً مربكاً من عدم الانسجام، فإننا نكتشف مكاناً للراحة. فنخلق لنرجسيتنا عالماً شفوقاً أكثر وملائماً أكثر. ونستحضر ونواصل الاستحضار حتى مع أن خلائقنا قد لاتنتهي إلى أفضل من الواقع المر والمقيت. ويرفعنا الاستحضار إلى عالم فوق الواقع، فوق المتعة. وعلى

الرغم من أننا نجد هناكِ أحياناً عالماً وسيطاً مقدساً، فإننا نكتشف طريق العودة إلى الرجاء والحب، وتلتئم فجأة بضع قطع من أحجية ما غامضة مع بعضها بتبادلية كاملة تقريباً.

هناك ركن ما في العالم، منطقة بين حياة الرغبة والحياة الواقعية، تتقاطع فيها الجسور وتُستبَعَد التناقضات. حتى ابنة العشرة أشهر من العمر تعرف كيف تستحضر مكان الراحة. فهي تختلق دثار أمان، صوتاً مدندناً، حركة مهدهدة تطرد الخوف والتناقض المهين بين عالم "يخصني" وعالم "لايخصني"، بين الحيّ واللاحيّ، بين الذات والآخر. وبدلاً من التناقض، ينعش الصوت المدندن تلك التجربة الأولية، تجربة كونها محمولة إلى الأبد. ويتم التسليم برغبتها في أن تكون كلية القدرة. فتستعاد الكرامة. ودثار الأمان من هذا النوع أو ذاك هو الشيء الوحيد الذي يمكن للطفلة أن تلجأ إليه دائماً. فهو يخصها مئة بالمئة. وقد تستحسنه الأم والأب أو يطلقان عليه اسماً جديداً أو يحشرانه في حقيبة صغيرة كما لو كان دثاراً ليس غير، ولكن الطفلة فقط هي التي يمكنها أن تستثمره بحيوية. فهو أول ملك شخصي لها. وما من أحد أعطاه لها. بل هي التي اختلقته.

إيماءات الالتفات صوب الحلمة أو حجب النور الزائد، وهي الإيماءات الحقيقية لأول استحضار، ليستَ سوى إيماءات اللحظة. والحيّز الزماني بين الرغبة وتحقيقها بالكاد يمكن إدراكه. وفي الواقع، عندما تفشل إيماءات الاستحضار هذه، وهو مايحدث غالباً، فإن الطفل سوف يهذي بتحقيق تلك الرغبة. والهذيانات لايمكن أن تملأ معدة أو أن تجلب دفء اللّفّ أو تحجب النور، ولكنها قد تنجح تماماً لفترة ما، أي ريثما يأتي العون الحقيقي. إن مايُستَحضَر خلال هذه الأيام الباكرة لايمكن تمثيله في العالم الواقعي، كما هي الحال عندما تستحضر ابنة الأشهر العشرة دثار الأمان. والرضيع الذي كان بين حين وآخر يفضل تخيّل دثار الأمان أو حركة الهدهدة أو صوت الدندنة على الوجود الواقعي لأمه يعمل على توسيع الدائرة المنشودة. فهو في طريقه الآن إلى استخدام المجازات.

ومع تقدم الطفولة، يصبح مكان الراحة الذي يمكن فيه جعل العالم كاملاً من جديد قابلاً للتمثل أكثر فأكثر. فيصبح المُستحضَر صلة، رباطاً بين حياة الرغبات وحياة الواقعية الشرعية. ومع تقدمات الطفولة أيضاً، تصبح متطلبات الدائرة الوسيطة أكثر تعقيداً. لأن المسافات بين الرغبة وتحقيقها تصبح أكثر اتساعاً. وتعجز دثارات الأمان عن حل كافة التوترات المعقدة بين عالم الرغبة والعالم الذي يعين مكان، وزمان، وطريقة تحقيقها. وتتسع الدائرة الوسيطة عندما تزداد حدة الضغوط الناجمة عن ارتباط العالم الذي "يخصني"

بالعالم الذي "لايخصني". وفي سياق الجدل الواسع بين الرغبة والسلطة، تصبح القدرة الكلية بشيراً بالكرامة الأخلاقية.

وعندما يناهز المتقدم السنة الثالثة من عمره، يمكن أن يواصل سعيه لالتماس مكان للراحة في الروائح المألوفة لدثار أمانه الثمين. ولكن المشكلات الجسيمة التي تتحدى احترام الذات والإحساس بالقدرة عنده لايُعَبَّر عنها عن طريق مجاز الأمان. وفي الواقع، يستمر تدبير الرغبات عند الطفل ابن الثالثة، والرابعة، والخامسة من العمر معتمداً على وجود والديه وقدرتهما. ومن السائد أن يكون تحقيق رغبات المرء، قبولاً أو رفضاً، منوطاً بسلطة ما خارجية. فيجد حتى الطفل الصغير صعوبة في تحمل هذه التبعية الأخلاقية الكلية.

تتطلب الكرامة الشخصية عند الطفل أن يتغلب على التفاوت بين تحقيق أمنياته ورغباته وحاجته الاضطرارية على حد سواء وصولاً إلى التوافق مع النظام الأخلاقي. والنظام الأخلاقي، بالنسبة لطفل عمره ثلاث سنوات، يكمن في سلطة الوالدين. وعلى الرغم من كونه صراعاً، فإن الطفل سيقبل سلطة والديه لأنه يحبهما ولأنه معجب بهما. زد على ذلك أن النظام الأخلاقي يُقَدَّم للطفل عن طريق والديه بأسلوب شخصي رفيع مع أخذ خصوصياته بعين الاعتبار. مع ذلك، فإن قبول سلطة الأبوين يستتبع قدراً ما من الانقلاب على مايكتشفه الطفل على أنه الذات الأعمق عنده. فالطفل يطيع أولئك الذين يحبونه ويحمونه، ولكن يجب عليه إنقاذ تكامله أولاً.

يجد الطفل علاجاً موقتاً لما ينطوي عليه وضعه المهين الناجم عن خضوعه ببساطة لمطالب والديه. ففي حدود هذا الوقت تقريباً، يبدأ الأطفال يلعبون مع رفيق وحيد. يحمل هذا الرفيق عادة اسماً معيناً ومظهراً مميزاً بجلاء. ولكن هذا الصديق الرائع صديق خيالي. ويتخذ الرفاق الخياليون عدة أشكال فهم إما: حيوانات، أو أطفال أصغر، أو أنهم بيتر بانز، أو جيمني، أو كريكيتس*، أونساء خارقات أو رجال خارقون. وهم عند بعض الأسر يجلسون إلى المائدة أو يختبئون تحت أريكة في غرفة الجلوس ويطلقون تهريجاتهم ضد البالغين. ويقومون برحلات في سيارة الأسرة ويحضرون حفلاتها. ويقيم بعضهم فقط في حجرة الأطفال أو فقط في الحمام أو في خزانة. وربما كان هناك عدد من هذه المخلوقات الرائعة أكبر بكثير مما تهيأ لنا أن نعرفه. وقد يحجم من هو أكثر ذكاء من

* شخصيات خيالية تعيش في القصص والمسلسلات الأمريكية المصورة-المترجم.

بينهم عن التورط في مشاغل الحياة اليومية. وربما كان وجودهم على شكل محدّثين هامسين أو صامتين، فلايكشف الطفل أبداً وجودهم المحسوس.

وسواء استُخدِموا مبدئياً كحماة، أو أكباش فداء، أو مجسدين للمثل العليا، أو للضمائر، أو للشياطين، أو بدائل للأمهات، فإن هؤلاء الرفاق النشطاء يقومون بحراسة نرجسية الطفل في الوقت الذي يكافح فيه لتحويل قدرة الوالد وسلطته إلى عناصر لضميره الخاص. ولكي يمتثل للأنظمة الوالدية ، يجب أن يتوصل إلى وفاق مع حاجته للاقتدار. ويجب أن يسلّم بعدم قبول المجتمع لبعض من رغباته الأكثر إلحاحاً. الرفيق الخيالي، أو ندٌّ ما آخر منشود ومكافيء له، مرحلة وسيطة ضرورية قبل أن يتمكن الطفل من الطاعة عن قناعة داخلية واعتزاز بالنفس.

مع ذلك يبقى الطفل غير متأكد من قدرته على التحكم في دوافعه ورغباته. ولا يمكنه أن يقيّم كما يجب مدى سلطة والديه، التي يتصور أنها أوسع بكثير مما هي عليه فعلاً. ولكنه يتحكم بصورة شاملة بأفكار رفاقه وأفعالهم وقدرتهم. وسلطة رفاقه مقبولة ومفهومة. فالرفيق يمكن التعويل عليه في تلطيف، وتصوير، وعكس كمال الطفل وطيبته. أو قد يكون في الواقع شريراً جداً. وهنا يبتهج الطفل في تقريع رفيقه وتعليمه طريقة التصرف في مجتمع متمدين. وهذا الرفيق المتخيّل هو الذات مع بعض من صفات شخص آخر. أي أنه مزيج من طرفي العلاقة.

ديفيد طفل صغير عمره ثلاث سنوات، كان أبوه دونالد مديراً لمدرسة ثانوية. اختلق هذا الطفل رفيقاً له يدعى ديفدون*. وكان ديفيد حساساً بشكل خاص لأية أوامر تصدر من أبيه. ولكنه تعود أن يجد لدى أمه طمأنينة وتسلية أفضل. مع ذلك كانت طلباتها تدفعه إلى البكاء والتذمر. فتحسنت علاقات الأسرة إلى درجة هامة بعد ظهور ديفدون. ولم يمض وقت طويل قبل أن يتكيف الوالدان عن طيب خاطر مع وجوده. ففي أوقات الطعام كان هناك كرسي خاص لديفدون. وإذا طلبت الأم من ديفيد أن يأكل بيضاً، فإنه قد يستجيب الآن بوقار، "*يجب* أولاً أن أسأل ديفدون إذا كان *ينبغي* لي أن أتناول البيض". ويوجه سؤاله بصوت مسموع إلى ديفدون. وبعد فترة من الصمت يلتفت ديفيد إلى أمه، "قال ديفدون بأنه ينبغي أن أتناول البيض". أصبح ديفيد أكثر سعادة، وأقل بكاء أو تجهماً. ولكنه

* الأحرف الثلاثة الأولى من ديفيد مع أول حرفين من اسم الأب-المترجم.

بات لايستجيب البتة لوالدية مباشرة. بل أصبحت موافقات ديفدون وأوامره هي التي تدفعه إلى الاستجابة.

وعن طريق إضافة جزء من اسم أبيه إلى جزء من اسمه، ابتكر ديفيد رفيقاً اشتقه في قسم منه من شخصيته الخاصة وفي القسم الآخر مما ينسبه إلى أبيه من العظمة، والقدرة الكلية، والعلم بكل أمر. وقد وُصِفَ ديفدون هذا بأنه طويل-"أكثر طولاً" من الأب. وصوته مرتفع-"أعلى من صوت بابا"-حتى أن ديفيد كان أحياناً يغطي أذنيه بيديه أثناء قيام ديفدون بإصدار أوامره.

وكان بإمكان ديفدون أن يقوم بأعمال أخرى إضافة إلى إصدار الأوامر. فإذا قامت الأم بتوبيخ ديفيد بسبب اقترافه لخطأ ما، فإنه سيحتج على الظلم متحدياً، ويعلن بأن ديفدون هو الذي أجاز له القيام بذلك العمل. ومن جهة أخرى، كان ديفيد يبكي أحياناً ويطرق برأسه خجلاً مـن مسائل غامضة بالنسبة لوالديه. ولكن خجله كان ناجماً عن اعتقاده بأنه أغضب ديفدون.

عندما أصبح ديفيد في الخامسة من عمره، اختفى ديفدون من البيت فجأة بالسرعة نفسها التي ظهر بها. فراح يقضي شطراً كبيراً من وقته في تمثيل دور المعلم على كلب خيالي كان تلميذاً مسكيناً جداً. فكان ديفيد يطلق بعنف وبصوت مرتفع على هذا الحيوان الذي لايحمل اسماً نعوتاً خسيسة غريبة وصوراً غبية بغيضة. توقفت هذه اللعبة عندما دخل ديفيد الصف الأول، حيث أصبح قارئاً نهماً ومراقباً أدبياً على نحو مثير للألعاب في باحة المدرسة.

وأحياناً، قد يشترك طفلان من الأسرة نفسها بالرفيق المتخيل نفسه. فآدم وإليزابيت أخوان في الثانية والثالثة والنصف من العمر، ابتدعا معاً رفيقاً خيالياً اسمه بوب. وصفته إليزابيت على أنه ولد "قذر جداً وسيء جداً ونحيل"، وقالت أنه "يبلغ طوله 3 أو 4 إنشاً. ولكنه يصبح أكثر ضخامة وبدانة عندما يأكل الجزر أو اللحم". والأخ الصغير آدم، الذي كان يخضع لكروب التدرب على ارتياد المرحاض، هو الذي ابتدع الاسم بوب وصفاته الخاصة، ولكن إليزابيت فقط هي التي كانت قادرة على تقديمه إلى باقي أفراد الأسرة. كان بوب يتحدى كافة قوانين الأسرة ويعتبر مسؤولاً عن كل خرق لأنظمتها. وبوب "الذي فعل ذلك"، هو تلك الاستجابة التي لاتبالي ولا تهاب أي تأنيب. وكان يعاقب بقسوة من قبل

الطفلين جزاء على مخالفاته، ولم يكن يكرس لقذارته وسلوكه السيء سوى الخضوع التآمري بالكلام فقط.

وبعد عام واحد، انضمت إلى بوب أخت اسمها بوب الطيبة، وهي من ابتكار إليزابيت. وكما تقول إليزابيت، كانت بوب الطيبة فتاة أنيقة، نظيفة، مطيعة، نادرة الذكاء، ترتدي مريلة جميلة قرنفلية اللون. أما في خيال آدم، فكانت بوب الطيبة ولداً شجاعاً جداً يمكنه أن يتسلق أعلى الأشجار، جريئاً في ألعاب الجمباز "أعظم، وأقوى، وأكثر رشاقة" من أبيه. عاش بوب وبوب الطيبة بانسجام مع بعضهما، مع كسب تدريجي في النفوذ كانت تحققه بوب الطيبة. وأخيراً، عندما ذهبت إليزابيت إلى المدرسة اختفى كلا الرفيقين بوب. أما وقد بات آدم الآن وحيداً، متحرراً من الوجود المخيف تقريباً لأخته الأكبر، فإنه أصبح ولداً جريئاً، قوياً في الرابعة من عمره يشبه إلى حد كبير بوب الطيب الذي كان في خياله.

في المرحلة الأولى، كان رفيق/رفيقة آدم وإليزابيت يمثل رغباتهما الممنوعة. وأخيراً أصبح رفيقاً يحمل صفات اجتماعية وأخلاقية. وتجد الطفلة الصغيرة مع رفيقها الخيالي، على اعتباره ممثلها الأخلاقي، وسيلة للتعبير عن أمنياتها ورغباتها في حين تكتسب في الوقت نفسه، لحسابها الخاص، السلطة الأخلاقية عند الأشخاص المقتدرين الذين يتحكمون، فيما يبدو، بجزر مسراتها ومدّه. والرفيق مرن للغاية ويمكن أن يمثل كلا جانبي النقاش بين الرغبة والسلطة. ومن اللافت للنظر، أن هذا الابتكار الطفولي يرعى حياة الرغبة ولكنه يعمل بعدئذٍ ببطء على تحويل الأمنيات الطفولية إلى طموح أخلاقي. فالرفيق ينشيء جسراً فوق المدة الفاصلة بين الرغبة وتحقيقها، مؤكداً للطفل أنه يمكن تحقيق المشاركة في النظام الاجتماعي بدون أن يتنازل المرء عن قوته أو كرامته الأخلاقية.

نصبح متحضرين عن طريق إذعاننا للأوامر والتحريمات، عن طريق تسليم قوتنا الكلية الفطرية وإخضاع الرغبة لمفاهيم النظام الاجتماعي. فالحياة المتمدينة هي الحياة اليومية للأنظمة والعادات. ونوافق، بوصفنا كائنات متمدينة، على تعديل الرغبة وتكييف النرجسية مع متطلبات العيش في العالم. وبذلك نحصل على الرضا العادي للعلاقة بالآخرين، لكوننا مجدّين، لانتمائنا للمجتمع وقبولنا فيه، لكوننا مأمونين، بوصفنا جزءاً من الهيئة الاجتماعية. ومن جهة أخرى، تُستَمَدُّ الحياة الثقافية من الأوصياء الداخليين الذين

نستحضرهم للمحافظة على كرامتنا الأخلاقية. وتتألف تلك الحياة من أحلام اليقظة والتخيلات، والمجازات التي تنظم الماضي والحاضر والمستقبل في خيط الرغبة.

تتفجع الفتاة المراهقة بتفكيرها الذي يُجتَذَب من بُنَى الحياة اليومية المملة وركوده وجسمها الذي ينمو بلا هوادة إلى شكله الراشد من غير طقوس، عاجزة عن رسم خريطة للإقليم الذي يقع فيه مكان الراحة. فتستعير دثارات الأمان، والرفاق الخياليين، والرومانس الأسري، ولكن كل هذا لم يعد كافياً بالنسبة للتجارب العاطفية في مرحلة المراهقة. ولكي تنمو الفتاة المراهقة إلى ماهو أكثر من مجرد تلميذة مدرسة كبيرة وناضجة جنسياً، لابد لها من استحضار مجازات جديدة.

وعندما يتحولون عن مجازات الطفولة، يكون المراهقون شعراء مبتدئين، مسعورين يتحدون عالم الكبار لإضفاء المعقولية على إيماءاتهم وأمزجتهم التي لايمكن تفسيرها. وهم الحالمون الذين يجب أن يرفضوا ويحطوا من قيمة الأحلام، واللباس، والسياسة الواقعية عند جيل الراشدين. فالطفل الذي يحبو يجب ان يقول "لا" لكي يكتشف من هو. والمراهق يقول "لا" لكي يؤكد من ليس هو. فهو لاينتمي للوالدين؛ بل ينتمي إلى جيله الخاص. ولكي يُعبِّد الطريق لإمكانيات جيله، يجب عليه أن يعمل أولاً على تقويض المدينة الفاضلة للطفولة، مع مايرافقها من خطط جامدة وقيود بيروقراطية. فلا ينبغي له أن يكون عبداً، بل ينبغي له أن لايذعن.

يستحضر المراهقون عالمهم الخاص في اللباس، والعادات، واللغة، والرقص، ومعرفتهم القبلية، وأوثانهم من أجل تقديسها واحترامها. هذا العالم المنشود سيكبح الرغبة ويلطف عار كونهم أدنى من الكائن الكلي القدرة الذي يفترض فيهم أن يكونوا عليه وفقاً لتخيلاتهم. ويستحضرون أمكنة راحتهم. ويتخيلون أن بإمكانهم السيطرة على حياة الرغبة. ويدّعون بعض السلطة على الطبيعة. وما يستحضره المراهقون على امتداد الطريق إلى الرشد يمكن أن يجدد النظام الاجتماعي. فنشاطات النمو التي تحوّل الطفل إلى كائن مقتدر جنسياً ومنجب، تترافق بشمولية الإزهار والحيوية في المجتمع، والطبيعة، والكون.

في طقس نافاجو كينالدا، تصبح كل فتاة امرأة بديلة. تلبس وترقص مثلها، تصبح تربة، قدرة للخصب في كل الأشياء. تصبح تجسيداً لحركة صاعدة، للنمو من الأرض حتى السماء. فتوحد بوجودها الشمس والقمر، الشمس الملتهبة مع الماء الرطب.

وفي الميثولوجيا الأغريقية، تُحمَل كور، العذراء، الصبية إلى العالم السفلي غصباً عنها؛ ولا نعرف إلا القليل مما حدث لها هناك. ولكنها تعود مثل بيرسيفون Persephone، الذي يولد من جديد كالمحصول الذي يظهر من التربة بعد شتاء عبوس. النشاط الجنسي عند كور، أي أن تصبح بيرسيفوناً كاملاً مجرباً مخصباً، ولوداً، مرادف لبروز المحصول من الأرض.

كان فتيان القبائل في سهول أمريكا الشمالية يُشجَّعون على البحث عن القدرة الشخصية عن طريق الإفلات الموقت من قبضة المجتمع. وكان عليهم أن يغامروا في مناطق خطرة حيث يتوقف سريان مفعول قوانين الحماية القبلية. وأن يصلوا إلى نقطة الانكسار في المعاناة الفيزيائية على أمل تحقيق الاتصال بالعالم المقدس. فكانوا يضعون أنفسهم في أرماث تطفو على سطح الماء بدون طعام، ويعتزلون على قمم الجبال حيث يصارعون الحيوانات المفترسة ويتعرضون للمطر والبرد، ويصومون على مدى أسابيع بلا انقطاع ويعملون على مفاقمة ضعفهم عن طريق تناول المقيِّئات. وقد فسر ليفي شتراوس هذه المحن في المراهقة قائلاً: "في هذه المنطقة الحدودية غير المستقرة، هناك خطر للانزلاق إلى أبعد مما هو مقبول اجتماعياً وعدم العودة أبداً، إضافة إلى احتمال انسحاب الاحتياطي الشخصي للقوة من المحيط الواسع للقوى غير المستثمرة التي تحيط بالمجتمع، نتيجة لكل ماجوزف به على أمل تعديل نظام اجتماعي مختلف لايمكن تغييره".

لايمكن للبنت المراهقة أن تتحكم بفزيولوجيتها ذات الإفرازات الصماوية المتغيرة، بالإجراء المثير لإعادة التناسب بين الساق وطول الجذع، بتضخم كل عضلة ونسيج، بشعر العانة، بانتصاب الحلمتين، بالطمث الشهري. ولكنها تعبر عن قدرتها بما يتجاوز هذه الحوادث الطبيعية عن طريق زخرفة (حتى تشويه) جسدها، وهي تنشد التراتيل المقدسة لجيلها، وتشارك باللغة السرية-كل من تلك الرتاتيل تظهر قدرتها البدائية وتبدل حالتها الجنسية. عندما يُعبِّر المراهقون عن قدرتهم العضلية، ونشاطهم الجنسي، وإمكانيتهم الإنجابية بالأساليب الاجتماعية المقبولة للّغة والرقص، واللباس، وزخرفة الجسم، فإنهم يجردون فيزيولوجيتهم المرعبة من تهديدها للمجتمع. وتصبح هذه المجازات مرتبطة بالنظام الاجتماعي الطبيعي. وعن طريق تعزيز الروابط العاطفية والفيزيائية بين الأنداد، تعمل مجازات المراهق على تعزيز محرم سفاح القربى. وما الحلاقات الشاذة للشعر، والزخرفات الفاحشة للجسد، واللباس إلا تأكيد للاختلاف الجيلي وقد أعدّ لمقاومة جيل

الكبار. ولكن الكبار تثيرهم حيوية المجازات عند المراهقين ولا يكونون بعيدين تماماً عن منافسة مايخشون منه ويحسدونه.

وكما هي الحال مع دثارات الأمان والرفاق الخياليين، يجب حماية مجازات المراهقة من أن يمتلكها عالم الكبار. ولكي تحتفظ بأهميتها، فإنها يجب أن تبقى في عالم الشباب. وبعد فترة، تصبح الموسيقا المقدسة، والرقص، والتراتيل، واللغة، واللباس، والزخرفات الجسدية جزءاً من المملكة الوثنية التساهمية. وسوف يمتص تيار الحياة العادية بعضاً من هذه المجازات. وتحتفظ المجازات الأخرى بقوتها وكامل حيويتها إلى الأبد. فإذا قدر لهذه المملكة أن يحكمها أو يمتلكها جيل الكبار، كما يحدث غالباً في مجتمعاتنا التنافسية الحديثة، عندئذٍ سيتخلى الشباب عن المجازات المألوفة ويستبدلونها ببساطة بمجازات أخرى. وكلما أمعن جيل الكبار في اغتصاب مايخص الشباب، كلما ازداد الاحتمال في أن تكون المجازات الجديدة أكثر تضليلاً وغموضاً. والنصوص التي تروق للمراهقين هي معانٍ أكثر من التوق إلى الماضي من أجل أيامه الذهبية أو المراثي من أجل الأبطال والبطلات المفقودين. هؤلاء الذين نعرفهم من أوتارهم النحاسية وقوافيهم الحزينة، يعبرون عن الألم، عن الوحشة، عن الارتباك عندما يرحل شخص من أحد أطوار الحياة ويكون على وشك دخول طور آخر، عن الانقسامات داخل الذات، عن الجهود المبذولة للمحافظة على الصدق مع النفس.

ذهبت إلى الرجل المقدس،
مشحوناً بالحقد والضغينة،
ولهذا قادني إلى البوابة الذهبية.

هل يمكنك أن تدلني على الواعظ الحقيقي؟
هل يمكنك أن تدلني على الطبيب الحقيقي؟
هل يمكنك أن تدلني على الأم الحقيقية؟
هل يمكنك أن ترى ذاتي الحقيقية؟
لقد نلت كفايتي من الحياة
ونلت كفايتي من الموت
وابتسمت بما فيه الكفاية

وبكيت بما فيه الكفاية
سلكت جميع الدروب العامة
فأسرفت وادخرت
ونلت كفايتي من الطفولة
ونلت كفايتي من القبور.

ويتحدثون عن الشك الذي يشبه الكابوس حول ماهو قريب إلى حد ما لكنه رغم ذلك سوف يأتي:

النجم الداكن يتحطم
يسكب نوره إلى الرماد.
العقل يبلى.
تتحرر القوى من المحور.
يسلط النور الكشاف بحثاً عن الأخطاء في غيوم الوهم.
هل سنرحل، أنت وأنا، مادمنا نستطيع،
عبر عشية انتقالية مرصعة بالماس؟

* * *

لن يكون هناك أمس بعد الآن
أذهب زائراً ... أتحدث بصوت مرتفع
أحاول الإفصاح عن نفسي
أمام وجه أقرب مما كان عليه في أي وقت مضى.
لم يكن حميماً فيما مضى
أقرب مما مضى
لم يكن حميماً فيما مضى.

إنها أشعار غنائية دنيوية. سمعناها مراراً قبل الآن. لكنها، مع ذلك، تعكس الشعورَ بأن الذات ناقصة، والشوقَ إلى القوى والمواد التي يمكن أن تنقل الكمال.

الحب، يستبد بي.

الحب، يستبد بي، يهطل علي.

الحب فقط
يمكنه أن يأتي بالمطر
هذا يجعلك تتوق إلى السماء
الحب وحده
يمكنه أن يأتي بالمطر
الذي يسقط كالدموع على الأعالي.

ضربة النبض تحذّر من القدرة الهائلة للعاجز، ومما قد يحدث إذا لم نضع هذا جدّياً في حسابنا. ونتحرك إلى النبضة لأننا نكون أحياناً جميعنا عاجزين:

أنا كابوس يمشي، إشارة الدينونة
عندما أدخل الغرفة أقتل الحديث
أنا كارثة تمشي
أنا إنسان تدمير

مربوط إلى شاحنات والقطار قادم
مشدود إلى أجنحة والمحرك يهدر
أتدّعى أن هذا لم يكن في خطتك؟
لاتعبث مع الإنسان المدمّر
مربوط إلى كرسي والقنبلة تتكتك
الحالة ليست من اختيارك.

نخلق هذه المجازات، نستحضر أوهام القدرة هذه لكي نتحمل العيش في عالم واقعي محدود الإمكانيات. فالعالم الذي نعيش فيه فعلاً هو عالم الآخرين الواقعيين الذين هم من بني الإنسان مثلنا، لكنهم يختلفون عنا، كل بطريقته الخاصة به- عالم العائلات، وباحات المدارس، والمكاتب، والمعابد؛ عالم الطفولة، والقبور، والبكاء، والابتسام؛ عالم تلك الروابط التي لاتحصى والتي تربطنا بالآخرين فتثقل علينا، عالم الطموح الواقعي، والقدرة

الحقيقية. يصفه ليونيل تريلينغ في حديثه حول هذا العالم الواقعي كوسط يحمل كل "متاعب الالتزام بالتوسط، وكون المرء ضحية، والجدل مع الحاخامات، والذهاب إلى الأفراح والمآتم، والشروع بشيء ما لنلاحظ في مرحلة ما بعد ذلك أنه انتهى". لم يقصد تريلينغ أن يقلص دائرة الإمكانية اللانهائية أو يرفض فكرة أن هناك شيئاً ما بالنسبة للوجود الإنساني أكبر من الرغبة والشرعية. وحذا حذو كيركغارد في التحذير من أن مامن أحد منا يمكنه أن يكون أخلاقياً حقاً مالم يحترم ويضع في اعتباره أبعاد العالم الذي يعيش فيه فعلاً.

وفي مكان الاستراحة ذاك، الذي هو فوق الاجتماعي، فوق المتعة، فوق الواقعية، يبقى في اعتبارنا الجدل الكبير بين الرغبة والسلطة. فيسمح الرفيق الخيالي للطفل بتكييف رغباته مع متطلبات النظام الاجتماعي مع احتفاظه، في الوقت نفسه، بكرامته الأخلاقية. وهو عندئذٍ لايخضع للرغبة أو السلطة. ويكتشف وسيلة لترويض نفسه على القبول بالمنغصات التي تبرز بشكل حتمي في مجرى الحياة في عالم واقعي.

لكي ينمو الشخص، أي شخص، ويتكيف مع العالم الواقعي، لابد له من الاحتفاظ بمنطقة ما من الحياة للاستحضار. فكلما ازدادت طاقات النمو الفيزيائي شدة، وكلما هددت التبدلات الفيزيولوجية المتأصلة في حياة الفرد بقلب النظام الاجتماعي، كما في المراهقة، كلما اشتدت الحاجة إلى مكان للاستراحة. يعيش المراهق حياته وكأنه في تفاعل دائم مع عالمه الواقعي. ولكنه يقضي شطراً كبيراً من وجوده في زمن مقدس، معتزلاً الناس، بعيداً عن الأرض ومشاغلها الدنيوية. هنا، في المنطقة الوسيطة، يمكن أن تبدأ التناقضات عند النصف طفل، النصف راشد بتحقيق بعض من الوحدة الداخلية.

على المرأة المتبدلة أن تجد، عاجلاً أم آجلاً، طريق العودة إلى العالم الواقعي. فأثناء إقامتها في العالم السفلي، أو محبوسة في شرنقة، أو في الكون الأعلى، كانت تصارعت مع رغباتها الشيطانية والجنسية. مع ذلك، إذا بدا عند عودتها لكي تدخل أن ليس هناك شخص "يليق" بجوعها الجنسي ترتبط به، أو أي مكان تعبّر فيه عن قدراتها، فإنها سوف تذبل وسوف تذوي محاصيل القمح وتصبح الأرض قاحلة.

إلى أي مدى يمكن لفتاة أن تحوّل القدرة الخيالية إلى قدرة واقعية تعتمد جزئياً على القناعات الاجتماعية والخصائص الأخلاقية للبيئة الواقعية التي تنتظر استقبالها؟ فعلى الرغم من أنها قد تتوصل، وهي في المنطقة الانتقالية، إلى بعض الحلول التجديدية، لكنها إذا لم تجد قمحاً لإعداد الكعكة المقدسة، ولا صفحات تكتب عليها أشعارها، ولا حلبات

تؤدي فوقها رقصاتها، ولا مدارس تتعلم فيها، ولا معابد تصلح لصلواتها، ولا مناطق مجهولة تتوجه إليها لاكتشافها، فماذا تفعل عندئذٍ؟

يجب أن نتوقع أن الشباب سيسألون العالم الذي يستقبلهم، وأن الدخول من جديد سيكون مربكاً ومخيباً للأمل. مع ذلك، طالما كان هناك شكل ما من أشكال الحضارة، إمكانية ما لحياة ثقافية، فستكون هناك دائماً حقول قمح، وصفحات، وحلبات رقص، وحياة عائلية، ومدارس، ومعابد. وتتلخص مشكلة الشباب عندئذٍ في طريقة تكييفهم لحياة الإمكانيات اللانهائية مع حياة الإمكانية.

يجب أن تُحلّ هذه المشكلة الشخصية من قبل كل شابٍّ أو شابّةٍ عندما يستلم الزمام ليصبح راعياً ومشرعاً. وتتعلق المشكلات الأخرى للعودة من جديد بالمجتمع ككل وبالجيل السابق، والصراعات التي يخوضها أبناء هذا الجيل حول التخلي عن السلطة للشباب، وما يحمله أولئك من حسد جنسي وأخلاقي لهؤلاء الذين هم على وشك أن يصبحوا الجيل الراشد التالي.

يقول روسو أنه خلال المراهقة، "يختمر الدم ويُثار؛ ويحاول فيض الحياة أن ينتشر إلى الخارج". وأثناء المراهقة لاحدود للخيال. فالدافع نحو الكمال الذاتي يكون في أوجه. ومع كل انهماكهم في شؤونهم الذاتية وأحلام مجدهم الفردية، نجد الشباب يطاردون شيئاً ما أكبر من العواطف الشخصية، بعضاً من القيم أو المُثُل التي قد يرتبطون بها عن طريق تخيلاتهم. وتتوازن طاقاتهم لتحويل المصالح النرجسية الشخصية إلى اهتمام بالصالح العام. كما نجد أن قدرتهم الجسدية، وقدراتهم على الإنجاب والإبداع، وأفكارهم وتصوراتهم الخيالية جاهزة للتوجه نحو مستقبل الحضارة. وعلى اعتبار المراهقين مجددين للإمكانيات الأخلاقية في المجتمع، يمكن أن نتوقع منهم أن يقاوموا الماضي ويؤكدوا أنهم مختلفون عن الجيل الراشد. ولكنهم يتطلعون في الوقت نفسه إلى احترامنا، وحتى إلى الاقتداء بنا، لو كان مانقدمه لهم منسجماً مع طموحاتهم الأخلاقية. وبدلاً من ذلك، نجد أن مجتمعنا الحديث مبتلى بالتبديد الهائل للإمكانية الأخلاقية عند الشباب. والقيّمون على الشباب—الأهل والمعلمون، والقادة السياسيون والدينيون—قد يفعلون خيراً لو أنهم فكروا فيما إذا كان مايمثلونه وينقلونه على اعتباره قيماً ومُثُلاً اجتماعية سينفخ روح الفضيلة في الشباب أو أنه يشجع تلك الانحرافات في التخيل وكمال الذات التي تزدهر، كما يبدو، في مجتمعاتنا الحديثة.

الجـــزء الثــالث

دراســات تطلعيـــة

الســـعي نحو الكمـــال

10

القهم العصابي
سعي أنثوي نحو الكمال

لاوجود للانعكاسات في الرحم. فالجنين–سائل السَّلى–المشيمة–الأم وحدة متكاملة في حد ذاتها. والوليد لامرآة عنده لتقول له من هو أو ماذا يكون خلاف المنعكسات، والأحاسيس، والعضلات. فهو ينكمش ويتطاول. وهو يبصق، ويحجب، وينتقل. هذه القدرة الرائعة للإيماءة والفعل ستكون نموذجاً لأول أفعاله النفسية–تلك الرغبات التي تتيح له أن يكون في أي حال يريدها. فهو يرغب في التخلص من الاضطراب. يتمنى التفريج والإشباع. ويحصل على ذلك–لفترة قصيرة على الأقل.

والوليد لايعرف عن نفسه سوى التوترات والإثارات، إيماءات تطاوله وانتقاله. إنه يبحث. ولكنه لايحمل أدنى فكرة عما يبحث عنه قبل أن تجعله تحركاته على تماس مع شيء ما يتناسب مع جسمه الباحث. إنه ساحر يبدع السحر بدون أن يدرك ماذا يستحضر: فالحلمة تلاقي فمه الباحث، فيتكيف جسمه إلى ليونة مطواعة رائحتها تشبه رائحة جسده الخاص، ويستند رأسه إلى تخم ما. ويتوهم بأنه هو الذي أبدع الحلمة، وجسد الأم، وحافة العالم. وهذا العالم المستحضر هو مرآته.

يدرك الطفل في شهره الثاني بأنه متماسك ومحمي من التوتر والإثارة من قبل بعض الحوادث الخاصة التي تحدث خارج جسده. فهو يتحسس وجوك الروائح، واللمسات، وضربات القلب، وحركات الجسم التي تتوافق تماماً مع حالاته الجسدية الخاصة. إن التلاؤم بين الحضور الحافظ للأم وإيماءات الطفل صالح بما يكفي لتعزيز وهمه بأنه كلي القدرة. ويمكن أن يبقى أيضاً، حتى بوجود الأم، راغباً في شيء يجعله يشعر بأنه كامل ورائع.

يُشَدُّ الرضيع بشكل لايرحم إلى عش وجوده الآمن. وتُرَوَّض إثاراته وتوتراته عن طريق جوعه إلى الاحتفاظ بوجوده الذي يُشبِع، ويحجب، ويُقَنِّن، ويحبط، ويدخله إلى الشرعية. هنا يبدأ بقياس ذاته كما تعكسها إيماءات الآخر المستجلي لذاته. وأحياناً، تقترب

تلك المرآة كثيراً من الأيام السحرية حيث كان يمكن للرضيع أن يتمنــى لـو يكـون، وكـان. وما يوازي القدرة الكلية في صلاحيته هـو قـول الأم لـلرضيع بصوتهـا المرتعـش وعينيهـا المتألقتين، "أوه، ياللطفل الجميل! لَكَمْ أنت رائع! ولَكَمْ تمتلىء نفسي بالإشراق كلمـا حملتـك بين ذراعي!". ينظر الطفل عميقاً في عيني الأم، فيهدل ويقرقر متناغماً مع صوتها، ويرى نفسه منعكساً ككل الأشياء المثيرة القوية التي يتخيل أحياناً أن يكونها. والإعجاب باستجلاء الذات عند الأم هو ملاطفة ترسم حواشي الاعتزاز على جسد الرضيع.

سيتنازل الرضيـع، مـن الآن فصـاعداً، ولصـالح المشـاركة فـي مجـد وقـوة الآخـر المستجلي لذاته، عن كثير من القدرة الكلية للإيماءة والتأثير اللذين ولـد عليهمـا. ومـن الآن فصاعداً، سيعمل قلقه من فصله عن هذا الآخر على كبح قدرته الكلية، ومنعـه مـن الفرار بنفسه. والواقع أن المقارنة بين قدرته الخاصة المحدودة والقدرة الاستثنائية عند الآخرين الأماجد الذين يعتمد عليهم في الحب والسلامة تولد عنده الاستياء والحسـد. ولكنهـا تسـتحق ذلك. لأنه عندما يشعر بهشاشته، أي بأنه أدنى مما يتمنــى أن يكـون، يكـون تجديـد التـأمين جاهزاً. وإذا لم يمد يده ليخطف الملعقة ويوسخ ماحوله بالطعام السائل، وإذا فتح فمـه فقط وتناول الملعقة وبلع وهو يهدل، فإن العينين العاكستين سوف تتألقان: "ياللك من طفل رائـع! أنت طفل مثالي". وقد تكون مرآة الحب المبهرة بين طرفي العلاقة مُخادِعَة كبيرة.

* * *

تتأمل البنتُ ابنةُ الرابعة عشرة انعكاس صورتها فـي المـرآة. فتتقد عينـاها إعجابـاً بروعة وجههـا اللطيف، ونعومـة جيدها، وكتفيها، وثدييها، ووركيهـا، وفخذيهـا، وسـاقيها، وكاحليها. ويشرق محياها راضياً عن نعومة بشرتها اللامعة، ورهافـة ووضـوح الخطـوط المحيطية لجسدها الخـالي من العيـب والشـحم. ولكـن طيفـاً مـن القلـق يعبر عينيهـا لأنهـا لاحظت بروزاً في البطن. فيعيد إليها طمأنينتها دليل واحد هو أنهـا أسـكتت شـهوة المضـغ التي تسيطر على وجودها.

ولكن المرآة تعكس إلى الناحية الأخرى، إلى ناحية الأم والأب، طيفاً لايكـاد يحمـل أي شبه بابنتهما الرائعة التي كانا يعرفانها–طيفاً يحمل شـعراً خيطيـاً باهتـاً؛ وبشـرة خشـنة بقعيّة شاحبة؛ وشعراً طفليـاً ناعمـاً طويـلاً يغطـي الجـذع والظهـر والذراعيـن والسـاقين؛ ؛ وعظاماً لالحم عليها؛ وعينين متّقدتين غـائرتين؛ ويغطـي أظـافر الأصـابع والأبـاخس لـون

ضارب إلى السمرة. إنها جثة، هيكل عظمـي يسـعى. فيقرر الوالـدان بـأن الأمـور قطعت شوطاً أبعد مما يجب بالنسبة للحمية الغذائية الطائشة التي تلتزم بها ابنتهما.

وتتلطـف البنت فتوافق علـى مرافقـة أمهـا إلـى عيـادة الطبيـب. وتسـتنكر بمـرارة محاولات والديها تقويض إنجازهـا. وتشـعر بأنهـا سليمة تمامـاً باستثناء بعض المغوص المعديـة العرضيـة والإمسـاكات، والتـي تعالجهـا بصـورة جيدة بواسـطة الملّيِنـات، ولـولا أحاسيس الخدر والوخز في يديها وقدميها. ولم تشعر يوماً أبداً بأنها أفضـل حـالاً ممـا هـي عليه الآن.

يرى الطبيب حالاً كل العلامات الخارجية للدنف، أو النحول الجسدي. فطول البنت خمسة أقدام وبوصتين (حوالي 155 سم–المترجم) ووزنها ثمـان وسـبعون بـاونداً (حوالـي 35 كغ–المترجم). ونحولها علامة مهددة للحياة تقريباً. وأياً كـان تشـخيصه النهـائي، فإنـه سيوصي بإدخالها إلى المستشفى إذا لم تباشر الأكل فوراً. وأظهر الفحص الجسدي الذي أجراه بأن حرارة جسـمها دون الدرجـة السـوية، وضربـات القلب عندهـا أقل 60/د، كمـا أظهر التهاباً في طيات البشرة التي تحيط بأظافر الأصابع والأباخس، وتورمـاً وزرقـة فـي اليدين والقدمين، وتناقصاً في إفراز العرق والدهن، أي تجفافاً.

وقد تشير الفحوصات المختبرية عندها إلـى فقر دم مـن نـوع مـا–عـوز الحديد أو ربما قصور في تركيب البروتين. وقد يكون هناك نقـص فـي كريـات الـدم البيضـاء، التـي تساعد الجسم على الاحتفاظ بمقاومته للمـرض، أو زيـادة شـاذة فـي هـذه الكريـات. فيتوقـع الطبيب وجود عوز يتراوح بين معتدل إلى شديد في نقي العظم، وخلل في وظيفة المعثكلـة ونقص 20–40% من الاستقلاب الأساسي السابق عندها. وبمـا أن وزن جسـمها قد هبـط بمـا يكفـي لعكـس جملـة التلقيم الراجـع الوطـائيـة–النخاميـة–القنديـة، فـإن دورتهـا الطمثيـة ستتوقف، وستظهر الدراسات بأشعة X بطءاً مماثلاً في سرعة النمو الهيكلي. وبذلك تكـون مرحلة ماقبل البلوغ قد توقفت.

هنا، قد تكون الأزمة الاستقلابية التي تؤدي إلى قصور كلوي أو إلـى توقـف القلـب وشيكة الحدوث. فإذا لم يُعكَس التردي الجسدي عند البنت، وإذا أصبح هذا التردي مزمنـاً، فقد يحدث انكماش لاعكوس في أحد الأعضـاء الداخلية–القلب، الكليتين، الدمـاغ. وقـد تفقد البنت القدرة على حمل الأطفال. و اذا ماتقدم نحولها، فإنها سوف تموت.

تفيد الأم بأن شؤون الأسرة تدار بشكل جيد ومنظم. فهي تشتغل بعض الوقت في مهنتها وتكون عادة في البيت لتشرف على وظائف أطفالها وأوقات طعامهم. وتعمل الابنة الأخرى بنجاح في الكلية. وليس هناك نزاع عائلي. ويترك الأب إدارة شؤون الأسرة وتربية الأطفال بصورة كلية لها. وفي كلا جانبي الأسرة، لاتوجد هناك قصة لمرض عقلي أو فيزيائي خطير. وقبل سنة واحدة فقط كانت هذه الشبح الهيوجة، المهزولة، العنيدة طفلة تقوم بواجبها، مطيعة، جميلة، تأكل جيداً، لحيمة، عالية الأداء، حاصل ذكائها 125، طموحة، حسنة السلوك-كانت، في الواقع، تحمل لواء الانسجام في أسرتها السعيدة.

وتتشكى الأم من أن التردي حدث على نحو مفاجيء جداً. فقد بدأت ابنتها حمية غذائية. وطلبت من معلمها مهمات إضافية. وتخلت عن رياضة الجمباز وحصص الباليه لأنها لم تكن شديدة الإلحاح وراحت بدلاً من ذلك تعدو عدة أميال كل يوم. ولكن الأم لم تفكر في أن هناك خطأً ما إلى أن انقلبت البنت، التي كانت في العادة مطيعة قبل هذا، لتصبح محبة للجدل، تواقة للإغاظة، وعنيدة، وراحت تحاول التحكم بموعد وجبة الغذاء عند الأسرة. وعندئذٍ لاحظ الوالدان بأن البنت التي كانت تنظم قوائم الطعام، وتشرف على الطبخ، وتهيء الطاولة، وتجمع صيغ الطهي، وتوجه أباها بأن لايمضغ بصوت مسموع، صارت هي بالذات تتناول على طعام العشاء كبدي دجاج وشريحة من الجبن لاغير. ولم يحملها أي قول من أمها أو أبيها على تناول المزيد. وفي غضون أربعة اشهر، بعد ملاحظتهما لأول مرة فقدان ابنتهما لشهيتها، هبط وزنها من 110 باونداً إلى 78 باونداً كما هو عليه الآن.

كان الطبيب متأكداً من أن الخسارة المثيرة للوزن والسلوك المزاجي عند البنت هما عرضان للقهم العصابي. وعلى الرغم من السنوات الثلاثين التي قضاها في ممارسة مهنته، فإنه لم يسبق له، قبل أواخر السبعينات، أن صادف حالة واحدة من هذا النوع، وفي غضون السنتين الماضيتين وجد من الضروري إدخال أربع بنات إلى المستشفى. مع ذلك، حافظ على الروتين المتبع لنفي تلك الاضطرابات الجسدية التي تترافق أيضاً بخسارة مهمة للوزن، كالتدرن، وخلل وظيفة الكظر، وتشنج المري، وسرطان المعدة، وفقر الدم الوبيل. وقام أيضاً بدراسة احتمال وجود تلك الاضطرابات النفسية التي يكون فيها رفض تناول الطعام والنحول عرضين ثانويين لصورة سريرية أوسع، كبعض أشكال الفصام والتفاعلات العديدة التي تبعث على الاكتئاب والتي كثيراً ماتنتشر أثناء المراهقة.

ولكن الصحافة الطبية لفتت نظر الأطباء في العقد الأخير إلى أن هناك أيضاً نسخاً معدلة لانمطية للقهم، لايضاعفها أي اضطراب آخر رئيسي، جسدي أو نفسي. يأتي هذا القهم اللانمطي نتيجة للزهد الغذائي أو إضرابات الجوع الاضطرارية التي تُنفَّذ بتهور، وعكسها سهل نسبياً في فترة قصيرة من الزمن. وعلى ضوء معرفته بالبنت وأمها، فإن الطبيب لم يأمل كثيراً بأن يكون التشخيص هو القهم اللانمطي، مع أنه مازال يرجو لو يكون كذلك. فإذا صح هذا التشخيص، فإنه سوف يحصل على تعاون البنت في المعالجة. وسوف تعترف بأنها مريضة تحتاج إلى مساعدة. وهي بالذات يمكنها أن تتشكى من خسارتها للوزن وتُسلِّم بأن الشبح الذي تراه أمامها في المرآة ليس تلك الحورية الجميلة. ولن تقبل بالبقاء نحيلة جداً، ومع قليل من المعارضة، سوف تتكيف مع التوصيات الغذائية التي ينصح بها الطبيب.

إن مايراهن عليه الطبيب يتلخص في أن هذه المتشردة المحزنة التي تحملق به متجهمة سوف تظهر علامة ما تشير إلى الاهتمام بحالتها الجسدية. ولكن مقابلاتهما الخاصة تؤكد تشخيص القهم العصابي النمطي الأولي. ويكشف موقف البنت وسلوكها كل الصفات المميزة: عدم اهتمامها مطلقاً بنحولها، قناعتها الراسخة في أنها تتابع برنامجاً معقولاً للعمل، القوة والعناد اللذان بهما تدافع عن نحولها الشديد. فهي تشدد على مدى ماتشعر به من عافية، وكيف أنها تعدو أو تقوم بمسيرات شاقة لمسافة عدة أميال يومياً، ولا تشعر بأي تعب، ولا تحتاج إلى النوم أكثر من ثلاث أو أربع ساعات ليلاً. هذه التوكيدات المتباهية على صحتها الجسدية والعقلية هي، بكل مافي العبارة من معنى، أكثر جدارة بالملاحظة على ضوء نحولها الجسدي العميق.

وتلح البنت على أنها تتناول من الطعام مايكفيها تماماً وأنها لا تجوع أبداً. ويعرف الطبيب بأنها فقدت كل قدرة على التعرف على الجوع ولذلك فهي لاتشعر بنقص الشهية للطعام، ثم إنها، فضلاً عن ذلك، لاتتألم من فقد الشهية. والبنت أو الشابّة في القهم العصابي الأولي تستحوذ عليها أفكار الطعام. و"القهم" الذي يعني بشكل عام "فقدان الشهية" وحرفياً "قهميّ"-"فقد الرغبة في الحياة"-هي تسمية غير صحيحة في كلا الاعتبارين. فالشهيات عند البنت كبيرة وهي لاتريد أن تموت.

أطلق إرنست لازيغ على هذا الاضطراب تسميته الطبية في فرنسا عام 1873 وأطلقها السير وليم غول في انكلترا عام 1874. شدد غول على الحالة العقلية

المعممة التي رافقت الفقدان الظاهري للشهية–ومن هنا جاءت تسمية ***القهم العصبي***. أما لازيغ، الذي يعتقد بأن السببيات كانت هستيرية، فأطلق على الاضطراب تسمية ***القهم الهستيري***. وبعد بضع سنوات، استبعد الطبيب الفرنسي، هنري هوشارد، السببيات الهستيرية واقترح تسمية بديلة هي ***القهم العقلي***، وهي تسمية عرف بها هذا الاضراب منذ ذلك الحين في إيطاليا وفرنسا. وفي المانيا يشار إليه على أنه ***النحول البلوغي الإجباري*** Pubertätsmagersucht، وهي سمة تشخيصية أقرب بكثير إلى الحقائق المنظورة.

لاتشكو المصابة فعلاً بالقهم من شيء إلا من إلحاح والديها عليها بضرورة تناول الطعام. وتتفق معهما في مفهومهما الساذج حول فقدانها لشهيتها. ولكنها تعرف تماماً بأنها لاتستطيع في أغلب الأحيان أن تتحكم بشهيتها. فهي تسرق الطعام إلى غرفة نومها. وأحياناً تسرف في الشَره حتى تنتفخ معدتها فتنظف جسمها عن طريق القُياء أو تناول جرعات ثقيلة من الملّينات. جسمها، تلك القصبة reed الرائعة، دليل على أنها كسبت المعركة ضد شهوة المضغ. ولكنها تشعر بأنها محتجزة وخاضعة في كل جانب آخر تقريباً من جوانب حياتها. فهي لاتستطيع أن تخلص نفسها من المعاناة الداخلية من أنها تعمل دائماً وفقاً لأوامر الآخرين. ولولا التزامها بالحمية الغذائية، وعدوها، ولياليها الأرقة، لشعرت بالعجز والتفاهة. فنحولها هو الدليل على انتصارها.

يخبرنا المؤرخون الطبيون بأنه قبل القرن التاسع عشر كانت هناك فقط أوصاف معزولة ومتفرقة لأمراض تشبه القهم، ففي القرن الثالث الميلادي وُصِف بوذي في بحثه عن الاستنارة؛ وفي القرن الحادي عشر ذُكِر أمير شاب يعاني من السوداوية؛ وفي عام 1613، صامت بنت فرنسية لمدة ثلاث سنوات؛ وفي عام 1689 وصفت حالتان على أنهما سل ذو أصول عقلية مع نحول، وضُهى، وإمساك، وفرط نشاط، وفقد شهية؛ وفي أواخر القرن الثامن سُجِّلت عشر عدة حالات في انكلترا، وفي فرنسا حالة البنت التي انتهت بالموت، وقد عزيت تلك الميتة إلى التأثير الوبيل لأمها.

ومنذ سبعينات القرن التاسع عشر وما بعد، راحت الأوصاف الطبية لهذا الاضطراب تركز على كوكبة الأسرة. ففي بحثه الكلاسيكي "حول القهم الهستيري"، يحذر لازيغ قائلاً: "المريضة وأسرتها تشكلان وحدة كاملة تترابط بإحكام، فإذا ماحصرنا مشاهداتنا بالمريضات فقط، فإننا سنحصل على صورة زائفة للمرض". وينصح غول بنقل المريض من الأسرة. وفي عام 1895، كان جيل دولاتوريت، الذي نصح أيضاً بفصل

البنت عن أسرتها، أول من لفت الانتباه إلى حقيقة أن المريضة لم تتألم من فقد الشهية. ويدّعي بأن رفضها لتناول الطعام وإدراكها المشوه لجسدها، كانا هما العلامتان اللتان ميزتا المرض.

وباستثناء الفترة الممتدة من 1915 حتى 1935، حيث كان يعزى القهم وكل مرض آخر تقريباً ناجم عن التغذية الناقصة إلى داء سيموند* ، وهو سَغَلُ النخامى الذي اكتشفه الدكتور موريس سيموند، فإن معظم الخبراء أدركوا أن التحول الجسدي يبدأ، ويستمر، ويتصاعد إلى مستوى المخمصة عن طريق قوى نفسية. وكان هناك إجماع على أن كوكبة الأسرة، وخصوصاً علاقة الأم بالبنت، تلعب دوراً رئيسياً في هذا الاضطراب.

ومع تزايد الحالات التي اجتذبت انتباههم، أصيب الأطباء والعلماء النفسيون بالإحباط بسبب عجزهم عن حل ألغاز هذا الاضطراب الغريب، الذي اقتصر في شكله النمطي الأولي، بشكل حصري تقريباً، على المراهقات من بنات الطبقتين العليا والعليا المتوسطة. وانتشرت التخمينات فيما يتعلق بالدينميات النفسية المستبطنة عند هؤلاء البنات اللائي يلجأن إلى تجويع أنفسهن وفيما يتعلق بأسرهن. وبما أن المحللين النفسيين والباحثين الآخرين كانوا يهتمون بالملمح الأكثر وضوحاً وإثارة في متلازمة القهم-رفض تناول الطعام-لذلك تركزت نظرياتهم أولاً على المكوّنات "الفموية" للاضطراب. فكان بين ماقترح من ديناميات هامة هو أن: الطفلة تريد ابتلاع أمها، والتخصيب من أبيها، وهي رغبات ورثتاها من غريزة أكل لحم البشر عند الإنسان البدائي.

التفسيرات التي تقدم للمريضة والتي تقوم على أساس هذه التخمينات لاتحول القهم عن طموحها العنيف. بل كثيراً ماكان لمثل هذه التفسيرات تأثيراً عكسياً في زيادة إصرا البنت على عدم تناول الطعام. وكما وصفت بعض المريضات السابقات الوضعية العلاجية من أنهن كن يشعرن بكلمات الأطباء تجتاحهن وتخترق ذواتهن ويشعرن وكأن علاقة الطبيب-المريض بالذات تتحكم بهن كما تتحكم بهن وظائفهن الجسدية. إنهن يدركن متجهمات كل شيء يقوله الطبيب وبعدئذٍ يتقيأن الرسالة عن طريق شطبها من الذاكرة. ولم يفعل تكاثر النظريات إلا القليل في سبيل حل الألغاز أو معالجة البنت المصابة بالقهم. وحتى الآن، حيث انخفض معدل الوفيات إلى 2%، وقد كان هذا المعدل ثابتاً عند 15%،

---

* قصور النخامى الشامل-المترجم.

وواصلت كثير من البنات مسيرتهن ليصبحن قهميّات مزمنات، نجدهن يعشن على حافة المخمصة خارج بقية وجودهن.

هناك حقيقة واحدة لايمكن دحضها. فالقهم في المجتمعات الغربية يتزايد باضطراد. وخلال السنوات الثلاثين الماضية، كان يعلن سنوياً عن حالة واحدة جديدة بين كل 200000 من السكان. وبلغت الزيادة في البلدان الاسكندينافية خمسة أضعاف. وفي اليابان، يعادل انتشاره تقريباً انتشاره في الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، وكان هنا أمريكا-المترجم)، قبل القهم الغربي، نادراً جداً لدرجة يعتبر معها وكأنه غير موجود. وفي حين كان القهم محصوراً بالبنات البيض من الطبقتين العليا والعليا المتوسطة، فإنه راح ينتشر الآن عبر الحدود الطبقية والعرقية حيثما وجدت أسر طموحة تتحرك صعوداً. فإذا أضفنا غير الجائعين، أي القشميين (النهاميين) إلى الإحصائيات، فإن معدل الوقوع سيكون أعلى بكثير. وعلى الرغم من تصاعد معدلات الوقوع، فإن القهم بمعدل عام 1982 يعتبر في التصنيف الإحصائي "نادراً"، إذ كان معدل وقوعه حالة واحدة تقريباً بين كل 250 بنت مراهقة. وقُدِّر أن النهام يحدث بمعدل 13% تقريباً في هذه المجموعة من العمر، ويتظاهر 30% بأعراض نهامية.

طبعاً، ليست هناك طريقة لتقدير العدد الذي لايشك بضخامته من طالبات الكليات، والراقصات، وعارضات الأزياء اللائي يحافظن على "وزنهن المثالي" عن طريق الإقياء بعد الوجبات. والأرقام الإحصائية لاتتضمن أيضاً ذلك الجيش من الناس النحاف-السّمان- أولئك النسوة النحيلات، المهزولات، الناقصات الوزن، العجفاوات اللائي تتوافق صورتهن مع المثل الأعلى الغربي للجمال إنما اللائي يعملن على تجويع الكائن الشبق في داخلهن وبالتالي نجدهن هيوجات، متوترات، عصبيات، مرتبات قسراً، متحكمات، معوزات عاطفياً، حسودات. وكما قال هيكل، الطبيب الذي صاغ في 1911عبارة "الناس النحاف- السمان": "السمين، حتى لو عمل على تنحيف نفسه، سيبقى سميناً".

خلال العقد الأخير أو حوله، وعندما تكاثرت حالات القهم إلى معدل ينذر بالخطر، أصبح واضحاً أن مايعرف بالملامح القموية للاضطراب لم تكن سوى ذروة الجبل الجليدي. فبدأ الخبراء يولون اهتماماً إلى المظاهر الأخرى البارزة لمتلازمة القهم: إدراك البنت المشوه لجسدها ووظائفه، طموحها العنيف، كماليتها وفرط نشاطها. وتزايد تأثر

العلماء النفسيين من كل مشرب علاجي، كالمحللين النفسيين التقليديين، ومعدلي السلوك، وخبراء مداواة الأسر، وحتى الأطباء من الطراز العتيق من أنصار الإطعام القسري والتوجه الدوائي، بالخصوصية النرجسية لعلاقة الأم-البنت والإرباك النفسي لكافة أعضاء هذه الأسر الطموحة، المنسجمة، المنظمة، فوق السوية، والحسنة الإدارة.

عندما أصبحت عملية الانفصال-التفرد مألوفة لدى علماء النفس، بدأوا يعتبرون علاقة الأم-البنت كمفتاح لابد أن يحل ألغاز القهم. واستبدلت بالتدريج النظريات الفموية بنسخة أو أخرى لدينميات الانفصال-التفرد. ويفضي التصميم العادي إلى واحد من طريقين: يقول البعض بأن القهمة بنت لم تكن أثناء الطفولة قادرة على الانفصال بنجاح عن أمها. والآن، في المرحلة الأولى من البلوغ أو في البلوغ الطبيعي، وعندما تواجه ضرورة الانفصال عن أمها، فإنها لاتجد لديها الاحتياطي العاطفي للانهماك في الصراعات التي يتطلبها هذا الانتقال. ويصبح بديلها هو استعادة حالة الأحديّة مع الأم، "... يمكن فهم نشوتها بافتراض أنها توحدت عن غير وعي مع أمها الراعية". ويرى هؤلاء الكتاب أن توقفاً حدث في المستوى التكافلي للنمو: "لم يكن التكافل الأصلي بين الأم والبنت في الطفولة مجرد عامل مؤهب وإنما بداية العملية التي كانت فعالة باستمرار، في الشكل المستتر أو الظاهر، "طالما بقيتا على قيد الحياة" ".

وفي النسخة الأخرى النموذجية، يركز الأطباء على صراع الحب-الكره بين القهمة وأسرتها، وخصوصاً التناقض الوجداني المتبادل بين البنت والأم. فيقولون بأن البنت قد نكصت إلى المرحلة الفرعية التصالحية للانفصال-التفرد؛ فهي تتعلق بالأم ومع ذلك تناضل لكي تتحررمنها، إنها أشبه بطفل دارج في نضالات التقارب. "الاحتفاظ بالأم والهرب منها سمتان مركزيتان لمقاومة أزمة التقارب.... وعلى نحو متناقض في الظاهر، فإن هذا النكوص سيقدم في الوقت نفسه الاستقلال، والتحرر من الأم، وتقرير المصير، إضافة إلى نقيضه، الاحتفاظ بثنائية القدرة الكلية".

لاشك أن هناك حسنة ما لتفسيرات هذه السببيات الطفولية والتقدم المستمر لدينميات متلازمة القهم. ولكن عندما تُرَدُّ الأعراض ببساطة إلى أصولها الطفولية، فإنها يمكن، لابل كثيراً ماتحجب الحقيقة الأساسية في كون القهم عند البنات في المرحلتين، الثانوية والجامعية، هو الحل للمعضلات التي ترافق تطورهن إلى نساء. أرى أننا نُدفَع فعلاً إلى الافتراض، اعتماداً على التصرفات والتخيلات الحاضرة عند البنت، بأن الكفايات كانت

قاصرة في المراحل الفرعية للانفصال-التفرد وفي السيناريو الأوديبي الطفولي وأن هذه الحرمانات أهّبتها للاستجابة إلى مرحلتي البلوغ، الأولى والثانية، بقلق مفرط. ومن الواضح أن البنت تقدم إلى التجارب المتوقعة في المراهقة شخصية فريدة في هشاشتها. وإذا راقبناها بعد أن تكون المخمصة قد احتلت موقعاً في حياتها، فلا بد من أن نستنتج بأن هناك نكوصاً؛ لقد تسربت محاورات الحب الطفولية إلى حلول المراهقة. ولكن هذا ليس صحيحاً تماماً، لأننا لو نسينا أن البنت قامت أولاً، في المرحلة الأولى من البلوغ، بجهد بطولي للاستجابة لبعض الأوامر المتناقضة فيما يتعلق بسفاح القربى، فإننا سوف لانتوصل إلى فهم كامل لوضعها. إنها ليست طفلة تصارع نتائج الانفصال-التفرد بل مراهقة تحاول التوصل إلى تفاهم مع النشاط التناسلي.

يأتي الحل القهمي على شكل تحذير بخصوص الوضع المزعزع للبنت المراهقة. فالنكوصات الموقتة المحتومة التي تحدثنا عنها تسيطر على حياتها وتمنع أية حركة إضافية نحو المستقبل. ثم إن حلولاً كالتقشف الغذائي، و الاستمناء الإجباري، والاتصال الجنسي غير الشرعي، والانحرافات الجنسية، وإدمان العقاقير، والكحولية عند أولئك الشابّات المؤهبات تماماً، يمكن أن تشدّهن إلى حد أبعد نحو الماضي. وينزلق بعضهن إلى خارج الحدود المقبولة اجتماعياً. ثم لايجدن طريق العودة بعد ذلك أبداً.

لاتباشر القهمة محنة نظامها الغذائي برغبة غير واعية لكي تعود إلى القدرة الكلية في الطفولة. بل تباشرها بسؤال لاواعٍ "هل أتخلى عن رغبتي التناسلية وأبقى مخلصة للماضي؟ أم هل أوجه رغباتي بعيداً عن أسرتي وأتخلى عن تصورات الماضي المثالية؟" وعندما تخيّر المراهقة العادية بين بقائها مرتبطة بوالديها بطريقة طفليّة لاتناسلية أو الإصرار على النشاط التناسلي والالتزام بمسيرة الحياة، فإن قرارها سيأتي لمصلحة التخلي عن الماضي. ومثلها القهمة، حيث تريد التملص من الماضي والتأكيد على استقلالها. ولكن الماضي في حالتها عنيد بشكل خاص، فهو، حتى في الظروف العادية، لايستسلم لهذا التخلي عن طيب خاطر. فالماضي المهجور، عند بنت مؤهبة كهذه، يلح في مطالبته بالعودة إلى موقعه السابق. ولكن التفجر الثاني للتفرّد يهيء للبنت فرصة لتصحيح إهانات الطفولة. إنها لاتستسلم للماضي بسهولة؛ وتحاول أن تجد وسيلة للإخلاص له مع استمرارها في التأكيد على ذاتيتها واستقلالها. فالحل الذي وضعته مخيف ومرعب بمقدار ماهو تسوية وسط بارعة.

رأينـا أن السـرائريين، وهـم ينظـرون إلـى المـاضي متفحصيـن طفولـة مرضـاهم القهمين، تلك الطفولة التي يعيدون بناءها معتمدين على مقابلات الآباء وذكريات المرضـى وإفاداتهم، وتجاربهم الانتقالية، وتخيلاتهم المتعلقة بالأشـهر والسـنوات الأولـى مـن العمـر، يميلون إلى التأثر بمفهوم حدوث انحـراف فـي عمليـة الانفصـال- التفـرد. والصـورة التـي تبرز باستمرار من الإفـادات الاسـتعادية لأحـداث المـاضي هـي صـورة الرضيعـة الذكيـة، المطواعة التي تخلت بسهولة كبيرة وعـن طيـب خـاطر عـن قدرتهـا الكليـة وحبهـا الثمين لذاتها الخاصة لقاء احترام الذات لصيرورتها امتداداً نرجسياً لأمها.

مع ذلك، لايمكـن لأي مراقـب سـرائري واعٍ، يتفحـص إلـى أمـام مـن الطفولـة إلـى المراهقة، أن يفاخر بقدرته على التنبؤ، عن طريق الملاحظة، بحل قهمي ستلجأ إليه البنـت أثناء المراهقة من مراقبته لعلاقة البنت بأمها أثناء الطفولة. في السنوات الوسـيطة، يمكـن أن تكون للتغيرات فـي العواطـف الانفعاليـة غيـر المكبوتـه للأسـرة-ولادة طفـل آخـر، أن يصبح الأب شريكاً أكثر نشاطاً في الأسرة، التفاعل السودواي للأم مع موت أمها، الانتقـال إلى جيرة جديدة، فقـدان الأب لاعتبـاره المهنـي-وللتغيرات الأهـم منهـا فـي فتـرة الكمـون ومطلع البلوغ، كأزدهار الصفات المزاجية، والفنية، والعقلية التي كانت هاجعة أثناء الفـترة الطفولية تأثيرات ملطفة، أو معدّلة، أو مفاقمة للاحتمـالات التـي بدأت حركتهـا بحرمانـات الطفولة.

وفي دراستنا لألغاز القهم من وجهـة نظـر المراهقـة، نجـد ديناميـة مركزيـة واحـدة جرى تمييزها دائماً. ويقبل معظم السرائريين بالصيغة العامة التي وضعتهـا هيلـدا بـروخ، والتي توصلت إليها في أواخر الستينات، حول أن القهم يمثل كفاحـاً متهـوراً للتوصـل إلـى إحساس بالهوية الشخصية، وحاجة ملحة لامتلاك المرء لجسمه وعقله في سبيل أن يصبح ذاتاً مستقلة. تتضمن صيغة بروخ فرضية أن القهمة، ككل بنت مراهقة أخـرى، تحـاول أن تصبح مستقلة عن أسرتهـا. وتهتم الألغاز بالقوى التـي تقـاوم كفاحـات القهمـة لبلـوغ هـذا المعنى للأصالة الشخصية.

يتمثل الخطر الأولي للمراهقة في عودة روابط الحب الطفولية إلى الاستيقاظ. وكمـا رأينـا، فـإن الصـراعـات الرئيسية تتعلق بالانتقـال علـى اعتبـاره مسـعى للانفصـال عـن المـاضي. ولكـن القلـق الـذي ينشـأ مـن توديـع الطفولـة أكبـر ممـا يمكـن للبنـت القهمــة أن تروضه. وفي الواقع، يمكن النظر إلـى أعراضهـا كعمليـة حـداد فشلت-سـوداوية. اقـترب

فرويد من الحقيقة عندما تحدث، في عام 1895، عن القهم على اعتباره "سوداوية حيثما لم يتطور النشاط الجنسي". لماذا تجد القهمة صعوبة كبيرة في التخلي عن الماضي؟ إن التجويع الذاتي، كما لاحظت بروخ، هو مجرد خطوة نهائية في اضطراب طويل الأمد للنمو. العرضان الشريكان عند البنت قبل التجويع وما يليه من تصعيد في الحدة هما الطموح المفرط والكمال. وكالبنات الأخريات ممن هن في مثل عمرها، تبدأ القهمة كفاحها في سبيل التفرد والاستقلال. ويتمثل سقوطها بفرط طموحها، أي بحثها المتهور عن الكمال. فالقهم إذن هو مرضيات القضايا العادية في طريق المراهقين.

ومن موقع الأفضلية للمرآة غير المشوهة، والمؤطرة بأناقة، فإن هذه الفزّاعة، هذه الجثة الماشية، لاتحمل أي شبه بالبنت العادية المراهقة؛ وتبدو متقلبة جداً حتى أنها تجاوزت فعلاً حدود التجربة الإنسانية العادية. ماذا يمكن لهذه القهمة أن تقوله لنا عن المراهقات السّويّات اللائي يمضغن وهن راضيات مربى المصنّ، والبيتزا، وشطائر السجق الساخن؟ ولكن إذا نظرنا إليها عبر مرآتها الخاصة، فسوف نسلّم بأنها حققت المجد الذي تحلم به كل مراهقة: الطيبة، النقاء، كمال العقل والجسم، الحشمة، الشجاعة، الحكمة- وباختصار، الفضيلة المطلقة. وبينما يّقدّر لأكثر المراهقات أن يفشلن في ملاحقتهن للكمال، فإن القهمة تنجح في هذاالمسعى. وفي حين تنتقل المراهقة العادية من أساليب الطفولة إلى أساليب الراشدين في التفكير، والتخيل، والخبرة، والشعور، والعمل عبر مسالك وعرة متعرجة مستخدمة الطريقة التدرجية البطيئة للنجاح، والانتكاس، والتجربة والخطأ، والتراجع الموقت، فإن القهمة تحاول أن تفطم نفسها عن الرغبة خلال الليل؛ على أمل أن تتجاهل الحزن، القلق، النضال، النزاع، الذي اختارته في سبيل التوصل بسرعة إلى الفضيلة. فيضللها الوميض المبهر الذي تعكسه مرآتها إلى تصديق أنها وصلت إلى المستقبل، وأنها اكتشفت "الطريق"، وأنها سوف تولد ثانية كشخص جديد وأفضل.

الحل الذي اختارته حل استثنائي، ولكن المعضلات التي تحاول حلها مماثلة للمعضلات عند المراهقة العادية. والمعضلات تؤرث الرغبة، ومحاورة الحب، والسلطة، والتيارات الثلاثة للنرجسية: الحب الجسدي، واحترام الذات، والقدرة الكلية. وقبل كل شيء آخر، تحاول القهمة أن تبقى صادقة مع نفسها. ولكن محنة كمالها تحجب الفروق بين الغرور واحترام الذات، بين الاعتزاز والقوة. ويجعلها استحضارها عاجزة عن إدراك السبب

والضرورة. إنها وحيدة، ضائعة في اللانهاية، ضائعة في تخيلها، بدون عمل حقيقي مؤثر، بدون محاورة الحب، بدون رفقة، بدون همٍّ اجتماعي، بدون إحساس بالجماعة. كيف ضلّت؟ كيف قادتها جهودها البطولية إلى شفير الموت في سبيل أن تصبح شخصاً جديداً وأفضل؟ مع القهم، كما هي الحال مع أي حل آخر للمراهق، يتداخل الجنسي والأخلاقي. وكل شيء آخر ينمو من حولهما.

تردي القهمة المثير والمفاجيء إلى أساليب الطفولة، تصرفاتها الغريبة، التي تبدو لأول وهلة صورة مطابقة مدهشة للمراحل الفرعية للانفصال-التفرد، يمكن بسهولة أن يصرف انتباه المراقب عن مصدر المخاوف الحالية عندها: الخوف من الاستسلام العاطفي للأم الراعية والخوف من سفاح القربى. وعندما يتركز اهتمامنا على البنت بعد أن تكون المخمصة قد استحوذت على شخصيتها، تكون قد فقدت للتو صلاتها العاطفية بالمراهقة. ولكننا لو كنا تصيدناها قبل بضعة أشهر، وهي تحلق محاولة التوازن لتباشر بحثها التعصبي عن الكمال، للاحظنا مبالغتها في تنازلها عن الاستراتيجيات النموذجية عند مراهقة هدفها الرئيسي هو الانتقال.

وفي الوقت الذي تصل فيه القهمة المحتملة إلى ماقبل البلوغ أو البلوغ، تكون قد احتُبِلَت تماماً في شبكة الأسرة، وأصبحت إلى حد بعيد امتداداً عاكساً لصورة أمها إلى الحد الذي يتطلب منها أن تحشد مزيداً من النضال العزوم والبطولي ضد رغباتها السفاحية بالأقرباء. إنها صفة مبالغ فيها للاستراتيجيات عند المراهقة إلى درجة أنها، أي الاستراتيجيات، تشير إلى مدى الجذب باتجاه الماضي. وفي انفجار الرعب الذي يعقب شعورها بالتطيّر من أنها ليست جديرة بما يكفي، ليست صالحة بما يكفي لمقاومة الشهوات التي تغزو جسدها، فإنها تحشد كل استراتيجية المراهقة، وأحياناً كلها دفعة واحدة: التقشف الجسدي، المثاليات التي لاتلين، قلب الحب-الرغبة إلى كره. وبكل سلاح تحت تصرفها، تحاول أن تصد الرغبة وتقطع روابطها مع أسرتها.

القهمة مخلوق برّي تدفعها الشهية، والشهوة، والرغبة إلى الجنون. وعندها تتم الغلبة للتقشف. فهي لاتكل في حربها ضد المتعة الجسدية؛ وما تبدأ المراهِقة به كتقليعة للتنظيم الغذائي ينتهي إلى انحراف التجويع. إنها تلبس مسحاً، وتعدو سبعة أميال يومياً، ولا تنام أكثر من أربع ساعات ليلاً. وهي متصلبة جداً في تفكيرها ومواقفها. وكل ماتضعه في اعتبارها هي القوانين، والطاعة، والواجب. ولا يمكنها أن تتحمل ائتلاف

الأضداد أو إمكانية القبول بالانسجام بين وجهات النظر المتعارضة. فهي تناضل إذن لحماية عقلها من المغريات البشعة للجسد. لولا أن نشاطات اليقظة التناسلية تدفعها لأن تقوم بتمثيل كافة الأدوار في الملهاة الإنسانية. ولكن يرعبها تمثيل أي دور باستثناء الامتداد العاكس لشخص ما آخر. فهي تصغي فقط للأصوات من مرحلة الرضاعة والطفولة، التي تطالب بتقليص الأدوار، بالتنازل، بالتضحية. وأكثر مايناسبها من تلك الأدوار هو دور القديسة.

ولكن مقاومة الرغبة لاتكفي. وستلجأ القهمة بسرعة إلى حشد الاستراتيجيات الأخرى عندها كمراهقة، الاستراتيجيات التي تهدف إلى حلّ روابطها العاطفية مع أسرتها. وفصل الليبيدو عن الوالدين يتخذ عادة أسلوباً تدرجياً للتنازل قطعة قطعة. ولكن بنتاً قهمة لايمكنها أن تتحمل طريقة بمثل هذا البطء وتنطوي على المجازفة. فليس أمامها إذن إلا أن تلجأ إلى تكتيكات أكثر إثارة وسرعة. وقبل أن تتم الغلبة لحِمْيَةِ المخمصة، يقوم بعض من اللائي لم يصبحن قهمات حتى الآن فيجبرن أنفسهن على التحرر والاستقلال، بالطريقة ذاتها التي سبق لهن وأجبرن أنفسهن لكي يكنّ رضيعات صغيرات طيبات غير ملحّات. وتعمل محاولاتهن للهرب من عش الأسرة في رحلة إلى أوروبا أو إلى مدرسة داخلية لمدة سنة على التعجيل بالقهم بدلاً من مساعدتهن على التحرر والاستقلال. وبعيداً عن البيت يشعرن بالخوف، والوحدة، والهشاشة، والشك فيمن أو ماذا يفترض بهن أن يكنّ. وتعود البنت من مغامرتها العاثرة المتهورة مع الحرية وهي أشبه بالفزاعة. أما وقد فشلت، فلم يبق أمامها إذن إلا أن تحشد مساعدة قلب الحب-الرغبة إلى كره. وكلما أمعنت في التراجع إلى شبكة كره الأسرة، كلما أصبحت أقل نفعاً في تحويل الحبُ-الكره إلى خارج الأسرة.

وكما يحدث نموذجياً، وبما أن المراهقة لايمكنها أن تتحمل لفترة طويلة هذا التدمير الموجه لوالديها، فإن الحصيلة الأخيرة للقلب هي أن الرغبات التدميرية الموجهة بدئياً نحوهما تتحول لتتجه صوب الذات. فتشويه سمعة الذات والأشكال الشديدة من إذلال الذات هي التعليلات الشائعة لهذه السلسلة: الحب-الرغبة الذي انقلب إلىكره-رغبة يصبح كرهاً للذات.

عندما يبدأ تقدم الهزال الانتحاري عند القهمة، تكون على قناعة بأن كافة الراشدين ظالمون- متعسفون يهدفون فقط إلى تجريدها من مأثرتها في تحقيق الكمال. هنا تعمل

التأثيرات الفزيولوجية للهزال على توحيد القوى مع استراتيجياتها المتهورة الشاملة من أجل الانتقال. وتصبح هي قانوناً على نفسها، وتنهمك كلياً في تأدية جسدها لوظائفه، مدعمّة احترامها لذاتها، مؤكدة سلطتها على شهواتها. ومما يدعو إلى السخرية والحزن، أنها تعود إلى الماضي عندما تريد أن تعبر عن هربها من الرغبة بسفاح القربى. وسوف تكافح حتى النهاية المُرّة، حتى الموت. ولكن إيماءاتها المسعورة للانتقال تسحبها أكثر فأكثر نحو أعماق الماضي. الكلام الذي تقوله محاكاة ساخرة لقيَم والديها، لتظاهرهم الكبير بالكمال الأخلاقي. وجسمها المهزول صورة كاريكاتورية للرضيع العاكس الذي أرادت لها أمها أن تكونه –رضيع من غير رغبة، يتحكم بشكل تام بوظائفه الجسدية.

وعندئذٍ، نرى أن الماضي والحاضر يتداخلان بدقة عند البنت القهمة. فهي أولاً، مراهقة تكافح في المقام الأول لتخليص نفسها من شبكة حب الأسرة. ويتنافس الماضي والحاضر للاستحواذ على روحها. ويكسب الماضي المعركة موقتاً، وربما بشكل دائم.

تتألف روايات الوجود الإنساني دائماً من أساطير منسوجة من مختلف أطوار تاريخ الحياة. والمراهقة، على اعتبارها حلقة ربط بين الطفولة والرشد، هي دائماً ميدان القتال الذي تدور على أرضه المعركة بين الماضي والحاضر. هجوم القهم الأولي غير موجود عملياً عند الإناث قبل الحادية عشرة من العمر ونادر عند النساء بعد الخامسة والعشرين. وتبدو على البنت المؤهبة للقهم، منذ مرحلة الرضاعة، علائم النمو المبكر، الجسدي والعقلي. وقد يبدأ عندها البلوغ والحيض قبل سنة أو سنتين من بدئهما في الحالة العادية. ولكن سواء بدأ البلوغ مبكراً، في العاشرة، أو متأخراً، في الرابعة عشرة من العمر، فإن القهمة المحتملة لاتصبح قهمة قبل أن تحاول التغلب على معضلات كونها أصبحت امرأة.

إذا لم تحدث التبدلات البيولوجية الخاصة بما قبل البلوغ، فإن المرض الهاجع من مرحلة الرضاعة قد لايكشف عن نفسه. ويمكن فهم تجويع الذات، والطموح، وكمالية القهم، كمواضيع هادية للخيال عند المراهقة، الذي يعرض لها، عندما تسلطه على الماضي، الأسباب التي وجدت من أجلها محاورات الحب الطفولية. فلو لم يكن من أجل تجارب المراهقة، لما كان بإمكاننا أبداً أن نعرف أن هذه النخبة من البنات الصغيرات، اللائي كن يعشن في بيئات اجتماعية بالغة الوفرة، ووهبتهن الطبيعة تقريباً كل مزية جسدية ومزاجية (ربما باستثناء مايكفي من العدوانية التفردية)، ووفرت لهن أسرهن بحسن

نية كل فائدة في المال والاقتدار، كُنَّ قد حُرِمْن من القدرة الكلية، والحب الجسدي، واحترام الذات الذي يمكن لمعظم الأطفال العاديين أن يحصلوا عليه بدون مقابل.

لو تسنى لهذه البنت المطيعة أن تبقى في مكان مثالي للطفولة، فلربما كانت تحولت إلى مواطنة نموذج في مدينة فاضلة. تتحكم بوظائفها الجسدية عن طريق قدرتها. وستقوم بأي شيء ضمن حدود تلك القدرة لفك رموز التوقعات الغامضة للسطات وعندئذٍ تعيش بمقتضاها. وستقبل بحماس البزة النظامية بلونها الرمادي الداكن والرقم المخصص لها. وسوف تنجح في الخضوع للنظام. وقد يكون فرط طموحها مرضياً من غير مضايقة، وذلك بامتثالها للقوانين أكثر من أي واحد آخر. وبما أنه يجب على كل شخص أن يتصرف على هذا النحو، فإنها سوف لن تعاني كثيراً من ***احترام الذات***، من مقارنة نفسها بالآخرين. وسيكون طرد الشعراء ملائماً جداً لها.

بداية ماقبل البلوغ تدفع البنت إلى خارج باحة المدرسة، تحثها على الهرب من شرنقتها الأسرية، المنظمة، المتناسقة، الخانقة، ذات الإدارة الحسنة. وتهيء لها فرصة لتجديد كتاباتها. والقهمة المحتملة، مثلها مثل معظم البنات المراهقات في الطبقتين العليا والمتوسطة اللائي يترعرعن ليصبحن نساء في المجتمع العصري في أواخر القرن العشرين، يُسمَح لها باستخدام مواهبها، وبتحسين طموحاتها الفكرية. وأعطيت ترخيصاً لملاحقة رغباتها الجنسية بأي طريقة تراها مناسبة ومع أي شخص تعتبره مرغوباً. حرية اغتنام الفرص على هذا النحو حرية ساحقة. وربما تكون ساحقة بالنسبة لأية بنت أو صبي. وهي بالتأكيد كذلك بالنسبة للبنت التي استرشدت في طفولتها المبكرة والمتأخرة بالطاعة والخضوع المطلقين للقوانين والتنظيمات الدقيقة لمحاورة الحضانة.

تُحرَم أفضل بنت صغيرة في العالم من الفوائد النرجسية التي هي حق ولادي لكل طفل إنساني، ومن السلطة ***الداخلية*** لتنظيم رغباتها الخاصة. والسبب الأول لهذه الحرمانات هي السهولة التي بها تصبح البنت امتداداً يعكس صورة أمها. والسبب الآخر هو الغياب النسبي لوجود الأبوة في مرحلة رضاعتها وطفولتها المبكرة. أي كما لو أنها لاتمض في إحساسها بأنها طيبة أو سيئة إلى أبعد من نجاحها في التحكم في طعامها وتبرزاتها، ولكن بدون أن تجرب أن جسمها وعقلها يخصانها هي. وهي مشكلة ترضي أو تغضب للأم-حتى مع مربية أو حاضنة تضطلع بواجبات فعلية في الحضانة. وهناك أب لم يقدم بديلاً لمحاورة الطفل-الأم. ولم يكن وجوده محسوساً في نهاية مرحلة الرضاعة. فهو

لم يعطل العلاقة الغرامية بين الأم والبنت. كما أنه لم يقدم ابنته إلى سلطة النظام الاجتماعي. وهكذا تركت وحيدة مع ماتبيحه وما تحظره أخلاقية الحضانة.

* * *

يدخل جميع الرّضّع إلى العالم كل بمزاجه الخاص به: مؤاساة البعض أسهل من مؤاساة بعضهم الآخر؛ بعضهم مثابر بهدوء، وبعضهم الآخر ملحاح بعنف أكبر؛ بعضهم أكثر ذكاء وفهماً في إدراكه لطريقة إرضاء راعيه؛ وبعضهم لايقوى على تحمل الاحباط من أي نوع؛ وآخرون يتحملون كافة أنواع القيود والمحظورات برباطة جأش جديرة بالملاحظة. وعموماً، إن البنات الرضّع أكثر مطاوعة، وأكثر قدرة على تحمل الإحباط، وأكثر هدوءاً، وأكثر تكيفاً مع متطلبات الحضارة، وأكثر قبولاً لأن يكنَّ امتداداً لنرجسية الأم. وهن أسهل فطاماً وتدرباً على ارتياد المرحاض من الصبيان. والوالدان أكثر تقبلاً، وأكثر تحملاً لشراسة الصبي الرضيع، وعدوانيته، وطاقاته الحركية، واندفاعاته الاستكشافية. وعندما يبلغون مرحلة تأكيد اختلافاتهم وانفصاليتهم عن الأم، فإن الصبيان يشعرون داخلياً بأنهم أكثر شبها بآباهم من شبههم بأمهاتهم، وأن الأب حليف. وعلى امتداد مرحلة الرضاعة، عندما يكون التمييز أول طعنة في الحياة، يكون الدور العاطفي الأساسي للأب هو مساعدة طفله لتمييز ذاته من أمه، والأم من الآخر، والأنوثة من الذكورة. وارتباط البنت بأبيها يغريها عادة بالتخلص من علاقتها النرجسية المقصورة على أمها. فالوجود العاطفي للأب يحول بعضاً من ملكية الأم إلى نفسه. وذكوريته تكمل الأنوثة الابتدائية عند ابنته. وتبدأ الطفلة الرضيعة مع الأب، على اعتباره وجوداً فعالاً في حياتها اليومية، بتجربة إمكانيات الهوية الأنثوية خارج نطاق العلاقات الحصرية مع الأم. لأن كونها بنتاً أو امرأة لايعني كونها أماً.

يُكتَشَف الأب خلال هذه الأشهر والسنوات الأولي من قبل أطفاله كمتطفل، متطفل يدق الإسفين العاطفي بين الأم والطفل. وكثيراً مايحوّل الصبيان والبنات أشواقهم عن الأم إلى الأب. إنهم يتجهون إليه من أجل اللهو واللعب، من أجل المواساة، من أجل التعويض عن بعض الخيبات والإحباطات في محاورة الطفل-الأم. وهنا تصبح الأم هي المتطفلة. "كفى عبثاً هنا وهناك. حان وقت النوم". "حان وقت الغذاء". ومن خلال إيماءاتها التي تعبر عن الرضا، والتقنين، والتجريع، والإحباط، تعلم الأم طفلها القواعد الأساسية للقانون والنظام. فهي المانحة الأساسية للمتعة، والمصدر الأساسي للحقيقة في الأسرة. وينتهي

الأب إلى تمثيل قانون المجتمع ونظامه، الصوت الذي يقول، "يكفيكما أنتما الأم-الطفل نظراً إلى ذاتيكما كل في مرآة الآخر! أنا القانون. الأم تخصني-وليست لك. أنت طفل. ونحن كبار".

وأخيراً، وأثناء المرحلة الأوديبية، يصل محرم سفاح القربى، كما يمثله "صوت الأب"، بمحاورات مرحلة الرضاعة إلى نهاية حاسمة. هنا، تصبح الطفلة هي الدخيلة، أي المتطفلة. يكتسب الوالدان في هذا المثلث الأخير الأكثر حسماً ترجمة جديدة للسلطة. فلأول مرة تعاني الطفلة من تركها خارج محاورات الحب، التي تدور الآن بين الوالدين. فالتصور، والتمني، والتخيل، تلك فقط هي مفاتيحها لفهم مايدور في هذه المبادلات بين الكبار. ويتزود خيالها بالمعلومات فقط عن طريق ماتعرفه- التغذية، التبرز، إشارات أعضائها التناسلية غير الناضجة. وتعذبها ذكرى أنها طفلة صغيرة، هشّة، عاجزة في قدرتها عن المشاركة في رغبات الكبار تدفعها لكي تصبح كوالديها بكل وسيلة ممكنة. فتُعَوِّض عن هذه الهزيمة باكتسابها بعضاً من متانتهما الأخلاقية وسلطتهما. وتصبح بعض المظاهر المنتخبة من أساليبهما في الحديث، والمشي، والتفكير مظاهر لتجربتها الذاتية الخاصة. كما تصبح اهتماماتهما، ومواقفهما، وقيمهما، وما يحظرونه، وما يجيزونه هي تجربتها الداخلية الخاصة. وتحصل مقابل الإبعاد على حق المشاركة بنشاط بمبادىء القانون والنظام التي تحكم العالم الاجتماعي الذي سوف تترعرع فيه.

عندما يكون المثلث الأوديبي غير واضح تماماً، تُحرَم الطفلة من فرصة امتلاك ضمير خاص بها. فيحكمها ضمير الفطام، والغياب، والتدرب على ارتياد المرحاض، والتحكم بالوظائف الجسدية. وعندئذٍ ستتواصل المعاناة من المحظورات والوصايا الوالدية وكأنها آتية من خارج الذات، أو كأصوات داخلية غريبة. وتصبح إحدى الشكايات الرئيسية عند البنت القهمة هي أنها لاتستطيع أن تتخلص من الشعور بأنها تعمل دائماً بموجب وصايا الاخرين. "هناك ذات أخرى، ديكتاتور هو الذي يسيطر علي.... رجل صغير يصرخ علي عندما أفكر بالأكل".

ليس من المحتّم أن تصاب بالقهم كل بنت تحرم من التأثير التشريعي للأب. ولكن "غياب الأب" بمعناه الأوسع، يؤثر على كل ملمح من ملامح الحياة العاطفية والعقلية عند الطفل. والفروق بين الأنوثة والذكورة غير واضحة. فلكي تصبح البنت مؤنثة، تغدو نسخة كاريكاتورية عن أمها. أما أن يصبح الصبي رجلاً فأمر ملغز ومرعب. فهو إما أن يدّعي

رجولة من نوع ما أو أن يشعر بأنه يجب أن يتخلى عن أعضائه التناسلية لأمه كما فعل مرة وسلمها محتويات جسده. إن جسم الطفل وعقله كانا أساساً قد عانيا من كونهما من ممتلكات للأم. وعندما تكون أعضاء المرء التناسلية ملكاً للأم (أو للأب)، فإن الضمير أيضاً لن ينمو أبداً. فالضمير في شكله الطفولي هو قائمة تضم قوانين، وتنظيمات، ومحظورات، وتحذيرات معزولة.

إذا كان هذا الضمير هو المرشد الوحيد للمرء إلى الشرعية، فإن الطفل سيمتثل كالإنسان الآلي، وسيعمل بحرفية كل قاعدة. ويقلد حرفياً وبشكل متحجر بعضاً من السلوك الذي كان قد وصف على أنه سلوك مستقيم، ولكن بدون أن يدرك أبداً المضامين الاجتماعية والأخلاقية الأكثر شمولاً للسلوك. ولن يتوصل إلى تمييز الفروق بين المرونة والانتهاكات. يؤدي هذا الشكل البدائي من الشرعية عند بعض الأطفال إلى طاعة مفرطة الدقة. وقد يؤدي عند آخرين إلى أشكال حرفية من التمرد. أما الطفلة العادية فيمكنها أن تستمد إشباعاً هائلاً من إحساسها بأنها تتمتع ببعض من السلطة الداخلية لتنظيم جوعها ورغباتها، الطفلة التي كانت حرمت من صوت أبيها تبدأ بمباشرة كل عمل كما لو كان مقضياً به من قبل طاغية جائر لايرحم. فتصبح عبدة للرغبة، عبدة لتوصيات الضمير، عبدة للكمال. تصبح صورة كاريكاتورية للطيبة، يربكها جسدها ووظائفه، وتعذبها قناعة شمولية بأنها في الأصل غير فعالة، وغير كفوءة، وليست أبداً طيبة بما فيه الكفاية. "تعني الكفاية انهيار المرء، عندما يرفض جسده أن يسلم نفسه أبداً بعد الآن".

ليس صدفة أن يحمل آباء البنات القهمات عادة طموحاً قوياً لأدوارهم المهنية وأن يكونوا سلبيين وغير نافعين إلى حد لافت للنظر عندما يتعلق الأمر بالقضايا العائلية. فهم ينتظرون أن يحقق أطفالهم وزوجاتهم إنجازات محسَّنَة، لكنهم يكتفون بترك إدارة المسكن والسيطرة على تفاهات الحضانة لزوجاتهم الكفوءات. وليس صدفة أيضاً مايروى حول أن البنات القهمات كنّ على وجه الخصوص رضيعات طيبات، وفخر أمهاتهن وفرحهن، ومصدراً كبيراً لرضى الآباء وخيلائهم. من السهل أن تتعلم البنت دور "البنت الصغيرة النخبة" إذا كانت نجيبة، وإذا لم تكن عدوانية جداً، أو ملحاحة، أو نزّاعة إلى امتلاك وقت الأم وطاقتها، وإذا كانت ماهرة تماماً في قراءة مايريده نظّارتها ومن ثم تقوم بعكسه صوبهم. والقواعد التي تتحكم بالدور بسيطة نسبياً. وما على الواحد إلا أن ينظر في وجه الآخر ثم يباري الصورة التي يُفتَرَضُ فيه أن يكون عليها. فيُفتَرَض في البنت الصغيرة

النخبة أن ترضي أمها وأباها، وأن تحقق مايريدان، فتتكلم في وقت مبكر، وتمشي في وقت مبكر أيضاً، وتعمل على حل أحاجيها في وقت اللهو، وتغفو على مدى الساعتين الموصوفتين ثم تنتظر صابرة إخراجها من سريرها، وأن تقوم بتبديل حفاضات لعبها، وأن لاتشعر أبداً بشدة الجوع، وأن تزهو بالرفقة، وأن تكون مكتفية ذاتياً، ولا تظهر حزناً أو غضباً. ويفترض فيها أحياناً أن تكون راعية لأمها، نوعاً من ممرضة تعمل على تهدئتها وتجعلها تشعر بأنها سعيدة وسليمة عن طريق تظاهرها هي بالسعادة والسلامة. وأحياناً، يفترض فيها أن تعكس طموحات أمها لجهة أناقة واكتمال الجسم والعقل، وتحقق كل ماكانت أمها تسعى لتحقيقة ولم تنجح تماماً. " لتكوني ابنتي الذهبية! ولتتألقي صحة وبهجة وذكاء! ولكن لاتكوني نهمة! فلا تدليل أو هدهدة. ولا تمهّل في حوض الاستحمام، ولا رضاعة، ولا حلوى، ولا عبث بالغراء والطين والطباشير الوسخ. حقاً، إن العناق كثير جداً، فلا عناق بعد الآن بين ذراعي المرمريتين". وبتعبير آخر، لا، للقدرة الكلية، لا، للحب الجسدي الكبير، ولكنك ستنالين كثيراً من الإعجاب في مرآتي العاكسة عندما تقومين بما يجعل ماما تشعر بالسعادة والأهلية.

قد يكون ج. ب. واتسون، عالم النفس الأمريكي الذي حاول في الثلاثينات أن يعلّم الآباء كيف يخمدون الرغبات الجامحة عند أطفالهم، استحسن هذه العلاقة الخاصة بين الأم والطفل.

> هناك طريقة معقولة للتعامل مع الأطفال. فلنعاملهم كما لو كنا نتعامل مع راشدين شباب. ولنلبسهم، ولنحممهم بعناية وحذر. وليكن سلوكنا موضوعياً دائماً وحازما بلين. فلا عناق ولا تقبيل أبداً، ولا جلوس على الحضن مطلقاً. وإذا توجب التقبيل، فلا بأس أن يكون علىالجبين عند الانسحاب إلى النوم. ولنصافحهم صباحاً. ولنربت على رؤوسهم إذا قاموا بعمل صالح استثنائي بجهد شاقّ. فلنجرب هذا.... ولسوف نشعر بخجل مطلق من طريقتنا العاطفية المتهافتة التي كنا نتبعها.

أراد واتسون ومعدّلو السلوك المبكرون أن يهيئوا الطفل للحياة المتمدينة. ولكنهم لم يعرفوا أن من بين أكثر الطرق فعالية لضمان الشرعية والانهماك الذاتي النرجسي هو سحق القدرة الكلية والحب الجسدي عند الطفل، وإغراؤه بالانتقال بعيداً برغبته. ولكن هاتين الطريقتين قد تفسدان الحس الأخلاقي بوصفه قدرة كلية مضخمة ورغبة مفرطة

الإشباع. في سيناريو واتسون، على اعتباره فكرة مهيمنة متكررة، تتناثر محاورة الطفل- الأم في الشهوانية والعواطف العادية التي هي نبضات قلب الحب الوالدي. ولكن الرغبة تولد كيفما اتفق، وعندما تولد، فإنها تقاتل دفاعاً عن حقوقها. فهي تعرف كيف تهدأ، كيف تتنكر، كيف تنتظر صابرة مجيء يومها. في هذا الوقت، تكون الأنا العليا مستبدة، مغرية، تراقب طاغية سادياً لاتخمده سوى المقاييس الماسوشيّة. وفي الوقت نفسه، يكون مثال الأنا عديم الرحمة. ولا يرضيه شيء أقل من الكمال المطلق.

حياة الفتاة المثالية وفقاً لما ينتظره شخص آخر تصبح محنة، كَربٌ من إحساسها بأنها ليست سليمة أبداً بما يكفي مقارنة بالآخرين. وبما أنها تعكس بمهارة ما يتوقعه والداها، فإن فرص تعرضها للعقاب والكلمات القاسية تصبح قليلة. ويصبح استخدام السوط غير ضروري. وبدلاً من ذلك، تحظى بكثير من الرعاية، والاهتمام، والتركيز الوالدي على اعتبارها طفلة خاصة. ولكنها لاتستطيع أن تدرك مايفكر فيه والداها فعلاً أو ماذا يكمن خلف وجهيهما الباسمين المستحسنين. وفي أي لحظة يمكن تبادر، وتتكلم، وتكشف عن عواطف قد يتجهم لها وجها والديها رفضاً وتشويهاً.

والوالدان بالذات متصنعان، ممثلان تشغلهما الصور التي يحملها عنهما الآخرون. ولكي تعيد الطمأنينة إليهما وتحافظ على السلام، تصبح البنت خبيرة بالتظاهر. فهي كثيراً ماتشعر بالحزن لكنها تصطنع ابتسامة مرحة تجعل والديها يشعران بأنهما جديران بالاهتمام. قد تغضب لهذا الخضوع كله، لكنها لاترد بفظاظة ولا تتصرف بعناد. فهي بعيدة عن التماس مع حالاتها الانفعالية كبعدها عن التماس مع وظائفها الجسدية. وتفترض أن عمل العقل يجب أن يُوَجَّه للتحكم بالجسد المتمرد، لحجب تمتمة انفعالاتها الخرقاء. وفيما بعد، أي بعد أن تصبح قهمة، سوف يتحكم جسدها بعقلها. فما من شيء عند البنت القهمة يبدو كما هو فعلاً. ففقدان الشهية لاوجود له. ورغبتها جامحة. فهي تتظاهر خداعاً أنها بخير.

تشعر البنت خارج شبكة الأسرة بالعزلة العاطفية حتى عندما يحيط بها الأصدقاء. والقهمية الكمونية لاتحمل، كما تعودت أن تقرأ في عيني والديها من هي وماذا يُنتَظَر منها أن تكون، قناعة ذاتية ولا إحساساً راسخاً بشخصيتها الفردية. بل تعتبر نفسها خلال سنوات كمونها، كلوحة بيضاء، قطعة من خشب يمكن للبنات الأخريات أن ينقشن عليها نوع الصديقة التي يردنها، صديقة مليحة ترتدي ملابس مناسبة، ذات ميل ونفور مناسبين.

قليلة الصداقات، صديقة واحدة عادة في كل مرة. ومع كل صديقة جديدة، تكتسب البنت ذاتاً جديدة، باهتمامات ومواقف جديدة تماماً. البنت منافسة كبيرة لكنها غير متأكدة أبداً بأنها تقوم تماماً بالتصرف الصحيح. "ليس هناك شخص في الداخل إطلاقاً. حاولت مع كل من كنت معه أن أعكس الصورة التي يحملانها عني، أن أفعل مايتوقعانه مني ".

أما وأنها تفتقر إلى المقاييس العاطفية الداخلية، فإن المعايير الشخصية التي يمكن للقهمية المحتملة أن تقيّم بها نفسها خلال فترة الكمون هي انشغالها في ***احترام الذات***. فهي على الدوام تقارن نفسها مع الآخرين، بغض النظر عن مدى عظمة ماتحققه من إنجاز أو مدى مايغدقه عليها والداها ومعلموها من مديح، فتجد نفسها دون المستوى المطلوب. ففي المدرسة، تقوم باستطلاع وجوه البنات والفتيان الاخرين. وتحاول أن تعرف ماإذا كانوا يتعلمون أكثر أو أقل منها. وإذا انهمكت البنات في صفها بالملابس، فإنها تحاول أن تلبس مثلهن جميعاً. وأمها، التي تتخذ عادة كافة القرارات مدفوعة برغبتها في أن تبدو ابنتها سعيدة ولامعة، تساير على طول الخط المطالب "الشاذة" لابنتها–التنورة المطبّقة، العقود البلاستيكية، الحذاء الجلدي اللماع، سروال ركوب الخيل، المشابك الخشبية للشعر. ولكنها ترفض كلياً "تلك الأقراط الهمجية". ارتداء الملابس في الصباح محنة بالنسبة للبنت: فهي تبدل ملابسها ثلاث أو أربع مرات، من دون أن تتأكد أبداً ماإذا كانت ستبدو مقبولة بين أندادها. "ماذا سيقولون عني؟ "هل سيميلون إلي؟"

إن الملمح المميز لهذا الاحترام الطموح للذات عند الطفلة هو عدم اهتمامها كثيراً بالارتقاء فوق أندادها لمجرد أن تصبح حسنة، مقبولة، ومستقيمة. وسوف لاتكف عن محاولتها في أن تكون محبوبة من قبل الآخرين إلا فيما بعد، قبل سنة تقريباً من بدء الحمية الغذائية. فتنسحب من تحديات الصداقة. وتنعزل اجتماعياً. وتستخدم الآن مواقفها الإدانية الصارمة، التي كانت تطبقها على نفسها بشكل لايرحم، للحط من قدر الآخريات. "إنهن سخيفات جداً، سطحيات جداً في قيمهن.... كل مايفكرن به يدور حول الفتيان والملابس". القواعد الحرفية للتقدم في العالم والتي كانت عملية أثناء الطفولة باتت غير مفيدة في عالم المراهقة الجديد الغريب. وكلما ابتعدت عن رفاق عمرها أكثر فأكثر، سيطرت عندها وحشية الحياة الأخلاقية التي لاترحم، وأحياناً تتنكر بقناع حب الخير. "أشعر بأنه لايمكنني العيش فقط وفقاً للمقياس العادي للجهد الإنساني. "أشعر أنه من واجبي أن أجعل هذا العالم أفضل وأعمل بقدر مايمكن لكائن إنساني أن يعمل. وما يجب علي أن

أحققه هو شيء ما سوف يستنزف تماماً آخر قطرة مني، وبخلاف ذلك لاأكون قد أعطيت بما يكفي. وسأعتبر نفسي قد أديت واجبي بعد أن أكون أعطيت كل شيء ولم يعد بإمكاني أن أعطي المزيد".

عندما تقارب مرحلة ماقبل البلوغ، تتعرض البنت في سن المدرسة كثيراً إلى الخجل من الزيادة الطفيفة في وزنها، وامتلاء جسمها. فتُقبِل بحماس شديد على الالتزام بحمية غذائية. وتنغمس في تقليعات غذائية. فتصبح نباتية. وما يميز القهمة المحتملة عن التلميذات الأخريات اللحيمات هو شدة طموحها. فهي البنت التي تحصل على العلامات الممتازة، وتحضّر أقرب المواضيع العلمية وأفضلها ترتيباً، ويتم اختيارها لنفض الغبار عن الكتب، ومسح السبورة، وتوزيع أوراق الاختبار، وإدارة أعمال معلمها المعبود. "يالها من رائعة! لو كان كل الصغار مثلها فقط، إذن لكان التعليم متعة". ولكن بعض المعلمين لايتأثرون. "إنها لطيفة فقط عندما يتعلق الأمر بالالتزام بالأنظمة، والإجابة على الأسئلة بالطريقة الصحيحة تماماً، واستذكار الحقائق. ولكنها تنهار عندما تحاول استيعاب المفاهيم المجردة. ويبدو أن الأسئلة التي تتطلب خيالاً وإبداعاً تتجاوز فهمها". "إنها لاتشارك في تبادل الآراء أثناء المناقشات التي تدور في غرفة الصف. كما أنها لاتعطي الجواب الصحيح في الحال أو تنتظر حتى نتوصل كلنا إلى الجواب الصحيح. وعندئذٍ تقوم بتلاوته كالببغاء". "ولأذكر بأنها تبكي لمجرد ارتكابها لخطأ بسيط في التهجئة أو حدوث تبديل في نظام الجلوس أو البرنامج اليومي للدروس".

القهمة المحتملة تلميذة كمالية. فهي لاتطيق أن تكون على خطأ أو غير دقيقة. وتتحسس كثيراً من النقد. وإذا تقلبت الأنظمة، أوإذا تبدلتِ البنى المعتادة لحياتها، أو إذا قام أحدهم بالتصحيح لها أو انتقادها، فإنها تشعر بالانسحاق تحت وطأة رعب لايوصف.

تمارس التغييرات في الروتين، والارتباكات، والإخفاقات، والانتقادات البسيطة، والنبذ، والاستخفاف، والتلميح الهازل إلى وجهها الممتلىء تأثيراً حاسماً، تأثيراً تحفيزياً على البنت الكمالية، المفرطة الحساسية، العالية الطموح في هذه الفترة من حياتها حيث تحاول مواجهة التبدلات البيولوجية والمعضلات النفسية لمرحلة المراهقة. وستتفاعل القهمة المحتملة مع الحيض، وانتصاب الحلمتين، والظهور الخفيف للهالة ونفور الثديين،

وتزايد النسيج الشحمي فوق الربلتين، والوركين، والفخذين، والثديين مع مايرافق كل ذلك من الخوف والتطيّر. فالبنت التي كانت منذ الرضاعة تسيطر بصرامة على وظائفها الجسدية تشعر الآن بعجز مطلق. فالتبدلات الجسدية تغزو جسدها وكأنها مُغتَصِب. وينتابها الخوف من أن كل شيء يمكن أن يخرج عن الطوق. فقد لاأستطيع تهدئة جوعي؟ هل ستقهرني الشهوة؟ إن عدم إمكانية الرجوع عن الأنثوية، وفكرة أنها يجب أن تصبح الآن امرأة ولا شيء آخر هي بمثابة صدمة، إهانة شديدة، تذكرة مرعبة بأنه ليس مهماً مدى القوة، مدى الذكاء، مدى الاستقامة، فهي لايمكنها التحكم بالطبيعة. فإمكانياتها محددة.

البنت ثكلى. ولكنها لاتجرؤ على إظهار مدى رعبها. "ماالعيب عندي؟ ... لماذا أنا على مثل هذه الحال من الضعف والسوء؟... ماذا أفعل لكي أجعل نفسي أكثر جاذبية وأهلاً للمحبة؟" وتشرع في تقويم هذا الوضع المرعب والمخزي. فهي لايمكنها التحكم بالطبيعة، ولكنها تستطيع أن تلقي نفسها في العمل المدرسي، وتقوم بمزيد من التمرين، وترفع من وتيرة عملها في كل شيء. فإذا لم تساعد هذه التدابير على تخفيف قلقها، فإن عملية تناول الطعام نشاط يمكن التحكم به. فالتنظيم الغذائي إجراء يمكن للمرء أن يحققه بدون مساعدة أحد، بدون الاعتراف بالخوف، بالتعرض للخطر، بالوحدة. فصديقاتها يحاولن الالتزام بحمية غذائية فلا يحققن نجاحاً. وأمها تتعمد الحمية دائماً. ووالدها يتبختر بجسمه النحيف المتين، العالم كله يتحرك، يعدو، يتمرن، ملتزماً بهذه الحمية أو تلك. فالتنظيم الغذائي إجراء جيد-عمل طابعه الفضيلة.

يبدأ المرء الحمية كجزء من قراره في أن يصبح شخصاً أفضل، شخصاً قوياً، مكتفياً ذاتياً، شخصاً مستحسناً، متفوقاً. في البداية، تبدو البنت كأي مُحتَمٍ آخر. تتحدث بحماس حول نظامها الغذائي مع أي شخص يستمع لها. وتعمل على تقييد النشويات، والسكريات وتضاعف تمرينها. ثم تستبعد لحم البقر، والخراف، والبيض، وكل أنواع الخضار باستثناء نوع أو نوعين. وسرعان ماتتزل إلى تناول بضع حبات من الزبيب على طعام الفطور، ويقتصر طعامها عند العشاء على كبدي دجاج وبعض من شرائح الجزر، وقد تتناول بين فترة وأخرى اثناء النهار 4-6 شريوزات، أو شظية من الجبن أو التفاح. تزدّ هذه الوجبات الهزيلة بالخل أو الفلفل لإعطائها نكهة غريبة. وفي غضون بضعة أشهر، تكون البنت قد تقدمت من التنظيم البسيط للغذاء إلى مايشبه المخمصة. فهي في طريقها إلى الهزال. وفي الوقت الذي تكون قد فقدت فيه عشرين أو ثلاثين باونداً، تصبح

المخمصة هي السيد الذي تقوم على خدمته. وإذا حدث والتقى بها فاعلو الخير وإخوتها الكبار، فسوف يجردونها من رقمها وبزتها النظامية؛ وسيقومون بنفيها مع الشعراء والقديسين المتمردين. ويحولها اكتفاؤها الذاتي المتغطرس، وألفتها مع العذاب من مواطنة مطيعة إلى تهديد للمجتمع، أكثر خطراً من أي حَدَثٍ جانح يمكن حمله على الخضوع عن طريق الإقناع الهادىء، وغسل الدماغ، والتعذيب، وتشويه الجسم. وعندما تنطلق القهمة، فلا شيء يمكن أن يعوقها عن ملاحقة الكمال. فإذا قاموا بإدخالها إلى المستشفى، فإنها تبدأ بالتعرف على طرق التثقيف أكثر من آسريها. فتهزمهم جميعاً: الإطعام الإجباري عن طريق الفم أو عن طريق أنبوب أنفي معدي؛ المعالجة بالأنسولين التي صممت لإحداث التعرق، القلق، الدوار، الجوع؛ التغذية المفرطة عبر الوريد؛ الكلوروبرومازين المخصص لتخفيف الخوف من تناول الطعام؛ المعالجة بالتخليج الكهربائي؛ أنظمة تعديل السلوك التي سوف تسمح بالعدو فقط بعد تناول الطعام واكتساب الوزن؛ حتى الجراحة العصبية، أي بضع الفص الجبهي الذي يحملها على تناول الطعام لكنه يحولها إلى نهامية ومتقيئة سرية.

القهمات منعزلات، متحفظات، مدّعيات، مراوغات، لسن صادقات تماماً، ماكرات. وهؤلاء البنات الكتومات الذكيات لايبحن بأفكارهن إلا لدفاتر مذكراتهن أو لخبراء معالجتهن الموثوقين: "لاأظن أن الخوف من أن أصبح سمينة هو هاجسي الحقيقي، ولكنها ***الرغبة المتواصلة من أجل الطعام***. الرغبة، أي الشره من أجل تناول الطعام يجب أن يكون هو السبب الرئيسي. والخوف من السمنة يعمل كمكبح. فأعتبر أن 'شهوة المضغ' هي الهاجس الحقيقي. لقد انقضّت علي كبهيمة وأنا عاجزة تجاهها".

الجوع بهيمة، قوة معذِّبة مشؤومة، لعنة، روح شريرة، شيطان همه المطاردة دائماً، كلب صيد ذو مخالب يشد المقود. ولكن بعض البنات اللائي بدأن بهدف الوصول إلى جسم رقيق أهيف يستسلمن للبهيمة-إنما ليس بصورة تامة. فهن يتعلمن، عن طريق الصدفة أحياناً من رفيقة المدرسة أو من مقالة في مجلة، أن هناك بعض التقنيات السهلة للتفوق على الكلب حيلة ودهاء. والنهام هو حل واحد.

تنهزم النهامية أمام الرغبة الشديدة المفاجئة بالطعام حتى بعد وجبة كبيرة. وسوف تستهلك خلال ساعتين أربع شطائر من لحم البقر مع شريحة جبن محمّص، ونصف غالون من المثلوجات، ودزينة من الكعك الهلامي المحلى المقلي بالدهن، وخمسة قضبان من المسكّرات. وبعد أن تنتفخ معدتها إلى نقطة الانفجار، تقوم بتنظيف جسمها بالقياء

المحرض ذاتياً أو بالمليّنات ومدرات البول. أما القهمة فتبتعد عن الطعام. والنهامية، التي لاتقل اهتماماً بتقبلها واستحسانها عن القهمة، تتجه نحو الطعام لتخفيف قلقها. فالطعام بالنسبة لها مأمون، مضمون، ويمكن الاعتماد عليه. والإفراط به يهدىء مخاوفها، يخدر غضبها وعزلتها. فهي تأكل للمؤاساة العاطفية. ولكنها سرعان ماينتابها الخوف من أنها سوف تكسب كثيراً من الوزن فتتعرض بذلك لخطر عدم الاستحسان الذي تهرب منه. ويصبح استطلاق البطن مظهراً مكملاً لسندها العاطفي. ويغدو طقس القصف-استطلاق البطن أكثر وأكثر تكراراً، ويسود على شكل إدمان. القصف يخدر الانفعالات، واستطلاق البطن يجرفها بعيداً. فعل استطلاق البطن مفرّج جداً، ومنظف جداً إلى الحد الذي تبدأ معه النهامية المتحصنة بتناول الطعام بهدف استطلاق بطنها. ولكن المضاعفات الجسدية لاستطلاق البطن خطيرة-تلف لاعكوس للمريء، تفجر الأوعية الدموية في العينين، فقدان ميناء الأسنان، تسوس الأسنان، لانظمية القلب، قصور القلب. والنهامية غير قادرة على فقد الوزن باستمرار أو على الالتزام بحمية غذائية. وتنهزم بسهولة أمام توقها ودوافعها. فإذا استطاعت الصمود بين فورات القصف الطعامي، فإنها سوف تنهمك ببعض النشاطات. وإذا كانت مواردها قليلة، فإنها سوف تسرق ماتشتهيه. فتصبح ماهرة في اكتساب المال عن طريق تملق والديها لتعزيز عاداتها. وتستخدم دفتر الشيكات وأجور التعليم المزيفة لدفع ثمن قصفها. والنهاميات يستسلمن أيضاً لشهواتهن في التماس الجسدي، والعناق، والدفء، والاستحسان، والإعجاب. وبعضهن مسعورات جنسياً، يبحثن بشكل يائس عن سواعد للتطويق، ويتشوقن إلى الإعجاب المغذي.

وفي حين تنجح أخواتها المزعجات فقط في تهدئة البهيمة، فإن القهمة تبدو قد انتصرت على **شهوة المضغ**، وشهوة التملك، والشهوة التناسلية. وقد تقوم أحياناً بسرقة حلية لامعة لتزيين جسدها وتدخر الخبز في خزانة كتبها. وتنغمس كثيرٌ من القهمات في عوارض من هوس السرقة أو القصف واستطلاق البطن. ولكن، كما تشهد أجسامهن الهيفاء الرقيقة، فهن طاهرات بنسبة 99.99%، وهن فوق الرغبة والجوع. فلنتركهن يتحدثن، وسوف نسمع قصة أخرى.

"حقاً إنني أدمر نفسي في هذا النضال الذي لانهاية له ضد الطبيعة. فالقدر يريدني أن أكون كبيرة الوزن وقوية، بينما أريد لنفسي أن أكون رقيقة وهيفاء."

"تعودت على الجوع ولا يمكنني أن أركز على الأشياء. فلاأتذكر أياً من الكتب التي قرأتها عندما كنت جائعة؛ ولا أذكر الأفلام التي شاهدتها في ذلك الوقت. ولم أتعود أن أفكر حول أي شيء باستثناء الطعام."

"تعلمت حيلة أهيء عن طريقها لنفسي التمتع بالطعام إلى حد كبير. سأتناول الطعام الذي يمتعني، إنما بكميات قليلة فقط. فتناول الطعام ليس مرفوضاً. ولكن المرفوض هو اكتساب الوزن."

"بدا لي وكأنه يجب علي أن أعاقب جسمي. فأنا أكرهه وأنفر منه. فإذا ماتركته على حالته الطبيعية لبضعة أيام، فإنه يتوجب علي بعد ذلك أن أعمل على حرمانه من جديد. أشعر بأنني سجينة داخل هذا الجسم. فهو لايمكنه أن يخونني طالما حافظت على التحكم فيه بشكل صارم."

النصر الذي تدعي القهمة تحقيقه هو سقوط لها. فأخواتها، البنات ذوات الوزن الزائد، والبنات الرقيقات-البدينات، وحتى النهاميات قبل استفحال حلقات القصف-استطلاق البطن، أياً كان شعورهن باليأس وعدم الكفاية، نجدهن منهمكات في الحياة. فهاهن يدرسن، ويعملن، ويعقدن الصداقات، والعلاقات الجنسية، ويحملن إحساساً ذاتياً بالانتماء إلى النظام الاجتماعي ويسهمن به. ولكن القهمة ليست كذلك. إنها ذئب متوحد. فهي تدرك عزلتها قبل وصولها إلى مرحلة الهزال. وهي تتشوق إلى الخميمية، إلى المحادثة، إلى نظرات الاستحسان، والمصافحة، والدفء الإنساني. "أرى الناس الآخرين من خلال جدار زجاجي، أصواتهم تنفذ إلي. أتشوق لأن أكون على تماس حقيقي معهم. وأحاول، لكنهم لايسمعونني."

الخوف من الشهية، أو الجوع الجنسي، أو الرغبة واحدة من المقومات الرئيسية للقهم. والمقوم الآخر، أي المقوم الذي بدونه لايكون التجويع الذاتي ممكناً، هي طبيعة الضمير عند القهمة. لأن أكثر القهمات نقاء تمر بلحظات من الضعف أيضاً. ولكنها حالما تقرر أن تقوم بشيء ما، فإن ضميرها يضمن لها طاعة مطلقة تقريباً. ولأنها تتمتع بقوة إرادة هائلة، ولأنها ذكية، وطموحة، ومثابرة، ولأن العيون التي تراقب بحدة والأصوات الجافة الناهية لم تُرَوَّض أبداً، فإنها تنقاد لها بدون تردد. وبما أن المثاليات التي تقيس بها نفسها رائعة جداً، وكاملة جداً، وقاسية وصارمة جداً، فإنها تنحني أمامها في وضع من العبادة المقدسة. ضميرها متوحش، منافق، فاسد.

يرتفع النفاق الأخلاقي عند القهمة من ينابيعه إلى السطح فقط عندما يشدد محرم سفاح القربى على معضلاته الأخلاقية. هذا النفاق كان قد انفجر منذ الطفولة الباكرة خلف ستارة بناء أسري ونظام اجتماعي استحسن طموحها، وكفاحاتها في سبيل السلطة، والتزامها الصالح بالواجب، الصالح من وجهة نظرها طبعاً. حربها الشاملة على الرغبة خدعة كبيرة. وإنه ليبدو وكأن كافة الميول الجنسية والشهوانية قد استؤصلت. ولكن القهمة أوجدتها لكي تنهمك كلياً بالإثارة الجنسية، بشهوة المضغ خصوصاً. فالرغبة رفيقتها الدائمة.

تضع القهمة الرغبة في اعتبارها دائماً بمزيد من التفاني والتورط أكثر مما تفعل أية مراهقة عادية. فتفكر فيها، وتعادلها، وتشعل النار، وتتأكد من أنها، أي الرغبة، سوف لن تقلص من مطالبها بالرعاية. وعلى الرغم من أنها تعمل من أجل أن تبقى محجوبة، فإنها تعرف تماماً بأنها موجودة هناك، تنتظر فرصة للثورة، والاختراق، والاندفاع، والغلبة. ضميرها، الذي لم يسلس القياد أبداً عن طريق الإخلاص للجماعة في فترة الكمون أو الصداقات والولاءات العاطفية في السنوات الأولى من المراهقة، ضمير مستبد لايرحم، صيغ كلياً على قالب رغباتها؛ إنه يفترس، يسبر، يتفحص، يغوي، يعذب: " شعرت كما لو أن نخاساً كان يستحثني بالسوط من نشاط إلى آخر". الرغبة والسلطة شريكان في الجريمة. ومع إسكات الجدل الواسع بين الرغبة والسلطة، تزدهر النرجسية بدون قيد.

تنشغل البنت بالطعام، بالتبرز، بالجنس، ولكن بعد أن يكون تم التخلص من الحنو والولع. ولكي تتأكد القهمة بشكل قاطع من أنها سوف لن تُغوى للعودة إلى شبكة الحب الأسرية، فإنها تعكس الحب–الرغبة إلى كره–رغبة. والآن لاينبغي لها أن تغادر البيت. لأن شدة كرهها وتخيلاتها المزعجة تحافظ على سلامتها. وبما أن الشهوة والكره يستنزفانها، فإنها تركز جوعها بصورة كلية تقريباً على جسدها. وبالإيماءة السحرية نفسها للتجويع الذاتي تحث جسدها بالسوط إلى جنون الكمال وفي الوقت ذاته تقوم بذبحه. فجسدها نقيصة. وتبقى في البيت، "تماماً كهيكل عظمي ثابت في وليمة". إنها كليّة القدرة، ولذلك لايمكن أن تموت حتى وإن ذوى جسمها. وفي هذه المرة، سوف لن ينتزع أحد منها قدرتها. " أرادوا مني أن أزداد وزناً، لكنهم لم يدركوا إلى أي مدى كنت سأشعر بالتعاسة. طبعاً، لم أكن أريد ذلك! لأنني كنت تعيسة! وكما تعرف، إنهما سعيدان جداً. فلديهما هذه البنت الصغيرة

الطيبة، ويريدان لها أن تكون جميلة وسعيدة أيضاً. أرادا لي أن أكون حلية، ولكنني رفضت طبعاً".

البنت يتأكلها الحقد. ونقمتها على آسريها تشبه وجبة مشبعة. "أنت تلاحظ مدى طاعتي. فأنا لاأفرط في تناول الطعام. ولا أطالب. وأتحكم بصورة تامة بشهيتي. وهذا ماكنت تريده. طفل كامل بجسم كامل. والآن حصلت عليه-ليراه الكل بلا استثناء".

أما الآن وقد تم التخلص من ذلك الولع والحنوّ، وأصبح ضميرها مكتفياً ذاتياً، خارجياً، فوق الأخلاق، فإن سخط القهمة لايعرف قيوداً. وقبل أن تتنازل من عليائها المتغطرسة وتنضم إلى الجنس الإنساني، هناك حسابات قديمة لابد لها من تسويتها. توثّق الأمَةُ وسيدها مع بعضهما طالما بقيا على قيد الحياة: "هي أنا، وأنا هي. فإذا دمرت نفسي، فسأدمر أمي أيضاً". تصلصل الرقيقة المطيعة بقيودها. وعدوها شحم فخذيها، واستدراة ثدييها، وبدء إحاضتها، ولكن موجة الحيوية الجديدة، التي توسع كل شهية، والرغبة أيضاً تفكان مزاليج بُنى الماضي. ورغم كونها شهوانية كرضيع، قانوناً على نفسها، فإن القهمة لاترتد ببساطة إلى أساليب الماضي. وأفضل بنت صغيرة في العالم تصلصل بقيودها.

كانت الحياة برمتها إنجازاً رائعاً قامت به البنت. وكما ستعترف أحياناً في مناسبات لاحقة من التفجر غير المميز للصدق، من أنه كان "دائماً أعظم عمل تظاهري". تصرفها في التجويع الذاتي الذي ينطوي على تحدي الموت، نحولها، هو إنجازها الذي كوفيء أكاديمياً، انتصار المنافسة التي كانت تتدرب عليها منذ الرضاعة. يصاب المشاهد بالذعر والسحر، مما يؤدي بالفنان الجائع إلى إعجاب خادع بالقوة. فهي، من وجهة نظرها، فنانة كاملة. وبعد ذلك فقط، عندما يصبح وزن جسمها قريباً من السواء وتتنازل عن جنون مهارتها الفنية، ستقول لنا بأنه كان هناك في الداخل صوت ضعيف يرجوها أن تكفّ، جزء مراقب من ذاتها ينظر إلى تصرفها بالقدر نفسه من الذعر الذي ننظر به نحن إليه. ولكنها في معظم الأحوال، ستستمر في احترامها لإنجازها طالما بقيت على حالها من النحول. وكلما امتد أمد المرض كلما ازدادت استغراقاً بشؤونها الذاتية.

وسرعان ماتنسى مايتعلق بمشاهدها. وتسيطر النرجسية بصورة تامة. فتطالب النرجسية باستعادة عقلها وجسمها، مدّعية بملكيتها الخاصة لهما؛ وتؤكد قدرتها الكلية التي تنازلت عنها كلياً مقابل الإعجاب النرجسي. ولكن لايمكن أن يفيدها الآن إعجاب نرجسي، أو نظرات نهي من أم أو أب. لقد أصبحت مرآة نفسها. إنها تقف خارج ذاتها، تراقب

ونُراقَب. "لقد حققت رغبتي في أن أكون جنساً ثالثاً، فتى وبنت في آن معاً. فرأيت، وأنا أقف أمام المرآة، امرأة جذابة ممتعة. ورأيت في ذاتي الأخرى، أي جسمي خارج المرآة، شاباً شهوانياً يتهيأ لإغواء البنت التي يراها في المرآة. لقد أقمت علاقة غرامية مع ذاتي".

إنها في حالة تيقظ، في حركة دائبة، تنام ليلاً فقط ثلاث أو أربع ساعات. ممتعة هي الأيام عندما تقضي ساعات وهي تعمل في وظيفة بيئية إضافية، وعندما تكون نجمة الصف في السباحة، وعندما تحاضر برفاق صفها الثقلاء حول النظرية النسبية. تسكرها، تدوخها البهجة، الإحساس بالتناغم المطلق بالنسبة لعالم الزمان والمكان. أما التناقضات بين "الأنا" و "اللاأنا"، ذات حياة وعديمة الحياة، فبقيت معلقة. إذ لاوجود لانفصالات هنا. وفي اتحادها الصوفي مع بيئتها الجسدية لاتحتاج إلى آخرين. لقد وصلت إلى قمة مابعد الخبرة. وهي تتمتع بجَلَدٍ لاحدود له، وحدّة عقلية هائلة. ومع أنه لم يعد بإمكانها أن تركّز على الكتب والكلمات، وعلى المحاضرات والهراء في قاعة الصف، فإنها ماكرة عندما يتعلق الأمر بحفظ حياتها.

القمة التي وصلتها من مخمصتها القريبة وحركتها الجسدية الدائبة تشبهٔ صدمة المورفين. "يشعر المرء أنه خارج جسده. يشعر فعلاً أنه خارج عن طوره-وعندئذٍ يكون في حالة مختلفة من الوعي وقد يكابد الألم بدون استجابة. ذلك ماحدث لي مع الجوع. عرفت أنه كان هناك-يمكنني أن أتذكره وأستحضره إلى وعيي-لكنني عند ذلك لاأشعر بالألم". اللاهوتيون على دراية بالتجاوزات الأخلاقية لمثل هذا الانجذاب الصوفي، الأوهام الروحانية لحالة التجويع والمعاني الجنسية الإضافية. " تزداد الدراية بالقدرة الروحية ومعها **خطر فقدان الرؤية لما خُصِّص لكل واحد منا، أي حدود وجودنا المتناهي، حدود كرامتنا وقدراتنا**. وبالتالي أخطار الكبرياء، والسحر، والثمل الروحاني".

أما وقد اختبرت عدم فعاليتها تقريباً في كل ملاحقة أخرى، فإن القهمة تحقق من خلال تصرفتها في المخمصة وفرط نشاطها قدرة هائلة-أكثر مما ساومت عليه. ومع تزايد حدة المخمصة، تعمل التأثيرات الجسدية الجانبية على تعزيز وتوكيد أحلام المجد عندها. إنها لاتنشد الانجذاب الصوفي، وإنما التحكم فقط بالقوى الجسدية الغازية. فالقداسة جاءتها كناتج ثانوي عرضي لمخمصتها. وهي تتحرق الآن من أجل الجوع كما تحرقت فيما مضى من أجل الطعام. فقمّة حالة الصيام عندها تتمثل في انتصارها على انفعالات

الجسد، انتصارها على أسيادها. وعندما تكون خارج جسمها، تكون صادقة مع ذاتها، مع تعابيرها، مع قدراتها.

الانتحار الإرادي نادر في القهم. وستحاول البنت الانتحار فقط في حالة فشلها في معركتها ضد **شهوة المضغ** أو في حالة إجبارها على الاستسلام لآسريها. ولكن إيمانها بقدرتها الكلية تعمل على خداعها. فهي لاتدرك حالتها الجسدية الخطرة. فالقهمية الجائعة قد يباغتها جسمها بتوقف القلب، بأزمة استقلابية، بوهط دوراني. ويقال بأنه يبدو عليها، قبل أن تموت مباشرة، مظهر من كان يدرك بأن نفسه كانت تخرج ببطء من جسده. وتحدق في البعيد، "كالسمكة"، بعيدة عن التماس مع العالم. إنها تتخلص من وجودها المقيد.

11

المُنْتَحِل

سعي ذكوري وراء الكمال

عندما يشرع الفتيان المراهقون في إثبات وجودهم، فإنه من غير المحتمل أن يختاروا طريقة التجويع الذاتي. فالقهم نادر جداً عند الذكور، وعندما يحدث العزوف عن تناول الطعام والهزال، فإنهما كثيراً مايكونان عرضين ثانويين لحالة ما أخرى عقلية، كالفصام أو الاكتئاب الشديد. والواقع، هو أن كثيراً من الذكور الرياضيين، والعارضين، والراقصين، والممثلين يقومون بشكل دوري بتجويع أنفسهم، وأن بعض الفتيان المراهقين هم نهاميون في عطلة الأسبوع، وأن كثيراً من الرجال هم أناس نحاف–سمان ينهمكون في المحافظة على انخفاض وزنهم عن طريق العدو، والعدو الوئيد، والتمرين، والتنظيم الغذائي، على الرغم من أنهم يجيزون لأنفسهم فترات محددة تماماً من الشَّره والقصف. ولكن قلة قليلة جداً من الذكور تصاب أثناء المراهقة أو بعدها باضطرابات طعامية شديدة كالقهم أو النهام.

تشكل إصابات الذكور بالقهم **الأولي**، في حدها الأقصى، نسبة 10% من مجموع الإصابات بهذا الاضطراب. وخلال سنوات الكمون عند الفتيان الذين يصبحون قهمين، يتشابه الكثير من صفاتهم الشخصية مع مثيلاتها عند الفتيات اللائي يحتمل أن يصبن بالقهم. فإنجازهم المدرسي عال، وهم في البيت لينو العريكة ومطيعون. وكالبنات، يعانون من شعور بأنهم غير أكفاء وغير فعالين. وهم طموحون أكثر مما ينبغي؛ وكماليون، ومفرطو النشاط، وحساسون بشدة للنقد. ولكن هناك، على الرغم من هذه التشابهات، اختلافات هامة بين الذكور والإناث المصابين بالقهم الأولي، إلى الحد الذي يشك معه بعض الكتاب في مدى صحة وصف الذكور بالقهم. فهم أقل تكتماً فيما يتعلق بشهوتهم للمضغ. ويعترف أكثرهم بجوعه. ويتحدث بعضهم بصراحة عن توقه الشديد للطعام. وتتناوب عندهم فترات الرفض الشديد للطعام مع نوبات قصف طعامي هامة، يعقبها إقياء

محرض ذاتيا. ونقطة الاختلاف الرئيسية هي أن الاضطراب يبدأ أكثر بكوراً عند الذكور، إذ يظهر عادة قبل البلوغ، بين التاسعة والثالثة عشرة من العمر. والفتيان الذين يصابون بهذا الاضطراب لاينمون جنسياً قبل شفائهم. وفي الواقع، كثيراً ماينقذ البلوغ الفتى الذي يحتمل إصابته بالقهم. إذ تعمل طفرة النمو وتدفق الأندروجينات على إغراقه بالنشاطات العدوانية والمساعي التناسلية التي تشجع توكيد الذات، وهي مسألة لايمكنه تحقيق الصلة بها خلال مرحلة الرضاعة، والطفولة المبكرة، وفترة الكمون.

يميل الفتيان في بداية بلوغهم إلى محاولة إثبات وجودهم عن طريق توجيه اعتداءات القوة المذكرة إلى محيطهم قبل توجيه الهجوم الفعلي على أجسادهم. وبصورة عامة، إنهم يجازفون بأنفسهم في العالم. ترتفع عند الذكور بصورة مطّردة تقريباً معدلات جرائم الجنوح الخطرة كتخريب الممتلكات، والسرقة، والاعتداء، والاغتصاب بالتهديد، وسرقة معروضات المتاجر، والسطو المسلح، والرعونة في قيادة السيارات أثناء النزهات منذ الحادية عشرة، وتبلغ ذروتها في الخامسة عشرة، ثم تنخفض إلى حد ما في الثامنة عشرة، وتستمر في الانخفاض حتى الثالثة والعشرين من العمر. وفي مدى العمر هذا، يكون معدل الاعتداءات الإجرامية الخطيرة عند الفتيات أقل تكراراً بكثير، على الرغم من أنها تبلغ ذروتها في الخامسة عشرة أيضاً. ففي الخامسة عشرة من العمر مثلاً، ترتكب الفتيات جرائم خطيرة أقل بكثير مما يرتكبه معاً فتيان الحادية عشرة ورجال الثالثة والعشرين من العمر. وحتى عندما تتضمن الأرقام الإحصائية جناة أقل خطراً ممن يعرفون بالجانحين المتعودين، كالهاربين، والمتغيبين عن المدرسة، ومدمني الكحول والمخدرات، تبقى معدلات الجنوح عند الفتيان أعلى منها عند الفتيات.

يلاحظ كثير من علماء النفس أن الفتيان المراهقين يفصحون عن معضلاتهم الشخصية في البيئة الاجتماعية الأوسع ويعرضونها عليها. فهم يميلون إلى العمل ضمن المجموعات التي يتلقون فيها قدراً كبيراً من استحسان الأنداد وتعزيز النرجسية لقاء أفعالهم العدوانية وتحدياتهم.

أما الفتيات المراهقات فيعبرن عن معضلاتهن، كما رأينا، من خلال العلاقات الشخصية؛ فتتحمل الأم، والأب، والأشقاء، والمعلمين، والصديقات الوطأة العظمى لردود أفعالهن. وتعبر أشكال الولع لدى البنات عن نفسها بالاتصالات الجنسية غير الشرعية، أو بالسرقة كبديل عن الحب. ويقاومن ركاكة الصيرورة إلى نساء عن طريق تكبير

أجسامهن. ويتورطن في ارتكاب جرائم سرية كالانهماك في القيل والقال، وإعداد المحالفات الرومانسية، والكذب، والقصف، والتقيؤ. وهن أكثر ميلاً إلى الفعل في خيالاتهن وفي ذواتهن وأقل ميلاً إلى الخروج إلى المحيط الاجتماعي الأوسع.

يتقدم الرجال في سن الرشد ليصبحوا معتدين من النوع السيء -قتلة، لصوصاً، سرّاق منازل، سفاحين، كذابين، مختلسي نظر-يُسجَنون جزاء لسلوكهم المعادي للمجتمع. وعلىالعكس، تكون النساء ضحايا هذا العدوان-مدمرات لذواتهن، من يستعملهن الرجال جنسياً، من يرزحن تحت وطأة الاكتئاب والهستيريا أكثر مما يتصرفن بعدوانية وجنسانية موجهتين نحو الخارج. عندما تسرق النساء، فإنما يسرقن لأنهن شريكات الرجال أو لأنهن متوحدات مهووسات بالسرقة من أجل الحب. وعندما يُقِمْن علاقات جنسية غير شرعية أو عندما يكنّ عدوانيات على المكشوف، فإنهن لايودعن السجن جزاء لإجراميتهن. كان سلوك كهذا يعطى في العصور السابقة مغزى دينياً، وتحرق صاحباته بالشد إلى خازوق. أما اليوم فينقلن من قبل آبائهن وأزواجهن الذاهلين إلى المصحات العقلية. وعندما يصاب الرجال والنساء بالذهان، يصبح الرجل زَوَرانياً عنيفاً، وتصبح المرأة البلهاء فَنَديَّةً، مشوّهة لذاتها.

لقد اكتشفنا أنهم، أي الرجال والنساء، حتى في اختيارهم لطرق انتحارهم، يسلكون وفق خطين جنسيين Gender. فالرجال أكثر عنفاً: الرجل يشنق نفسه، يطلق النار على رأسه، يقذف بنفسه من على السطح. وتفضل النساء طرقاً أكثر رفقاً وسلبية، كالأقراص المنومة، والغرق، والغاز. وفي حالة العُصاب، يكون الرجل وسواسياً قسرياً، والمرأة هستيرية. وعند اختيار الشركاء الجنسيين، تبحث النساء عن مرايا لطموحاتهن النرجسية، في حين يكون الرجال أقرب إلى اختيار محبوبات يلبين الحاجات والرغبات "الحقيقية". تعاني النساء من الخجل، والرجال من الإثم. النساء ماسوشيات، والرجال ساديون.

وفي هذه المفاهيم الشائعة حول اختلافات الجنس ومايتعلق بالجريمة والانفعالية، تختلط الحقيقة بالخيال. ونجد مايعزز هذه الاختلافات بين الجنسين عندما نقوم بدراسة إحصائية لمجموعات من النساء والرجال. ولكن هذه الاختلافات تتلاشى عند قيامنا بدراسة حالات فردية، فنجد أن ليس هناك اختلافات واضحة جداً بينهم. فالرجال أيضاً ماسوشيون، مكتئبون، هستيريون. ويمكن أن تكون النساء ساديات، ووسواسيات قسريات، وعنيفات. مع ذلك، مازالت تتمتع ببعض الأهمية فكرة أن الذكور والإناث **يميلون** إلى التعبير عن

تناقضاتهم، وهشاشتهم، ويأسهم بنماذج مختلفة من الاضطرابات العاطفية، والسمات الشخصية، والأنماط السلوكية. وتتطلب التعليقات على الاختلافات دائماً نوعاً من التأويل للتأثيرات النسبية على الطبيعة والتنشئة. فيشدد بعض المعلقين على الاختلاف في التكوين بين الذكور والإناث؛ وتحدد الهرمونات والتشريح الميول لجهة الانفراد مع الخيال في البيت أو الخروج إلى المجتمع. ويعتقد آخرون أن التقاليد الاجتماعية هي التي تحدد بأن النساء سوف يكنّ الضحايا السلبيات، المدمرات لذواتهن، وأن الرجال سيكونون هم المفترسون الذين يتوجهون بعنفهم إلى الخارج.

هناك بعض الحقائق. فمثلاً، نحن نعلم أن الوالدين يبدآن، منذ اللحظة التي يعرفان فيها جنس مولودهما الجديد، باتباع طرق مختلفة ماكرة، وفقاً لجنس المولود (ولد، بنت). إن المدى الواسع من أمزجة مابعد الولادة، والصفات الفيزيائية، والمواهب العقلية، كلها تثير عند الوالدين عدداً كبيراً من التخيلات والتصرفات. ولكن مع كل هذا التعدد، هناك دائماً انسجام بين جنس الرضيع والموقف الوالدي اللاواعي تقريباً تجاه الذكورة أو الأنوثة. وهناك في كل مجتمع عدد من المواقف تجاه الانسجام الوالدي مع جنس المولود، هذا الانسجام الذي يمكن أن تقوم على أساسه تخيلات الوالدين حول رضيعهما. وحتى الموقف الوالدي البعيد جداً عن التقليد يعبر عن مَثَل أعلى حول الأنوثة أو الذكورة يحظى بالاحترام على الصعيد الاجتماعي.

كل طفل هو إلى حد ما انعكاس للطموحات النرجسية عند والديه. وفي مرحلة الرضاعة سوف يعكس آمال الأم، وأمنياتها، وتطلعاتها. وتطلعات الأم بدورها، فيما يخص ذلك الرضيع، سوف تتأثر بصفاته الخاصة المميزة-مزاجه، مواهبه الفيزيائية والعقلية، و ***جنسه*** **Sex**. فالرضيع الأنثى، بغض النظر عن مزاجها، سوف تثير عند أمها موقفاً ما يتعلق بالأنوثة؛ والرضيع الذكر سوف يثير موقفاً يتعلق بالذكورة. ولكن، عندما يكون الطفل مايزال رضيعاً، فإن تخيلات الأم تنحصر بالضرورة في مُثُلِ الأنا الطفولية، وهذه المُثُل لاتعني أنها الترجمة الوحيدة للطفل في الأنوثة أو الذكورة.

في كل مرحلة من مراحل الانفصال-التفرد، تخضع محاورة الرضيع-الأم إلى تعديل، وفي كل مرحلة أيضاً يخضع الموقف تجاه نوع الجنس إلى بعض التنقيح. ويؤمّن الوالد منذ البداية بديلاً لمحاورة الرضيع-الأم، حتى أن تخيلاته تتأثر أيضاً بميول الجنس Gender عند الطفل. وعندئذٍ، يفترض أن تكتسب أغاني الأطفال من حولهم أكثر المُثُل

تقدماً، تلك المُثُل التي يقوم الوالـدان بنقلها مـن خـلال دوريهمـا كممثليـن رئيسـيين للسـلطة الأخلاقية في النظام الاجتماعي الأوسـع. وتترافق هـذه التوسـعات الأخـيرة لسـيناريوهات الأنوثـة والذكـورة بمعـارف أخلاقيـة حـول المرحلتيـن الأوديبيـة والكمونيـة فـي الطفولـة. وتتطور الحياة الجنسية والحياة الأخلاقية بالترادف، أي إحداهما بعد الأخرى.

يفترض في الوالدين ، بوصفهما ممثليـن للمجتمـع، أن يعمـلا علـى تعطيـل محـاورة الحضانة. ولا بد للطفل من أن يكتشف، من وجود الأب في حياة الأم ووجود الأم في حيـاة الأب، أن هناك ماهو أكثر أهمية بالنسبة للنشاط الجنسي والمبادىء الأخلاقية مـن الغيـاب، والفطام، وتحكم المرء بوظائفه الجسدية. وينشر مثلث الأم-الطفل-الأب العلاقة الصميميـة بين الاختلافات التشريحية المذكرة والمؤنثة وحقيقة وجود اختلافات عميقة لايمكن تغييرهـا بين الطفل والوالدين، هي الاختلافات الجيليـة. يُفترَض فـي الأعضـاء التناسلية عنـد الأب والأم أن تقوم بعمل ما في سبيل تكوين الطفل؛ وهناك تلـك المتـع السـرية التـي يتشـاطرها الوالدان والتي لايملك الطفل حيالها كفاية تشريحية. إن هذه الهزيمـة الأوديبيـة تنقـل الطفـل مـن الحضانـة بمبادئهـا الأخلاقيـة الأوليـة حـول الغيـاب والفطــام، وإلــى شــرعية النظــام الاجتماعي، الذي يمثله الآن محرم سفاح القربى.

يهدف الوالدان من فرض محرم سفاح القربى إلى حماية الطفل مـن التـورط المبكـر في السلوك الجنسي الراشد. ولكنَ الطفل يعاني من هذه الحماية بوصفها تعليقاً على دونيتـه التناسـلية. ويعـزو إبعـاده إلـى عـدم كفايتـه الجسدية، والعاطفيـة، والأخلاقيــة. ومـن بيـن انحرافاته مساعيه التناسلية لجهة أمه وأبيه. ومـع أنـه يجـب أن يرجـىء إلـى المسـتقبل أي تحقيق لرغباته التناسـلية، فإنـه يُعَوّض عـن إذلالـه عـن طريـق تقمـص السـلطة الأخلاقيـة والديه. وتخضـع المعايير الأخلاقية التي يَستمدها الطفل من والديه إلـى تأويلاتـه الخاصـة المتصلبة للصالح والطالح. ولكن هذه المعايير تتفوق كثيراً على أخلاقيـة مرحلـة الحضانـة من حيث كونها مستقلة نسبياً عـن السـلطة الخارجيـة. ويكتسب الطفـل الاعتبـار الأخلاقـي لكونه هو نفسه المُحَرّم والمراقب بالنسـبة لذاتـه. ويكتسـب أيضـاً قيمـاً وطموحـات تشـجعه على التطلـع إلى المستقبـل، إلـى الوقــت الـذي سيصبح فيـه راشـداً، لـه مالراشد مـن أعضاء تناسلية وصلاحيات اجتماعية وأخلاقية.

عندما تسيطر مُثُلُ الحضانـة وأخلاقيتهـا علـى القواعـد المحـددة للتوافـق مـع جنـس المولود، فمن المحتمل جداً أن تكون الحصيلة نوعـاً مـن صـورة كاريكاتوريـة للذكـورة أو

الأنوثة-وخصوصاً إذا عملت القيم الاجتماعية السائدة علـى تشـجيع هـذه النمـاذج النمطيـة. والقهم، من الناحية التقنية، هو اضطراب الرغبة، داء في شهوة المضغ والشـهية الجنسـية. ولكنه كما رأينا، هو أيضاً اضطراب الحياة الأخلاقية، ينشأ من الحرمانـات فـي محـاورات الحب في مرحلة الرضاعة: كان أحد الحرمانـات هـو الصفـة الشـاملة لنرجسية الأم التـي ركزتها على الطفل الأنثى؛ وكان الثاني غياب الأب. وبدائية الوعي عند القهمة حاسمة في سببيات الاضطراب. وإلى أن تصل بها المراهقة إلـى فرصـة تتيـح لهـا مراجعـة القواعد، يكون قد سيطر على الفتاة سيناريو الحضانة لجهة الأنوثة، وهي صورة كاريكاتورية تلعب دوراً هاماً في ملاحقتها التي لاتلين للتجويع الذاتي.

وهناك اضطراب آخر يثمر في مرحلة البلوغ، إنـه شـكل مـن الإجراميـة التـي هـي نموذجية عند الذكور. وأهم تشخيص لسببيات هـذا الاضـطـراب هـو أنـه نـوع مـن العلاقـة العاكسة بالنسبة للأم وأب غائب أو غير موجود من الناحية العاطفية. وبينما كـان دور الأمّ المنسجم مع جنس المولود في اضطراب القهم يهدف إلى نقل صـورة كاريكاتورية للأنوثـة، فإنها تنقل فـي هـذا الاضطـراب صـورة كاريكاتوريـة للذكـورة. سـنقوم بدراسـة المنتحـل، الشخص الذي ينتحل هوية زائفة لهدف وحيد هو خداع الآخرين. وعلى حد مانعلم أن كافة المنتحلين *الناضجين* هم من الذكور والاستثناء النادر هي البابا جونـا* ، التـي وصلـت إلـى منصب بابا روما في القرن التاسع، واستمرت فيـه حتـى ولـدت أثنـاء ركوبهـا فـي موكـب دينـي. ينجـح التضليـل أثنـاء مراحـل الإغـلاق فـي البلـوغ عندمـا يحـاول الشـاب ترويـض الشخص غير الكفوء الذي يفترضه في نفسه على الوقوف إلى جانب المثل الأعلـى الرفيـع المذكر الذي نُقِل إليه خلال مرحلة الرضاعة.

ومع أنه يحتال أحياناً على الآخرين بهدف الكسب المالي أو لتحقيق فائدة اجتماعيـة، فإن المنتحل ليس مجرد مجرم. ولا هو بالمتفاخر أو المدّعي البسيط الذي لايخـدع بادّعائـه الظاهر أحداً لفترة طويلة جداً من الزمن. فالمنتحل ينتحل هويات مزيفة تماماً لأنه يجب أن يحجب عن نفسه وعن كل واحد آخـر قصـور ذاتـه الحقيقيـة. حقـاً، إنـه كـذاب، وغشـاش، ومحتال. ولكن فيليس غرينيكر، أحد المحللين النفسيين القلائل الذين قاموا بدراسة شـخصية المنتحل، يقول لنا بأنـه، أي المنتحـل "نمـوذج اسـتثنائي جـداً للكـذاب الـذي يغـش الآخريـن

* يقال أنه بابا من نسج الخيال-المترجم.

بتلفيقات حول إنجازاته، أو مركزه، أو ممتلكاته. قد يقوم بذلك عن طريق تحريف هويته الرسمية (الإحصائية)، أو عن طريق تقديم نفسه تحت اسم وهمي، أو قصة أو مفردات أخرى حول هويته الشخصية التي استعارها من شخص آخر حقيقي أو قام بتلفيقها وفقاً لمفهومه التخيلي عن نفسه".

هناك أشكال مختلفة ودرجات متعددة من الخداع، ولكن بعضها فقط يقود إلى الخداع الناضج. فالمنتحل الماكر يتمتع بذخيرة واسعة من الأنماط السلوكية الإضافية التي يشبه فيها الرجال الآخرين الذين هم بمواهبهم، و/أو بنيانهم الشخصي، و/أو توجههم الجنسي يحملون درجة ما من الخداع. المنتحل الصريح قد يلفق، وينتحل مااللغير، ويزيف، ويختلس، وهو يشبه في هذه الأنماط السلوكية الرجال الذين يتخذون من هذه المتابعات مهناً لهم. وكالسحرة، والمعلمين الروحيين*، والوسطاء، والمعالجين الغامضين، الذين يتمتعون أيضاً بموهبة عالية للتظاهر، يقدّر المنتحل أن أفعاله في الشعوذة تعتمد على توقيف عدم الإيمان عند مشاهديه. ضحاياه هم مشاهدوه المحرّضون، المتآمرون اللاواعون، الجائعون كالجاني إلى التهام الوهم. المنتحل إظهاري بصراحة؛ كثيراً مايغير لباسه ويقيم أيضاً علاقة بصبصة مع مشاهديه.

إن بعضاً من هذه الأنماط السلوكية الإضافية، كالتلفيق، والتزييف، هي دعائم المخاتلات الماكرة عند المنتحل. ومع أن بعضها الآخر، كالإظهارية والبصبصة، يخدم المخاتلة، لكنها تعبر مباشرة عن الهوية العضلية الخرعة عنده. والتوجه الجنسي عنده طفولي كحياته الأخلاقية، وبالتالي يكون مؤهباً لاكتساب انحرافات كانحراف الملبس، والفَتَشيَّة Fetichism، والإظهارية، والبصبصة. يعاني المنتحلون أيضاً من مشكلات الفحولة، حيث يكذبون تناسلياً عندما يَنهمكون في مطاردات متغايرة الجنس. أي مع أنهم يستخدمون أعضاءهم التناسلية على نحو متغاير جنسياً، لكنهم يشددون على التسجيل، والأداء، وتقليد الذكور المثاليين المتخيلين، والإيغاف عند الشريك لايفسر على أنه إعطاء للمتعة بل هو قهر وهزيمة، ويعتبرون الانتصاب خطراً، وخصومة، ومخاتلة، وبقاء على قيد الحياة. بهذا الأسلوب قد يلجأ المنتحل إلى مغازلة النساء، وإغرائهن، والتزوج من عدد كبير منهن–مع أو بدون شكليات الطلاق– وكثير منهن أكبر أو أصغر سناً منه، فهن إذن لسن من جيله.

* في الهندوسية–المترجم.

المنتحل، برجولته الكاذبة، شبيه بـ كازانوفا*، المُضارّ، الذكر المسيطر. وهو، في عظمته الهائلة وحيَلِه التعصبية التي بها يتجنب الافتضاح، يشبه بعض الشخصيات الزورانية Paranoid، الذين يؤسسون الفرق الدينية، وأعضاء الجمعيات الذكرية السرية. يحمل الرجال الذين يعانون من الاضطرابات السابقة-انحرافات، مطاردات تناسلية كاذبة، جنون العظمة-بعض الملامح المشتركة مع المنتحل الناضج. فهم يطالبون بممارسة النشاط الجنسي الذي يمارسه الراشد. ويشعرون بأنهم مؤهلون لأن يعاملوا باعتبارهم استثناءات أخلاقية وبذلك يحصلون على ترخيص بتحقيق التفوق على الآخرين من خلال تصرفاتهم الإخفائية.

قد تتكون درجة النصب عند بعض الأشخاص، رجالاً و نساء، من حوادث محدودة، بسيطة نسبياً لإخفاء الهوية أو تزييف الإنجازات. في هذه النسخ الأقل انتشاراً، نكتشف بشكل حتمي أن المخادعين يشبهون إلى حد بعيد المنتحل الماكر في أن عدم نضجه الأخلاقي والجنسي مخبوء تحت عباءة الترخيص النرجسي. ونكتشف عادة في قصص طفولتهم العنصرين الأساسيين في السببيات المرضية عند المنتحل الناضج: كان يُتوقع من الشخص أن يعكس المثل الأعلى المعظم لدى أحد الوالدين، وكان الوالد الآخرغائباً عاطفياً أو واقعياً.

بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى الأخص منذ مطلع الستينات، أخذ عدد الرجال والنساء الذين يعانون من هذا النوع أو ذاك من الاضطرابات النرجسية يتزايد بمعدل ثابت. ومع أن أولئك الأشخاص الذين يحتلون عندنا مايدعى بـــ "ثقافة النرجسية" ليسوا منتحلين دائماً ويمثلون صنفاً واسعاً من نماذج الشخصية، لكنهم جميعاً يظهرون ميولاً لجهة إخفاء هوياتهم وإنجازاتهم وإظهار الانحرافات في حياتهم الجنسية والأخلاقيةُ. ويمكن اكتشاف بذور هذه الاضطرابات المألوفة الآن في مرحلة الرضاعة، والطفولة الباكرة، ولكنها لاتثمر قبل أن يواجه الشخص المعضلات الجنسية والأخلاقية في المراهقة.

إذا كان علينا أن نضمّن أرقامنا الإحصائية كافة المشاهدين من ذوي الرغبة الشديدة الشاملة، ذلك الجيش الضخم من المحرضين الذين لايريدون شيئاً أكثر من التألق في المجد المنعكس للنرجسي الساحر، فقد ننتهي إلى أن يقوم أكثرنا، بهذه الدرجة أو تلك، بتهيئة البيئة الاجتماعية التي تنجح فيها الميول الاحتيالية. فعلى مرّ العصور، كان المنتحلون من

---

* كازانوفا جيوفاني (1725-1798): مغامر وكاتب ومقامر وزير نساء إيطالي-المترجم.

كافة الأنواع، ومنهم كيميائيون، ومعالجون دينيون، يعتمدون في نجاحهم على مشاهديهم. وفي أيامنا هذه يبدو أن المشاهدين جوعى إلى الإنقاذ بالسحر مثلهم مثل أي لورد أو قنٍّ في القرون الوسطى.

أنصاف المنتحلين، كالمعلمين الروحيين، والسحرة، والمعالجين بالإيمان، والغشاشين، والمزيفين، وسارقي المؤلفات، والإظهاريين، ومنحرفي اللباس، والكازانوفات، والمُضارّين، والزورانيين العظماء، وأحياناً المتصنّعين، كلهم مختلف أحدهم عن الآخر في الدوافع والسلوك، ويشاطرون المنتحل الحقيقي بعضاً من صفاته. ولكنهم قد لايشعرون بأنهم ملزمون بخداع الآخرين بزيف هوياتهم أو إنجازاتهم أو مواقعهم الاجتماعية إلا في بعض الأحيان. فعندما يكون هذا الإلزام اليائس هو القوة الرئيسية خلف فعل المخاتلة، عندئذٍ فقط يكون الساحر، أو المنتحل، أو المُضارّ مؤهلاً لرتبة منتحل ناضج. مع ذلك، يوحي مصير المنتحل بالمصير المشترك لأنصاف المنتحلين جميعهم ولكل أولئك الذين يكافحون لتحقيق مُثُلِ الطفولة المعظمة أكثر مما يعملون ببسالة على مواجهة حتميات الحياة العادية الواقعية.

يعاني المنتحل الناضج من وهن عميق في إحساسه بالهوية. فهو يعرف بأنه ليس هو ذلك الشخص الذي ينتحل هويته، لكنه يشعر بأنه **يجب** أن يكون شخصاً ما أعظم أو أسمى من المخلوقات البشرية التي باشر بخداعها. سلوكه مدفوع وتكراري. ووجوده بالذات يعتمد على نجاحه في الاحتيال. ولكي يصبح محتالاً ناضجاً يشغل نفسه كل الوقت مفضلاً ذلك على ممارسة خدعة في سبيل كسب اجتماعي أو مادي.

لايترقى الصبي إلى محتال ناضج بين عشية وضحاها. فهو يبدأ في الحضانة كمحبوب أفسده الدلال، ويصبح في صباه كذاباً وخدّاعاً، ومن ثم يصبح في المراهقة الباكرة محتالاً ماكراً. وكثيراً مايلجأ المراهق العادي إلى اختبار نفسه كمدَّعٍ. وليس غريباً إطلاقاً بالنسبة لصبي على أبواب الرجولة أن يحاول إثبات وجوده عن طريق التظاهر بأوضاع وأدوار عظيمة. فكل مراهق وراشد، ذكراً كان أو أنثى، سوف يقوم أحياناً بالتحايل على الآخرين لتحسين قضيته النفسية. ولكن الكذب، والخداع، والتحايل هي أنماط سلوكية يعتبرها المنتحل الناضج وسيلة للحياة. فهو يكذب حتى عند عدم وجود كسب عملي عاجل. وتتماسك هويته المتداعية عن طريق صور زائفة يقوم بفرضها على الآخرين.

هنا يصعب الحصول على الأرقام الإحصائية. ومالم يُلْقَ القبض على الصبي لعمل إجرامي اقترفه عرضياً في احتياله، كالتزوير أو الانتحال، فإنه من غير المحتمل أن يقع بين أيدي مؤسسات فرض القوانين بالقوة. أما اضطرابه فيكون كما لو أن ليس لديه دافع لطلب المساعدة النفسية. وفي الواقع، إن الفنان المخادع لايشعر بالتحرر من القلق إلا عندما يتورط في أفعال ماكرة. وينخدع والدا المنتحل الكامن ككل الناس الآخرين. فيساندان احتياله عن وعي أو عن غير وعي. ويُعجَب به كثير من الراشدين من أجل سحره البارع وتصرفاته الغريبة الموهوبة. ولكنك لو طلبت من معلمة أو موظفة أخرى في المدرسة أن تصف لك نموذج الصبي المراهق الذي يزعجها، فإنها سوف لن تشير إلى المشاغبين ومضايقي المعلمين، إلى مخربي الممتلكات واللصوص، إلى مدمني المخدرات والكحول، الذين يعبرون كلهم عن المعضلات الخطيرة التي يسهل التعرف عليها عند الأولاد المراهقين والذين يقترف أكثرهم هذه الأفعال الجانحة في مجموعات، مع استحسان ورعاية أندادهم. وبعد الاهتمام بهذه المسألة، سيبدأ كثير من المعلمين بالتحدث عن المحتالين، عن الفنانين المخادعين، عن الأولاد الذين يعملون منفردين، بمعزل عن الولاء لأية مجموعة، ولكنهم كثيراً مايلجأون بمكر إلى تحريض الانحرافات عند الآخرين من الأولاد والبنات.

يصاب الفنان المراهق المخادع بالارتباك لأن الراشدين في محيطه لايمكنهم أبداً أن يتحققوا تماماً من أنه غير موثوق. هذا الولد سوف يكذب، سيغش، سينتحل، ولكن من الصعب جداً تكوين أي دليل دامغ على أفعاله الجانحة. وحتى عندما تتحدث الحقائق بذاتها–البحث المؤلف من عشرين صفحة والذي نسخ كلمة كلمة من أطروحة قديمة يعلوها الغبار–فإن الولد سوف يسحب بمهارة أوراقه الرابحة: إعلان براءته بجرأة، احتجاجه بغضب على الظلم، تعليله بصورة عقلانية سليمة، مبرر المرض في الأسرة، أو، إذا كانت هناك ضرورة ملحة، اعتراف، واعتذار، ووعد بعدم تكرار العمل أبداً. ويصدقه أولئك المتورطون جميعهم، لأنهم يريدون ذلك.

المنتحل الهادىء بحق لايعمل على تزييف الحقائق ببساطة؛ ويبتكر سبلاً لحماية فعله. فهو نموذج الفضيلة في كل صنف إلا واحداً. ويقتصر في خداعه على ذلك الإطار الواحد بحيث ينجح المعلم الذي قد يضبط هذا الغبي وهو يغش بكشفه أمام جميع الآخرين من طاقم المدرسة. يسرق حلى أمه ونقود أبيه، ولكنه أثير لدى كل واحد هناك، في

المدرسة الداخلية. أو يقوم بذلك هنا وهناك بالطريقة الأخرى: أي أن يكون ملاكاً في البيت وكذاباً، ومجازفاً، ومزيفاً في المدرسة. لاريب في أن المحتال، بما هو عليه من هدوء، ليس قديساً ولا بطلاً مقداماً بل هو صبي غاضب، مذعور يجب عليه أن يتنكر لكي يحجب ذلك النكرة المثير للشفقة الذي يتخيل نفسه أنه هو. يهدف بمخادعاته إلى تعزيز وهمه في أنه شخص مقتدر، مقتدر جداً، في الواقع، إلى الحد الذي يمكنه فيه أن يخدع الراشدين الموجودين في السلطة. وبالمعنى الواسع، إنه يحاول أن يتخلص من تلك الاختلافات التناسلية والجيلية التي تجعله يشعر بعدم كفاءته. فخداع السلطات ومن ثم العمل على كشف ضعفها وإمكانيات هشاشتها هو واحد من الدوافع المركزية عند الصبي المنتحل.

المعلم الذي يرى من خلال قناع الوهم عند الصبي وينفخ صافرة الإنذار لايحظى بالاحترام لامن قبل الصبي ولا من قبل الآخرين من الراشدين. هؤلاء المخدوعون، حتى عندما يشكون في أنهم خدعوا، يرتعشون طرباً للمضي مع المخادع. ويستاؤون من أولئك المتعصبين الذين يحرمون المشاهدين بكشفهم للمنتحل من الإثارة التي تحدثها المشاركة. وعلى الرغم من صواب رأيهم، يكتشف المعلمون والآباء مرة أخرى، لابل للمرة الخامسة، أو العاشرة، أو للمرة الخمسين، بأنهم يثقون ويتسامحون مع هذا الفتى المتقلب وعلى الأصح الغلام الساحر. إن الاستعداد للتأثر العاطفي، كما يعلم المعلمون الروحيون، والوسطاء، والمعالجون الغامضون، ضروري لنجاح عملهم. ويتمتع مخلّصو الإنقاذ العاطفي بيقين أكبر، وأرصدة مصرفية أكبر، وأتباع متملقين أكثر من أولئك الأنبياء الحقيقيين الذين يوجهون أنظار الإنسانية نحو الحقائق الملحة للمصير والضرورة مع كل الحيرة التي تترتب على معرفة هذه الحقيقة.

المنتحل-الكذاب، المخادع، المحتال-ماكر، ماكر جداً حتى أنه لايمكن تعرية مخاتلاته إلا فيما ندر. إنه ذئب متوحد، مستغرق كلياً بالدور أو الأدوار التي يقوم بتمثيلها، وتحكمه وتستبد به ملاحقته للكمال. ينهض السلوكُ المدفوع عند المنتحل بدور هو واحد من عدة نسخ لخيال الرومانس عند الأسرة، وهو دور يجب أن يُمَثَّل مرة بعد أخرى. ولهذا الخيال الطفولي الشامل موضوع مركزي هو فكرة أن الطفل لقيط في أسرة فيها والدان مؤقتان. وينسج معظم الأطفال الصغار خيالاً من هذا النوع كمناورة دفاعية لتخفيف الإهانات وتهدئة المخاوف التي تولّدها الدراما الأوديبية. فالطفل العادي يتصور فقط أنه لقيط قام بتربيته والدان بالتنشئة هما بديلان لوالديه البيولوجيين الغائبين. ويتخيل فقط أنه

أروستقراطي غير معترف به في عالم دنيوي. وعندما يصل إلى البلوغ يتخلى عما كان يقوم به في مرحلتي الرضاعة والطفولة من إضفاء للمثاليات وبمرور الوقت يتخلى أيضاً عن رومانسه الأسري. لكن الكذاب، المخادع، المحتال عندما يصل إلى البلوغ يستغرق في خياله. وعليه الآن أن يعيش خارج سيناريو رومانسه الأسري الطفولي. فيصبح منتحلاً.

تنعكس أكثر سيناريوهات الرومانس الأسري نموذجية في أساطير أمير الضفادع، و دِكَ ويتينغتون، وبياض الثلج، وسندريلا، التي تُرَدُّ فيها الطفلة إلى حالة وضيعة ومرذولة، ولكنها بسبب صبرها، وصدقها، وكدّها، وطاعتها، ولطفها، وبراعتها، وأولويتها، إذا لم تكن جميلة فعلاً، يتم في النهاية إنقاذها، وتستعيد (للذكر والأنثى-المترجم) وضعها الشرعي كملك أو ملكة، أمير أو أميرة. كثيراً مايكون هناك في هذه النماذج البدئية للرومانس الأسري بضعة أشقاء يتنافسون لنيل الحظوة عند الوالدين، لكنهم بسبب وضاعتهم، أوكسلهم، أوخيانتهم، أوقبحهم، أو جشعهم يعاقبون في النهاية جزاء على أساليبهم الخبيثة ويطردون من المملكة-مالم يعلن الأمير الرحيم، الشفوق عفواً عاماً ويصفح عن إخوته الأقل حظاً وعن الساحر الذي عامله في وقت ما بقليل جداً من الشفقة أو الكرم.

ولكن نموذج الرومانس الأسري عند المنتحل نوع آخر من حكايات الجان. وحكاية "اللص المعلم" واحدة من هذه الحكايات. في هذه الحكاية، ينتحل شاب من أسرة فقيرة ووضيعة شخصية نبيل غني ويعود إلى المملكة، حيث مسقط رأسه، بعد سنوات كثيرة من التشرد في الأرض كلص معلم. ويقبل التحديات الثلاثة التي طرحها الملك: سرقة حصانه الأثير من الاسطبل؛ وسرقة ملاءة السرير من تحت الملك والملكة ونزع خاتم الزواج من إصبع الملكة أثناء نومهما؛ وثالثاً، خطف القس والقندلفت من كنيسة الملك. والموت شنقاً هو عقوبة الفشل في تجريد الملك من كنوزه الجنسية والأخلاقية ذات الأهمية العالمية. ولم يتحدث أحد أبداً حول أية جائزة. ويعرّض اللص المعلم نفسه لخطر الشنق لمجرد أنه يريد أن يثبت أنه أكثر ذكاء من الملك العظيم. وانسجاماً مع التقليد الروائي لحكايات الجان، ينجح في وضع الغشاوة على عيني الملك من خلال حِيَلٍ ثلاثٍ بارعة يصعب تصديقها. ولكن هل يتوصل اللص المعلم إلى الزواج من الأميرة؟ هل يعاد إلى مملكة مولده؟ لا. فالملك يدفع هدية لمهرّجيه الأذكياء لكنه يعمل بفطنة على التخلص من اللص المعلم. "إنك لص ماكر وقد ربحت قضيتك. في هذه المرة سوف تنجو بجلدك، لكن لاتحاول أبداً أن

تعود إلى مملكتي مرة ثانية. وإذا فعلت، فسيكون الشنق من نصيبك". ويعود اللص الماكر أدراجه من جديد إلى العالم الواسع ولم يسمع أحد عنه شيئاً بعد ذلك. وبما أن حكايات الجان هي الأساطير الأخلاقية لمرحلة الطفولة، فإن التنبيهات إلى خبث وجشع لص معلم ظاهر قد تستحسن بسبب براعته، إنما لايجب مكافأتها.

والنموذج الآخر الأصلي من حكايات الجان للرومانس الأسري عند المنتحل، هو ذلك الذي يتوافق مع رغباته أكثر من حكاية "اللص المعلم"، إنها الحكاية المألوفة عن "جاك وساق الفاصولياء". في هذه الحكاية، يتنكر اللص جيداً على أنه صبي بريء، ومطيع ولصوصيته ليست أخلاقية فحسب، بل هي قرار العقاب العادل والشرعي. رواية استغفال الراشدين هذه تشد الانتباه إلى جوهر إذلالات الطفولة عند المنتحل والنصر الوهمي الذي يسيطر على حياته. وجاك، كما نذكر، يعيش مع أمه الفقيرة الكادحة في كوخ وضيع. لقد توفي أبوه فخرج من ميدان المنافسة معه على عواطف أمه. وسرعان ماضاقت الحال بجاك وأمه إلى حد اضطرا معه إلى بيع ***البيضاء الحلوب***، وهي البقرة التي تقدم لهما على الأقل نصيباً يومياً من الحليب. وترسله أمه بثقة إلى المدينة لبيع بقرتهما الثمينة، وهي آخر مابقي لهما من ملك في هذا العالم. وجاك الصغير، الذي يظن في نفسه الحذق والمهارة، وقع بسهولة أسيراً للغش عندما قايض ***البيضاء الحلوب*** بحفنة من "حبات الفاصوليا السحرية". ويعود إلى البيت منتصراً ليظهر لأمه دليل تفوقه في المتاجرة، ولكنه لايواجه إلا الإذلال نتيجة لجعله يعرف بأنه أقل مهارة بكثير مما يظن. ويعتري أمه غضب شديد. فترشق حبات الفاصولياء من النافذة وتأمره بالذهاب إلىالسرير. ويمضي جاك إلى النوم مكسور الخاطر.

عجباً، انظر! وعندما ينظر جاك عبر النافذة في وقت متأخر من تلك الليلة، يكتشف أنه كان على صواب رغم كل شيء. فحبات الفاصوليا سحرية حقاً. رأى خارج نافذته ساقاً ضخمة لنبتة فاصولياء يرتفع إلى السماء ويدخل الغيوم. ويتحول الغش إلى انتصار. والآن يمكن لجاك فعلاً أن يثبت أنه جدير بثقة أمه وإعجابها.

المشهد الثاني هو نقمة جاك على أولئك الذين خدعوه. ويقرر أن يتسلق ساق الفاصولياء ويدخل مملكة العفريت. فيتسلق ويتسلق ويتسلق، فيصل إلى قلعة العفريت الخبيث الذي يلتهم كل من يتجرأ على انتهاك حدود مملكته. ولا بد أنه يستطيب خصوصاً صبياناً صغاراً بعمر جاك، عندما تقوم زوجته دائماً بطبخهم بطرق جديدة وممتعة. ولكن

جاك الذكي يخدع العفريت، الذي يتحول، رغم زمجرته الصاخبة المرعبة، إلى لاشيء أكثر من نفّاج، كسول، مغفّل، أحمق. وبمساعدة زوجته، التي تستثني جاك لسبب ما (ربما هو الإثارة التي يخلقها التواطؤ في جريمة) وتنخدع به، يقوم بتجريد العفريت من أثمن مقتنياته-ليس في مرة واحدة، بل في مرات ثلاث. ففي أول مرة يسرق حقيبة الذهب التي يملكها العفريت، وفي الثانية الإوزة الذهبية التي تبيض بيوضاً ذهبية، وأخيراً قيثارته الذهبية الصدّاحة. تغني القيثارة لتحذير العفريت، ولكن بعد فوات الأوان. ويتسلق جاك ساق الفاصولياء نازلاً حاملاً غنيمته. ويلاحقه العفريت في مطاردة ساخنة. وبشق النفس يصل في اللحظة الحاسمة إلى سلام البيت. فيأخذ بلطته ويقطع ساق الفاصوليا. فيرتطم العفريت الجبار بالأرض. أما وأنهما أصبحا يملكان حقيبة الذهب، والإوزة التي تبيض بيوضاً من ذهب، والقيثارة الذهبية، فلم تعد هناك من حاجة تدفع جاك وأمه إلى القلق بعد الآن. وتعود نظرة الإعجاب إلى عيني الأم.

كل خداع هو الشرعة التي اشترعتها أسطورة جاك وساق الفاصولياء، هو المظهر المجدد لرومانس الأسرة. فيجب على المنتحل أن يعمل مرة بعد مرة على خداع الآخرين بشخصيته وإنجازاته الزائفة لكي يحافظ على توهمه بأنه ليس صغيراً وليس عديم الأهمية، وأنه جدير بإعجاب أمه، وأنه، علاوة على ذلك، مؤهل لخداع أبيه، للإطاحة به، لتجريده من سلطاته. ومع أن كثيراً من المراهقين ينهمكون في إعادة تمثيل السيناريوهات العاطفية الطفولية بحيث يقوّمون ظلامات الماضي، لكن تمثيل دور المنتحل مصمم لتحقيق نصر وهمي. فالمنتحل هو اللص المعلم الذي يمنح نفسه ترخيصاً أخلاقياً بممارسة الظلم رداً على ظلم كان أنزل به.

كان علم النفس وقصة الطفولة عند المنتحل قد جمعا من بعض الحالات السلوكية عند منتحلين ناضجين، من قصص القضايا الأكثر وفرة عند أنصاف منتحلين عرضيين، من سيَرِ المنتحلين المُشَهَّرين ومن الروايات الخيالية لمنتحلين أو شخصيات شبيهة بهم. وبما أن الفنانين المبدعين يشعرون بوجود صلة ما مع الروح الممزقة للمنتحل، لذلك فإن شخصيته تثير فضولهم. في المصادر الأدبية، كما في رواية ***اعترافات فيليكس كرول*** لتوماس مانّ، ***المحتال*** هو ترجمة المنتحل الخيالية والمستحسنة والواضحة جداً. وكما قال مانّ عن روايته، " هي من حيث الجوهر قصة فنان؛ فيها ينتقل عنصر الوهمي والزائف بصراحة إلى الإجرامي". مع ذلك، ليس هناك مايدهش فيما لو استطاع

مانّ أن يفهم بدقة عقلية المنتحل، خصوصاً وأنه كاتب انهمك بالمخادعات الفنية، بالتمويهات البارعة للطبيعة، بجذب انتباه الفنان إلى الفساد وسوء السمعة، بالتأثير المخاتل للسحرة، للمعلمين الروحيين، للمعالجين بالإيمان، لموجهي التحرير السياسي على جماهيرهم.

وكوّن مانّ صورة منتحل في الطفولة، والمراهقة، والرجولة الباكرة يحمل شبهاً كبيراً بالصورة السريرية التي كوّنها بمشقة المحللون النفسيون الذين عملوا مع هؤلاء المرضى بدون أن يستفيد من النظرية النفسية الرسمية والتعويل بصورة رئيسية على الذكريات الغامضة للمتشرد الروماني مانوليسكو. والتحفظ الوحيد المسجل على رواية كرول (التي كتبت بصيغة المتكلم) هو أنه لايمكن للمنتحل الحقيقي أن يتمتع بمثل هذا التبصر الدقيق في ديناميات النفسية. خداع المنتحل وسطحيته، دافعه نحو استمرار التكرار، عدم تحمله للإحباط، إحساسه المتداعي بالواقع، كل هذا سوف يحبط أية قدرة على مراجعة وتجديد بناء قصة حياته الخاصة. إن فقدان الارتباط العاطفي بالماضي الواقعي ***شرط ضروري*** لعقلية المنتحل. طبعاً، لايمكن للمرء أن يتأكد تماماً، عندما يقرأ رواية كرول حول طفولته ورجولته، فيما إذا كانت حوادثها قد حدثت بالفعل أو أنها محاولة تخيلية لتحويل المهانة إلى نصر. وسوف نرى بأن كرول وجاك، في حكاية ساق الفاصولياء، يستحقان لقب "منتحل ناضج".

تنشأ شخصية المنتحل، وفقاً للتركيب التحليلي النفسي، من نموذجين أصليين للسيناريوهات الطفولية التي، وإن اختلفت في أكثر التفاصيل الخارجية، تنتهي إلى إضعاف الهوية والضمير. وللمنتحلين من كلتا الخلفيتين الطفوليتين موقف من الحياة يعلن: "ارتكبت الطبيعة بحقي خطأً كبيراً. والحياة مدينة لي بالتعويض، وسوف أسعى للحصول عليه. وفي سبيل ذلك قد أرتكب ظلماً لأنني تعرضت للظلم". يمكن توقع هذا الموقف الانتقامي من واحد من نموذجين، نموذج أولئك المنتحلين الذين ولدوا وهم يحملون عيوباً جسدية و/أو عقلية والذين جرى تجاهلهم، والحط من قدرهم، ونبذهم، وعوملوا بخلاف ذلك معاملة جائرة من قبل أحد الوالدين أو كليهما. وهناك عدد لابأس به من أكثر المنتحلين ذوي السمعة السيئة ممن لديهم مثل هذه القصة في الطفولة.

تيتوس أوتس المنتحل المشهور، واحد من مدبري المؤامرة البابوية في عهد شارل الثاني، والرجل الذي أعلن البابا حرمانه على الملأ، ولد مشوهاً، إحدى ساقيه أقصر من

الأخرى، وكان مصاباً بالاختلاج. اعتبرت أمه، وكـانت قابلـة، أن ولادة ابنهـا أسـوأ حـدث عرفته حتى ذلك الوقت، واعتبره أبوه، وهو "قس ذو ميول وضيعة"، بشـعاً جـداً حتـى أنـه رفض أن ينظر إليه أبداً. وهناك منتحل آخر هو تتشبورن كليمنت، شاب أمي من أستراليا، حصل في أواخر القرن التاسع عشر على الشـهرة، والـثروة، وسـجن لادعائـه أنـه وريـث ثروة تتشبورن، ذلك الوريث الذي فقد منذ فترة طويلة، ولكنه لم يكن سوى الابـن الأصغـر لجزار "عنيف" وأم "متواضعة"، وكان مصاباً بتشوه ولادي في أعضائه التناسلسة. لقد كـان خنثوياً كاذباً.

وبدون الإمعان فـي الرجـوع إلـى النظريـات حـول تطـور الضمـير وهويـة الجنـس المذكرة، فإن سليقتنا تتيح لنا أن نقدر إلى أي مدى يمكن للأذى المبكر والمتطاول للسـلامة الجسدية والقدرة الكلية عند الصبي أن يدفعاه لالتماس التعويض عن طريق الارتفـاع فـوق البدايات المعيبة وذلك في أن يصبح شخصاً أو أشخاصاً غير الشـخص الحقـير الـذي كـان جرى التعامل معه عن طريق الصدفة. حتى ميله للانتقام قد يمس عندنـا وتـراً شـفوقاً. ألـم نتعاطف مع جاك وهو يسرق من عند العفريت؟ ومن منا لم يلجأ في لحظة أو أخـرى إلـى لوم الطبيعة أو القـدر لأنـه لم يهبـه مزيـداً مـن الفوائـد؟ نحـن نشـعر بأننـا مؤهلـون لتقويـم الأخطاء التي ارتكبـت بحقنـا. وبالتـالي نتعـاطف مـع غلوسسـتر ليصبـح بسـرعة ريتشـارد الثالث النذل، عندما يندب مصيره، "مزيف الهيئة عن طريق إخفـاء الطبيعـة،/أرسـلت قبـل أواني مشوهاً، وغير مكتمل/إلـى هـذا العـالم اللاهـث، قلمـا يكتمـل النصـف،/وبعـرج كبير وغير مألوف/حتى الكلاب تنبح علي عندما أظلع بقربهم".

مع ذلـك، فـإن الحـالات الموصوفـة للمنتحـل تشـبه، فـي حـالات كثـيرة جداً، قصـة الطفولة الموفقة لفيليكس كرول. يقول كرول، "كنت أسمع في أكثر الأحيان من شفاه والديّ بـأنني طفل أحدي Sunday child، ومـع أننـي تربيـت علـى نبـذ كـل شـكل مـن أشـكال الخرافة، لكنني كنت أفكر دائماً بأن هناك سراً مهماً في تلك الحقيقة المرافقة للعلاقـة باسـم معموديتي فيليكس ... ورقتي وجـاذبيتي الجسـديتين. وكنـت أظـن دائمـاً بـأنني أثـير الحـظ والسماء، وإجمالاً، يمكنني القول بأن التجربة قد سـاعدتني". نمـوذج المنتحـل الـذي نعـرف الكثير عنه هو على شاكلة فيليكس، طفل الحظ الموهوب، الطفـل الجميـل، الابـن الشـاطر، الصبي الرضيع الذي هو المحط التام للنظرة المدلهة للأم. وهو، فيما يتعلـق فقـط بـالظرف الخارجي، يحمل، كما يبدو، شيئاً مشـتركاً بينـه وبيـن المنتحليـن الأقـل تميـيزاً مـن الناحيـة

الظاهرية، هو البرود الواقعي أو العاطفي بينه وبين أبيه. لماذا يريد صبي منحته الطبيعة كل مزية فيزيائية وعقلية أثناء المراهقة وما بعدها، وهو الأثير المدلل لوجود أمه، أن ينتحل هوية شخص آخر؟ ماهي الظروف التي تحيط بحظه السعيد الجدير بالاعتبار والتي ستقوده لأن يعلن "لقد ظُلِمْت ولذلك يحق لي أن أمارس الظلم".

في هذه المسألة الثانية، النموذج الأصلي الأكثر انتشاراً لشخصية الصبي هو ذلك النموذج المُنَمَّط بدئياً بواسطة رابطة وثيقة جداً بأم شغوف يعمل حبها الإغرائي، التملكي لرضيعها الرائع الموهوب على إضعاف قدرته على تكوين إحساس ثابت بالانفصال عنها. صحيح أنه لايبقى امتداداً تاماً لها بل يصبح تقريباً الانكسار العاكس لمثلها الأعلى المبجل حول الذكورة. ويسهم في صعوبة انفصال الصبي عن الأم غياب الأب أو الأب غير الفعال عاطفياً. بعضُ المنتحلين هم رضّع يتيمو المولد-ولدوا بعد وقت قصير من وفاة الأب. وفي حالات أخرى، مات الأب أثناء مرحلة الرضاعة عند الطفل، أو كان هارباً، أو بعيداً باستمرار في أسفار عمل، أو أنه كان يفضل أطفاله الكبار من الذكور، أو مشوه السمعة من قبل الأم، أو أن يكون هو بالذات مدّعياً من النوع السيء للأهمية الاجتماعية والمالية. وعندما يخرج الصبي من مرحلة الرضاعة، يكون الأب بالنسبة له مازال غير موجود كهدف يتعلق ويتقمص شخصيته. ولهذا السبب أو ذاك، يقضي الصبي بعدئذٍ مرحلة رضاعته وطفولته الباكرة في أسرة "عديمة الأب" من الناحية العاطفية. فلا يصدف أن يتطفل أحد على علاقة الأم-الرضيع ويؤكد مبادىء القانون والنظام الاجتماعيين. وفي أحسن الأحوال، يُسمَع "صوت الأب" على نحو خافت. وعندما لايمثل الأب ولا الأم بالنسبة له المبادىء الأخلاقية للنظام الاجتماعي، يمكننا أن نتوقع بأن حسه الأخلاقي سيتابع خضوعه لتحجر المحظور والمسموح في الحضانة. وأخلاقية الحضانة مالم تخضع لتوافقات الطفل الأكثر شمولاً مع السلطة الوالدية، فإن القيم، والمواقف، والاهتمامات تتعرض بسهولة وبشكل حتمي للفساد. علاوة على ذلك، وكما يمكن أن نتوقع، إن الحس الأخلاقي عند المنتحل بالفساد أكثر شمولاً وأقل تعرضاً أيضاً للتأثير التصحيحي في مرحلة البلوغ مما يكون عليه الضمير في حالة القهم.

لـ "غياب الأب" بالنسبة للطفل الذكر عقابيل كارثية أكبر مما هي بالنسبة للبنت. ومع أن المثل الأعلى للأنوثة عند القهمة هو صورة كاركاتورية للمُثُل العليا_الأنثوية، والمحظور، والمسموح عند الأم، فإنها تستفيد على الأقل من علاقة عاطفية هادفة مع

الوالد من الجنس نفسه. فيكون لديها أساس ما للمقارنة بين الأم الحقيقية والمثل الأعلى الذي تنقله. ولكن عندما لايعرف الطفل إلا نتفاً ورقَعاً عن أبيه، فإنه لايمكنه أن يكون إلا صورة مرقوعة عن الذات المذكرة؛ وبدون أب في حياته يتقمص شخصيته، لابد له من أن يبني هويته الجنسية بالكامل على مثل أعلى مذكر نقلته أمه.

القصد أنه لايوجد شيء هام يعتبر مثلاً أعلى حقيقياً للذكورة وأنه يمكن للأب فقط أن يقوم بنقله. وعلى الأصح، عندما تحمل الأم معنى ملغزاً للذكورة، يصبح غياب الأب تعقيداً بالنسبة لاكتساب الطفل معنى اختلاف الجنس. ويميل معنى الذكورة الذي ينقله الوالد نفسه (الأم)، والذي ينقل أيضاً معنى الأنوثه، لأن يكون اكتساباً مختلفاً عن معنى الذكورة الذي ينقله الأب. فعلى سبيل المثال، المثل الأعلى الشائع للانتهاك بوصفه ذكرياً -لكي تكون صبياً يجب أن تكون شقياً- عندما ينقله الأب سوف يقود الطفل إلى جماعة من الأنداد مثلها الأعلى ارتكاب الأذى. والانتهاك يحسّن، علىالرغم من الشك في ذلك، مشاركة الصبي في العالم الاجتماعي. ولكن هذا المثل الأعلى عندما تنقله الأم، فإنه يقود إلى نشاطات الذئب المتفرد عند الجانح كالانتحال، مع توقف التكيف الاجتماعي.

يحتمل، في غياب شخصية الأب، أن يتقمص أيضاً كثير من الرجال المنحرفين، والمجرمين، ومتكلفي العظمة المثل الأعلى الأمومي الممجد للذكورة. ولكن هناك بالنسبة للمنتحل المستقبلي، الذي يقدر لهويته المذكرة أن تكون هوية هشة، ملمحاً إضافياً، هو الملمح الذي ينذر بصورة مباشرة أكبر بالتوجه النوعي نحو الانتحال. تشجع الأم خصوصاً -وأحياناً الجدّان، والأشقاء، والمربيات أيضاً- الصبي الصغير على الظن بأنه المخلوق الأكثر جاذبية في العالم. وتُطرى هذه الظاهرة الطفلية دائماً بخصوص مواهبه في المحاكاة والتقليد -قدرات طبيعية بالنسبة لمعظم الأطفال ممن هم في الثانية والثالثة من أعمارهم. يعمل الساحر الصغير على نشر البهجة في نفوس مشاهديه الحساسين بصوره الكاريكاتورية "الذكية" للراشدين المقتدرين، للجنود، ورجال الشرطة، وأعضاء الأسرة المالكة، ونجوم السينما، والشخصيات الهامة الأخرى. يصف فيليكس كرول نفسه كطفل تخيلي قدم لأسرته بأعماله الفذة في التقليد كثيراً من صنوف التسلية والمتعة.

جالساً في عربة مشيي الصغيرة، التي تقوم مربيتي بدفعها حول الحديقة أو ردهة البيت، أسحب فمي إلى الأسفل بقدر ماأستطيع بحيث تتمطط شفتي العليا على نحو غير طبيعي وأفتح عيني وأغمضهما ببطء حتى تحمرّان وتمتلئان بالدموع نتيجة

لضغط الانفعالات وشدتها. غارقاً بالاحساس بعمري واعتباري، أجلس صامتاً في عربتي الصغيرة، ومربيتي تتلقى التوجيه لكي تخبر كل من نلتقي به من أنا، ومنذ ذلك الوقت رحت أستاء من عدم الاكتراث بتخيلي. كانت تعلن "أصطحب قيصر إلى النزهة"، وترفع يدها مفتوحة إلى جانب رأسها في تحية خرقاء، وعندئذٍ يعبر كل واحد عن ولائه لي.

أما المهارات الأخرى التي يستمد منها الرّضّع والدارجون تعويضاً كبيراً في الإتقان، كتناولهم للطعام بأنفسهم أو ارتداء الملابس بدون مساعدة، فإنها تثبّط بفعالية. فيحظى سيادته بالدلال والتسامح، ويعامل كدمية رائعة لايتوقع منها أكثر من أن تفتح فمها لكي تأكل، لتسلم جسمها الفاتن للتنظيف والتزيين. تتنبأ الأم وأي شخص آخر بحاجاته الفيزيائية ورغباته، فيسعون إلى تلبيتها قبل أن تتهيأ له لحظة للمعاناة من أي استياء أو تشوق. فهو ليس بحاجة لتحريك عضلة أو القيام بأي مبادرة أو ممارسة الاستقلال. في هذا الجو من التكريس الرِّقّي، الذي يُقدَّم فيه كل شيء بدون شرط وبدون توقع أي مقابل، ترتبط النرجسية والسلبية بالنجاح.

بالمقارنة مع أبيه الغائب، ينقاد الصبي إلى الاعتقاد بأنه أكثر فتنة، وسلطة، وإثارة، وأكثر جدارة بالعبادة، والإعجاب. ويتقبل تدريجياً الانطباع العام السائد في الأسرة بأنه قادر أكثر من الأب على إشباع احتياجات أمه العاطفية والجنسية. ويتصور، بدون القيام بإجراء اختبارات الواقع، بأنه قد تغلب على الأب. وليس هناك نزاع، ولا منافسة، ولا مضاربة. ومن غير أن يحرك عضلة، بل بمجرد الوجود ومجاراة تصور الأم حول من هو، يسلب أباه بصورة سحرية وفي الواقع من سلطاته. والواقع، أنه عندما يتعلق الأمر بالمسائل التناسلية، يكون الصبي غير واف بالغرض أبداً. وسواء كان أو لم يكن محط إعجاب وأهمية أكثر من أبيه، فإنه ببساطة لايملك الشيء الذي به يصبح الشريك الجنسي لأمه.

لايمكن لقيصرنا الصغير أن يبتلع هذه الهزيمة بسهولة. إنه استيقاظ عنيف، تنفيس مدمر لطموحاته النرجسية المنفوخة بشدة. المعاناة من فقدان الحظوة عند صبي عادي أقل إثارة، ويمكنه أن يعوض عن هذه الخسارة بتبنيه جزءاً، على الأقل، من سلطة أبيه وقيَمِه. وتتفاقم عند المنتحل المستقبلي عدائيته نحو أبيه (سواء كان ميتاً أو على قيد الحياة، غائباً أو حاضراً) عن طريق استحالة أي تقمص إيجابي له. يمكن للصبي، في بعض الحالات

المعلنة، أن يقلد وينافس مظاهر مختارة عند والده، لامبادىء سلطته، بل تلك المظاهر الخارجية والسطحية لقوته-صوته المرتفع الاستبدادي، تظاهره بالعظمة، استهانته بالإنسانية العادية، تفوقه في فن البيع، سروره بتكدس الزبائن الواحد فوق الآخر، تفاخره في تمجيد الذات-الصفات إياها التي سترعى النصب عنده فيما بعد.

ومن خلال تقمصه (أو ربما تقليده، وهو الأكثر احتمالاً) للمعتدي، ينجح الصبي في تهدئة بعض من القلق الهائل الذي يتولد كنتيجة حتمية لاغتصابه الوهمي لسلطة أبيه. ولكن ورطته يجب أن تُحَلّ أساساً بطريقة استثنائية جداً. فنرجسيته تعتمد على احتفاظه بتفوقه، ولكن رغبته في احتلال مكان الأب، الذي يُظَن، بسبب غيابه العاطفي، أنه عفريت شرس، مفترس، يعزز مخاوف الانفصال والخصاء، التي تعتبر نموذجية في هذا العمر، ويحركها بعنف إلى حدود لايمكن التحكم بها. والخيار الوحيد القابل للحياة بالنسبة للبطل المريب هو أن يستحضر في خياله من جديد قدرته الكلية التي كانت له في أيام رضاعته عندما كان الرابح الذي لايبز، الامتداد النرجسي للمُثُل الممجدة عند أمه. فهو في ذلك لايمثل تحدياً حقيقياً لأبيه في حين أنه يمكنه، في الوقت نفسه، أن يحافظ على توهمه في أنه مايزال ملكاً صغيراً.

وهكذا يعمل الآن رومانس الأسرة الذي ينتهي إلى السيطرة على وجود الصبي على إنقاذ نرجسيته ويحميه في التخيل من المخاوف التي سترافق، لولا ذلك، أي تنافس أو تزاحم مع أبيه. وعلى الرغم من انتصاره البطولي الكاذب على العفريت، سيعود المنتحل مرة إثر مرة إلى الظروف التي كانت سائدة قبل اليقظة الأوديبية عندما كانت الأم واحدة من آلهة جبل أولمبوس ويشاطرها الصبي امتيازاتها الخاصة وحبها غير المشروط. وهو كمراهق، سيشعر بأنه معافى، سليم، مُكَمّل، آمن فقط عندما يتحقق له النجاح في جعل العالم يستجيب له-لاعلى أساس أي إنجازات-يهمل ملاحقتها-ولكن على أساس مثال الأنا الذي يمجده. سيكون منافساً خفياً لايواجه أبداً التحديات الحقيقية للرجولة؛ يمكنه أن يعبث بالحياة إلى مالا نهاية ولا يعيشها أبداً بشكل واقعي.

المناورات والاحتيالات المتأخرة المستبطنة عند الصبي هي لاتوازنات استثنائية في العناصر الثلاثة للنرجسية. فالقدرة الكلية تخضع إلى مصير مشؤوم. والقدرة الكلية للإيماءة والفعل التي قد تكون عززت طموحاته لكي يتقن مهاراته الحقيقية في عالم حقيقي، جرى تثبيطها بفعالية من قبل أمه المدلّهة. وبالمقابل، يكون قد جرى تحفيز وتعزيز

إشارات التمثيل والتقليد، أي موهبة الصبي لكي يكون كل شيء وأي شيء تريد له أمــه أن يكونه. لاتنزلق القدرة الكلية عادة عند الرضيع وتمجيد الأم العاكس لقدرته الرائعة إلى مكان لتبادل المنافع خال من الثغرات. ومع أن كل رضيع هو إلى حد ما امتداد نرجسي للأم، فإن معظم الأمهات والآباء يدركون مخاطر الاستغراق النرجسي في الذات. وينبهون أطفالهم من الإفراط في حبهم لأنفسهم. فيحذرون من الغرور، ويقيدون الخيال، ويطالبون بالامتثال للقيم الأخلاقية في العالم الواقعي. يمكن للأم أن تكون فقط في الأشهر القليلة الأولى من الحياة مرآة للنرجسية الاستثنائية عند رضيعها. وحتى في هذه الحال يكون حبها غير مشروط. فالمرآة تتأرجح جيئة وذهاباً.

ولكن عندما تكون مرآة القدرة الكلية الممجدة هي كل مايملكه المرء، وعندما يعتمد وجوده الكلي وسلامته على تقمص الآخر الكلي القدرة، عندئذٍ سيولّد التهديد بالانفصال عن الآخر المستجلي لذاته مخاوف شديدة. وسوف تعمل مشاعر العجز المرعبة هذه على كبح مظاهر الخبرة الذاتية التي يستمدها المرء من مبادرته واستقلاله الفطريين. ومن الأفضل أن يؤثر جانب الحذر، أن يستحضر ذاته إلى المدى العاكس للآخر. وبالتالي لاتتهيأ أبداً فرصة كبيرة أمام القدرة الكلية الطفولية عند المنتحل لكي تلطفها توقعات الواقع القاسي.

وبقدر مايتعلق الأمر بحبه الجسدي واحترامه لذاته، فإن تدليل الأم المغري، ومداعباتها، وإطراءها، كل ذلك يدفعه أكثر فأكثر إلى ذرى الإظهارية. فجسده حلوى شهية (النوع ذاته الذي يفضل العفريت تناوله)، برج رائع من الكمال مصمم لغرض وحيد هو أن يُطعَم، ويحظى بالإعجاب والتزيين. كيف سينظر صبي صغير إلى هذا التشجيع الخيالي لقدرته الكلية وهيامه الجسدي، وهو الذي لابد له من أن يكتشف عاجلاً أو آجلاً بأن جسمه الخاص بالمقارنة مع جسم الرجال الراشدين ليس أكثر من جسم صُغير، تافه، معرض للأذى؟

وهكذا يصبح الاختلاف بين الشخصية التي يفترض فيه أن يكون عليها والشخصية التي هو عليها فعلاً كبيراً جداً بالنسبة للتوفيق بين الشخصيتين. فينظر إلى قضيبه المصغر، الذي يفترض فيه أن يكون أكثر سحراً وأهمية من قضيب أبيه، ويصاب بالانكسار نظراً لما يجده عليه في الواقع من ضآلة وتفاهة. وسواء كان المنتحل الكامن مشوهاً جسدياً أم لا، فإنه يشب على قناعة راسخة بأن جسمه، وخصوصاً أعضاءه التناسلية، هي أقل شأناً ومعيبة. ولكن الخيال يعود من جديد لإنقاذ قيصر الصغير:

"لايمكنني أن أكتم عن نفسي بأن تكويني كان من مـادة أسمى، أو، كمـا يقول النـاس، مـن طينة فاخرة، ولا تخيفني التهمة بالرضا الذاتي في قول هذا. فـإذا اتهمنـي أحدهم بالرضـا الذاتي، فإنني لاأبالي أبداً بهذه التهمة، لأنني لابد أن أكون مغفلاً أو منافقاً إذا زعمت بـأنني من مادة عادية، ولذلك، واعترافاً بالحقيقة، أعود وأكرر بأنني من طينة فاخرة".

يدرك الصبـي الصغير بسرعة، يشجعه كونـه امتداداً أولومبيـاً لأمـه، أن الحقيقـة والوقائع، أي المظـاهر الواقعيـة للأشياء، يمكن بـل يجب فـي الواقـع تجاهلهـا واسـتبدالها بالتخيلات والأوهام. المقدمـة المنطقيـة للتقدم فـي هـذا العـالم هـي نجـاح المـرء فـي عمـل مخادع، العبث بالمشاهد، الذي سيرحب هو نفسه مبتهجاً لأنه خدع. عندما يُحَبُّ المرء إلـى درجة العبادة لأنه الذات التي لايمثلها، فإن الذات التي يمكن أن يمثلها تكون قد ضاعت في الفوضى. ولن تتوفر لها أبداً فرصة للنمو. يواجه المنتحل الحياة بصورتين متناقضتين عـن ذاته: الذات الحقيقية، الرثة، السيئة النسـج والـذات التخيّلـة التـي تحجبهـا. إن الخـبرة التـي يعلقها الوجود الكلي للمرء على قدرة المرء في أن يزيف ذاته أمام نفسه تولّد عداء واستياء جسيمين نحو الآخر النرجسي. وبقدر مايكره الصبي أباه لأنه جرّده مـن موقعـه الشـرعي، فإنه يحتقر أمه المدلّهة أكثر من ذلك بسبب مخادعتها القاسية. ولن يمر وقت طويل قبل أن تُتَرجَم رسالة "اخدع المشاهدين!" إلى "اخدع مشاهديك!"

يشترك الفنان والمنتحل ببعض الصفات: مواهب خاصـة فـي التقليـد، توتـرات بيـن الذات العادية الحقيقية والذات المشعوذة السحرية، افتتان في التنكر. ولكنهما يختلفـان تمامـاً في نظرتهما للواقع ومواقفهما من مشاهديهما. فالفنان يتناغم بشكل رائع مـع منـاظر العـالم الطبيعي، وأصواته، وحركاته، ويستخدمها كوسط لنتاجاته الفنية. أما المنتحل فيظلم الواقع. فهو يقلد فقط بقصد التزييف ولا يهتم بتصوير ماهو واقعي. وهـو، بعـد مرحلـة الرضـاعـة المكرسة للتزييف والتخيل، بالكاد يدرك القوانين التي تحكـم الحقيقـة. فهـو مثـل جـاك قـاتل العفريت، يعرض نفسه للمخاطر التي يفضل الصبـي العـادي المـدرك أن يعرفهـا علـى أن يجربها.

فهم المنتحل للواقع ناقص كهويته. يعتبر الفنان تقليداتـه الرائعـة، بالنسبة لمشـاهديه، هدية حب للعالم؛ أما المنتحل، فعلى العكس، لأنه يتوق فقط إلى تحقيـق البهجـة النرجسـية. ولدى المنتحل، الذي لايسـتطيع إلا بمشـقة إخفـاء كرهـه واحتقـاره لمشـاهديه، هـدف واحـد مدفوع، هو استعادة مركزه الشرعي، والإطاحة بوالده والحلول محله مرة إثر مـرة. وكمـا

جُرِّدَ سابقاً من منزلتـه الأولومبيـة، فإنـه سيعمل الآن أيضـاً علـى تجريـد الأولومبيين مـن سـلطتهم–إنمـا ليـس عبر مسلك الإنجـاز الحقيقـي أو المهـارة الحقيقيـة المحفوف بـالخطر والمهانة.

من سوء الحظ، بالنسبة للمنتحل المقبل الذي قلما تتغير ظروف حياته باتجاه تمـاس حميم مع صورة أب موثوقة وسلطوية، أن تستمر عنده خداعات أيام الحضانة بكامل قوتهـا علـى مـدى سنوات الكمـون. فيُخلِّد الـدور الثميـن لمحبـوب الأم. ازدراؤه لهـا لاإرادي. وسيتحدث عنها كمخلوق رائع، جميل. ويقوم بأي شيء لإدخال البهجة إلى نفسها. حتى أنه قد يلجأ إلى تقليد زيها في اللباس وتسريح الشـعر. ولكنـه سـوف يخدعهـا عندمـا تتهيـأ لـه الفرصـة. فيرهن مجوهراتهـا لشـراء السـترات، والأحذيـة، وأدوات الـتزلج، ومضـارب التنيس، وقفـازات البيسـبول الغاليـة الثمـن–أي أداة أو قُنْيَـة تخلّـف انطباعـاً عنـد الصبيـان الآخرين حول ثرائه الخيالي ومنزلته الرفيعة. ليسـت لـه صداقـات حقيقيـة أو مستقرة، بـل زُمَرٌ متقلبة من المعجبين الحساسين. ويعوض نفسه لقـاء وحدتـه غيـر العاديـة عـن طريـق إقناعها بتفوقه.

> في الواقع، يبدو لـي صبيـان البلـدة بليدين ومحدوديـن، لأنهـم لـم يشـاطروني براعتي وبالتالي كانوا يجهلون الأفراح السرية التي يمكنني أن أستمدها منهـا بفعل إرادي بسيط، بدون جهد وبـدون تحضيـر ظـاهري. ولا ريـب فـي أنهـم كانوا أترابـاً عـاديين، خشـني الشـعور، مضرجـي الأيـدي مـن آثـار الجريمـة، ويتحملون عناء إقناع أنفسهم بأنهم كانوا أمراء–ويبدون لي سخفاء جداً.

وعندما يتوجب عليه الذهاب إلىالمدرسة، يكون مهيأ تقريباً لتبني أي دور يمكـن أن يرضي معلميه أو يؤثر على مشاعرهم باستثناء دور الصبي الذي يقوم بعمل حقيقـي. فهـو قلق، مدفوع إلى التباهي، غير قادر تماماً على الخضوع للنظام فـي غرفـة الصـف. وبـدلاً من أن يواجه منافسة العمل المدرسي والامتحانات، يقوم بالتسكع في أرجـاء المـنزل، لعلـه يتأكد من أنه مايزال موضع استحسان وإعجاب. وتلمز أمه بصيغة تآمرية إلى تقليده الرائع لآلام المعدة وتقرحات الحلوق. وطبيب الأسرة، الذي قد يكون أدرك عدم كفاءته لتشـخيص الأمراض الغامضة عند الصبي، يقوم مختاراً بمجـاراة المخادعـات. وفـي حـالات كثيرة، يحتاج مثل هذا الصبي إلى تحصيل تعليمه الأساسي فـي البيـت مـن قبـل أسـاتذة يحصلـون

على أجور سخية أو من قبل أمه المتساهلة. ويجتاز دراسته الثانوية بالغش، وتقديم الرشوة للأطفال الآخرين لكتابة وظائفه، متودداً إلى معلميه، متغيباً عن المدرسة بدون استئذان، مزيفاً إشعارات الغياب. وهو يحظى بالإطراء والإعجاب مع أن وظائفه المدرسية تبعث على الحزن ولا يبذل جهداً لتحسينها. ويستخدم عقله، وخياله، ومواهبه التي كثيراً ماتكون جديرة بالاعتبار، لإتقان تزييفه وخداعه.

ومع مجيء البلوغ، يبدو الأمل بمحاولة المنتحل لإثبات وجوده كرجل حقيقي كسحابة مشؤومة. ففي حين تعمل إشارات الاقتراب من الرجولة، ولو جزئياً، على إعادة تطمين معظم الصبيان المراهقين، يرفض المحتال، المنتحل الكامن عن وعي التخلي عن التخيلات وأحلام اليقظة التي عملت حتى الآن بشكل رائع على تعزيز نرجسيته وساعدت على تماسك إحساسه المتداعي بهويته. وفي حين يبدأ المراهق العادي بالتخلي عن الرومانس الأسري الذي يخفف من خيبة أمله بوالديه الواقعيين ويساعده على تحمل عار الهزيمة الأوديبية، فإن المنتحل الكامن، عند وصوله إلى البلوغ، لايتمسك بهذا التخيل بشكل أكثر تهوراً فقط ولكنه يقوم بدراسته وتنقيحه. ويبدأ بتمثيل السيناريو في حياته اليومية.

ويمضي الكذاب والغشاش، المحتال، في طريقه لكي يصبح منتحلاً. والسمات التي تميز المنتحل هي التشبث بتخيل الرومانس الأسري، وتسربه الشامل إلى خلول المراهق. يفرض البلوغ صياغة جديدة لاعكوسة للرغبة الجنسية فيها يتوجب التخلي عن الوالدين كهدفين لها. كما يجب التخلي عن إضفاء المثاليات الطفولية التي تقدس قدرتهما. وعندما يصل المنتحل إلى البلوغ يكون متيقظاً تماماً إلى رسائل محرم سفاح القربى. وتتثبت بالقوة في الحيّز الجسدي. فيبشر الجسم النامي عن طريق شعر العانة، وتضخم الخصيتين والقضيب، والقذوف المنوية بالنشاط الجنسي وإمكانيات الإنجاب. وتعمل المنبهات الهرمونية على تشجيع الرغبات التناسلية والتخيلات الشبقية التناسلية. فيعلن النظام الاجتماعي بحدة بأنه لايتسامح بانتهاكات المحرّم. وفي سياق الحوادث، بالنسبة للمراهق العادي، تكسب الواقعية المعركة ببطء ولكن بثقة. أما المنتحل، الذي لم يكترث أبداً برسائل الواقعية، فإنه لاينوي التخلي عن الماضي، مع أنه يكتشف أيضاً طريقة للخضوع لمحرّم سفاح القربى.

وعلى ضوء بضعـة نجاحـات هنا وهناك وتبديلات طفيفة في سياق القصة، يصبح تخيل الرومانس الأسري الذي عمل على إنقاذه سابقاً في الطفولة الباكرة هو الاستراتيجية الرئيسية لمشكلة الانتقال عند المنتحل. الرومانس عادة هـو تعبير عن أشواق الطفل إلى الأيام السعيدة المنصرمة عندما كان أبوه يبدو له من أنبل وأقوى الرجال وأمه من أغلى وأبهى النساء، ويفي أيضاً بالغرض كتسوية رائعة بين مساعي سفاح القربى عند الطفل ومحرّم سفاح القربى. إن إدراك الطفل لوالديه ككائنين جنسيين يتنكر دفاعياً بقناع النبالة المجردة من الصفات الجنسية التي يمثلها والداه "الشرعيان". وفي الوقت نفسه، ولكونه أصبح غريباً بالنسبة لأسرته بالذات، فإنه يعمل على حماية أبيه من رغباته العدوانية التنافسية وحماية نفسه من علاقة أبيه في حين يسلك سبيل الإبقاء على رغباته اللاواعية تجاه أمه.

لاشك في أن تسويـة ما كانت قد تحققت في خيال الطفولة عند المنتحل. ولكن خياله عمل على تعزيز حلٍّ أكثر نكوصاً، فكان عليه أن يدخل مرحلة أوديبية كاذبة مبتسرة ولكنها إجهاضية، مع انسحاب سريع من التحديات العاطفية لأي علاقات أوديبية عملية–نوع من محاولة بارعة لتفادي محرم سفاح القربى. وتنجح هذه التسوية في جعله غريباً في أسرته الحقيقية: "علي أن أخلص إلى أنني لاأدين بالكثير إلى الوراثة؛ ولكن لو لم يكن لزاماً علي أن أفترض بأنه في مرحلة ما غير محددة في التاريخ كان هناك شذوذ في شجرة أسرتي ضمت بموجبه فارساً ما، نبيلاً عظيماً ما بين أسلافي الطبيعيين، لكنت مضطراً لتوضيح مصدر أحقيتي في تفحص ذاتي من الداخل".

خيال المنتحل يتيح له أن يتخلى عن أي مزاحمة أو منافسة مع والده في سبيل العودة إلى مركزه الأساسي كقيصرٍ صغير مسلّم به في مملكة بدون أب. والخيال أيضاً يقصي الرغبة عنده في ادعاء الحق بالأم جنسياً عن طريق استبدال تلك الرغبة بأخرى سليمة مجردة من الصفة الجنسية لكي تأتلف مع مثلها الأعلى الممجد عن الذكورة. هذا الخيال لايستبدل الأب بوصفه شريكاً جنسياً للأم، بل يقتصر على الإطاحة به وتجريده من كنوزه–يجرده رمزياً من تفوقه التناسلي. ونظراً لعدم وجود استخدام إضافي عنده للغنائم، لذلك يكتفي بامتلاكها فقط.

يواصل المنتحل في المراهقة، عن طريق ترجمة الخيال إلى فعل، اجتناب محرم سفاح القربى وتفادي التحديات العاطفية للانتقال. ويعلن في كل عملية نصب "أنا غريب

في أسرتي". ومع كل عملية نصب يستعيد مكانه الشرعي، ويجرد أباه من سلطاته، ويصوغ نفسه وفقاً للصورة التي يحبها أكثر -المثل الأعلى الممجد المنقول له عن طريق أمه. فراره الرمزي من أسرته الحقيقية لايقصي الرغبات السفاحية الشديدة بالأقرباء، بل يعوقها فقط.

وبغض النظر عن المدى الذي وصل إليه في تجواله، وعدد المرات التي انتحل فيها هوية أخرى، وتزييفه لإنجاز آخر، وعدد النساء أو الرجال الذين أغراهم، وعدد المرات التي فتن فيها مشاهديه، وكم مرة جرد فيها معلميه ورؤساءه من سلطاتهم، فإنه يمكن أن يبقى بريء الحضانة، الذي لاضرورة إلى حسابه بأية طريقة فعلية مع الاختلافات بين الجنسين أو الاختلافات بين جيله وجيل والديه.

المراهق العادي وُطَاني، يحن إلى أرض الشبع الضائع-الطرق العامة السعيدة التي سلكها ولا يمكنه أن يسلكها من جديد-لكن حياة المنتحل في حد ذاتها رحلة لانهاية لها على امتداد الطريق العام في مرحلة الرضاعة. فهو لايحتاج إلى المعاناة من الحسرة، أوالحزن، أو القلق، أو الوُطَان، ولا حاجة به إلى التعرف إلى الطبيعة اللاعكوسة لفقدان الماضي الطفولي. ويتفادى، من الناحية الفنية، سفاح القربى لأن تمثيله لخياله ينجح في استبدال التضخيم النرجسي للرغبة التناسلية وفي نقل الوالدين الحقيقيين رمزياً على اعتبارهما هدفين لتلك الرغبة. ولكنه يتخلى أيضاً عن تحويل الحب- الرغبة إلى أي مكان آخر. وتغدو علاقاته الغرامية المتعددة مع النساء أوالرجال عبارة عن تجديدات لتمثيل رومانس الأسرة ولا شيء أكثر من ذلك. أما مشاهدوه فهم على أتم استعداد فقط لتعزيز خياله. واحدة من عشيقات كرول تتوسل إليه أن يقوم بسرقة مجوهراتها التي قدمها لها زوجها المقتدر ذو السمعة المشوّهة، السيد هوبل، صانع مراحيض الحمامات في ستراسبورغ. فتقول، "ماأثمن اللص في نظري، إنه أثمن من الشيء الذي يسرقه!"

ليس هناك إمكانية لوجود علاقة حب ثابتة عند المنتحل. فحياته تستمد حركتها وتوجهها فقط عن طريق أفعاله المتكررة في استغفال المشاهدين والعبث بهم. فهو بهذا المعنى، يشبه إلى حد بعيد أولئك الأشخاص المنكودين، المصابين بالزَّوَر، الذين أضاعوا كرب وحزن الانتقال عن طريق قلب الحب-الرغبة إلى كره وازدراء. يمكن للمنتحل أن يكون مصرفياً، أو جنرالاً، أو مدير مؤسسة متحدة، أو قاضياً، أو أستاذاً في علم النفس، أو

سياسياً، أو فيلسوفاً (وربما كل هؤلاء). ولكن أن يحرم من أدواره في الانتحال، فإنه سيظهر كرضيع مهان، حانق، ضعيف، عاجز-الذات المعذبة التي لاتتوفر أمامها أبداً فرصة للنمو. وهو ناسك عاطفي، معزول كلياً عن فوائد الحياة العادية، إلا من أحلام يقظته، وتكرار لحظات البهجة والنصر عندما يعيش مثله الأعلى الممجد للرجولة. والحق أنه متحرر من تلك الروابط التي لاحصر لها والتي تربطنا بالآخرين فتثقل كواهلنا بالهم والأسى. إنه يحلق فوق العالم بطموح حقيقي وقدرة حقيقية. وهو لايحتاج إلى التعامل مع "إزعاجات المباشرة بالتوسط، كونه ضحية، التعقل مع الربانيين، الذهاب إلى الأعراس والمآتم، البدء بشيء ما ثم الإشارة عند مرحلة معينة بأنه انتهى". ولكن حمله، الذي لابد أن يكون أكبر من الحياة، يجب أن يُحمل وحده، بدون معونة أو مؤاساة من قبل الآخرين؛ لأن عبئه، إذا توخينا الدقة، هو سرّه.

المنتحل خلال المراهقة ذئب متوحد. فهو لايدين بولاءات لمجموعة، ولا يستجيب لاستثارات *الفن الشبقي* عند امرأة شابّة، ولا ينهمك في المثاليات الاجتماعية، ولا يهتم بالآخرين أو يشفق عليهم. ويكتشف كرول طبعاً وسيلة بواسطتها يجعل من توحده فضيلة: "... حذّرني في مطلع شبابي صوت داخلي من أن الارتباط الوثيق، والصداقة، والرفقة لايجب أن تكون قدري، بل يجب أن ألتزم بدلاً من ذلك بمتابعة سبيلي الغريب وحيداً، معتمداً بصورة تامة على نفسي، مكتفياً ذاتياً إلى أقصى حد".

تحول النرجسية الاستثنائية عند المنتحل الاستراتيجيات التي يستخدمها المراهق العادي في سعيه نحو الرجولة إلى نجدة واضحة. ففي عملية تجريد أبيه من الصفات المثالية، يختار لعبادته ضرباً من أوثان جديدة يمكن لها أن تعزز احترامه لذاته-نماذج طاهرة وورعة إضافة إلى نماذج قاسية وإغرائية. أما وأنه يقوم الآن بتهديم معايير أبيه وسلطته، فإنه يبالغ ويغالي في قدرات أوثانه الحالية. وعندما يقوم شاب عادي بالرقص على موسيقاها، وقراءة مواعظها وشعرها، ومراقبة انتصاراها في ميدان التمثيل أو على شاشة التلفزيون، فإنه يندمج بذاته مع هذه الشخصيات اللامعة فيستعيد بذلك مافقده من قدرة كلية وحب للذات عندما كان قد بدأ يدرك نقائص أبيه. ويتماثل مع هذه الأوثان الإغرائية، المثيرة، اللامعة، المقتدرة ويشعر موقتاً بأنه أفضل قليلاً في عدة مواطن من الشخص الناقص الذي يتخيل أنه هو. وفي النهاية يتقبل أباه كما هو في الواقع، ويبدأ يشعر بشيء

من الشفقة على نفسه وعلى الآخرين. لقد تم ترويض مثال الأنا الممجد الذي يخص مرحلة الرضاعة-أو بالأحرى تم نحته- إلى حجمه الإنساني.

أما المنتحل فلا يمكنه أبداً أن يروض مثال الأنا لديه، لأن وجوده بالذات يعتمد على تمثيل مطالبه على أرض الواقع. إنه يلجأ أحياناً إلى إضفاء صفات مثالية على الآخرين، ولكن طموحه المدفوع يخدعهم ويحتبلهم. ففي كل مرة يعبث فيها بمشاهديه، تندمج طموحات الأم وطموحاته في إشارة واحدة. لايمكن أبداً تجريد والد المنتحل من الصفات المثالية، لأنه دائماً يجب اختياره لدور عفريت الحضانة المخيف إنما الذي يسهل خداعه.

بما أن المراهق غضٌّ، غرٌّ، رقيق الإحساس، وسريع التأثر إلى حد مفرط، تراه يلجأ إلى توظيف طاقاته في أحلام المجد وأوهام القدرة الكلية. فتدفعه هذه الأحلام والأوهام إلى الاعتقاد بأنْ لاشيء مستحيل، وأنه يمكنه أن يفعل أي شيء، ويحل كل معضلة، ويتحكم كلياً بنفسه ومحيطه. وتتناسب غطرسة مشاريعه ومضارباته أحياناً مع عجزه عن إنجاز أي شيء. فطموحاته إلى الاقتدار المطلق هي بحجم إحساسه بالعجز وعدم الكفاية. ويحثه دفق الحيوية التناسلية إلى تمثيل كل دور من أدوار الكوميديا الإنسانية. وعندما يكون بمقدوري أن أكون أي شيء أريده، فإنني لاأحصر تخيلي حول من أكون بذلك الشخص المحدود الهشّ الذي يفترض أنه أنا. وحينئذٍ أكون كمراهق عادي، مثلي مثل أي منتحل، طموح إلى الشهرة والمجد.

ولكن هذه الاستراتيجيات النرجسية هي استراتيجيات موقتة عند معظم الصبيان، وتساعد الصبي على تحمل الكروب العاطفية الناتجة عن توديعه للطفولة. وهي في الواقع أفعال استحضار تلتفت إلى الماضي، إلى مرحلة الرضاعة، إلى أيام جنة عدن. ولكن استحضارات المراهق هي أيضاً رؤاه للمستقبل. فالمراهق النموذجي يتطلع إلى نموه. وحنينه إلى الماضي تعبير عن كل مايجب أن يتركه وراءه في طريقه إلى الرجولة. فهو يصبو إلى الماضي لأنه بدأ يدرك بأن ذلك الوقت لايمكن أن يعود وأن الماضي قد ذهب بدون رجعة. كثيراً ماتعمل هذه الأشواق إلى حالة الكمال الضائعة على تعميق الوعي الاجتماعي عند المراهق وتثير لديه بعض التأملات حول كيفية تحسين المصير الإنساني. ومع أن الماضي والمستقبل يتنافسان من أجل السيادة، فالمستقبل عموماً هو الذي يفوز. وهنا تعود مثاليات مرحلة الرضاعة إلى الموضوعية وتتحول إلى مثاليات اجتماعية.

لاوجود للمنافسة عند المنتحل وأمثاله. فلا تنشب معركة بين الماضي والحاضر. ذلك لأن حياة الخيال هناك محسوسة أكثر من حياة الواقع. فما من شيء يقدمه العالم الواقعي يمكن مقارنته على نحو إيجابي بالمثل الأعلى الذكوري الذي نقل إليه في مرحلة الرضاعة. زد على ذلك، أن المنافسة الحقيقية والإنجاز الحقيقي محفوفان بالمخاطر، إنهما أكثر خطورة من الاحتيال، والتزييف، والتزوير، والسرقة، ومخادعة العفريت الجبار. قد يتحتم على المرء أن يبدأ من القاع. وقد يحتل المرتبة الثانية أو الثالثة أو ربما يفشل أحياناً. وهو، بعد كل ذلك العمل الجاد والمثابرة، قد لايفوز بجائزة نوبل أو يصبح رئيساً.

كثيراً ماتقف عقدة جائزة نوبل عائقاً في سبيل ملاحقة الشاب للرجولة ، على الرغم من أنه لايصبح منتحلاً. شباب من هذا النوع أيضاً كانوا معززين في الحضانة. ويمكن لطموحات الأم بخصوص ابنها أن تغني طاقاته العاطفية وتلهمه النُهى والإبداعية. ولكن اقتناع الصبي الصغير بأنه هدف الحب الكامل لأمه، وشعار طموحاتها "الذكورية" الخاصة التي لم تتحقق، ومركز وجودها، يمكن أن يعمل في حالات كثيرة جداً على حرمانه من التحالف مع أبيه. وسواء شاء الأب أم لم يشأ أن يتغيب عاطفياً، وسواء عملت الأم فعلاً أم لم تعمل على الحط من قدر الأب، فإنه قد يصبح في ذهن الصبي الصغير صورة قليلة القيمة ولا أهمية لها. يحدث هذا ببساطة نتيجة لمبالغة الأم في تركيزها عليه.

يشب الطفل مستاء من أبيه لأنه لم يعمل على إنقاذه من تبعياته الطفولية. وفيما بعد، أثناء المراهقة، ينفجر الاستياء والحط من قدر الأب على شكل حطٍّ من قدر المجتمع ككل. فينبذ عالم الرجل، عالم أبيه، لكي يواصل حياته في ظل الطموحات الممجدة لدى أمه– الطموحات التي تعطل الإنجاز. ويصبح الفتى عبقرياً بدون التزام وبدون منصب، يصبح راسكولنيكوف ما، عدمياً، شاباً يمنعه ازدراؤه للتقليد والمسؤولية الاجتماعية دون تحقيق مواهبه الحقيقية وطاقاته العقلية الكامنة. فيؤثر الفرار.

تتعزز هذه الأنواع من العوائق على طريق الرجولة عندما تتطابق قيم اللحظة الاجتماعية السائدة والقيم التي نقلت إلى الصبي في مرحلة الرضاعة. والمجتمع دائماً هو الذي يفرض إلى حد ما محتوى المثل العليا الوالدية. فتخيلات الأب والأم حول طفلهما تنسجم دائماً مع مختلف المواقف المنسجمة مع جنس الوليد التي يؤمّنها المجتمع. والمؤسسات الاجتماعية تعمل دائماً على توجيه الميول الفردية النرجسية نحو مثل أعلى

مشترك. ولكن عندما يكون النظام الاجتماعي نسخة مقاربة للمثل العليا الممجدة في حياة الحضانة عن طريق تثمين المجد، والهيبة، والقوة، وتحقيق الذات، والتعظيم الشخصي أكثر من الإنجاز الواقعي والالتزام بمثل مجردة، فإن الدافع عند الفتى أو الفتاة لتعديل أحلام المجد يكون ضعيفاً جداً. مع ذلك، ولكي يصبح أي فتى راعياً ومشرّعاً، يتوجب عليه أولاً أن يعمل على حلّ المشكلة الشخصية المرتبطة بطريقة تعديل حياة الإمكانية اللامحدودة مع حياة الإمكانية العملية. بعض المشكلات الخاصة بالوصول إلى الرجولة أو النسوية هي مشكلات شخصية تنشأ من العلاقة بمختلف محاورات الحب التي تسود حياة الأسرة من مرحلة الرضاعة إلى مرحلة المراهقة. أما المشكلات الأخرى التي يجب على الفتى أن يتقبلها فتنشأ من قيم المثل العليا للنظام الاجتماعي، التي قد تكون، بالنسبة لما ندعوه ذاتنا الحقيقية، زائفة كأي مخادعة في حياة الحضانة.

12

تركات المراهقة

القَهِمَة والمنتحل ذئبان متوحدان. يظنان أنهما استثناءان مفوضان بالعمل خارج حدود السلطة الأخلاقية للعالم الإجتماعي الذي يعيشان فيه. مهمتهما ليست معادية للمجتمع، بل هي شخصية فقط. ليس لديهما متسع في الحياة لأنواع العواطف التي يمكن أن تربطهما بالكائنات الإنسانية الأخرى. فهما يحلقان فوق العالم العادي، ضائعين في مملكة الإمكانية اللامتناهية حيث يتفاديان إزعاج شكوك الالتزام بالعالم الواقعي. وحيث يمكنهما العبث بالحياة دائماً. وهما لايحتاجان إلى النماء لكي يضطلعا كراشدين بالمسؤوليات الجنسية والأخلاقية. ومن وجهة نظر التاريخ الشخصي، فإن قدرهما الوحيد هو إلى حد بعيد مسألة *الكرامة*، وهي الخيلاء التي تدفعها روح حسودة. فالمثل العليا الممجدة التي نقلت إليهما في مرحلة الرضاعة لم تروض، لم تنحت إلى حجوم إنسانية ولم تكيّف بحيث تتلاءم مع حياة المعقولية.

مع ذلك، تتحدث إلينا القهمة والمنتحل في الوقت نفسه عن إنسانيتهما. ويعلنان بعظمتهما الأنانتية* Solipsistic تميزهما عن الكائنات تحتهما على السلم الطبيعي. فلأي شيء عملا خلاف ضمان هاتين القدرتين المحتومتين اللتين يتعذر تغييرهما-الخيال والدافع نحو الكمالية-وهما ديناميتا الحضارة اللتان قد تعملان في الوقت نفسه على التخريب والإبداع، والإفساد والتحسين، والتهديم والتعمير؟

يقول روسو أن كل الحيوانات الأخرى، عدا الإنسان، آمنة من مخاطر الخيال ولذلك فهي تخضع لأوامر الطبيعة. فالخيال هو نور العقل الإنساني. وهو الذي يرشدنا للخروج من الظلمة التي تلفنا الطبيعة بها. ومن جهة أخرى، يمكن للخيال أن يكون عدواً هائلاً لسعادة الإنسان. فهو يضخّم شهيتنا الطبيعية إلى أشواق لاتشبع. ويضفي على الأهداف التي نرغبها جاذبية أكبر بكثير مما صممته الطبيعة لها. ويدفعنا، عن طريق إثارته

* الأنانة solipsism: القول بأن الكائن الوحيد الذي أستطيع الاتصال به هو "أنا"-المترجم.

للرغبة، إلى مقارنة أنفسنا بالآخرين. فنشعر بالإهانة لأن للآخرين ممتلكات ومتعاً لانملكها. والتباين بين العالم الواقعي بجوانبه العملية وشروطه، وعالم الخيال الذي لاحدود له، يزيد من شقائنا ويجعلنا نستاء من مسؤولياتنا تجاه الآخرين.

قد نشعر في عزلة التخيل بعواطف دون نتائج؛ لهذا يمكن أن نعبث بالحياة بدون أن نعرّض أنفسنا لأية مخاطرة؛ ونجد متعة بالغة في مشاعرنا من غير توريط لعواطفنا. فالتخيل يعفينا من التجربة المباشرة؛ ويصبح بديلاً للفعل. وأخيراً، يمكن للتخيل أن يهيّج أشواقنا من أجل الكمال إلى الحد الذي نفقد معه أرواحنا في ملاحقة طموحاتنا ومثلنا العليا: "لقد فسدت أرواحنا بقدر تقدم علومنا وفنوننا باتجاه الكمال. فهل يمكننا أن نعتبر هذه المسألة بمثابة نكبة خاصة بجيلنا؟ لا، أيها السادة: فالشرور التي يسببها الفضول الفارغ قديمة قدم العالم.... الفضيلة تختفي حال ظهور برق تلك الشرور في الأفق، وقد لوحظت الظاهرة نفسها في كل زمان ومكان".

فيما يخص هذه النقطة، كان روسو يشير إلى فقدان الشاغل الاجتماعي بين تلك العقول المثقفة التي كانت مسؤولة عن تقدم الحضارة. "عندنا علماء طبيعة، وهندسة، وكيمياء، وفلك، وعندنا شعراء، وموسيقيون، ورسامون؛ ولكن ليس لدينا مواطنون". ففي كل زمان ومكان يترابط السعي المصمم وراء الكمال باغتراب الذات، ليس فقط عن طبيعتها الخاصة بل أيضاً عن العواطف التي تربط الأفراد بالجماعة والآخرين. ومع حركة التنوير الفلسفية، عندما بدأ الفنانون، والعلماء، والفلاسفة تقريباً يتلمسون طريقهم نحو الأفكار والرؤى التي يمكن أن تطوق الثورة العنيفة التي أثرت عليهم تقريباً، كان روسو أول من عرّف ***الاغتراب*** على أنه المأزق المشترك بين بني الإنسان. وتنبأ بأن الحضارة الأوروبية كانت على حافة انفجار سياسي، واجتماعي، وتكنولوجي قد يقود البشرية إلى "حافة الجحيم"، وفي ذلك السياق استخدم كلمة ***حداثيّ*** كما فهمها القرن العشرون. فالمأزق المزمن للاغتراب سيصبح حاداً. وتصبح مسألة كيف يمكن للذات أن تبقى على قيد الحياة بعد صدمة التحديث هي المعضلة الأخلاقية المركزية للعالم الحديث. وسوف تتضاعف انحرافات الخيال وتحسين الذات التي صورها روسو وتصبح هي الأمراض البدئية الطراز للعالم الحديث.

من وجهة نظر التاريخ الاجتماعي، القهمة والمنتحل إذن ليسا استثناء. فهما يمثلان كافة الأرواح الممزقة "التي يبدو دائماً أنها تنسب كل شيء للآخرين ولا تنسب أي شيء

أبداً إلا لذاتها فقط". ويشبهان كثيراً أو قليلاً أية ضحية من ضحايا التجديد: "نهيم على مدى مجرى حياتنا، وننهيها دون أن نتمكن من تحقيق انسجام أنفسنا مع أنفسنا وبدون أن نكون طيبين لامع أنفسنا ولا مع الآخرين".

لكي تكون إنساناً يعني أن تكون فريسة لتخريبات الخيال. ولكي تكون إنساناً يعني أن تكافح في سبيل الاكتمالية. وتتمثل المعضلة بالنسبة للعالم الحديث بكيفية حشد هذه الملكات التي يحملها العقل الإنساني من أجل الصالح العام. قد يعمل الخيال على تحويل المصلحة الذاتية إلى فضيلة اجتماعية. وقد تتطابق المثل العليا التي نكافح من أجلها مع الكرامة الأخلاقية. وكما رأى روسو، فإن هذه الملكات الإنسانية نفسها قد أتاحت للإنسان أن "يرتفع فوق نفسه؛ ويحلق فكرياً إلى طبقات سماوية؛ ويعبر اتساع الكون بخطوات عملاقة كالشمس؛ وما هو أضخم من ذلك وأكثر صعوبة، أن يعود إلى ذاته ويدرس الإنسان ويعرف طبيعته، وواجباته، وغايته.

والرحمة نفسها، وهي التي تتدفق منها كل الفضائل الاجتماعية-الكرم، التسامح، العدالة-لايمكن تصورها بدون الخيال. وفعل الخيال الأكثر أهمية هو قدرتنا على معاناة مايعانيه الآخرون. فالبشر وحدهم، من بين كافة المخلوقات، هم الذين يمكنهم أن يضعوا أنفسهم في موقع الكائنات الأخرى، فيشعرون بما يشعر به الاخرون، ويعانون مما يعانون، بل ويفهمون أيضاً معنى تلك المعاناة. هذه الوثبة الخيالية من التجربة الذاتية إلى تجربة الآخرين هي إلهام القاعدة الذهبية المثالية التي توجهنا لكي نعكس معاناة الآخرين وكأنها معاناتنا نحن. "يرثي المرء لحال الآخرين فقط من أجل تلك الأمراض التي يشعر بأنه ليس مستثنى منها."

لكي تكون إنساناً لابد لك من أن تعتمد على الآخرين. وحب الآخرين هو شبكة الأمان بالنسبة للوجود الإنساني. ولهذا تصبح محاورة الحب، بعد الولادة مباشرة، أكثر أهمية عندنا من إشباع الحاجات الجسدية. وهكذا نتخلى عن قدرتنا الكلية الفطرية ونُخضِع رغبتنا إلى مناسيب النظام الاجتماعي. "كل ارتباط هو دليل على القصور. فلو لم يكن كل منا بحاجة إلى الآخرين، لكان بالكاد فكّر بالارتباط بهم. وهكذا تولد سعادتنا الهشة من ضعفنا بالذات". قد نعاني هذه التبعية على أنها إذلال، خضوع عبودي يعتمل في نفوسنا ويوجهنا بعيداً عن إنسانيتنا المشتركة. ولكن الخيال يعوضنا عن خسارتنا لحريتنا المطلقة. فيؤمن لنا مزايا حياة أخلاقية عن طريق توجيه مشاعرنا، وعواطفنا، ورغباتنا، وتفكيرنا

إلى المأزق الإنساني المشترك. نحصل بدلاً مما نتنازل عنه من حب بريء لأنفسنا على أمان ومتعة انتمائنا إلى كلٍّ أكبر. لقد ولدنا تابعين، ولكن الخيال وحده هو الذي يمكن أن يربط عواطفنا بالكائنات الإنسانية الأخرى.

ويمنحنا الخيال أيضاً كرامتنا الأخلاقية. فعندما يصبح صعباً علينا تحمل إذلالات التنازل، يساعدنا الخيال على استحضار عالم يلائم بدرجة أكبر حبنا لأنفسنا. فيرفعنا إلى تلك العوالم فوق الواقع، فوق المتعة، حيث يتم اجتياز الجسور واستبعاد التناقضات. فنتخيل العالم المُخيِّب كمكان أفضل وأكثر انسجاماً مما هو عليه في الواقع. بدون الخيال والمُثُل التي يغذيها سوف لن نتحمل عن طيب خاطر التضحيات التي يستجرها انتماؤنا إلى عالم الآخرين. وقد نخضع، ولكن على مضض. عندما لايكون هناك شيء نعيش من أجله أكثر من الجنس، والعمل، والإنجاب، والامتثال الأخلاقي، وعندما لانجد شيئاً أبعد من حقائق ومتع اللحظة، ولا أمجاداً ماضية تستحضر، ولا مُثُلاً مستقبلية نقذف بأنفسنا نحوها، تصبح الالتباسات الموجودة بين الروح الإنسانية عند الفرد ومستلزمات الحضارة نزاعات لاتقبل التوفيق بينها.

أصبحت العلاقة الملتبسة بين الفرد والحضارة، كما تنبأ روسو، المعضلة المركزية في العالم الحديث، وغدا الاغتراب الداء الشائع الذي يعاني منه الرجال والنساء في هذا العصر. وقد تشبث بهذه المآزق كثير من الكتاب المعاصرين من أمثال كانط ونيتشه، وماركس وكيركغارد، وتريلنغ، وليفي شتراوس. وفي كتابه الحضارة وسلبياتها (1929)، يضع فرويد في اعتباره العقبات في سبيل السعادة الإنسانية. ويذكر ثلاثة مصادر لامفر منها لتعاستنا المشتركة: ضعف أجسامنا، المقضي عليها بالبِلى، والعالم الطبيعي، "الذي قد يثور ضدنا بقوى تدميرية ساحقة لاترحم"؛ والقيود التي تربطنا كأعضاء في الأسرة، والدولة، والنظام الاجتماعي. يسلّم معظمنا بحتميات المصدرين الأولين لتعاستنا. ونعتبر أن تقدم الحضارة يهيء لنا تخفيف الآلام التي تعتري أجسامنا وتهوين تلك التي تصيبنا من لامبالاة العالم الخارجي. أما العلاقات التي تربطنا بالآخرين، وتربكنا، فهي المصدر الثالث لشقائنا. ويبدو أن الثمن العاطفي الذي ندفعه لقاء هذه العلاقات المتبادلة أكبر من فوائدها بكثير. فحرياتنا تُنتقَص، وعواطفنا ورغباتنا تُكبَح، لابل ويجب التخلي عن بعضها بصورة تامة.

ونقبل بالفكرة القائلة بأننا بسبب تصريفنا للحياة اليومية وفقاً للقواعد المرعية سوف نكافأ على تنازلاتنا. فنتوقع أن نستعيد من خلال الحياة الأسرية والعمل بعضاً من الإمكانيات المتخيلة التي تنازلنا عنها مقابل مزايا انتمائنا إلى عالم الآخرين. وننتظر أن تعمل الحضارة، في الأقل، على توفير الحماية لنا من ضروب العنف الموضوعية للطبيعة ومن الوحشية الأنانية لجيراننا. ولكن التشكي الشائع في هذه الأيام هو أن الحضارة بالذات هي سبب كل شقائنا، وسنكون أكثر سعادة لو أننا أسلمنا أنفسنا للقوانين الموضوعية للطبيعة.

يتحدث تاريخ العالم الحديث عن تزايد عداء الأفراد للحضارة. وأصبحت التشكيات الآن مألوفة بما فيه الكفاية. فمع كل خطوة على طريق تحسين المصير الإنساني، تعمل الحضارة على تعميق نزاعنا مع الطبيعة. وفي قرننا الحالي، يبدو أن المكتشفات العلمية التي أطلقت عمليات التحديث قد عملت أخيراً على تغريبنا عن طبيعتنا الإنسانية بالذات. وقد بدلت مكتشفات داروين وآينشتاين بصورة جذرية علاقتنا بالكون. فانتهكت حرمة كل ماكان مقدساً. ولا يمكننا أن نوطّن أنفسنا على قبول الحقيقة المهينة في أننا انفصلنا عن العالم إلى الأبد.

نجم عن تصنيع الإنتاج تحويل المعرفة العلمية إلى تداول سريع للتكنولوجيا. وتستخدم قوانين الطبيعة لفصلنا عن بيئتنا الدنيوية. ونشأت بيئات جديدة بسرعة مفاجئة وعنيفة، في حين راحت القبائل، والمجموعات العرقية، والأمم تنسحب من مواطن أسلافها وتنتشر إلى أراضي الأجانب. وتزايدت درجة نشاط الحياة فتحولت إلى هياج مسعور. ففقدنا إيقاعات الزمن والجيل. وجرى تقليص التاريخ إلى عقود. فرحنا نقيس حياتنا باليوم، والساعة، والدقيقة. وتعطلت أيضاً استمرارية الحياة اليومية نتيجة للاضطرابات الدائمة في علاقاتنا الشخصية. كل شيء ملغز ومثير. وكان ماركس قد أدرك ذلك في القرن التاسع عشر، "تؤدي مخترعاتنا وتقدمنا، فيما يبدو، إلى فيض من القوى المادية والحياة الفكرية وإفساد القوة المادية للحياة الإنسانية ".

وفيما يخص أمراض الحالة الفيزيائية عندنا، أوجدت الحضارة حالة كرب عقلي من تصميمها الخاص. لا شك في أن الأدوية والتكنولوجيا الطبية قد عملت على تخفيف وشفاء الأمراض، وخفضت بشكل هام معدل الوفيات بين الأطفال وأخماج الولادة عند النساء، وأطالت مدى الحياة. ولكن لولا الإفراط في تنقية الغذاء، وتعقيدات الإسكان الحضريّ،

وعدم منطقية المهن الجلوسية، وجشع الاستهلاكية، والفراغ المخدر للحياة الحديثة، لكنا أقل حاجة للأطباء أو أدويتهم. وقد قال روسو في القرن الثامن عشر بأننا تسببنا لأنفسنا بـ "أمراض أكثر مما يمكن لعلم الطب أن يؤمن أدوية لها".

أما الأدوات التي ألهمنا خيالنا اختراعها فتمثل تحسيناً لإحساساتنا الطبيعية المحدودة، وقوتنا العضلية: النظارات، مُعِينات السمع، التلسكوب، المجهر، الهاتف، السيارة، الطائرة. وهذا مادفع فرويد إلى القول "أصبح الإنسان، إذا جاز التعبير، إلهاً بديلاً". ولاحظ أن هذه التوسعات الآلية غالباً ماتسبب أشكالاً جديدة من المعاناة أكثر من التحسين الذاتي الذي يتوقعه خيالنا.

انتهت الحضارة في هوسها لاستثمار المصادر الطبيعية في العالم-زراعة التربة، بناء المدن، أدوات العمل من المعادن تحت التربة، التخلص من الحيوانات المفترسة، إنتاج حيوانات أليفة-إلى تحقيق نبوءة ليفي شتراوس "العامل الأكثر فعالية الذي يعمل باتجاه تفكيك الترتيب الأساسي للأشياء والذي يعمل على تسريع المادة المنظمة بقوة باتجاه عطالة أكبر، عطالة ستكون يوماً ما نهائية". أتاح لنا استثمار الطبيعة أن نصبح ملاّك أرض وفي الوقت نفسه هيأ لنا إبادة طائر الأوك الكبير، والبيسون، والحمار البري، والماموث، والكركدن الصوفي، والإلكة الإيرلندية، وأيضاً شعوب مجتمعات الصيد من نوعنا بالذات.

من الواضح أن العاطفة وحدها، بدون عدالة، لاتحمي الضعيف من القوة الوحشية للقوي. ولضمان تبادل العلاقات بين شخص وآخر وربط الأفراد بأعضاء النوع الآخرين، توطد الحضارة عادات، وقوانين، وأجهزة منظمة لتحقيق العدالة. ويضحي كل منا بجزء من حريته الشخصية لكي لايقع شخص تحت رحمة شخص آخر. مع ذلك، كثيراً ماتعمل العادة والقانون، حتى أكثر من الطبيعة الموضوعية والأنانية الإنسانية، على زيادة قدرة القوي في سبيل تقليص عدم المساواة بين الأفراد. وكثيراً جداً أيضاً مايجري توطيد المساواة عن طريق قانون قد يكون جائراً إلى حد السخف، كما في حالة منع الرجل الغني والرجل الفقير، على حد سواء، من النوم تحت الجسور. وقد وصف روسو هذه التناقضات الظاهرية في العدالة كما يلي "الكثرة المقموعة من الداخل نتيجة للاحتياطات الفعلية التي اتخذتها ضد مايهددها من الخارج".

وهكذا، تتطلب الحضارة ، مقابل الحماية من الطبيعة وتنظيم العلاقات الاجتماعية، تنازلات، وتضحيات كبيرة، وقيوداً على الحرية الشخصية، التي يبدو أنها تؤدي بدورها

إلى تقليصات إضافية لإمكانياتنا السابقة المهلهلة في سبيل السعادة. نستاء من قيودنا. فيميل بنا استياؤنا إلى إدراك أمراض الحضارات ومظالمها ووجهة النظر التي تستخف بفوائدها.

نطلب من الحضارة مكافأة ما إضافة إلى أغراضها النفعية. فلا يحتاج الوجود الحضاري مثلاً إلى الجمال، والنظافة، والنظام، ولكن هناك في كل المجتمعات الإنسانية عادات تضمن تطوير هذه الفوائد الجمالية للحضارة، مهما بدت قبيحة، وقذرة، وفوضوية لأكثر عقولنا "المتحضرة" حداثة. نطلب من الحضارة أن يكون هناك مكان في الحياة لمحاولاتنا العقلية الرفيعة-الفكرية، العلمية، الفنية- وخصوصاً كفاحاتنا في سبيل "كمال ممكن للأفراد، أو للشعب، أوللإنسانية ككل".

مع أن فرويد اعترف بفضل الإضافات التعويضية للحضارة، لكنه رفض أن يعزو إلى هذه المتابعات الثقافية زيادة خاصة في الأهمية. فقد قال "استنكف عن التمييز بين الثقافة والحضارة". وقد يكون فرويد وافق أيضاً على جوهر تعقيب روسو على الثقافة: "بينما توفر الحكومة والقوانين السلامة والسعادة لتجمع الأشخاص، فإن العلوم، والآداب، والفنون تنشر، وهي الأقل جوراً وربما أكثر قوة، أكاليل الزهر فوق السلاسل الحديدية التي تثقل كواهل الناس، وتكبت عندهم الإحساس بالحرية الأساسية التي ولدوا، كما يبدو، من أجلها، وتجعلهم يحبون عبوديتهم".

ولكن فرويد عارض في النهاية، شأنه في ذلك شأن روسو، الرأي القائل بأن الحضارة وتعويضاتها الثقافية هي في الأصل معادية للروح الفردية. واتفقا على أننا نعاني ليس لأننا متحضرون بل لأننا من بني الإنسان. وتفحص كلاهما العواطف الإنسانية من الداخل لاكتشاف مصادر دمارنا-وخلاصنا.

إن تفجع فرويد على الأبعاد التراجيدية للحضارة الإنسانية قاده إلى وضع فرضية وجهة المتعضيات الحية التي يمكنها أن تمحق الحياة الإنسانية المتمدينة بالكامل. وفي مواجهة هذه القوة المهددة، لايمكن التعويل كثيراً على الوجه السمح للحضارة بطموحاتها الثقافية. أثار فرويد شبح غريزة الموت بأهدافها الوحيدة نحو العطالة، والتفسخ، والتفكك، والتبسيط، والتشظي، وقياس الطاقة المتاحة. فتلاشت في مواجهة هذه الطاقة التدميرية الخصومات بين الدافع نحو السعادة الشخصية (الأنانية) وبين الدافع نحو الاتحاد مع الآخرين (الغيرية). ويسلّم فرويد بحدوث تسوية ممكنة داخل الفرد تجاه الحضارة، وربما في الحضارة أيضاً تجاه الفرد، طالما أنها يمكن في النهاية أن تقوم بمهمتها بطريقة أقل

جوراً بالنسبة للحرية والمتعة الشخصيتين. لاالمصلحة الذاتية ولا الحضارة-كلتاهما مظهران لربط وتوحيد قوى حب الجنس-هما عدو الإنسانية، ولكنها غريزة العدوان وتدمير الذات اللذين نجدهما في كل شكل من أشكال التعضية الحية من الخلية المفردة إلى الأسرة إلى الدولة.

تبدأ آخر فقرة من كتاب ***الحضارة وسلبياتها*** بسؤال يطرحه فرويد حول النوع الإنساني: إلى أي مدى يمكن للحضارات أن "تنجح في كبح الاضطراب في حياتها المشتركة عن طريق غريزة العدوان وتدمير الذات؟" كانت الإجابة في نسختها الأصلية والجملة الأخيرة هي حجة فرويد الواعدة، مع شيء من الحذر، حول أن إيروس* الخالد قد يعمل على إثبات وجوده في الصراع مع خصمه الذي يوازيه في الديمومة، أي غريزة الموت. وبعد سنتين، عندما أصبح تهديد هتلر ظاهراً، أضاف فرويد جملة أخرى: "ولكن، من يمكنه أن يتنبأ بمدى النجاح وبكنه النتيجة"؟

إن فهمنا للمراهقة في العالم الحديث لايتطلب إجراء فحص لغريزة التدمير، وهي المسألة النظرية في الجدل المهم الدائر. ولكن القوة التدميرية سواء كانت مؤثرة أو غير مؤثرة في العقل الإنساني، في الحضارة، في الطبيعة ذاتها، فإننا نعرف أن العدوان الإنساني في شكله الفج، غير المدجّن، هو أصلاً عدو لحياة الفرد وللحضارة. ونعرف أيضاً أنه عندما يتم التخلي عن شيء ما غير ذلك، عندما تكون العاطفة على وشك أن تمتد إلى شخص آخر، إلى منطقة أخرى، إلى نظام آخر للوجود، فإن الحدث يبدأ دائماً على شكل تغيير بالعنف.

والخطر إذا لم يلجم سلفاً، فإن العنف سوف يكتسب زخمه بنفسه، فيخرج عن السيطرة، ويتابع شوطه نحو الفناء النهائي قبل أن تقوم عواطفنا الجنسية والأخلاقية بممارسة تأثيراتها في الربط والتوحيد. وعندما نكون على أبواب حدث تاريخي مثير، سواء في حياة إنسان أو في المجتمع، فإنه "يظهر نفسه، وهو المتصل والمتشابك غالباً مع حدث آخر، على أنه مضاعفة للتقدم والكفاح، أشبه بأجمة، نوع من نسق استوائي في منافسة التطور، وتدمير هائل وتدمير للذات، والفضل للأنانية إذ تضع أحدهما في مواجهة الآخر، فينفجران، ويقاتل كل منهما الآخر في سبيل الشمس والضوء، غير قادرين على إيجاد تحديد، أو كبح، أو أي اعتبارات ضمن المبادىء الأخلاقية لتصرفهما". هذا ماقاله نيتشة،

* إله الحب عند الأغريق-المترجم.

نبي ***الإنسان الحديث***، في تمجيده للوفرة المهمة لإمكانياتنا وتحذيره من غياب وعقم القيم الأخلاقية التي تحتويها.

تبدأ المراهقة ذاتها بفجاجات وبساطات وبدائيات العدوان والنرجسية-انهيار الضوابط، تفجر العواطف والرغبات المتمردة، تلاشي الميول الحضارية لمرحلة الطفولة. إن واحدة من تجارب الثورة، سواء كانت في نظام الأفراد أو في النظام الاجتماعي، هي علاقتها بما يجب المحافظة عليه أو تدميره. وهذا الاعتبار هو الذي يحدد، في الواقع، ماإذا كانت هذه الثورة تطرح قضية جديدة أم أنها تحاول فقط إعادة إقرار الطغيانات السابقة في شكل جديد. والمراهقة اضطراب في نظام وطيد لصالح تحديد حماسي لمثاليات جديدة ومثاليات لم تختبر بعد.

ولكن المراهقة أيضاً رواية حول توحيد ميول حب الجنس. فنحن نتعلم منها بأنه لايمكن بين عشية وضحاها اكتساب واكتمال تشكل طرق جديدة في التفكير، والشعور، والتخيل. والمراهق لايتخلى عن الماضي بدون صراع، بدون حزن، بدون قلق. والمراهقة تهدف إلى تنقيح الماضي لاإلى طمسه، وفي هذا التنقيح، عندما يتم التوفيق بين الماضي والحاضر، تحقق الحياة الأخلاقية قوة وشهرة تنقذان النرجسية من انعزالية المصلحة الشخصية والعدوان من مجرد التدمير الصرف. كما تتسبب في توسيع العواطف الأسرية بحيث تتحول إلى عواطف ومثاليات تربط الأفراد بوحدات أسرية جديدة، بتجمعاتهم، بنوعهم، وبالطبيعة، والكون. ولذلك، تصبح الثورة التي نتحدث عنها في المراهقة، لو أعطيت نصف فرصة، ثورة تحويل، لاثورة إلغاء.

تتفاقم في بداية المراهقة الخصومات بين العواطف الفردية والحضارة. وتتوسع طفرة النمو فتشمل كل شهية واهتمام؛ وتثير الخيال موجة من الحيوية الجديدة؛ ويشتد الاهتمام في الشؤون الذاتية، وتتنبه الرغبة الجنسية. هنا، يواجه المراهق محرم سفاح القربى. ويصبح مطلوباً من المراهِقة أن توجه عواطفها الجنسية وطموحاتها النرجسية إلى خارج الأسرة، إلى وحدات اجتماعية أكبر. ليست هناك، خلال مرحلة الرضاعة، عداوة بين الرغبة وحب الذات من جهة وبين أهداف الحضارة من جهة أخرى. فتشدنا الشهية والمحاورة إلى أول تجمع إنساني لنا، ويوقظ الخيال عندنا جوعاً جنسياً نحو الشخص الذي يكون أول راع لنا. وحب شخص آخر يقتضي شروطاً، فنذعن لتلك الشروط لأننا عاجزون وتابعون. ونخضع شيئاً فشيئاً لأخلاقية الحضانة. وهكذا تُجاز دوافع الرّضع،

والمضغ، والنظر، والمداعبة، والأرجحة، إنما فقط بلغة "هذا يكفي"، و "في هذا المكان"، و "في وقت آخر". ونسلّم بالتأخير، والإحباط، وتقنين المتعة. وأخيراً، يعلن قانون الأسرة ونظامها، عندما يتعلق الأمر بمسألة الإشباع التناسلي، أن الطفل غريب. فالرغبة هنا لاتقنن أو تعطى على شكل جرعات، بل هي محظورة تماماً.

نحصل، كتعويض لنا مقابل الهزيمة الأوديبية، على سلطة تنظيم رغباتنا الخاصة. ومع أننا كنا أُبعدنا من جنة عدن، فإن هذا الإبعاد يحررنا من خزي التبعية الأخلاقية للحضانة. وهكذا نصبح مستعدين، وراغبين، وقادرين على قبول موقعنا في الجماعة الأكبر: نذهب إلى المدرسة، ونتعلم القراءة والكتابة، وبرمجة أجهزة الحاسوب، ونحاول أن نصبح كائنات إنسانية متحضرة، ونتخيل دائماً بأن إهانات مرحلة الرضاعة ستصحح يوما ما، عندما نصبح كباراً -إذا توفرت لنا درجة كافية من الطيبة، والبراعة، والجمال. وعندها سنعود إلى جنة عدن.

ولكن أحلامنا الطفولية لاتتحقق. ففي المراهقة تلتبس إلى حد كبير العلاقة بين عواطف الحياة الأسرية والحضارة:

> تعبّر في البداية عن ذاتها على شكل صراع بين الأسرة والجماعة الأكبر التي ينتمي إليها الفرد. فنتعلم بأن واحدة من المساعي الرئيسية للحضارة هي ضم الناس إلى الوحدات الأكبر. ولكن الأسرة لاتتخلى عن الفرد. وكلما كان الارتباط وثيقاً بين الأعضاء داخل الأسرة، كلما كانوا أكثر ميلاً على الأغلب للانفصال عن الآخرين وكانت الصعوبة أكبر في طريق دخولهم إلى دائرة أوسع من دوائر الحياة.

ونقع في التناقض من جديد، تناقض من بضعة تناقضات لم يطرحها روسو. فلو لم يكن في سبيل تشكيل الروابط الجنسية القوية أثناء مرحلة الرضاعة، لما كنا نجتاز أثناء المراهقة نضالاً موجعاً للتخلي عنها؛ ولا كان هناك، في الوقت نفسه، انحرافات للخيال وتجسين الذات اللذان ينتجان القهمة والمنتحل. فعندما تبتعد العواطف العائلية، فإن الخيال يتحرر ليقدم أسوأ ماعنده. وما نراه عندئذٍ ليس ميول الربط والتوحيد بل هول التدمير والتدمير الذاتي بدون قيد، أو كبح، أو "دون أي اعتبارات ضمن حدود المبادىء الأخلاقية لتصرفهما". وبالعكس، يعمل إضعاف الروابط الأسرية على تقويض الأساس العاطفي لتلك

العواطف الاجتماعية والأخلاقية التي تربطنا بالآخرين وكثيراً ماتطلق العنان لأسوأ أشكال التدمير الذاتي والاستبداد.

كانت زيادة تخصيص Privatization الأسرة واحداً من الميول الرئيسية للتجديد. فأصبحت الشرنقة التي كان تهدف إلى حماية الفرد من إهانات الآلة قفصاً حديدياً يعزل الأسرة عن الحقائق عند الجماعة الاجتماعية الأكبر. ونفور الحياة الأسرية من حياة الجماعة ليس ظاهرة جديدة طبعاً. لذلك كان الخياليون المثاليون دائماً يقدّرون أنه قد يكون ضرورياً إضعاف، وربما استئصال الروابط الأسرية لضمان الالتزام بالقيم الجماعية. والذي تبدّل في الصورة خلال القرون الثلاثة الماضية هو التقويض التدريجي لمعنى الجماعة عن طريق الانحرافات النرجسية التي ترعرعت في حضن الأسرة. وعند منتصف القرن العشرين تصاعد تحقيق الذات والفردية مع سيادة قيم الحياة الأسرية. فاصبحت الأسرة مرآة الآلة.

وأخيراً، عملت الأسرة النووية، عن طريق مقاومة كافة المصالح التي قد تتطفل على المصالح الشخصية لأعضائها، على تمهيد السبيل لزوالها بالذات. فتفككت إلى ماأصبح يعرف بأسرة النموذج الأصلي في الستينات والسبعينات-تكيّف موقت مع الضرورة، ارتباط هزيل عن طريق العواطف التائهة عند أعضائها الراشدين؛ سعي شامل في سبيل الحرية الشخصية التي يتصرف في ظلها كل عضو في الأسرة، بمن فيهم الطفل، على مسؤوليته الشخصية قليلاً أو كثيراً. وتبدو المسألة كما لو كنا نحاول أن نتوازن للعودة إلى المثل الأعلى في العصر الوسيط، الذي قد نكون فيه كأمير صغير "متحررين من عبء العلاقات الإنسانية"، ومتحررين بالتالي من "تلك الروابط التي لاتحصى" التي تربطنا بالآخرين وتثقل كواهلنا. ولكن هناك في هذا التملص الحديث بضع تعويضات ثقافية مقابل وجودنا غير المقيّد. سيكون الفرد وحيداً فعلاً. ففي تلك العصور الأشد ظلمة التي سبقت عصر التنوير، كان هناك، على الأقل، معنى للجماعة، للسحر والروحانية اللتين تربطان الفرد، وإن يكن ربطاً واهناً وشائعاً، "بالإله، والقديسين، والأهل، والأطفال، والأصدقاء، والأبطال، والكلاب، والبساتين والحدائق".

تأخر الوقت، ولكنه مازال مبكراً جداً لكي نعرف بدقة إلى أين تتوجه الأسرة الحديثة. وكما كان كل واحد مستعداً تماماً للتسليم بموت الأسره، فإنها بدأت تتحرك من

جديد. فالأنانيات العنيفة في العقود القليلة الماضية ربما كانت ثورة تحويل لالإلغاء. ففي عام 1979، دعت المنظمة الوطنية للنساء إلى اجتماع الهيئة العامة، وكان موضوع الدراسة "مستقبل الأسرة". وأعلن يومها بأن القائلين بالمساواة بين الجنسين في الثمانينات يتحركون إلى حقل جديد-الأسرة. وأعلنت واحدة بارزة من هؤلاء: "في الواقع، أظن أن الحركة النسائية قد عبرت تماماً بقدر الإمكان بلغة النساء وحدهن-اكتشفنا أنه ليس من السهل العيش مع-أو بدون-رجال وأطفال فقط على أساس أول جدول أعمال للقائلين بالمساواة بين الجنسين".

أجمع المشاركون في المناقشة العامة على الرأي القائل بأن النساء يحتجن إلى الأطفال والرجال، وأن الرجال يحتاجون إلى النساء، والواقع أن كل واحد يحتاج الآخر. وكان هناك أيضاً اتفاق في الرأي على أن المشاركة في الحياة الأسرية هي أفضل حصن ضد روح مؤسسات العمل الحديثة التي تحول الرجال والنساء إلى آلات مشتركة مجردة من الصفات الإنسانية. أظهر المؤتمر أن هناك تشوق عام إلى الألفة وإلى إحياء الالتزامات بروابط الحياة الأسرية. وجرى التذكير بذلك الصوت البريء والمفعم بالرجاء للمحلل النفسي ج. س. فلوجيل الذي أكد، في عام 1922، على أن كافة المشاريع التي وضعت لتمزيق الروابط الأسرية بدءاً بمشاريع أفلاطون وما بعد، فشلت وهي دائماً محكومة بـ "فشلٍ عملي، لأن هذه المشاعر قوية جداً، وصميمية جداً، وهي من حيث الجوهر جزء من الطبيعة الإنسانية، لذلك لايمكن تثبيطها بنجاح وبشكل دائم عن طريق تغيير البيئة؛ وفشلٍ أخلاقي، لأن تطور بعض الجوانب الأكثر أهمية في الشخصية الإنسانية، والتي هي في منشئها وأول ظهور لها، مرتبطة بالمشاعر الأسرية وقد تفشل في نضجها إذا ماتم إلغاء هذه المشاعر". وكما عرضت واحدة من قادة الحركة النسائية في مؤتمر 1979، "قد يتمثل أكبر تحد في الوقت الحاضر في اكتشاف طريقة للمحافظة على الاستقلال مع المحافظة، في الوقت نفسه، على الروابط التي تربط الناس، والأسر، وأخيراً المجتمعات مع بعضها البعض".

تعالوا بنا نعد إلى الجيل التالي من الرعاة والمشرعين! فماذا نتوقع منهم؟ وهل صحيح أن التشوق إلى الارتباط والتوحد مع الاخرين أقوى من أن تستطيع قوة إلغاءه إلى الأبد؟ وهل يصمد إله الحب في مواجهة قوى التفسخ والفناء؟ وهل يحمل الخداع

البولياني*، في خضم المعضلات الضخمة التي تواجه الشباب في عالمنا المعاصر، قدراً ضئيلاً من الأمل؟ لأن المسيرة البطيئة للتقدم تسارعت، فيما يبدو، إلى سباق محموم باتجاه الرؤيا النبوئية. فهل نجرؤ على أن نضع تركات المراهقة في مواجهة القيم السائدة للحداثة-ذلك الجنون لتحسين الذات والخيالِ الجامح؟ هل يمكننا أن نستمد حجم أملنا من ذاك الانفجار للطاقة، تلك الموجة للحيوية الجديدة التي تسحب مزاليج أبنية الماضي وتهيء لنا فرصة لكتابة الأدوار من جديد؟

المراهقة، في كل زمان ومكان، هي أوان الحياة عندما، كما عبر عن ذلك إريكسون، "تتداخل قصة الحياة مع التاريخ: هنا يكون الأفراد معززين بهوياتهم، بمجتمعاتهم التي ولدت من جديد في أسلوب حياتهم. وتتضمن هذه العملية أيضاً بقيا محتومة للطرق التي يفكر بها المراهقون بالمنظورين، التاريخي والآيديولوجي، حول الإنسان". تترافق نشاطات النمو التي تحول الطفل إلى كائن مقتدر، جنسي، منجب، مسؤول أخلاقياً بصورة دائمة بانتعاش ونشاط شاملين للمجتمع، والطبيعة، والكون. ويجابه الشبابُ في العالم الحديث واحداً من التحديات الرئيسية هو غموض العلاقة بين لحظتهم التاريخية الخاصة وبين التاريخ الاجتماعي أو الكوني.

كان يمكن للشاب (أو الشابة) في مجتمعات الصيد والمجتمعات التقليدية أن يجد معنى أكبر لانتقاله الشخصي إلى مرحلة الرشد عن طريق اندماجه بإيقاع زمني أكبر. ويخضع الشاب الذي يندمج شخصياً وبصورة آلية بالخطة الكونية، بالمصير الإنساني، بتاريخ الأمة، أو القبيلة، أو النظام العسكري أو الديني، إلى مجموعة القرابة. وكان الترابط بين الزمن الشخصي والزمن الطبيعي أو الاجتماعي واضحاً جداً. أما اليوم فالترابط ملتبس بين حاضر المراهق والوحدات الزمنية الأكبر. وهذا الغموض يتحدى ماستيقظ مجدداً عند المراهق من حساسيات، وقدرات عقلية، وخيال.

يجب أن لايدهشنا إذا مأثار تحدٍّ بمثل هذا الحجم إحساساً بالتمزق والقنوط عند بعض الشباب، وخصوصاً عندما لايستطيعون تعيين موضع أية وحدات تاريخية أبعد من الحاضر-أبعد من العقد، من الساعة، من الدقيقة. يمكن غالباً للمنظور المسطّح للعالم الحديث أن يثير عداء الشباب للحضارة ويفاقم مبالغتها الحمقاء في أنانتها solipsism.

* نسبة إلى بوليانا المتفائلة دائماً في رواية Pollyanna للكاتبة القصصية إليانور بورتر، 1920- المترجم.

ولكن الحضارة الحديثة مع كل غموضها وإثارتها، وتقدمها وكفاحها اللذي لايتوقف، ترعى أيضاً، بفضل غيابها النسبي عن البنى الثابتة وأخيراً عن الحلول المقررة، بعض الميول المضادة التي تسهّل إزهار الحياة الأخلاقية بشكل كامل. والأهمية المعلقة على التجديد مثلاً، مع أنها يمكن أن تؤدي إلى استثمار انتهازي، وحتى إلى إفناء، لكنها تنطوي على جانب بنائي. فالتجديد يميل إلى إمكانية معالجة معضلات الوجود، وترميمها، والتعديل التصحيحي لها، وأهمية إيجاد الحلول لها أكثر من ميله إلى تحملها. ويثير الإصلاح الاجتماعي، القوة الأخرى التي برزت خلال القرون الثلاثة الماضية، خيال الشباب لتحويل اللغة المنمقة التي تستخدم لوصف التحسين إلى ممارسة شاملة. كما تعزز التعددية، عن طريق تقديمها بدائل لتجربة الانحراف المعزولة، تجربة حب الاختلاط بالآخرين وتحرر القدرة للتغلب على الانهماك في الشؤون الذاتية وعلى الأنويّة egocentricity. وفي موازاة هذا، تأتي فرصة دور وحيوية المصطلحات البديلة من أجل التعديل والتكييف. تعمل هذه القوى الحديثة على تعزيز الجوانب التوحيدية والبنيانية للخيال، الذي يشجع المراهقين على تجاوز الشخصي والعاجل، وعلى التحليق فكرياً، وعلى سبر القدرة الكبيرة للإمكانية الإنسانية داخل ذواتهم، ومن ثم العودة إلى الحياة اليومية بطاقات دافقة مهيأة لمصارعة معضلات الوجود، ولمعرفة طبيعتنا، وواجباتنا، وغايتنا.

بطريقة أو بأخرى، حتى على الرغم من أن الكلمات الدقيقة قد تفوتهم، يطرح المراهقون على أنفسهم أسئلة مثل، "هل تجد طموحاتي الشخصية مكاناً لها في المجتمع؟" "كيف سيمتزج مستقبلي الشخصي بمستقبل العالم الذي أعيش فيه؟" "هل هناك شيء ما خارج أو وراء حياتي الشخصية اليومية يمكن أن أؤمن به؟" "هل هذه المعتقدات تستحق الاعتبار؟" "هل يمكنني التعويل عليها؟" ونحن لو أصغينا، لسمعنا هنا كائنات حية فتية وهي تبحث عن شيء ما أكبر من الوجود العادي، اليومي-بعض المثاليات أو القيم التي يمكن لتلك الكائنات أن تخلص لها. وكما نعلم، أنه حتى في تلك الطقوس القبلية التي ترعى بصورة كاملة البحث الشخصي للشباب عن المغزى، فإن هذه البحوث تنطوي على " خطر الخروج من الحظيرة وعدم العودة إليها أبداً".

تتزايد الحوادث الطارئة عند الشباب. فأولئك الذين ينسحبون كلياً أو جزئياً من محن النمو، كبعض المنتحرين، والذهانيين، والمدمنين، والمستسلمين للخيال المنحرف مثل القهمين،

والمنتحلين، هم عقابيل للاختلالات العقلية في الحياة الحديثة للأسرة بقدر ماهم انعكاسات لاغتراب المثاليات النرجسية في العالم الحديث.

هناك كوارث أخرى تصيب شبابنا، ورغم كونها حتماً أقل تدميراً للفرد، لكنها، رغم ذلك، مدمرة للحس الأخلاقي. تنشأ هذه الكوارث في صلة مباشرة مع سهولة فساد الخيال عند المراهقين، ذلك الخيال الذي يحرض مختلف القناعات السياسية والدينية–يصبحون نازيين، ممثلين للكاهن مون، ماويين–التي يمكن بسهولة أيضاً تسخيرها لأغراضهم الخاصة الجليلة. سوف لن يتردد نرجسي متشائم لايرحم عن استثمار الميول المتوقعة عند المراهقين لتجريد آبائهم من الصفات المثالية وهم يعملون بتوق على ربط أنفسهم بأوثان أخرى أكثر إثارة ورومانسية. فيقال للشباب بأنهم "القادة الحقيقيون" للمستقبل، وأنهم "أطفال المصير"، وأن لهم الحق في حكم جيل الراشدين المنحطين، وأن واجبهم الأخلاقي، في الواقع، يقضي بشجب انتهاكات آبائهم، ويشاركون، عند الضرورة، عملياً أو روحياً، بإعدام أولئك الآباء. يمكن أن يصبح الشباب، في ظل هذه التخيلات المنحرفة، أكثر طاعة وخضوعاً، وأكثر عبودية في عبادتهم لأوثانهم الجديدة مما كانوا عليه في علاقتهم مع آبائهم عندما كانوا رضّعاً عاجزين، معرضين للخطر. فالشاب الذي يريد يائساً أن يؤمن بشيء ما أو بشخص ما، يتاثر بسرعة كبيرة بوعود نبي كذاب. وفي تلك الفترات الغامضة عندما يفقد الناس روابطهم بالماضي وعندما يبدو المستقبل بدون معنى، يكتشف النبي الكذاب أكثر مشاهديه استعداداً.

قد تفوتنا ملاحظة بعض الحوادث الطارئة عند الشباب نظراً لشيوعها. ومن النتائج المألوفة لإخفاقات الخيال عند الشباب: رابطة "الأطفال الأغبياء"، والمراهقون الذين يصبحون نسخاً طبق الأصل عن الرسوم الكاريكاتورية التي نرسمها لهم. ولكن حتى هذا "المراهق الغبي" في الظاهر كطفل في رتل الدخول إلى فيلم سوبرمان، كصبي على شاطيء، كديونيسوس في قاعة رقص، كلاعب الكمبيوتر، كفتاة فارغة لاتهتم إلا بمظهرها، كعاهرة، يبحث عن شيء ما أو شخص ما لكي يخلص له. وعند انتهاء مراهقتهم، يقدر لبعضهم، كما قُدّر لـ إيكاروس*، أن يسقطوا من السماء أو من أي مدى

* ابن ديدالوس، كان فر من السجن وأسرف في التحليق حتى اقترب من الشمس فاحترق جناحاه الشمعيان فسقط في البحر– المترجم.

للخيال سواء كان ضيقاً أو واسعاً كانوا تجرأوا على الوصول إليه، مباشرة إلى التزامات الوجود اليومي بدون إحداث كثير من التموج.

فرص التعرض لفشل دنيوي أمام البحث عن مغزىً يقوم به شاب ما تصبح أكبر عندما تكون القيم الجمعية في المجتمع قد صيغت *فقط* وفقاً لأهداف الحاضر. فقد تشكل البيروقراطية في الحياة الحديثة، بعدم أهميتها وضيق منظورها التاريخي، الخطر الأكبر على الشباب، وذلك لأنها أصبحت أكثر انتشاراً وأكثر مخاتلة بشكل ملحوظ من الفساد الواضح أو من إغراء النبي الكذاب. وعندما يفقد المستقبل بعده كوحدة زمنية ذات مغزى ويتم نسيان الماضي بفعالية بحيث لايمكن تذكره بعدها، فإن اللحظة الحاضرة تتخذ صفة الإلحاح حتى أنها تحرم الشباب من الإزهار الكامل للحياة الأخلاقية الذي هو هدف المراهقة.

تستنزف عبادة البداهة، بتأكيدها على الإحساس، والتزامن، والتأثير حيوية الشباب، وتثير عواطفهم الجنسية إلى إنجاز مبكر، وتسفه تفكيرهم، وتتفه تخيلاتهم. ويشعرون فقط بأن مايطمحون إليه كأفراد لامكان له في المخطط الأوسع للأشياء. ويظنون بأن المجتمع، في الواقع، ليس بحاجة إليهم، وأنهم لامستقبل لهم. فينغمسون في شهوات الشباب وبعدئذٍ يكبرون بسرعة فيتخلون عن أساليبهم الخرقاء والمزعجة فيصبحون راشدين لاخيار أمامهم سوى الخضوع للطغيان الأريحي لـ "مساعد مدير مكتب البريد ". وبسرعة لايبقى أمامهم من خيار سوى خيار التخلي عن الحضارة. وما يقدم لهم من مكافآت-الترتيب والنظافة، بعض لحظات الجمال، الديانة التذكارية-زهيد حقاً. وكلما كان خضوعهم أكبر، كلما كان امتعاضهم من قيود الحضارة أكبر وكلما كانوا أقل استعداداً للتضحية بمصالحهم الشخصية في سبيل الصالح العام. "ولماذا يضحون؟" إنهم يلجأون إلىالتمسك بصمامات أمان الحياة اليومية، مع قضاء بعض الوقت في إثارات التلذذ والشهوة.

لاريب في أن هذا النوع الدنيوي-إثارات التلذذ والشهوة- من الإصابة عند المراهقين ليس نادراً في العالم الحديث. ولكن شيوع انتشاره يدفعنا إلى التساؤل حول ماإذا كنا بدأنا بابتكار ميثولوجيا مراهقة تتلاءم مع النسخة الحديثة للحضارة. فكل مجتمع يحاول حماية نفسه عن طريق ابتكار المراهقة التي يحتاجها. وقبل أربعة عقود، أعلن بعض الكتاب والفنانين عن انهيار الحداثة. وقيل لنا بأننا ندخل عصر مابعد الحداثة. وما من أحد حتى الآن يعرف بالضبط ماالمقصود بعبارة مابعد التحديث. ولكنها أياً كان معناها، فإنها

تؤدي، كما يبدو، إلى خيبة أمل بالجوانب الواعدة والخيالية للتحديث. فالمحاورات القديمة تتبدد ولا تحل محلها محاورات جديدة. لقد اضمحل التذبذب الجدلي للحداثة-حدة نشوتها، وعنف أنانيتها التي تبحث عن معدل وفيات يمكن أن يحتويها، وروحها التجديدية، التي تتحدى الغموض، والإمكانيات النظرية، والتنوع الواسع- وتحول إلى مزاج بارد للعبث والانتهاء، إلى قبول مستسلم لغياب القيمة الأخلاقية وخوائها.

عندما يُنتَهَك كل مقدس، عندما يموت المعبود، عندما ينفى الأمبراطور ولا يبقى أي شيء آخر يمكن أن يكون موضوعاً للإيمان، فإن الثورة قد تنتهي في بقعة جليدية تعيد ببساطة استبداد الماضي في زي جديد. فالعدوان كان قد هدأ ولم يُمْحَ ومثله النرجسية. وعندئذٍ سوف نشاهد جيشاً من المواطنين المطيعين الذين يتسترون على حياة رومانسية سرية تؤجج باستمرار سعير الرغبة. أما الأخوة الكبار وفاعلوا الخير فسيدركون تماماً ماذا يواجهون. فيُخضِعون المواطنين لمراقبة متواصلة، ويبرمجون شهياتهم الجنسية، ويتفهّون الإيحاءات ومواطن الجمال التي قد تعمل، لولا ذلك، على إثارة نشاطهم.

لم نصل بعد إلى ذلك المجتمع المثالي المحزن. فإذا كانت الحوادث الطارئة تتزايد عند المراهقين، فإن الكثيرين منهم يتابعون بقاءهم على قيد الحياة بعد محن النمو التي تنزل بهم. فينهمكون في مواجهة التحديات الناجمة عن اكتشافهم لوجود معنى للاستمرارية الشخصية في عالم المنظور التاريخي الضيق. وينتصرون أيضاً على الإخفاقات البسيطة والكبيرة في الحياة الحديثة. فهم يتحكمون في قلوبهم. ويمكنهم القيام بالتشريع لأنفسهم وبأعمال الحرية الأخلاقية التي توسع حدود النشاط الإنساني. ومن اللافت للنظر، أنهم ينجزون هذه التنقيحات الهامة في حياتهم الداخلية بدون الاستفادة من التقليد الطقوسي المعترف به رسمياً، وفي حالات كثيرة جداً، بدون مساعدة الراشدين الذين يقومون برعايتهم وتعليمهم. فإذا ماأعطي الشباب نصف فرصة، فإنهم سوف يواصلون كونهم حَمَلَةَ التجديد الثقافي. وسيعملون على ضمان الحياة لأنماط التفكير عند المراهقين وفقاً لمنظورينا: التاريخي والآيديولوجي. وسيستمرون في توريث بعض المواريث التي تساعدنا علىالتقدم قليلاً على طريق الوصول إلى إنسانية متنورة. ومما يدعو للأسف أن يسمح لكثير جداً من هؤلاء الشباب بالانزلاق إلى خارج نطاق الحظيرة. فنعقد الأمل على رعايتنا لمواريث المراهقة وتعميم امتياز المسؤولية الأخلاقية على عدد أكبر من الناس.

تتمثل التركة المركزية للمراهقة في تحويل العواطف الأسرية إلى عواطف سامية تربطنا بنوعنا. ونحن بنو البشر نولد بدون حس أخلاقي. فلو لم يكن من أجل تحولات المراهقة، لما قبل أحد عن طيب خاطر بتضحية رغبته الخاصة لصالح الواجب العام. إن الاتحاد بين الرغبة والواجب، الذي أطلق عليه كانت تسمية الثقافة الحقيقية، لايتحقق بصورة طبيعية، ولكن الطبيعة تؤمن الوسيلة التي بها يمكن لثقافتنا الأخلاقية أن تكتمل.

تتوفر لأجزاء الدماغ عند الإنسان، تلك المسؤولة عن تقدم الأداء الوظيفي العقلي، فرصة للنمو قبل الأجزاء التي تعمل على البدء في مرحلة البلوغ بعد استقبالها لـ "إشارة" المباشرة بالأداء الوظيفي على مستوى الراشد. كما تتوفر الفرصة أمام الأطفال الإنسانيين لتعلم التعاون في الأسرة وفي حياة الجماعة قبل أن يجبروا على تحقيق المطالب المعقدة للنشاط التناسلي والوالدية المديدة المطلوبة من نوعنا. ويحملهم البلوغ إلى ولادة ثانية، فيها تظهر المواهب، والعواطف، والقدرات العقلية التي لم يتم التعبير عنها حتى الآن، بينما تمنح قدرات طفولية أخرى حيوية جديدة ومجالاً جديداً. هنا، يمكن للمبادىء الأخلاقية، عندما تستيقظ العواطف التناسلية، أن تتخطى خضوعاً مؤكداً لقوانين العقل. وتحتاج المبادىء الأخلاقية لاكتمال ازهارها إلى الطاقة العاطفية. والنشاط التناسلي هو الذي يؤمن تلك العاطفة، ويعمل الخيال على توحيد الرغبة الخاصة مع الواجب العام.

وبسبب العلاقة العكسية بين الحضارة والتطور الحر للنشاط الجنسي، فإن النشاط الجنسي التناسلي قد لايقدم ذلك الإشباع النهائي الذي نتوق للحصول عليه ونتذكره من مرحلة الرضاعة. ويُجابَه التشوق أثناء المراهقة لإرجاع محاورات حب مرحلة الرضاعة بمحرم سفاح القربى. ومحرم سفاح القربى ليس قانون الطبيعة، ولكن الطبيعة زودت بني الإنسان بتلك الملكات العقلية التي عن طريقها تنتشر العواطف من دائرة إلى أخرى من دوائر التجربة. وعن طريق تزويدنا بالخيال، تكون الطبيعة قد زودتنا بوسيلة لتحويل الأفعال الطبيعية إلى طموحات ثقافية. الحيوانات الأخرى كلها آمنة من مخاطر الخيال ولذلك تخضع كلياً لأوامر الطبيعة.

وعلى عكس الحيوانات الأخرى، التي يكون الفعل الجنسي عندها مجرد فعل فيزيائي، فإن النشاط الجنسي عند الإنسان موجود إلى حد كبير في الخيال، مما يفسر كون الروابط المثيرة للشهوة الجنسية عند الطفل الإنساني أكثر عناداً بكثير منها عند أي نوع آخر من الرئيسات، وقدرة الخيال أثناء البلوغ على تصعيد العاطفة الجنسية إلى تلك

العواطف الأخلاقية التي هي أسمى تعبيراً عن إنسانيتنا المشتركة، وإمكانية أن تصبح الثورة الجنسية والأخلاقية التي تحدث أثناء المراهقة ثورة تحويل لاثورة إلغاء. وفي المراهقة، يُنْظَمُ الماضي، والحاضر، والمستقبل معاً في خيوط الخيال.

والميراث الآخر للمراهقة هو قدرتنا على بناء حكاية تاريخ حياتنا الشخصية. فالخيال، وليس الكلام أو صناعة الأدوات، هو الذي يميزنا عن الحيوانات الأخرى. وكما يسعِّر الخيال العواطف المثيرة للشهوة الجنسية التي تربطنا مع الكائنات الإنسانية الأخرى، كذلك يفعل تماماً عندما يلهمنا أن نتخيل مستقبلاً قد يكون أفضل من الحاضر المخيِّب. وما هي فائدة الكلام والأدوات بدون طموح نحو الاكتمالية، بدون إحساس بأنه يمكننا أن نكوّن مستقبلاً أو ننسج تاريخاً؟

نحن النوع الحيواني الوحيد الذي له تاريخ ويحكمه تاريخ، شخصي واجتماعي. ففي المراهقة، عندما يتوجب علىالماضي أن يتصالح مع المستقبل، يثب إلى الحياة الطموح لنسج قصة شخصية. فنصبح قادرين على أن ندرك بأن الزمن الفعلي لايمكن إلغاؤه، وأن حياتنا تُنظَمُ بين اللحظة النهائية للولادة واللحظة النهائية للموت. بعد أن تكون المراهقة قد عانت، في مرحلة الشباب، من كامل الأسى على كل ماتركته وراءها، يتطور إعجاب بالماضي موضوع التشوق مقترناً بقناعة أنه سوف لن يعود أبداً. فتتكون عاطفة حلوة ممزوجة بالألم حنيناً إلى الماضي. ويثير فينا حنيننا إلى الأيام الذهبية لمرحلة الرضاعة بعض الطموحات بخصوص المستقبل. ويعمل الخيال على تحويل مالدينا من مثاليات للماضي إلى مثل عليا اجتماعية يمكن إدراكها في مرحلة متأخرة من الحياة.

وهنا تتحدث ملبومينة*. عندما تبلغ المراهقة نهايتها، تلتحم مشاشات العظم، أي تتقلص الإمكانيات. فنبدأ ندرك التواصلية التاريخية للذات التي أصبحنا عليها والحدود المحتومة لما يمكن أن نصبح عليه. فتتفتح أعيننا على الحقائق التاريخية والحجم المأساوي لآبائنا. أولئك الآباء الأقوياء، آلهة طفولتنا ذوو القدرة المطلقة، معيبون، مُفسَدون بالسمات نفسها التي كانت في وقت مضى تعتبر سمات قدسية وبطولية. هنا، يمكن تجريد وتهذيب المثاليات التي كانت مركزة فيما مضى على الآباء، وتحريرها لتوظيفها في المثل العليا الاجتماعية. وفي الوقت نفسه، تقوم فتاة بتوسيع صلات ودها وحنانها نحو والديها.

---

* ربّة المأساة عند الأغريق-المترجم.

وتتسامح معهما لكونها أدنى إلى حد ما مما كانت تظن بهما. فالأطفال، وحتى الرّضّع منهم، قادرون على التعاطف. أما الشفقة فلسنا قادرين عليها إلا بعد المراهقة.

يتداخل تاريخ الفرد أثناء المراهقة مع تاريخ القبيلة، والأمة، والنوع. وتتحدر أنماط التفكير، والشعور، والتصرف، والتخيل، وبناء التاريخ من جيل إلى آخر، لاعن طريق الوراثة الجينية بل، ومن جديد نقول، عن طريق الوسيلة التي حبتنا إياها الطبيعة. فنحن نأتي إلى وجودنا الأرضي حاملين حباً فطرياً للذات، أي النرجسية الأولية التي نحاول الاحتفاظ بها حتى عندما يتوجب علينا إخضاع الرغبة إلى مناسيب النظام الاجتماعي الذي نعيش في كنفه. تجسد هذه العاطفة الأولية، التي هي "مصدر وجوهر جميع العواطف الأخرى"، آمالنا، وتوقعاتنا، وطموحاتنا. والطفل قبل أن يواجه الإحباطات التي تلازم العلاقة مع الآخرين، لديه طريقة لاستحضار قوة شخصية. فقبل أن نكون أي شيء آخر، نحن المشعوذون لتحقيق الرغبات، والمهرجون، والشعراء، الذين يمكنهم أن يبعثوا المجد الذي كان، أي الحياة قبل التناقض. كما تساعد الطفل -أو رفيقاً خيالياً لطفل صغير أو رومانس أسري عند طفل أكبر- الرغبات الهلاسية ودثارات الأمان على تحمل الإحباطات والتنازلات المحتومة لكونه مخلوقاً عاجزاً وتابعاً، كذلك تماماً تفعل الطموحات الأخلاقية والمثاليات الثقافية عند الفتاة الراشدة حيث تساعدها على تكييف نفسها مع الأبعاد المأساوية للوجود المتمدين.

أثناء المراهقة، يتغير مايخص أدنى جزء من الحياة العقلية إلى ماهو أسمى في العقل الإنساني بموجب المقياس الذي نستخدمه للقيم. والطريقة-القدرة الكلية للإشارة، حب الذات، النرجسية الأولية-موجودة منذ الولادة. ولكن طموحاتنا الشخصية، وأحلامنا بالمجد لاتتحول قبل المراهقة إلى تلك الطموحات التي قد تفيد الإنسانية بالكامل. عندما تُجَرّد أحلام مجدنا المُذَوّتَة، فإنها تَضْرِمُ فينا رغبة المحافظة على النوع كما حافظنا فيما مضى على حبنا الخاص لذاتنا. فالمراهقون هم حَمَلَةُ التجديد الثقافي، حلقات النشوء والتجديد، تلك التي تربط مصائرنا الفردية المحدودة بمصير النوع.

مسرحية المرور من دائرة إلى أخرى في مملكة الوجود، تلك التي تنتجها المراهقة، أكثر تعقيداً بكثير من المسرحية التي تنتجها الولادة، أو الزواج أو الموت. فيها يمر الفرد من حياة الأسرة إلى الوجود الثقافي. وما كانت طقوس البلوغ عند الناس في مجتمعات الصيد إلا محاولة لمَسْرَحَةِ هذا المرور. تصبح الشابّة عضواً مسؤولاً في النظام

الاجتماعي والأخلاقي عن طريق المشاركة *النشيطة* في مسرحية مرورها الخاص إلى عالم الرشد. زد على ذلك، أن المسرحية التي أضفيت على وجودها منذ ذلك الوقت، وإن يكن قدّر لها أن تكون دنيوية ومحدودة، كانت هالة لشيء ما أكبر من الحياة. وتذكرت أولئك اللائي استمعن إلى الحكايات أو غنّين معها، إنهن يتذكرن كل ماعرفنه في الماضي ثم نسينه بعد ذلك. في تمثيل قد يمتد أسبوعاً، شهراً، فصلاً، عدة سنوات، تم تحويل استعارات الوجود إلى تمثيلية-موسيقا، ورقص، وغناء، وتلاوة نصوص مقدسة وحِكَم قبلية، ثم أقنعة، ومجوهرات، وزخارف جسدية، وتشريعات رمزية، وتشريط، وجدع لإنضاج الطفل إلى راشد، ثم خرافات فقدان المحاورات القديمة، والعثور على محاورات جديدة، ثم العثور على القديمة من جديد.

المراهقة الحديثة، عندما لايتفّهها أو يجهضها شَوَهُ الحياة الأسرية أو التقليد الاجتماعي، مسرحية باطنية ليست أقل شمولاً في وسعها المجازي. فيها يدخل الشاب، عن طريق تخليه موقتاً عن أنماط الوجود العادي، منطقة مقدسة زمنها سرمدي ولا حدود له، والتجربة عكوسة ويمكن استرجاعها. يتجدد الزمن؛ ويتحقق الماضي من جديد ويُحَوّلُ إلى حالة المستقبل؛ ويرتبط تزييف الحياة الشخصية بإمكانيات مجتمع جديد، وإنسانية جديدة. المسرحية في المجتمعات الحديثة لاتنتهي بعودة كل شيء إلى البداية. ولذلك لايمكننا أن نثابر على اعتقادنا بأن الشباب سيخضعون لمحنهم الشخصية أولاً ثم يعودون إلينا بقبول تام للأشياء كما هي. فعندما تفسد الأمور في الدانمارك، يكتشف الشباب التعفن والفساد بسرعة عن طريق الشم. يعارض الشباب العصريون فكرة أنهم، هم أو النظام الاجتماعي، محكومون بالماضي. فهم يعارضون بإبداعاتهم ميولنا التخفيفية المحافظة-الاستكشاف، التجديد، الطموح. والمراهقون يعملون، عن طريق اكتشافهم من هم ومن ليسوا هم، على حشد طاقات الماضي المهجور واستخدامها لتوسيع الأبعاد الثقافية للمُستقبل.

العالم المقدس الذي يعبرونه، والذي هو خارج الزمن، وخارج نظام الحياة المتمدينة وحمايتها، قد يكون مكاناً موحشاً ومخيفاً. والشياطين الذين يواجهونهم هناك ليسوا ممثلين مقنعين للشر والعنف والنشاط الجنسي الفج ولكنهم شياطينهم الباطنيون الخاصون بهم-رغباتهم العنيدة، ضمائرهم الأَرِنَة التي تهددهم بالفضح، بالخصاء، بالجدع،، بالتجويع، بالنفي. ويواجهون في داخل أنفسهم عواطف أولية بأشكالها الخام المبسّطة. ولكن هذه

المواجهات، مع أنها مخيفة ومؤلمة عاطفياً في الوقت نفسه، لكنها سوف تتيح فيما بعد تقديراً أكثر كرماً وإنسانية للمأزق الإنساني.

هناك، في الفترة الفاصلة بين التخلي عن المحاورات القديمة والعثور على أخرى جديدة، فترات طويلة من الزمن تكون فيها محاورة الحب غائبة. يمكن للخوف من فقدان المحاورة، وهو فقدان يشبه السقوط إلى العدم الأبدي حيث لايمكن للمرء أبداً أن يعود من هناك، أن يجعلنا جميعاً جبناء صاغرين. مع ذلك، يقوم المراهقون باقتحام تلك المخاطرة. ويعرّضون أنفسهم أيضاً لخطر الوحشة والخوف الناجمين عن الانتقال من إحدى دوائر الوجود ودخولهم إلى أخرى جديدة بيد أنها دائرة ماتزال مجهولة. ويتوصلون إلى معرفة اليأس داخل أنفسهم عندما لايجدون مكاناً لرغبتهم، ولا شخصاً يحبونه، ولا قدرة لتحويل الجوع الجنسي إلى صداقة أو نشاط. فيتعلمون ماذا تعني خسارة الماضي وإدراك أنه لن يعود أبداً.

إن أكثر الراشدين لايهتمون بتذكيرهم بهذه الحالات العاطفية المكربة. ولكن الشباب في نهاية المراهقة وبداية الرشد لايكونون قد نسوا بعد؛ فهم مازالوا قريبين من هذه التجارب بما يكفي لإحساسهم بالإشفاق على أولئك الذي يعانون مما سبق لهم أنفسهم أن عانوا منه. ينظرون إلى أجدادهم الأعزاء، الذين كانوا يوماً نشيطين منتجين، فيكتشفون أنهم يشيخون، ينحطون، يقتربون من اللحظة النهائية لموتهم. ويتساءلون "أهكذا تنتهي الحياة؟ ياللسباق المسعور مع الزمن والنهاية الطويلة الهادئة! يشعر الشباب، أولئك الذين يجيزون لأنفسهم استذكار وحشة وحزن سنواتهم القريبة، بعطف وحنو أكبر نحو المسنين مما يشعر به معظم الراشدين ممن هم في منتصف العمر. حيث لايمكن لطمع، أوغرور، أو ارتياب، أو تهور أن يخيّب أمل شاب بوالديه كالطريقة اللاإنسانية التي يعاملان بها جَدَّيْه.

كان يقال بأن أكثر الملامح المؤثرة لمبادئنا الأخلاقية الإنسانية بشكل خاص هي عناية الأبناء بالأهل المسنين، أو المتوحدين، أو العاجزين. ولكننا معشر الراشدين، في العالم الحديث، نهرب من المسنين كما نهرب من وباء. إنهم، بوجودهم المباشر وتذمرهم الدائم، يذكروننا بالمصير البائس الهامد الذي ينتظرنا. فيعمل خوفنا من تناهي الزمن على سحق الشفقة عندنا. ونترك المسألة برمتها بين يدي "مساعد مدير مكتب البريد" الذي سيعمل بفعالية على توزيع شيكات الخير ويدبر سكناً أنيقاً. يُعامل المسنون، ربما باستثناء

الأغنياء وأصحاب السلطة، كمنبوذين، كالفضلات التي نحبسها في أفضل الظروف الخيرية على تجمعاتهم المعزولة.

يمكن للشباب أن يتحملوا ماتعنيه عبارة "التقدم في السن"، لأنهم يتوجهون لاستقبال حياة جديدة. فما زال بإمكانهم استذكار أذى الروح وتشوشها، الحزن، الوحشة، خسارة المحاورة عندما يتوجب على شخص أن ينتقل من دائرة ويدخل دائرة أخرى من دوائر الوجود. ويساعدهم فهمهم العاطفي على الاشتراك في محاورة هادفة مع المسنين. لاشك في أن الشباب مثلاً يتمتعون بإمكانية تقدير الأمور حق قدرها أكثر من أجدادهم "الهائمين" الوُطانيين. وكثيراً مايجدون في هذه الروايات الاستعادية بعضاً من حكمة نلجأ نحن غالباً إلى تجاهلها. رغبة شابّة في الإصغاء تساعدها على الاحتفاظ بحيوية ذكرياتها حول أيامها الذهبية. فتقاوم إيماءاتُها الشفوقة خوفَها من فقدان المحاورة. فيتوقف الانحدار صوب العدم. يذكرنا المسنون بالانبعاث والتجديد، حتى على الرغم من أنهم سينفصلون سريعاً عن العالم. ويشعرون بأنهم استبقوا عند وجود شاب ما. كما يشعرون، ولو للحظة على الأقل، بأن الحياة ليست ممراً لامعنى له للوقت، وأن مصائرهم الفردية الخاصة مرتبطة بمصائر إنسانية خالدة أكبر.

نكتشف في هذا ميراثاً آخر من مواريث المراهقة: الإحساس بأن الانتقال من دائرة إلى أخرى لايستتبع تمزيق الروابط لكنه على الأصح قد يقيّض توسيعاً وتجديداً لإنسانيتنا المشتركة.

بعد فصله من الرحم مباشرة، يدخل الوليد في أول محاورة إنسانية، محاورة تذكره بالأم–المشيمة–سائل السَّلى–الجنين الذي يعرفه من قبل. وهو، لكي يصبح شخصاً له ذاتيته الفريدة الخاصة، يتوجب عليه أن ينتقل من تلك الدائرة للأحدية الإنسانية ويدخل دائرة إنسانية جديدة. ويخضع للانفصال–التفرد منذ السنوات الثلاث الأولى من حياته. وفي هذه العملية، سوف يعمل على توسيع مدى قدراته العاطفية، ويحرر نفسه من تبعياته المُذِلّة لأخلاقية الحضانة، فيصل إلى قانون حياة الأسرة ونظامها. عملية الانفصال–التفرد عنده لاتفصم ارتباطه بأمه؛ بل تعمل على توسيع مفهوم هذا الارتباط. وبالطريقة ذاتها، تؤدي الولادة النفسية الثانية للمراهق إلى توسيع المدى العاطفي والعقلي عند الطفل، وإنعاش روابط الحنان والحب نحو الوالدين، وأنسنة امتداد العواطف الجنسية والأخلاقية.

مع ذلك، ننتهي إلى رؤية الفرصة المتاحة أمام المراهق للنمو وتحقيق مستوىً جديد من الذاتية على أنها مناسبة يمزق فيها الروابط التي تربطه بالأسرة. حتى الخبراء، يقعون ضحية لفهم الأمور على هذا النحو. والواقع، أنه يمكن قياس شدة مقاومة المراهق للنمو عن طريق معرفة مدى يأسه والمدى الذي ينبغي له أن يهرب إليه، عملياً وعاطفياً، من حميمية الحياة الأسرية في سبيل المحافظة على شعوره بذاته.

يعمل طفل صغير على تحرير نفسه من عبودية الحضانة عن طريق استدخال، أي تذويت، مايتخيل أنه كوابح، أو سلطة، أو مثاليات والديّة. وهذه التذويتات المبكرة للوالدين تتيح للطفل أن يصبح كائناً إنسانياً متمديناً نسبياً يمكنه تنظيم وترويض رغباته. فيحقق، على الأقل، درجة ما من الاستقلال عن السلطة الخارجية. ولكن معلميه الداخليين الجدد شديدو الفظاظة والإلحاح. ولكي يصبح طفل راشداً مسؤولاً، يجب أن تخضع نُسَخُ الوالدين التي بولغ في خلع الصفات المثالية عليها لبعض التنقيح. كما يجب تنقيح الرغبات الطفولية التي ارتبطت بتلك المثاليات بحيث يمكن نقلها إلى خارج الأسرة.

كما نعلم، أنه عندما تكون العواطف على وشك أن تنتشر إلى شخص آخر، أو دائرة أخرى، أو نظام آخر للوجود، فإن الحدث يبدأ دائماً كشكل مختلف للعنف. ولكن المراهق لايحاول التخلص من الوالدين أو تقويض النظام الموجود للأشياء. أما المراهِقة فقد تبدو كمخلوق بري غير مدّجَّن، لكن جنونها علامة تدل على حربها ضد الرغبة ومحاولاتها لتحويل المثاليات الطفولية إلى مثاليات أكثر إنسانية وأقل عظمة مما كانت عليه. وفي هذا السبيل، تقوم بتوسيع عواطفها، وهي قادرة على الامتداد بها إلى علاقات جديدة مع أنداد، وأحباب، وأطفال، ومع الجدّين، ووالديها، اللذين يمكن التسامح معهما الآن لكونهما أقل كمالاً مما كانت تظن بهما.

إذا انتزع المراهق بالمساومة ترخيصاً بالطموح إلى قيم ومثاليات هي أبعد من حقائق الحياة اليومية، فسيكون ذلك نتيجة للصراع الشخصي الداخلي، صراع لايمكن تنظيمه عن طريق أي نظام اجتماعي. ولكن تكوين البنية الداخلية للعقل التي ندعوها مثال الأنا عند الراشد يمكن رعايتها فقط في ظل نظام اجتماعي يعزز التداخل المتآلف للأجيال- مجتمع يرعى الروابط بين المحاورة الجنسية والمحاورة الأخلاقية في كل مرحلة من دورة الحياة.

والطريقة السائدة الآن تضع في اعتبارها أن منافع الحضارة كافية أذا لجأ شخص فقط إلى مغادرة وحدة الأسرة الطفولية لتكوين أسرة جديدة، وقام بعمل محدد، وامتثل للوصايا الأخلاقية غير المعقدة. عندما يسود الاعتقاد بأن روابط الحب بين الرضيع والوالدين ضرورية لبقاء المجتمع، فإن بعض المجتمعات تقدم مابوسعها لحماية الخلية الأسرية. ولكن حتى في المجتمعات الغربية المعاصرة، مع ضيق منظورها التاريخي وتتفيه قيمها الأخلاقية، يصبح المراهقون، باستخدامهم لكافة الوسائل التي حبتهم إياها الطبيعة، راشدين يهتمون بتوسيع حدود الوجود الإنساني أكثر من اهتمامهم بالإبقاء على الحالة الراهنة للنظام الاجتماعي كما هي. ويمكن أن يقوموا بدفع الجميع قليلاً إلى النور.

تتصل حياة الفرد بمكانها الملائم في بيئتها كالمِشْكال kaleidoscope بزجاجه الملون المنقّط بغزارة والذي لو أداره المرء مليون مرة لما أظهر كامل رسومه الكامنة. الاستعداد الأخلاقي عند الرئيسات المتأخرة ليس مطلقاً، ولكنه أكبر بكثير مما نجرؤ على تصوره حتى الآن. شبيه الإنسان المتفوق الذي لاحاجة به إلى التخلي عن البحث، ولا إلى العودة إلى البداية ويكرر الماضي دائماً، ولديه من بين استجاباته المرنة، حلولاً إبداعية، وفضولاً لاحدود له، سيعتبر دائما ضمن أشكال الحضارة التي هي شبكة الأمان لوجوده. قد تكون لديه قدرة للتحكم في الطبيعة، لقلب الأرض التي يقطنها، للسيطرة وحتى إبادة كافة الحيوانات التي هي دونه على السلم الطبيعي، لممارسة السلطة على البائسين والعاجزين، للطيران إلى مجرّات بعيدة، لكنه يجب عليه أن يواصل حفاظه على الحضارة وإلا انقرض نوعه. وفي الوقت نفسه، ولكي يجعل الحياة فوق هذا الكوكب الفظ المربك محمولة بدرجة أفضل، يتوجب عليه أن يكتشف وسيلة للاحتفاظ بأماكن للراحة وراء نطاق المجتمع، أو المتعة، أو الحقيقة. يمكن للمجتمعات المنظمة أن تصمد فترة ما بدون طموحات ثقافية، ولكن مامن مجتمع أن يبقى فترة طويلة على قيد الحياة بدونه.

يمكن المحافظة على الحضارة ذاتها ونقلها من جيل إلى آخر بدون تغيير. فهناك دائماً استعارات، وطقوس، ومعابد، وتقاليد قبلية تعبر عن فكرة الـ "لاتغيير". يمكن للمراهقة أن تكون مسرحية عاطفية واضطراباً يعود في نهايتها كل شيء إلى البداية. مع هذا، هناك إشارات النور الأخضر. لقد ولدنا ونحن نحمل دافعاً لايقاوم للاستعجال، لتنظيم البلد. فعندما لايترك الإذعان لسلطة النظام الاجتماعي مجالاً للتعبير عن القدرة الشخصية

أو الشعور بالكرامة الأخلاقية، عند ذلك نشعر بأننا أقل مما نحن عليه–نشعر بزيفنا امام ذواتنا.

التاريخ الإنساني الحقيقي مقيد ومحدود. وسنعيش فيه حياة واحدة، أما حيواتنا الأخرى الممكنة فنتركها على جانب الطريق، نتذكرها بشكل غامض، وتلازمنا فقط الحياة التي نعيشها فعلاً. نتخيل أحياناً بأن حياتنا الحقيقية هي الحياة التي لانعيشها، أو نحس بمشاعر مجهولة تسري في صدورنا. هناك في الوجود دائرة يتواصل فيها تاريخ الإمكانيات اللانهائية. وهي التي نسميها مكان الاستراحة، المنطقة الانتقالية، الدائرة الوسيطة، الثقافة، الاستعارة، التوهم. هنا نقوم بتعديل إحساس المتناهي، ونفتح الصدر، وندرك دفق الحياة ونسمع عزيف رياحها. مع أن المراهِقة تصبح راشدة تعيش حياة واحدة محدودة لاغير، فإنها تعيش فترة في دائرة الإمكانيات اللانهائية. وترث راشدة إرثاً آخر من سنوات مراهقتها هي تجربتها الباطنية التي قد تكون قامت فيما مضى بتمثيل كامل فصولها في مسرحية إنسانية، حيث كانت صادقة مع نفسها ومخلصة لقدراتها.

عندما تنتهي المراهقة، تنطبع شخصية المراهِقة الشابة بواسطة الصراعات الباطنية التي تكابدها. والمرأة المتغيرة لم تكن ملخِّصة سلبية لمرحلة الرضاعة؛ بل كانت منقِّحة نشيطة. فاستراتيجياتها، وخساراتها، وهزائمها، وانتصاراتها، وحلولها الجديدة، كلها تخلِّف بصماتها على صيغتها الراشدة. وقد تقوم في مرحلة متأخرة من الحياة بمزيد من التهذيب لضميرها، وقد تكتشف طرقاً إضافية موسعة للحب والرعاية، وقد تكتشف من جديد قدراتها التي كانت تتخيلها فقط أثناء المراهقة. إنه جزء من الإرث المحدد لنوعها عدم أهمية مدى رسوخ أو صلابة شخصيتها، فهناك دائما بعض المرونة، وبعض الفضول أيضاً لاستيقاظها من جديد. ولكن الراشدة تحتاج، لتغيير وسائلها، إلى جهد ومجازفة هائلين وقدر كبير من الشجاعة. تعمل قوى النمو في المراهقة على تحفيز الإبداع والتجديد الأخلاقي. المراهقة هي التي توحد الحياة الإنسانية. وعندما تنتهي، تصبح مسألة من نكون وما يمكن أن نكون غير متاحة للتغيير. لأننا سوف لن نستعيد مرونتنا أبداً.

يختتم بعض الشباب رحلتهم بالتراجع إلى الوتائر المتمدينة المألوفة. فيعيدون، وإن بقليل من النجاحات الجديدة والتعديلات الطفيفة، خطط الطفولة المتجمدة. وتحكمهم من جديد الإملاءات الصارمة لـــ **يجب** و **ينبغي**، ويستبد بهم السعي في سبيل العثور على الإشباع الجنسي–ولكن فقط بهذه الطريقة لابغيرها. ويحاولون تهدئة الخوف عن طريق

العودة إلى أمن باحة المدرسة. ولا يتخلون تماماً أبداً عن رغبتهم في أن يكونوا موضع رعاية شاملة وفي حماية وثن كلي القدرة، حتى ولو تحول ذلك الوثن إلى طاغية. فيبقون صغاراً دائماً. ولكنهم يخسرون صباهم.

يمكننا القول بأن عدد الراشدين الذين يتسربون من الطفولة في هذه الرحلة كبير جداً. ولكن يصح ذلك فقط عندما نقيس ماأصبحنا عليه مقابل الإمكانيات التي كانت هناك. هذه الطريقة لتقييم الحياة الإنسانية فظة وبدائية. وبين حين وآخر، عندما تكون المرأة حاملاً، عندما يغادر الرحم مولود جديد ليدخل إلى العالم، أو عندما يصل طفل إلى مرحلة البلوغ، أو عندما يتزوج أحد أو يموت أحد، يكون هناك دائماً مكان للراحة. نذهب إلى حفلات الزفاف. ونذهب إلى المآتم. فنلاحظ بأنها انتهت. وننظر إلى الوراء، إلى سنوات شبابنا على اعتبارها فترة واعدة، يبدو لنا فيها ممكناً تغيير مجرى مصيرنا الشخصي بصورة جذرية. فننسى الوحشة، وألم الخسارة، وكرب النرجسية، ومصارعة الرغبة، وعذابات أجسادنا الجامحة، المتمردة، المقيتة. ونتذكر بغموض عودة الرغبة الحادة، وأشواقنا التي حررتنا من سلام الطفولة الضيق.

المحتويات

المقدمة	٣
الجزء الأول : دراسات استرجاعة: صور من المراهقة	١٣
١- المراهقة : التتفيه والتمجيد	١٥
٢- «مخترعاً» المراهقة :	٣٧
جان جاك روسو وج. ستانلي هول	
٣- ربيبة التحليل النفسي : أسطورة التلخيصيين	٦٥
٤- الحيوان الرئيس المتأخر	٨٣
فاصل بيولوجي : ماقبل البلوغ	
الجزء الثاني: معضلات وحلول	٩٥
٥- محاورات الحب I: جدل كبير للرغبة مع السلطة	٩٧
فاصل بيولوجي: طليعة البلوغ	
٦- محاورات الحب II: التفجع على الماضي	١١٥
فاصل بيولوجي: طفرة النمو	
٧- الجسر بين محاورات الحب والنرجسية :	١٤١
حب الوالد من الجنس نفسه	
٨- النرجسية I: انحراف الشبقية الذاتية	١٦٣
فاصل بيولوجي: البلوغ	
٩- النرجسية : II: الفن الشبقي وأحلام المجد	١٨٧
الجزء الثالث: دراسات تطلعية: السعي نحو الكمال	٢١٩
١٠- القهم العصابي : سعي أنثوي وراء الكمال	٢٢١
١١- المنتحل : سعي ذكوري وراء الكمال	٢٥٣
١٢- مواريث المراهقة	٢٨٣

٢٥٠٠ ط١ / ٧ / ١٩٩٨

المراهقة هي، بين مراحل العمر، أخطرها وأكثرها استعصاء على التحليل وأصعبها تربية. اذ فيها يكتشف الإنسان جسده مقابل جسد الآخر - الشابة بالنسبة للشاب والشاب بالنسبة للشابة - وبهذا يتم الانتقال من الطفولة إلى سن الرشد، ومن الوجود الفردي إلى الوجود في المجتمع. ثمة تحولات كثيرة تطرأ على الجسد، أهمها بروز الأعضاء التناسلية وما ينتج عنه من ارباكات نفسية - جسدية تبدل علاقة الشاب بأهله وبمجتمعه وعلى الخصوص بالمرأة. كما أنها تطرح عليهما (الشاب والشابة) أسئلة لا يجدان عنها جواباً قاطعاً.

السؤال المطروح باستمرار على الأهل والمربين هو كيف ننشئ المراهق والمراهقة بحيث يعيشان، كل منهما، حياة سوية منتجة؟

الأجوبة متعددة بتعدد الحضارات والانتماءات الدينية والاجتماعية والأيديولوجية وغيرها.

فما هو رأي العلم في هذا الموضوع الدقيق والخطير.

الكتاب الذي تقدمه وزارة الثقافة إلى قرائها هو خلاصة جيدة عن جواب العلم في مرحلته الراهنة. قد نخالف المؤلف في [illegible]، ولكن لا يمكننا إلا أن نعترف بدقة المعلومات العلمية التي يوفرها لك الكتاب، وبصورة خاصة فيما يخص علم النفس التحليلي.

على أية حال، فإن الكتاب يضعك في قلب الدراسات العلمية التي وفرها لنا علم النفس التحليلي. وهو لهذا غني بالإيحاءات والاقتراحات، والرأي الأخير لك.

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٨

سعر النسخة داخل القطر ٢٢٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل ٤٥٠ ل.س